المجلس الأعلى للثقافة

فكرة التقدم

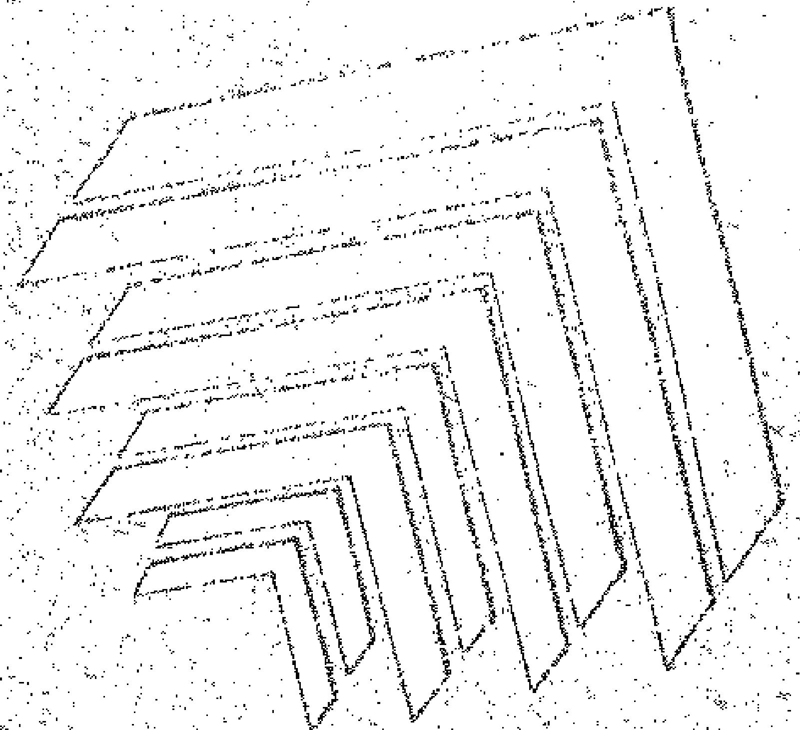

تأليف: ج . ب . بيورى

ترجمة: د. أحمد حمدى محمود

مراجعة: أحمد خاكى

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

المجلس الأعلى للثقافة

فِكرة التقدم

تأليف
ج . ب . بيورى

ترجمة
الدكتور احمد حمدى محمود

مراجعة
احمد خاكى

القاهرة
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

إهــــــداء

الى ذكرى صديقى الراحل

الأديب الكبير على ادهم ..

تمهيد *

لتشارلز بيرد

العالم شديد الخضوع للأفكار الصحيحة والزائفة على السواء . وعلى الرغم مما قاله أحد الظرفاء البريطانيين عن وجود تناسب طردى بين الأثر الذى تحدثه أية فكرة فى حياة البشر وبين درجة الخطأ الكامنة فيها ، فان أصحاب البصائر النفاذة هم وحدهم القادرون على ادراك الحد الفاصل بين الحق والباطل • وفوق كل ذلك ، فكثيرا ما تكتشف كيف تصبح الفكرة غير المتوافقة مع وقائع التاريخ حقيقية فى الحياة العملية ، أو من جانب منها فى أقل تقـدير • فمثلا عندما كتب جيفرسون : « ولد النـاس متساوين » ، لم يتعذر على نقاده الاشارة الى ما هناك من تفاوت بين الناس فى المواهب الذهنية ، والمادية ، والمرتبة الاجتماعية • ومع هذا فقد نجحت فكرة جيفرسون فى السيطرة على الروح الانسانية ، وساعدت على تحرير الأنظمة الاجتماعية ، واصبحت حقيقة ، بمعنى المساواة النظرية بين كل الرجال « والنساء » أمام القانون •

وعلى العموم ، تحتوى أية فكرة على قوة كامنة فيها ، ولا يقصـد بذلك أية دلالة غيبية • فكما قال « فوييه » : « ان المقصود هو الصورة الواعية التى تتخذها مشاعرنا ودوافعنا ، فكل فكرة لا تعنى فعلا فكريا فحسب ، ولكنها تعنى أيضا اتجاها معينا فى عالمى الاحساس والارادة • ومن هنا ، فان لكل فكرة فى حالة المجتمع ، وكذا فى حالة الفرد ، قوة تنزع بلا توقف الى تحقيق غاياتها الخاصة بها » وبعبارة أخرى ، ليست الفكرة مجرد معنى ذهنى ، ولكنها تحتوى فى ذاتها على قوة ديناميكية قادرة على أن تحرك الأفراد ، والشعوب ، وتدفعهم الى الاتجاه لتحقيق الغايات ، وخلق الأنظمة التى تساعد على ذلك • ويضع الأقوياء من الأفراد أحيانا الأفكار من اجل غايات بعيدة ، وان كانت كثيرا ما تنبع أيضا من مصادر مبهمة ، ويتعلق بها الضعفاء والتفهاء من أجل لفظة بالذات ، وينتهى بها

---

* انصح القارىء أن يرجىء قراءة هذا التمهيد الى ما بعد انتهائه من قراءة النص الأصلى للكتاب — المترجم

الأمر الى التغلب على اللامبالاة والكبت ، واتخاذ الصدارة في حقبة كاملة من الحضارة .

ورغم ما يظهر في كل هذا الكلام من معان أكاديمية قصية ، الا انه يستند الى أساس عميق . فمن المتعذر أن تقوم حكومة دستورية أو ديموقراطية ما لم يعترف باهمية الفكر . ويرتكن هذا على افتراض نشوب كل المشاحنات الاجتماعية في نطاق الاطار الذى وضعه القانون الأساسي من خلال تبادل الأفكار . فالبديل الوحيد للحكومة القائمة على الشورى هو الحكومة المعتمدة على العنف .

ولا تظهر أهمية الأفكار في مجال السياسة وحدها . فهي تتحكم في كل فرع من فروع الحياة المتحضرة ــ كالفن والأدب والاقتصاد والعادات الاجتماعية ــ وربما جاز القول ان هناك ارتباطا بين تمتع أي شعب بالحياة وبين قدرته على مزج الأفكار بأعماله وتطلعاته . ولن يكتسب الشعر أو النثر قدرته على التأثير والخلود من الشكل وحده . وكما قال مورلى : ان كل كاتب عظيم يعبر بالفكر عن حركات البشر الهائلة ، سواء بالرمز ، أو بالعمل كمرآة لها . وترتبط أفكار كل عصر في التاريخ عادة بمعنى سائد يعد مفتاحا لسائر المعاني . ويقوم المؤرخون بتقطيع قصة البشرية الى عصور تبعا لخصائصها ، أى تبعا للأفكار البارزة التى كشفت عنها الأحداث والأفعال والفلسفة . ولا شك أنهم محقون في ذلك . وهكذا أصبح لدينا عصر للطغيان وعصر للعقل وعصر للديموقراطية . ومع الاعتراف بما تحدثه هذه التقسيمات من أخطار نتيجة للمغالاة في التبسيط ، الا أن تميز عصور معينة بأفكار معينة وبنظرات خاصة للحياة ، وقيمها ، فوق كل شك . فلم يستطع الحكام ولا الفنانون ولا الكتاب الفكاك من ضغوطها .

وليس هناك من بين المعتقدات التى ذاعت بين الناس في أحوالهم العامة والخاصة زهاء مائتى السنة الأخيرة ، ما فاق « فكرة التقدم » في أهميتها ، أو احتمال ما سيحدثه من أثر في المستقبل . لقد كان قدامى الكتاب ، باستثناء أمثلة قليلة ، محصورين في دائرة مفرغة ، يظنون أن البشرية تدور في سلسلة من الأطوار أو المراحل . وشل الفكر والممارسة العملية لما اعتقد أهل العصور الوسطى أن الانسان مخلوق آثم ، شقى بالفطرة ، يتصاعد منه الشقاء كالشرر ، وأن العالم سيصل الى نهايته يوما ما ، وأن ليست الحياة على الأرض غاية في ذاتها ، ولكنها أشبه بتمهيد للجنة أو الجحيم . ولم تخطر ببال البشرية فكرة وجود مستقبل زاهر

لأبنائها الفانين ، دون حاجة الى الاشارة الى اية حياة آتية ممكنة ، الا بعد أن حررتها التجارة والمخترعات والعلوم الطبيعية من استبداد فكرة « الدورات » وأساطير المسيحية ، فتيسر لها تسخير العالم المادي لصالح الانسان والتزويد بالعوامل المساعدة على ظهور حياة طيبة على هذه الأرض • وفي الوقت المناسب ، عندما آن الأوان ، ظهرت فكرة التقدم في العالم الغربي • وسيروى الكتاب المعروض في لغة واضحة كيف غرست هذه الفكرة المثمرة ، وكيف ازدهرت •

كان مؤلف هذا الكتاب المرحوم الأستاذ جون باجيل بيرى (*) (١٨٦١ — ١٩٢٧) من جامعة كيمبردج باحثا عميقا ، ومن المتفلسفين في فكرهم • وتلزم الاشادة بكل من حياته وأعماله • كان بيرى متشددا في حرصه على دقة البحث وانتقاده للمصادر ، والاعتماد على منهج العلم في التحقق من الشخصيات والأحداث • فلم يكن الأستاذ بيرى يطيق على الاطلاق المؤرخ أو الفيلسوف الغارق في البلاغة • واستنكر في لغة لايمكن الخطأ في نسبتها اليه ما حاوله جميع أصحاب النظريات حين أرادوا أن ينتزعوا من وجدانهم تفسيرات لتطور البشرية،دون رجوع الى أنماط الواقع القاسية التي لا معدى عن أن يتألف منها جوهر التاريخ • ووصف بيرى محاولة هيجل وكراوسة للكشف عن « العنصر العقلاني في الحركة العامة للبشرية » ، بأنه اخفاق ذريع « لعدم كفاية المعرفة بالوقائع والتفاصيل في تسقيهما » • فلقد حاول الكاتبان أن يفرضا على قصة التطور الاجتماعي اطارا أو مخططا جامدا لا يناسب الحقائق • وكان من الواجب البحث عن مفتاح ما سماه هيجل بالتصميم النهائي للعالم في جوهر التجربة الانسانية المسماة بالتاريخ ، مع الاشارة دوما الى الوقائع المرتبطة بالموضوع •

على أن بيرى رغم اشادته في أبحاثه بضرورة التمسك بدقة صارمة بالوقائع التاريخية ، فانه قد عرض خاصته السامية كمفكر عندما قام بالبحث البعيد ، وعلى نطاق واسع ، عن مفاتيح تفسر العلاقات الباطنية لهذه الوقائع ومعانيها • وقال في خطاب أمام مؤتمر الفنون والعلوم في معرض سان لويس سنة ١٩٠٤ : « لا أستطيع أن أتخيل وجود أوهى أهمية نظرية لأية مجموعة من الوقائع الا اذا عنت شيئا ما للعقل ، وما لم نتمكن من تحديد علاقتها الحيوية بكل ما يجرى في الواقع » •

---

* Bury ويختلف الانجليز في نطق هذا الاسم فبعضهم يراه بيرى والآخرون ينطقونه بيورى كما ذكر في عنوان هذه الترجمة — المترجم

To: www.al-mostafa.com

ودعم هذا الرأى اعتقاده بأن التاريخ يتبع « معنى مختلفا عما يعنيه عالم الحيوان فى أعلى درجاته • فليس التاريخ مجرد استمرار لعملية التطور فى الطبيعة • فاذا لم يكن الفكر نتيجة لأحداث الطبيعة الجارية ، ولكنه المسلمة التى تعتمد عليها ، سيتبع ذلك القول بانتماء التاريخ — ويعد الفكر من علاماته المميزة وقوته الموجهة — الى نظام من الأفكار مختلف عن عالم الطبيعة ، ويتطلب تفسيرا مختلفا • وهنا تتدخل « فلسفة التاريخ » ، وتثير الكلمتان (فلسفة التاريخ) الجدل والنزاع • فهما يعنيان بحث المبادىء العقلانية التى يفترض كشف التاريخ عنها فى تياره ، بفعل تعاون عقول البشر ، وتفاعلها فى هذه الدنيا • فاذا لم تكن فلسفة التاريخ وهما ، سيعنى التاريخ الكشف عن الحقيقة الروحية فى أكمل صورها التى يمكن أن تعرض لنا فى هذه الظروف المعينة • ومن ناحية أخرى ، فيبدو ان احتمال تفسير التاريخ كحركة للعقل الذى يكشف عن طابعه فى أحوال الدنيا الافتراض الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه فى تبرير التسليم « بوجود تاريخ لذاته » • على انه من الواجب ملاحظة أن بيرى عندما قرر هذا القول ، فانه لم يتناول أسرارا علوية ، ولكنه ظل قريبا من أرض ما هو معروف ، ومن التجربة الانسانية المدونة • ومن ثم فربما تعذر اختلاف أشد العقول « حنبلية » وتمسكا بالعلم ، معه فى موقفه •

عندما قام بيرى بالبحث عن نسق للأفكار يرتب فيه الوقائع المتضاربة للتقدم الانسانى ، أدرك منذ البداية أن التاريخ كعلم لا يمكن أن يقتصر على رواية أحداث الحروب والسياسة ، بل يجب أن يمتد بحيث يغطى جوانب الحضارة كلها ، فى حركتها خلال الزمان • وذكر فى محاضرته الافتتاحية بكيمبردج : « من بين المظاهر المستحدثة فى دراسة التاريخ ، الاتساع فى النظرة الى عالمه ••• فقد تراجعت تدريجيا الفكرة الضيقة عن التاريخ السياسى (*) ، التى تمسك بهما رانكه أمام تعريف أكثر شمولا يرحب بكل البينات — مهما كانت طبيعتها — عن التقدم المادى والروحى للحضارة ، وأعمال الانسان فى المجتمع ، ابتداء من العصر الحجرى • وساعدت على ازدهار هذه النظرة الروحية الحركات القومية التى أثبتت فكرة وجود اختلاف واضح بين معنى الشعب ومعنى الدولة ••• أما ما أكد انتصارها النهائى فكان تطبيق مبدأ التقدم و « المنهج التاريخى » على كل مظاهر النشاط

(*) Statengeschichte.

الانساني ـ كالأنظمة الاجتماعية والقانونية والتجارة والصناعة والفنون التشكيلية والدين والفلسفة والفولكلور والأدب .

« هكذا اكتسب التاريخ معنى أضخم وأكثر شمولا ، بالاضافة الى استبصار أعمق للتفاعل والتأثير المتبادل المستمر بين المظاهر المختلفة للعقول والمشاعر البشرية . لا يمكن بالطبع أن نغفل تقسيم ميدان البحث الموجود بالفعل ، فمن المستطاع ، بل ويجب تناول التاريخ (السياسي) وتواريخ مختلف جوانب الحضارة ، كل على حدة . على أن هناك اختلافا حيويا يحدث اذا استطعنا الشعور بما في هذا الترابط من حياة ، واذا قضينا على انعزال أي جزء ، وأمكننا خلق صلة وثيقة بين العلوم التاريخية ، ووضعنا اطارا كمثال للتاريخ الصحيح للشعب ، أو التاريخ الصحيح للعالم ، تنطوي تحته كل صورة من صور الحياة الاجتماعية ، وكل مظهر من مظاهر التطور الفكري من ناحية علاقتها بباقي الصور والمظاهر ، من حيث أهميتها للنهوض أو التدهور . ولن يقلل من نفع هذا المثال افتقاره الى الدعامة العملية » .

فهل يستطاع حل معضلة العالم اعتمادا على هذه الطريقة ؟ وهل يستطاع استخلاص أية نتيجة لا يتطرق اليها الشك عن هذا النسق الجامع بعد انتزاعه من الوقائع المتعددة الملموسة ؟ . ولما كان بيرى قد اتسم في زمانه وبين أبناء جيله بالحكمة فانه بدأ بالتعرف على كتابات عظماء المفكرين والمؤرخين في ميدانه كهيجل ورانكه وماركس ولامبرخت. ودفعه الحذر في الجهر بمعتقداته الى تجنب أية لهجة متعالية ، وان كان قد أقدم في جسارة على المجاهرة بالظن الآتي ذكره .

فبعد أن أمضى عدة سنوات في دراسة أضخم ما تركت البشرية من بينات انتهى الى الاعتقاد بوجود اكتشافين عظيمين في تاريخ الفكر ، لهما أهمية للناحية التي عكف على القيام بها : الاكتشاف الأول لشاعر يوناني .

« لعله لا وجود لفقرة في مؤلفات كتاب المأساة اليونانيين حافلة بالمعاني لدارسي التاريخ كتلك الأنشودة التي ترنمت بها أنتيجون لسوفوكليس ، وفيها نشعر بالدهشة من أول تأملات للانسان عندما يتخيل في ومضة مباغتة مذهلة كم يبدو غريبا أن يكون على صورته التي هو فيها ، وأن يكون قد صنع ما صنع ، بحيث تمكن من أن يخلق ـ فيما خلقه ـ المدينة الدولة .. وربما أمكن القول انه قد أفاق على حين غرة واستطاع أن يدرك أنه هو ذاته أعجوبة العالم (*) » .

(*) ص ٧٤ من كتاب مارفين : الماضي الحي

وهكذا تسنى للانسان فى القرن الخامس السابق للميلاد أن يدرك ذاته كقوة قادرة على فعل العجب فى العالم • فلقد أمكنه أن يسيطر على دواب الأرض وطيور الهواء ، ويتحكم فى الريح فى البحر ، ويذلل الأرض المترامية الأطراف •

واهتدى الى مرحلة عظمى أخرى من التطور الانسانى عندما أصبحت البشرية على وعى بما يستطاع تحقيقه مما لم يتحقق بعد ، أى عندما سطعت فكرة التقدم وانقضّت على فكرة الدائرة المفرغة ، أو القناعة بالسكون والثبات • واهتدى بيرى الى هذه الفكرة أحيانا خلال أبحاثه المستفيضة فى الحضارتين القديمة والحديثة ، وبدأ يطبقها عند متابعته لدراساته • ويتعذر علينا اعتمادا على المعرفة الصحيحة الميسورة لنا الآن عن حياته الخاصة معرفة متى اهتدى الى هذه الأداة الفكرية ، ولكن يبدو ان الخطوط الأساسية الأولى لفكرته الأولى قد جالت بخاطره فى الوقت الذى بلغ فيه منتصف حياته • وعلى كل حال يستطاع القول ان الفكرة كانت فى سنة ١٩٢٠ من المكونات الأساسية لتكوينه الفكرى ، قبل اصداره الكتاب الذى يعاد طبعه الآن •

ويمكن العثور على تعزيز لهذا التفسير فى الخطاب الافتتاحى الذى ألقاه بيرى عند رجوعه لتولى أستاذية التاريخ فى كيمبردج سنة ١٩٠٢، أى قبل كتابة بحثه عن فكرة التقدم بأمد طويل • فلقد قال فى هذه المناسبة كلمات لا يمكن الشك فى صحتها : « يتعذر على كل من رجل الدولة والمواطن على السواء تكوين فكرة صحيحة عن تأثير التاريخ فى الأحداث ، أو تحديد هذا الأثر ، قبل أن يدرك فكرة تقدم البشرية • فقد كانت هذه الفكرة نقطة تحول كبرى يسرت للتاريخ تحديد نظرته ••• لم يتهيأ العالم بعد لادراك الأهمية الكاملة للتحول الذى يجرى فى التاريخ (كجانب من تحول على نطاق واسع) والذى أحدثته فكرة النمو والارتقاء • ويتعذر دائما على أولئك الذين يحيون فى قرابة مباشرة ادراك الخطوات الحاسمة فى التقدم الفكرى أو الروحى عندما تكون هذه الخطوات بطيئة تدريجية ، وان كنا لن نتردد فى القول بأن القرن الأخير (القرن التاسع عشر) يتساوى فى أهميته وبعد القرن الخامس ق•م ، من حيث ما فيه من بينات تستحق الدراسة التاريخية ، كما يعد مثله مرحلة فى نمو وعى الانسان بذاته • وبعبارة أخرى ، يستطاع العثور على مفتاح لسر التاريخ فى فكرة الرقى أو التقدم • ولو صح هذا سيكون هذا الكشف بلا مراء من أهم الكشوف التى اهتدى اليها العقل الانسانى ، فهو يجر فى ذيوله آثارا للبشرية تكاد تتجاوز الخيال » •

وبعد أن جعل بيرى فكرة التقدم محورا لتصوره للتاريخ ، استطاع بطبيعة الحال أن يدرك على التو أهميـة التطور العضـوى فى الداروينية كدعامة لافتراضه . وكشف عن أهميتها فى مقال نشر سنة ١٩٠٩ بعنوان : « الداروينية والتاريخ » وبفضل ما اكتملت له معرفته باتجاه الكتابة التاريخية والفكر التاريخي من هيرودوت الى لامبرخت ، أدرك بيرى على الفور ما هناك من توافق بين ما حدث فى العلم الطبيعى وأدى الى ظهور فكرة التطور العضـوى ، وما يجرى فى صـورة مشابهة فى الكتابة التاريخية ، وقال : « سيطر على ازدهار الدراسة التاريخية فى القرن التاسع عشر ، وطبعها بطابع مميز نفس المبدأ العام الكامن وراء التقدم المعـاصر لها فى دراسـات الطبيعة ، يعنى فكرة الوراثة » . اذ ينتمى الى نفس النهج الفكرى كل من « النظرة التاريخية » للطبيعة التى أخرجت تاريخ النظام الشمسى وقصة الأرض ، وما بين الكائنات الناشئة على الأرض من وشائج وقرابة ــ والتى أحدثت ثورة فى العلوم الطبيعية ، والاعتقاد بأن التاريخ الانسانى متصل ومتطور ومترابط علميا ــ وكذلك ينتمى الى نفس المنهج الفكرى ــ الاعتقاد الذى أحدث ثورة فى البحث التاريخى وجعله علميا ... وتبين كل الأفكار كمبدأ الوراثة والتقـدم باطراد والقوانين العامة وأهمية الزمان وفكرة المجتمع كحشـد مترابط عضويا ، والنظرية الميتافيزيقية للتاريـخ كتطور ذاتى للروح ــ كيف حدث تقدم مستقل للبحث التاريخى تبعا لخطوط متوازية نوعا مع علوم الطبيعـة » .

وعززت الداروينية نظريات التقدم الانسانى التى كان المؤرخون قد نهضوا بها بالفعل : « لقـد وضعت الفكرة السائدة القـائلة بأن الانسان قد خلق بلا مقدمات التاريخ فى موضع منعزل منفصل عن علوم الطبيعة . واقترب الآن ــ الانثربولوجى الذى يتناول الانسان فى جانبه الحيوانى (الانثربوس) مع علم الحيوان ، وخلق اتصالا بينه وبين التاريخ اعتمادا على القول بأن أحـوال الانسان فى الحاضر نتيجـة لسلسلة من التحولات التى ترتد الى أبعد أطوار المجتمع بدائية ، التى تعد البداية المثلى للتاريخ (ويتعذر بلوغها) . على ان هذه البداية قد انبعثت فى تيـار غير متقطع ، من حركة ارتقاء تردنا الى أصل رباعى ، يرتد أيضـا الى ما هو أبعد من ذلك (تبعا لظن داروين) الى حيوان بحرى من النوع الـ Ascidian (*) . ثم الى أدنى صورة للكائن العضوى .... وساعدت

★ حيوان بحرى يشبه القربة ويعيش ملتصقا بالصخور

هذه الفكرة عن حدوث تقدم متواصل فى تطور الحياة ، والتى تمخضت عن ظهـور الانتروبوس غير المتحضر على تدعيم وزيادة الاعتقـاد بأن تاريخ الانتروبوس المتحضر ذاته قد جـاء نتيجـة لتطـور متواصل مستمر » .

لم يحاول بيرى بعد تمعنه فى الداروينية تطبيق الشروح التى ذكرت عن التطور العضوى على تاريخ الحضارة ، بسذاجة وبلا تبصر . وأدرك أن بوسع المؤرخين الاستعانة بالنظريات الداروينية ـ كالتكيف بالبيئة ، والصراع للبقاء والانتقاء الطبيعى والبقاء للأصلح ... الخ ـ فى تفسـير أطوار معينـة من التقـدم البشرى ، ولكنه لم يعتقد بامكان الاعتماد على هذه الأفكار فى زيادة قدرتنا على فهم تطور البشرية ، والحق انه أضاف تنبيها الى هذه النقطة بالذات : « ربما أمكن القول فيما يتعلق بأفعال وحركات الناس الذين يدور حولهم التاريخ المدون ، بأن البيئة الطبيعية لم تعد تؤثر فى حالتهم تأثيرا آليا ، فلابد أن يسبق التأثير على أفعالهم حدوث تأثير على ارادتهم . وحدث تغير جوهرى فى المشكلة بتأثير وجود هذا الطابع النفسى فى العلاقات العلية . ولعل القول يصح بأن تقدم المجتمعات البشرية قد اكتسب طابعا جديدا من سيطرة العنصر النفسى الواعى الذى خلق أحـوالا جـديدة (مخترعات وأنظمـة اجتماعية ... الخ) وحد من فاعلية الانتقاء الطبيعى وقام بدور مناهض له . وسيطر على تأثير البيئة الطبيعية وحـور تأثيرها . ويجمع معظم المفكرين الآن على وجوب البحث عن المفاتيح الأساسية لارتقاء الحضـارة فى عالم السيكولوجية » .

واعتمد بيرى على العلم الطبيعى أيضـا فى استحداث فكرة أخرى عادت بأثر عميق على تصوره لتطـور البشرية ـ فكرة المستقبل البعيد الذى ما زال فى انتظارنا ، وقال : « عرفنا العلم ـ مع التجاوز عن الكوارث المحتملة التى لا يمكن التنبؤ بها ـ أن الانسان سيحيا عشرات الآلاف من السنين على هـذا الكوكب فى ظروف لن تتسبب فى تعويق قدراته أو تعطيل طاقاته ، أى زمنا لا يزيد التاريخ المدون (ستة آلاف أو سبعة آلاف سنة) عن لقفة صغيرة منه » .

تطلع بيرى دائما الى الزمان الآتى ، بخلاف معظم المؤرخين الذين حرصوا على الاكتفاء بالنظر الى الماضى : « لو اننا ـ استطعنا أن ندرك ـ وحدة التـاريخ فى أسمى معانيها ، فلن نستطيع أن نغفل دور سحب المستقبل المجهول القابعة أمامنا كأنها ستائر مظلمة من الغمام ، وكل

اللحظات المتقهقرة بما فيها من محتويات يتعذر لمحها من تغيرات واسعة النطاق وثورات وتحولات صامتة ، وأفكار لم يسبق الجهر بها وأديان جديدة • فمع الاعتراف بعجزنا عن حدس كيفية تطور الأشياء عبر الزمان اللامحدد ، وبأننا غير قادرين على النظر بعيدا بأعين :

قادرة على التنبـــؤ

بما في جعبة هذا العالم الرحيب

الا أن المستقبل الخفي له حق المطالبة بالشعور به كفكرة تتحكم في نظراتنا • فهو يستحثنا على عدم النظر الى ما تسميه بالتاريخين القديم والوسيط كمجرد مقدمات للعصر الحديث والقرن العشرين ، ويدعونا الى النظـر الى كل الأحـــداث حتى اللحظـــة الحاضرة كأشـياء لا تزيد ـ فيما يحتمل ـ عن بداية لتقدم اجتماعي نفسي تقع غايته على بعد آلاف لا حصر لها من السنين من انظارنا • ان كل أحقاب الماضي لا تزيد عن بعض قطر قليلة في موكب لا تعرف نهايته ، ويحتمل أن تكون اقل ما في هذا الموكب اثارة للعجب •

وبالرغم من أن بيرى قد أحسن الاستفادة من تأثير ناحية واحدة من نواحي العــلم الطبيعي ـ تلك التي تمثلت في الداروينية ـ عــلى فكرة التقدم كمفتاح للتاريخ ، الا أنه لم يمن في تفسيراته الفلسفية بالدلالة الكامنة في فـرع آخر كالعلم التطبيقي ، وان كانت التكنولوجيـة هي الدعامة الأساسية للحضارة الحديثة • فهي التي زودتها بقوة حركية ذات قوة دافعة حاسمة ، وبينت السبل التي سيعتمد عليها الغزو التقدمي للطبيعة • لم يوجـه المؤرخون والمفكرون والباحثـون الاجتماعيون من المدققين في آفاق المستقبل أكثر من قدر ضئيل من الاهتمام بالتقنيـة رغم أهميتها ، بل ربما نظروا اليها نظـرة سطحية • وأغفل التقنيون بتأثير انهماكهم في مهامهم العملية المظاهر الفلسفية لعملهم ، فهم يدونون كشوفهم عادة بلغة الفيزيقا والميكانيكا (كيلوات/ساعة ، وعدد الأميال المقطوعة ، والسلع المنتجـة) وقلما لمسـوا آثار منجزاتهم على البشرية ومشـكلات التوافق الاجتمـاعي المترتبة على أعـــمالهم ، والاحتمالات المتـوقعة (*) •• ولكن ليس بين أفكارهم ما يناسب فكرة التقـــدم ،

★ انظر الى مجموعة المقالات نحو الحضارة Towards Civilization. (اشرف على تأليفها كاتب المقدمة بيرد) ووضعها لفيف من التابعين • ففيها بيان عن النظرة التقنية للعالم الحديث •

ولا ما يفسر ما حدث خلال المائتي السنة الماضية ، ولا ما يجرى فى العالم ، ما هو أكثر اتصالا بها ، أى من التقنية .

وبطبيعة الحال ، يستطاع اكتشاف الآثار المباشرة لما يدعى « بالثورة الصناعية » فى كثير من المؤلفات التى كتبها مؤرخو الاقتصاد — على سبيل المثال عند كلامهم عن آثار استعمال وسائل النقل والاتصال السريعة وتقدم نظم المصانع وما تستخدمه من أعداد وفيرة من البشر وتقسيم العمل وارتفاع النظام الرأسمالى فوق انقاض الاقطاع . وان كانت مثل هذه الأبحاث تعانى عادة من قصورين . فهى لا تتبع للنهاية الآثار المتشعبة الدقيقة لتاثير التقنية على عالم الحضارة بما فى ذلك الشعر والفن . وهى عادة تنظر الى الثورة الصناعية كحقيقة مكتملة . والحق ان كلمة « ثورة » ذاتها تبدو مضللة فى هذا المقام . فهى تدل على انقلاب نظام ، وحلول آخر مكانه . ومثل هذه التشبيهات لا تصلح فى هذا المقام . فقد تقوم طبقة الفلاحين بقلب الملاك وحرق القلاع واقامة ديموقراطية زراعية ، ولكن الثورة التى أحدثتها التقنولوجية فى الاقتصاد السابق لعصر الآلة لم تكن من هذا القبيل . نعم لقد سهلت قهر البورجوازيين للملاك الأرستقراطيين ، ولكن هذا الحادث كان مجرد حادث عابر ، ولم يكن الهدف أو غاية ما سمت اليه . والأصح ان هذا كان بداية لتطور غير محدود المدى غير مقيد بأى امتداد زمنى . فبعد مائة سنة مما يدعى « بالثورة الصناعية » ، اتضح ان التقنية لم تخط أكثر من خطوات قليلة فى بداية نهضتها . ومنذ ذلك الحين ، استطاعت القضاء على الكثير من الآثار التى أحدثتها الآلة البخارية الفجة ، وبدأت « ثورة » أخرى اعتمدت على آلة الاحتراق الداخلى والدينامو ، ومن ثم فعندما نتناول آثار التقنية على التطور الاجتماعى ، فاننا لا نكون حيال شىء مكتمل وحسب ، وانما نحن أيضا حيال أسلوب سريع التقدم فى السيطرة على الأشياء المادية .

ما هى اذن التقنولوجية التى تعد أسمى أداة للتقدم الحديث ؟ فبرغم التحرر فى استعمال اللفظة فى الكتابات السائرة ، الا أن معناها « بالفعل » و « بالقوة » — كما يقول الفلاسفة — لم يتم اكتشافه أو تحديده على الإطلاق . وليس من شك فى تشعب التقنية على نطاق واسع ، مما جعل مهمة تعريفها شاقة خطرة . والتقنية فى أضيق نظرة اليها تتألف من جملة المعامل والآلات القائمة والعمليات المتقدمة بالفعل ، والتى تمت الاحاطة بها والتى ما زالت سائرة فى طريقها ، وان كانت هذه الحقائق أكثر من مجرد حقائق موضوعية .

ثمة اتصال وثيق بين التقنولوجية في أصلها وطريقة عملها ، وبين العلم البحت حتى في أبعد تأملاته الرياضية • فللتقنولوجية فلسفة فى الطبيعة ، ولها منهج • ويقصد بذلك اتجاها الى المواد والعمل ، ومن هنا فانها تمد من القوى ذات الشخصية البعيدة الأثر فى ضغوطها وتوتراتها، فهى تضم فى عالمها مجموعات كبيرة من الأفكار بعضها قد كشف عنه وعرفت حدوده واضحة ، والبعض الأخر ما زال فى صورة مشكلات مطروحة ، لم تدرك النتائج المنبعثة منها ، الا فهما واهنا • وعلى الرغم من وجود ارتباط تاريخى بين التقنولوجية ونوع الاقتصاد المعروف بوجه عام عن الرأسمالية الغربية ، الا أنها قد استطاعت اعتمادا على طبيعتها الكامنة التسامى على كل الأشكال الاجتماعية وكل ميراث الأنظمة والعادات المكتسبة • فهى تخدم بلا تحيز « الساموراى اليابانى » والأمريكان من رجال الصناعة وروسيا السوفيتية ، فيفصل عالمية غايتها ، لن تستطيع احتكارها أمة او طبقة ، او عصر أو حكومة او شعب• وبوصفها أداة للعمل قد شغلت طاقات البشر فى صورة فاقت فى كثير الحرب وبهرجها ، وبوصفها قادرة على اذابة الفوارق الاجتماعية واعادة ضبطها ، وكفلسفة عملية ، لابد من وضعها فى التيار الأساسى للتاريخ لو أريد الكشف الصحيح عن اتجاهه ، والنفاذ على أى نحو « فى ظلمات المستقبل القريب المجهول » •

ان ما يجعل التقنولوجية ذات أهمية لفكرة التقدم هو طابعها الدينامى هذا • ففكرة التقدم تزعم أن البشرية تقدمت فى خطى وئيدة من مرحلة فجة من الحضارة البدائية • أما التقنولوجية فتثبت ما الذى يستطاع انجازه بعرضها لمنجزاتها وطرائقها الفعالة • فلقد تحقق بالفعل ما كان بالأمس أملا يرتجى ، وظهر امكان التغلب على ما كان يبدو مستحيلا ، وحطمت براءات الاختراع النظرية العتيقة القائلة بدوران البشرية فى دائرة مفرغة ، واكتسحت الأحداث الفكرة الوسيطة عن وجود مجتمع ساكن مرغم على الخضوع لرقابة التجربة والممارسة •

ولكن هل تتعرض دفعة التقنولوجية للفشل ؟ لقد ذكر بيرى أن « فكرة التقدم » قد ينقضى عهدها ، وتحل محلها فلسفة أخرى للتاريخ والحياة • على ان هناك ناحية عميقة فى جوهر التقنولوجية تجعلها تبدو وكأنها تبشر باستمرار فاعليتها الى أجل غير محدود • فأولا ليس هناك ما هو نهائى بالنسبة لها • فيكاد حل أية مشكلة فى التقنولوجية يفتح الباب دائما أمام مشكلات جديدة تحتاج للكشف • ويجىء العمل فى أى تخصص بنتائج تفيد غيره من التخصصات العلمية • فيهز اى اكتشاف

فى الكيمياء مثلا بعض النواحى الواهنة فى الفيزياء • ثم هنــاك سعى البشر الحسامى -فى طلب الراحة البـدنية والطمانينة والصحة ورغد العيش ، فهو وراء أدوات الكشف التقنولوجى • ثم ستظل التقنولوجية فى فاعليتها وحركتها الدائبة حتى يجىء يوم يفضل فيه الناس الجوع على الوفرة ، والمرض على الصحة ! وعلى أية حال ، ان وراءها تطلع الانسان الذى لا يرتوى والذى يدفعه الى التنقيب فى السماء بتليسكوباته، والغوص فى أعماق البحار واكتشاف عوالم الذرة • فلابد من أن يموت حب الاستطلاع فى طبيعة البشر قبل أن تصاب التقنولوجية بالركود ويقف تقدم العلم والصناعة •

ومن ناحية أخرى ، ترتبط التقنولوجية بتفسير التاريخ الذى يتبع فى صيغته فكرة التقـدم ، عنـدما تحرص عنـد كشفها القوانين الطبيعية ، على اثبات دور الكتل والعلاقات المتبادلة بين الأعداد الوفيرة من الجسيمات مما يؤدى الى التجاوز عن اللوازم الظاهرة لفرديات الأجزاء ، والاكتفاء بالأنماط المتوسطة والقوانين العامة • والأمر بالمثل فيما يتعلق بالتاريخ •

فى المجتمعات البشرية المعتمدة على الحرب والسياسة ، قد تكون زعامة أية شخصية منفردة مهيمنة ضرورة لاحراز الانتصار أو دمار هذه المجتمعات • وفى هذه الحالات تكون « المصادفة » هى التى تتحكم • ولما لاحظ كتاب معينون هذه الظاهرة ، جعلوا تفسيراتهم تحوم حول نظرية « الرجل العظيم » ، التى لا يحسب فيها للشعب حساب ، ولا يزيد دور ابنائه عن دور أصغر حجارة فى لعبة الشطرنج • وينزل الله أو المصادفة والبخت من حين لآخر بينهم ابطالا لهدايتهم وانقاذهم أو ربما أوقعهم فى حروب يفنون فيها بالملايين •

وفى المجتمعات المعتمدة على التقنولوجية يتراجع دور رجل الحرب والكاهن والزعيم السياسى الى الوراء ، أو على أقل تقدير فان أيا منهم لن يستطيع القيام بدوره الا اذا راعى الحقائق الاقتصادية التى استحدثتها الآلة • وهكذا عززت التقنولوجية دور المجتمع فى التـــاريخ بوصفه متمايزا عن دور الفرد • وعلى التاريخ من الآن فصاعدا أن يعنى بدور جموع الشعب المنظمة فى جماعات والمحكومة بقوانين موضوعة لأنماط الأوساط • ومن ثم أصبحت القايبس الثابتة التى اثبتت نجاحها فى التقنولوجية ممكنة التطبيق عند تتبع الحركات التاريخية •

قبل القرن التاسع عشر ، كان المؤرخون بسبب سح الوثائق الذى عرف حينئذ ، مضطرين الى الاستفادة بقدر ضئيل من طريقة الاحصاء فى الكشف عن العصور الباكرة • أما الآن فستساعد المقادير الهائلة من المعلومات الصحيحة التى يعنى بتجميعها الافراد والهيئات العامة مؤرخ المستقبل على الاستخلاص الراسخ لاتجاه التقدم الاجتماعى • فمثلا فى حالة السؤال عن حدوث تقدم فى الصحة العامة ؟ • لقد أثبتت معلومات لا تقبل النزاع حدوث تضاؤل فى معدل الموت فى مناطق معينة • وسوف يتيسر فى سنة ٢٠٠٠ الاجابة عن عدة أسئلة أساسية ، لا يستطاع اليوم الاجابة عنها الا بالتخمين • ولو صح أن هناك تقدما ، فانه سيكون تقدما جماعيا ، يقاس فى أنماط الأوساط ، ويعرض بالرسوم البيانية •

يلوح من المعقول أن نزعم أيضا أن التقنولوجية قد أحدثت آثارا اجتماعية اخرى ستجعل التكرار الدقيق لما حدث فى الماضى أمرا مستحيلا • فلقد ساعدت الصحافة والاذاعة والسكك الحديدية والخدمات البريدية والمنظمات التعليمية العديدة على القضاء على الأمية وتوزيع المعلومات وتوسيع الوعى الاجتماعى عند جموع الشعب • وربما تعطل هذا الاتجاه هنا وهناك ومن حين لآخر بتدخل أنظمة الرقابة والطغيان ، وان كان القضاء على الجهل الجماعى سيسير قدما الى الأمام بخطى واسعة• وهكذا سيصبح من المحال تصور رجوع قاعدة من الجهل الجماعى كتلك التى اعتمدت عليها أرستقراطية ملاك الرقيق فى روما ، والنظام الكهنوتى الاقطاعى فى العصور الوسيطة ، وفقا لهذا الافتراض الموثوق به ، لن يتوقع عودة ظهور ما جرى فى الماضى السحيق ، مهما حدث مستقبلا • وعلى ضوء هذا لن تصبح عملية الحضارة دورات تدور على أعقابها على غرار سيسفيان فى الأساطير القديمة • واذا نظر الى التاريخ نظرة واسعة سيتضح أنه يكشف عن فجوة عميقة بين الهمجية البدائية التى بدأت منها البشرية وبين الأنظمة الاجتماعية الحديثة فى أفضل أحوالها•ويمكن أن نقول هذا دون أن نغفل جوانب المأساة والقسوة التى اتسم بها الطريق ، فى بداياته • وسوف تساعد التقنولوجية بكشفها المتواصل عن الامكانات بكل تأكيد على تعزيز فكرة التقدم الى أن يتم الاهتداء الى نقرة جديدة قد تؤدى بقدر كبير الى تحرير الخطوة الخاطئة الموروثة عن الماضى •

ولكن وبعد أن قيل كل هذا ، هل يصح القول بان فكرة التقدم تتمتع بنفس صحة أى قانون طبيعى كقانون الجاذبية على سبيل المثال ؟ هل هى نتيجة مستخلصة من وقائع التاريخ تفرض نفسها علينا كاشياء

لا مندوحة منها ؟ لابد من الاجابة عن ذلك بالسلب ، فلم يكن بيرى متزمتا في هذا المقام ، وكما لاحظ المستر هارولد تمبرلى في « المقالات المختارة » التى جمعها لبيرى : « ان فكرة التقدم فكرة نافعة ، ولكنها ليست بالعلمية او المماثلة للتصورات الداروينية . صحيح أن بيرى قد تحدث عن الدرجات التي لا حصر لها التى يتحتم على الانسان صعودها فى المستقبل، ولعله اعتقد أن الحركة صاعدة ، ولكن ايمانه بالمستقبل كان أقرب الى الأمل منه الى الاقتناع . وحتى لو كان قد شعر بأى اقتناع بهذه الفكرة ، فانه ما كان ليقدم على القول بامكان الدفاع عنها من الناحية العلمية » .

وفى صفحات تالية ، عمد الى توضيح هذا القول : « ينبغى أن نتذكر أن التطور فى ذاته لا يعنى بالضرورة — فى حالة تطبيقه على المجتمع — حركة الانسان تجاه خير مستحب . فالفكرة فكرة علمية محايدة ، تقبل التفاؤل والتشاؤم على السواء . فهى قد تظهر وفقا لتقديرين مختلفين ، اما حكما قاسيا ، واما وثوقا من حدوث تحسن متزايد . ولقد فسرت على كلا النحوين بالفعل » . وجاء تذييله للكتاب كله تحذيرا ضد وهم الاعتقاد في « النهائية » . فالكلمة الأخيرة لم يتم الجهر بها بعد . ففى السيل الطويل من العصور ، تعاقبت الافكار ، الواحدة تلو الأخرى ، واستحوذت على مشاعر الجموع حينا ، وتحولت الى ذكرى . وافسحت المجال لتصورات مستحدثة عن السر الأعظم « التصميم البعيد للكون » .

ومع هذا لو صح القول بعدم امكان الاعتماد على « فكرة التقدم » كفكرة ممثلة للتفسير العلمى الخالص للتاريخ ، فان هذا لا يستلزم رفضها كمبدأ يهتدى به رجال الحكم وزعماء الاقتصاد . أن الكثير من النظريات التاريخية التى نسقها الباحثون الناقدون الآن قد أحدثت اثرا قويا خلال التاريخ . فكل شعب يستمد الهامه واتجاهه من الصورة التى يتمثلها لماضيه . ولعله يستطاع القول بأن كل شذرة من الكتابة التاريخية الكبرى قد خضعت جزئيا على أقل تقدير لتصور كاتبها للحاضر والمستقبل . فلو ظهر أن الماضى عند تفسيره لم يعد كافيا لهذه الغاية ، ربما أمكن اعادة كتابته بطريقة تمكن من الاعتماد عليه فى تشكيل العصور الآتية . وهذا صحيح رغم ما يبدو فيه من غرابة . فعلى سبيل المثال ، بحث مؤسسو الحركة الرومانتيكية الجرمانية التى اتسمت بعنفوانها في القرن التاسع عشر فى ماضى تاريخ بلدهم عن ركائز يمكن الاتكاء عليها لصنع مستقبل افضل . واسهم فى صناعة المانيا الحديثة بعض المفكرين بقدر أعظم من ترايتشكه الذى اعتمد على التاريخ كاسمى

اداة فى التفسير والتنبؤ • واستندت كل خطوة فى سبيل توسيع نطاق الديموقراطية فى انجلترا ابتداء من القرن السادس عشر على مبررات من التقاليد الأسطورية الى حد ما • وساعدت هذه الخطوة الوجدانية والشديدة التباين مع الاستدلالات العقلية التى ارتكنت اليها الثورة الفرنسية على استمرار التقدم الانجليزى وعلى احداث دفعة الى الأمام، لن يستطيع التاريخ العلمى تبريرها بأى مبرر واقعى • وعلى هذا يستطاع التجاسر على القول بان فكرة التقدم رغم عدم اعتبارها نتيجة راسخة منتزعة من التاريخ الحق ، الا انه من الجائز القول بانها قادرة بالفعل على صنع التاريخ ، وذلك اذا نظر اليها كايمان بالممكنات •

ومع هذا فينبغى عدم التغاضى عما بين فكرة التقدم وكل الأفكار المستحوذة فى الماضى من اختلاف • فهى تحتوى فى طياتها على جرثومة التضخم بلا حد ، وتفتح المجال أمام تصورات أخرى فى نطاق مجال امتدادها البعيد • فهى بوصفها فلسفة للتغير قادرة على احداث التغير • وعلى الرغم من امكان استبعادها من قاموس البشر ، الا انه من المستطاع استمرار استعمالها عند الكلام عن الواقع • فلو ان الكنيسة الكاثوليكية التى حاسبت جاليليو استطاعت توسيع افقها وقبلت ما رفضته بالأمس، لظهر بكل تأكيد تصور للتاريخ لا يختلف فى عالميته وشموله عن فكرة التقدم ، ولا يضطر بتأثير سير الأحداث الى استبعاده • ففى حالة أى تناول واسع للوقائع والممكنات المعروفة ، لا يمكن لمثل هذه الفكرة أن تختفى اختفاء كاملا من الفكر الانسانى • ولما كان الرجوع الى الاعتقاد فى وجود مجتمع انسانى كامل السكون أمرا مستحيلا — فيما يبدو — كأى شيء آخر تحت الشمس ، ولما كانت الدينامية نقيضا للسكون ، لذا يبدو أن القيمة الباقية لفكرة التقدم كسبيل للفكر ، أمر راسخ لا يقبل المجادلة ، اللهم الا اذا حدث تمزق مباغت فى التسلسل التاريخى الذى يربط بين العصور بفضل تدخل عجيب خارج عن كل ما عرفته البشرية من خبراتها السابقة •

كان بيرى على دراية أيضا بوجود العديد من المسائل الشائكة الأخرى المتشابكة مع فكرة التقدم • فهو لم يكن من المتفائلين المتهللين أصحاب الاستعداد للتصفيق لكل نتيجة احصائية تحتوى على دلائل زيادة فى أكوام السلع واكداسها ، أو كل تغير فى الأنظمة الموروثة عن الماضى ، أو حركة للسكان على ظهر البسيطة ، ولم يخضع اطلاقا للميل الغربى الى الاعتماد على المعايير الموضوعية عند قياس كل شيء ، ورأى بوضوح وجوب جعل فكرة التقدم أكثر من عرض رياضى قائر لتيار

التاريخ كوقائع • وقال في مقاله عن « الداروينية والتاريخ » باصرار وتأكيد : « يتضمن التقدم حكما مبنيا على القيمة الأخلاقية ليس متضمنا في التاريخ كمسألة أحداث معتمدة على التغير ، كما أن الفكرة متباينة مع فكرة التطور » •

وفقا لذلك يتحتم وجود عنصر اخلاقي كامن في فكرة التقدم • فهي تتضمن القول بجريان التاريخ على الجملة في الاتجاه المرغوب • ويعني هذا على الفور اقتحامنا عالم الأخلاق • فلابد في هذه الحالة من تحديد نقطة اشارة مرور أو علامة طريق ثابتة تساعد على تحديد هل كانت حركة التاريخ في الاتجاه المرغوب ، وما هي سبل الاختيار التي يستطاع اتباعها في الحاضر النابض بالحياة لزيادة سرعة السير نحو الخير • وبعبارة أخرى ، لابد من غرس بعض معايير في تيار الأحداث الجارية تقوم بدور دليل يحدد الاتجاهات • فمن يركب باخرة لن يستطيع بمجرد النظر الى سطح المركب تقرير اتجاهه ، وهل هو الشرق أم الغرب • فعليه أن ينظر الى الشمس أو النجوم •

وعلى الرغم من أن بيرى لم يخض غمار ما ثار من نقاش حول الأخلاقيات المطلقة أو النسبية ، فان من يحاولون اصدار حكم على كتابه مضطرون الى البت في نقط الخلاف المتضمنة فيه (*) • فهم من ناحية سيواجهون مفكرين من أصحاب الاعتقاد « بوجود قيم أخلاقية ذات مكانة موضوعية مستقلة عن كل المعارف أو المشاعر الانسانية أو عن وجود كائنات انسانية تتصف بهذه الصفات » • وتبعا لهذه النظرة ، تكون للقيم الأخلاقية نفس المكانة الفلسفية التي تتمتع بها الحقائق الرياضية والمنطقية • فعلى سبيل المثال ستظل دائما من الأحكام الصحيحة أية أقوال كالآتية : « ان أي انتهاك للأمانة منفر » وكذلك « التطفل على نكبات الغير مثير للتقزز » • فبينها وبين القول بان حاصل جمع ٢ و ٢ هو ٤ أوجه قرابة • ومن ناحية أخرى ، هناك النظرة الأخلاقية ، الخاضعة للنزعة الطبيعية التي ترمي الى احداث موازنة أو توافق عقلاني بين المصالح الخاصة والظروف الخارجية » •

وتعترض المذهبين مصاعب جمة يصعب التغلب عليها ، ويسوقنا الخوض فيها الى شطحات بعيدة

(*) انظر مقال سيدني هوك

A Critique of Ethical Realism — The International Journal of Ethics. (عدد يناير سنة ١٩٣٠) •

وبالنسبة للحاضر ، يكفي القول بأنه لا يصح النظر الى فكرة التقدم في ذاتها « كقانون للتطور الاجتماعي » ، أو كتفسير محتوم للتطور التاريخي . ومع التسليم بأنه لا مناص من الاعتراف بحدوث تحسن هائل من جملة نواح في أحوال البشر في جملتها منذ أيام البدائية ، بعد الرجوع الى المقاييس المعنوية والمادية ، الا ان الابحاث التاريخية لم « تثبت » امكان حدوث حركة صاعدة متزايدة في المستقبل البعيد تجاه الاتجاه المرغوب ، تبعا لأى معايير أخلاقية . وعلى هذا ستظل « فكرة التقدم » في نهاية الأمر اعتقادا قائما على الاستدلال وأملا قد يتحقق ، أو سائرا بلا شك نحو التحقق .

وأيا كانت مزايا النزاع حول ما في فكرة التقدم من صحة فلسفية . فان هذه الفكرة حتى في حالة ابهام فهمها ، قد أحدثت تأثيرا قويا على تقدم الحضارة في الولايات المتحدة ، حيث تدخلت جملة ظروف أولية ساعدت على جعل فكرة التقدم المبدأ الرائد للمجتمع . فلقد بدا لها جاذبية خاصة ، في صورتها الاقتصادية . فعلى الرغم من أن الدافع الأصلي وراء نزوح الكثيرين الى أمريكا كان البحث عن الحرية الدينية ، فان دافع الأغلبية الساحقة كان السعي لتحسين أحوالهم الاقتصادية .

ولم يروا في مثل هذا الدافع أى شيء مثير للخجل ، كما لم يوجد أى مبرر لاقدامهم على اخفاء هذا الدافع ، أو انكاره . فلم يغب اطلاقا عن خاطر الملوك والملكات وأصحاب المكانة الرفيعة وصاحباتها والتجار والكهان في العالم القديم العمل على زيادة ممتلكاتهم ، أو رفع مستوى معيشتهم . وحرصت كل من اسبانيا الكاثوليكية وانجلترا البروتستانتية على اتباع مبدأ استثمار التجارة واستغلال المستعمرات لصالح المتنفعين في عواصم الحضارة . ولم يرض سوى قلة من الزاهدين في أوروبا بالجوع عندما تيسر لهم الطعام ، أو بالبرد عندما اتيحت لهم فرصة الدفء ، أو بالمرض عندما كانت الصحة في متناول أيديهم ، وبالفقر عند توافر سبل الرفاهية ، في مقابل الكدح وبذل الجهد . واعتمادا على الافتراض المعقول بامكان استغلال المصادر المادية للارض في سبيل تحقيق حياة رغيدة ، نزح المهاجرون من العالم القديم الى الجديد ، وأنشأوا المستعمرات الانجليزية ، وخلقوا الولايات المتحدة . واذا كان الكثيرون قد غالوا في استغلال الفكرة ، وبحثوا عن الثروة لذاتها ، وأقبلوا في نهم على تكديس الثروات ، ووسائل الترف ، فان هذا لن ينسخ الصحة الأساسية للحكم العام .

ولو لم يتبت الدافع الاقتصادى بمفرده ــ وكان له أثر ملحوظ فى انشاء المستعمرات الأمريكية ــ عدم كفايته فى ضمان ظهور مجتمع تقدمى ، ما كان من المستبعد أن تتقدم عوامل أخرى كى تحدث هذا الأثر • ولقد استحال لعدة أسباب اقامة نظام ثابت لتأمين ملكية الأرض، كالذى عرف عن النظام القديم فى أوربا ، بعد تعذر اخضاع الهنود المقيمين فى المناطق التى استوطنها الانجليز للرق ، واستحالة توفير عدد كبير من النازحين ممن يقبلون البقاء فى عبودية كاملة • وحدث هذا فى المستعمرات الشمالية على أقل تقدير • وحال اتساع الأرض ووفرة المواد الطبيعية دون وضع أى نظام صارم للملكية ، وبدت صلاحية هذا النظام بعيدة الاحتمال • وأخفقت محاولات انشاء نظام للضياع الكبيرة ، يلزم الزارعون بفلحها بالاكراه ، باستثناء ما حدث فى مزارع الجنوب ، وفى بضع مناطق صغيرة من الشمال ، بصفة مؤقتة •

وهكذا انتهى الأمر باستيطان أصحاب الملكيات الصغيرة والعمال والميكانيكيين للأرض ، مع خضوع واهن للطبقية ، ووجود وفرة من الامكانات لتحسين الأحوال الاقتصادية ، وفرص مفتوحة للطموح فى كل ناحية • وعلى مثل هذا النطاق الواسع ، بدا هذا الاتجاه أمرا مستحدثا • ولم يكن من المتعذر ــ بطبيعة الحال ــ حدوث التقدم فى مجتمعات متزمتة كمجتمعات أوربا الاقطاعية ، ولكن هذا التقدم قد تعرض للتعويق من كل جانب بفعل الحواجز الطائفية القانونية • فهناك نظر الملاك الأرستقراطيون الى التجار نظرة احتقار ، ووضع المشتغلون بالأعمال الميكانيكية فى مرتبة دانية ، وعومل زارعو الأرض وكأنهم من بين الأدوات المستخدمة فى الزراعة • وليس من شك فى وجود استثناء لهذه القاعدة• ولكن الصفة المميزة لأمريكا هو ان ما كان يعد استثناء فى أوربا قد أصبح القاعدة السائدة فيها ، وبخاصة بعد القضاء على استرقاق الزنوج •

ولا غرابة اذا اجتذبت وفرة الأرض والموارد الموجودة فى حالة بكر أصحاب النشاط العملى من رجال ونساء ، من فلاحين وتجار وأرباب حرف ، ممن يعنون أساسا باستغلال كل فرصة استغلالا فعليا من أجل مشروعاتهم الصناعية • واختلف فى هذه الناحية المستعمرون الانجليز اختلافا أساسيا عن المستعمرين الأوربيين الذين احتلوا أمريكا اللاتينية، وكانوا بصفة أساسية من المقاتلين الذين عمدوا الى الغزو واخضاع السكان لاحتلالهم ، بمؤازرة رجال الدين الذين سعوا لفرض أنظمتهم الدينية والاجتماعية • ومن ناحية أخرى ، انهمك الجانب الأكبر من المستعمرين الانجليز فى الشئون الاقتصادية العملية ، فقاموا بتقطيع

الغابات ، ومخروا عباب البحر ، وصادوا الحيتان في المحيطين المتجمدين، وعكفوا على الانشاء والتعمير والزرع والحصد ، وتحمسوا للاستفادة من كل آلة زودتهم بها المخترعات لتضخيم قواهم وزيادة ثرائهم • وحتى طبقة الأرستقراط الزراع في الجنوب ، فرغم ازدرائها للتجار في أحاديثها ، الا أنها كانت متلهفة كأية طبقة أخرى لزيادة ممتلكاتها ودخلها• ولم يتمتع رجال الدين بأية مكانة عالية في أى مكان آخر باستثناء نيو انجلند • وسرعان ما تعرض ـ حتى هناك ـ استبدادهم الثيوقراطي للتمزق بفعل النقد العقلاني ، كما تمثل عند أنصار « مذهب الموحدين » وفي ترانسندتالية امرسون الرقيقة •• فلا عجب اذن اذا رأينا فلاسفة التقدم في فرنسا ـ وبخاصة سان سيمون الذى حارب تحت جناح واشنطن في الثورة الأمريكية ـ ينظرون للولايات المتحدة كأفضل مسرح فعلى لازدهار الفكرة الجديدة (*) •

ثمة شرطان يساعدان على ازدهار فكرة التقدم ـ وقد نبه اليهما بيرى ـ وبرزا بوجه خاص في الولايات المتحدة : التحرر من صرامة التعليم الكلاسيكي ، والتركيز على المسائل العلمية ، « ما دام الناس يعتقدون ان اليونانيين والرومانيين قد وصلا في أوج حضارتيهما الى مستوى فكرى لن يأمل الاخلاف في بلوغه قط ، وما دام ينظر الى سلطان مفكريهم كشيء يتعذر محاكاته ، فسوف يسود الميدان الاعتقاد في التدهور وتستبعد أية نظرية في التقدم » •

لم تحتكر هذه النظرة الكلاسيكية في أى وقت الحياة الفكرية في أى عهد من عهود التعليم في أمريكا احتكارا كاملا ، نعم كان هناك تعليم كلاسيكي في الكليات في أول عهدها ، ولكن هذه الدراسات كانت قليلة من حيث عددها في عهد الاستعمار الانجليزى ، ولها تأثير محدود الى أقصى حد على الحياة الاجتماعية • فلم تخضع جماهير الناس وزعماؤهم للأنظمة الكلاسيكية ، وكذلك لم تسيطر عليهم أية طائفة من المفكرين الذين يبالغون في تقدير هذا النوع من التعليم • وعندما ظهر التقدم العظيم في أعلى درجات التعليم ، وبخاصة في الجامعات الجديدة للولايات، سادت الروح العلمانية الواقعية العلمية ، ولم تحتل الكلاسيكيات في أحسن الأحوال أكثر من مكانة جانبية • وهكذا أمكن تجنب صورة من

★ راجع بيرد Rise of American Civilization. الجزء الأول ص ٤٤٣ وما بعدها •

صور الطغيان الفكرى ، ولم يخل هذا العمل من خسارة فى مقابل المكاسب الطائلة .

اعتمدت دوائر الأعمال على نظرة واقعية للحياة ، وارتكنت الى جيوش من المخترعين والمكتشفين ، ومن ثم استطاعت المضى قدما بخطوات ثابتة ، وأمكنها توطيد سيادتها فى نهاية الأمر . ولم تستطع بلوغ غايتها الأولى وهى تكديس الارباح الا عن طريق استثمار المواد الطبيعيه واثارة حاجات الناس ، وزيادة الرخاء وتشجيع العلوم التطبيقية . وتضاعفت الكليات والمنظمات للنهوض بالتقنولوجية بفضل رعاية الحكومات الفيدرالية والكليات والمنظمات . وشجعت التطور التقنولوجى فى كل فرع من فروع الاقتصاد . وبعد أن زادت المدارس الفنية والجامعات من اتساع دائرة اهتماماتها ، اضيف الى الهبات العامة ، استثمارات هائلة من جيوب الأفراد . واذا كان لم يظهر فى الولايات المتحدة أمثال سان سيمون وأوجست كونت وسبنسر للتعبير بالنظريات عما كان يجرى ، فان ما كان يدور من أحداث قد فاق كل شك . فلقد استخدمت طاقات ضخمة مادية وذهنية ومعنوية لغزو الأرض ، بقصد رفع مستوى المعيشة والاقلال من نسبة الوفيات ومحو الأمية والقضاء على الارهاق البدنى ، والتزويد بوسائل الراحة التى تساعد على العيش بطريقة معقولة .

كان من المحتوم أن تعكس الأنظمة السياسية هذه الدوافع السائدة فى مجتمع علمانى الحوافز ، دينامى الاقتصاد ، علمى فى أوجه اهتمامه الفكرى . فقد كان من المستحيل فى حالة مثل هذه المرونة الاجتماعية ظهور جمود قانونى كذلك الذى سمت الملكية الفرنسية لتوطيده فى « النظام القديم » . وعلى الرغم من شيوع بدعة فى بعض الأنحاء لاظهار دستور الولايات المتحدة كأنما هو للمجانين قميص ، الا أنه فى الواقع قد اعتمد على المسلمات الأساسية للتقدم فى المسائل الانسانية . فلقد أعلن فى مستهله أن غاية الحكومة الجديدة هى « انشاء وحدة أكمل ، وتوطيد العدالة ، وضمان السلام فى الداخل ، والدفاع ، والارتقاء بالأحوال ، وضمان تحقيق نعمة الحرية لنا ولأخلافنا » .

ولا يدعى هذا الدستور العصمة والكمال على الاطلاق . فلغته قد عمدت فى عدة مواضع الى التعميم ، وتركت مجالا للتأويلات الواسعة المفتوحة مراعاة لاختلاف الزمان والأحوال . وحقق له هذا المرونة لعدة أجيال قادمة ، والحق أن تكيفه مع الغايات المتتالية للأمة كان من بين أسمى أسباب تميزه .

وأحسن واضعو الدستور الاحتياط لما سيطرأ مستقبلا . فلقد ادركوا أن ما قاموا به ليس الكلمة الأخيرة ، وأرفقوا بوثيقتهم مادة مستقلة تصف طريقة اجراء تعديلات في الدستور . واعترف واشنطن « بعدم خلو الدستور من الهنات » ، ولذا ذكر عند مطالبته بالتصديق عليه : « الباب مفتوح أمام أى تعديلات وتحويرات مستقبلة » وبعبارة اخرى ، لم يكن ما سعى اليه الآباء الأولون تحويل البلاد الى دولة من المجاذيب ، ولكنهم سعوا الى تحقيق الوحدة والاستقرار والتقدم . وتاريخ ما ينوف عن القرن والنصف خير شاهد على حصافتهم .

واتخذت الفلسفة الأمريكية في المجتمع أيضا لون التيارات الفكرية الأساسية ، أما الملكية والاقطاع فقد انتهى عهدهما ، وهكذا استطاعت الديموقراطية كما رسمها جيفرسون اكتساح الولايات المتحدة . وليس من شك في أنه من السهل التحدث باستخفاف عن « المعية التعميمات » والاشارة الى الفروق الواضحة بين ما يجرى في الناحية العملية ، وبين الايمان وكماله . ولكن ثمار تعاليمه قد انعكست في الاصرار على المساواة والجهود الجبارة التي بذلت لنشر التعليم العلماني الشامل ، وفي المنظمات الخيرية العديدة ، والمحاولات الشائعة لتحطيم الحواجز التي تعترض مساواة الفرص ، والتي انتهت آخر الأمر الى السعي وراء وضع حد أدنى للتأمين الاجتماعي للجميع .

وتجاوبت فكرة التقدم مع مزاج الشعب الأمريكي بعد التعبير عنها على هذا النحو بدقة غير عادية . ولما كانت الديمقراطية السياسية لم تستطيع تحقيق اليوتوبيا على الفور ، كما لايخفى ، لذا بدا واضحا انه قد بقي أنه يمكن تحقيق عمل هام لتحسين أحوال البشر اعتمادا على زيادة الدخل ، لا بالاعتماد على احدى ضربات الحكومة القاضية . وهكذا ألهمت « فكرة التقدم » المتواصل آلافا لا تعد ولا تحصى ممن لا يعرفون أكثر من القليل ، أو لا يعرفون أى شيء عن أصلها ، ومن الذين لم يرد أى ذكر لأسمائهم في سجلات التاريخ المحصورة . وأصبح التغير سمة الحياة الأمريكية . ففي التوسع السريع من حالة الاستيطان على نطاق ضيق ، الى دولة تحتل قارة ، شاعت التغيرات والتحولات ، وحدثت في سرعة مذهلة ، وان كان نادرا ما تبادر لأذهان المشتركين في هذه التمثيلية حاجة مثل هذا التغير الى دفاع أو تبرير . وعلى الرغم من حدوث عدة أمور قبيحة وقاسية خلال هذه المعمعة ، تعرضت لقذائف نارية متواصلة من النقد ، فان فكرة حدوث تحسن متزايد في أحوال كتل البشر في جملتها ، لم تغب قط عن الأبصار ، وتصاعدت في السنوات الأولى من

القرن العشرين ، وتمثلت في الاعتقاد بامكان القضاء قضاء مبرما على الفقر وعدم جدارته بالبقاء ، وضمان تمتع كل فرد بحالة معقولة من الرفاهية • ولم تفلح الاختلافات العنيفة في الرأى والسبل والوسائل في محو الاعتقاد • كما ان الكساد الاقتصادى لم يفلح في القضاء عليها • فهي باقية وستبقى كميزة اساسية للمجتمع الأمريكي ، وما دام العنصر الامريكي يتمتع بفحولته ، فانها ستظل فعالة بكل القوة الكامنة في اى فكرة ديناميه نابعة من قوة العزيمة والارادة والاستفادة من كل فرصة سانحة •

وعلى الرغم من عدم قيام أى باحث بالتنقيب في التاريخ الأمريكي عن بينات مؤيدة لفكرة التقدم ، وعدم قيام أى علم من أعلام رجال الحكم بصياغة هذه البينات في نظرية منطقية للدولة ، فان سجلاتنا حافلة بما يؤيد ذلك • والفكرة واضحة صريحة في كتابات بنجامين فرنكلين ، كما انها بدت في صور متعددة في فكر جيفرسون الخصيب المتعدد الجوانب كقوله ان الحكومة قد وجدت لصالح المحكومين أكثر من وجودها لصالح الحكام ، وفي مشروعاته للارتقاء بالعلم التي انتهت بانشاء جامعة فرجينيا • وفي مخططاته للتعليم الشامل ، وتشريعه الرامي الى تأمين حرية العبادة الدينية • وفي الجانب السياسي ، أجملت وثيقة فرجينيا للحقوق ١٧٧٦ ، الاتجاه بأسره : « الغاية من الحكومة ، أو ما ينبغي أن تتجه اليه غاية الحكومة هو المصلحة العامة ، وتوفير الحماية والأمان للشعب والأمة والمجتمع • ومن بين كل أنواع الحكومة ، واشكالها ، أفضلها هو ما كان قادرا على تحقيق أعظم قدر من السعادة والأمان ، وما كان قادرا على توطيد قدمه بطريقة فعالة ، ضد أخطار سوء الادارة • وفي حالة اكتشاف عدم كفاية أية حكومة ، او تعارضها مع هذه الغايات ، فان لأغلبية المجتمع الحق الوطيد بلا منازع في تقويمها ، أو تغييرها ، أو القضاء عليها على النحو الذى يؤدى الى تحقيق الخير العام » • ومع الاعتراف بامكان اكتشاف هنات في هذا التصريح ، ووجود تناقض في ممارسته ، الا أن هذا المذهب كامن في أعماق الفكر الأمريكي الاجتماعي ، كما أنه أثر تأثيرا عميقا في اتجاه تقدمه وتطبيقه •

واذا انتقلنا من نظريات المجتمع الأمريكي ، الى الكلام عن الفلسفة بعامة ، سنصادف امرسون على التو • ففيه نصادف مفكرا مزودا بسمة علم عصره ،اكتسب دراية من أسفاره لعدة بلدان • وعرف بنقده اللاذع للضحالة والفظاظة الملحوظتين في الحياة الأمريكية • على أن ايمانه بأمريكا كبلد الفرصة ، قد كشف عن الايمان في امكان التقدم • ورغم قدرته

على مهاجمة الشرور بعلمه ولسانه اللاذعين ، الا أنه لم ينظر للتاريخ كنشطة جسيمة ، ولم ير الأحداث المحيطة به كدلائل على اكتمال الفساد واللامعقولية . وعلى العكس فلقد قال في أسى في مقاله عن « التقدم والحضارة » : « من ذا الذى يرد العيش في العصر الحجرى أو البرنزى أو البحيرى ؟ من ذا الذى لا يفضل عصر الصلب أو الذهب أو الفحم والبترول والقطن والبخار والكهرباء ، وآلات الطيف والسيكتروسكوب . تأمل في هذا الوقت مدى ما ظهر من تنوع على المستوى القومي في الثمار والمشروعات العامة والخاصة وعبقرية العلم والادارة ومهارة الممارسة الادارية التى استطاع كل في نطاقه المستقل اظهارها في السكك الحديدية والتلغرافات والمناجم والكشوف البرية والبحرية والقصة والخدمات الاجتماعية ، وكذلك في الزراعة والتجارة الخارجية والداخلية (فان شبكاتها لا تقل اتساعا في هذا البلد عن التجارة الخارجية) والمصنوعات والمخترعات . كل هذه الأشياء قد خرجت للوجود وعلى المستوى القومي أيضا » ، واحتوت الصورة بلا شك على بعض السحب القاتمة التى كان امرسون يعيها دائما ، ولكن وراء خواطره كان هناك ايمان كامل بالمستقبل وبوطنه وقوته الداخلية وممكناته .

فاذا انتقلنا الى جون ديوى الفيلسوف البارز المعاصر ، الذى يحتل الصدارة فاننا سنلحظ تأكيدا مماثلا للجوانب الاجتماعية في الموضوع . فلم تكن الفلسفة عند ديوى عالما من المجردات البعيدة عن عالم الواقع ، المنبعثة بدافع العلم والمنفعة الاقتصادية ، بل على العكس كان دائم الربط بين عالمى الفكر والوقائع برباط حى ، والسعى لجعل الفلسفة أداة عون لخلق نظام اجتماعى أقرب للمثالية . فهو لم ينظر للعالم كشىء مكتمل ، كما أنه لم يتوقع العثور على الكمال بين عشية وضحاها ، بأن يتبنى احدى اليوتوبيات المتزمتة . واعتقد ديوى أنه يمكن حدوث تحسن مستمر في العلاقات الاجتماعية اعتمادا على عون العلوم الطبيعية بخاصة . وتضطلع الفلسفة بمهمة التزويد بالتفسير والهداية . واعترف بما في مذاهب الفكر المغلقة من اكتمال منطقى ظاهرى ، واثارة للاهتمام ، ولكنها بدت له منقطعة الصلة بما يدور حولنا من تحول لا ينقطع في المادة والمعقول ، ومن هنا رضى بما هو أقل من العلم بكل شىء ، فيكفيه أن يرى الفكر وهو يحدث زيادة في التوافق والانسجام في الأنظمة والعلاقات الاجتماعية . واذا كانت فلسفته لم تستند الى ايثار متميز لفكرة التقدم، فان الفكرة قد بدت واضحة بكل تأكيد في النتائج العملية لفكره .

يتبين مما سبق ذكره في الصفحات السابقة أن فكرة التقدم تفسير للتاريخ وفلسفة عملية معا ، وسواء أكان تطور البشرية في أساسه كشفا مستمرا لروح الله أو « للفكرة » في حالة كشفها عن ذاتها ، كما ذكر هيجل ، أو تكيفا مستمرا مع الظروف المادية المتغيرة ، كما أكد ماركس ، فان هذا التطور يعتمد بالضرورة على حركة ما . ولابد أن يزعم أنصار التقدم بأن هذه الحركة سائرة في جملتها تجاه الاتجاه المرغوب . ولو بدت فكرة التقدم في آخر المطاف غير صالحة كتفسير ، فانها مع هذا قد تصبح النغمة السائدة في كل كلام عن المستقبل الحافل المراد اكتشافه . واذا سلمنا جدلا بأن الماضي كان فوضى ، بلا نظام أو تصميم، فان هذا سيعني أيضا أن شبح الفكرة القائلة بامكان ارتفاع البشرية الى ما هو أعلى من الضرورة الى مملكة الحرية واخضاع النواحي المادية للغايات الانسانية والعقلانية ما زال مستحوذا علينا اعتمادا على المحاولات الواثلة للارادة والذكاء واستخدام العلم الطبيعي كأسمى أداة لتسخير القوة المحركة .

مقـــدمـة

عندما نقول ان الأفكار تحكم العالم ، أو تحدث تأثيرا حاسما على التاريخ ، فان ما نعنيه بوجه عام هو تلك الأفكار التى تعبر عن اهداف انسانية ، المعتمدة على الارادة الانسانية فى تحقيقها ، ومن أمثالهـا : الحرية والتسامح والمساواة فى الفرصة ، والاشتراكية ، ولقـد تحقق بعض هـذه الأفكار جزئيا ، وليس هنـاك ما يحول دون أن يتحقق أى منهـا تحققا كاملا ، فى المجتمع أو العـالم ، لو اجتمعت كلمتهما على تحقيقها . ويرتبط قبول هذه الأفكار ، أو استنكارها ، بالاعتقاد بما فيها من خير أو شر ، لا بالاضافة الى نصيبها من الصحة أو الزيف . على أن هناك ضربا آخر من الأفكار يلعب دورا كبيرا فى تحـديد اتجـاه سلوك الانسـان ، وتوجيهه ، وان كان لا يعتمد على ارادته ، انها الأفكار المتصلة بسر الحياة كالقدر والنعمة الالهية وخلود الشـخصية . وقد تؤثر مثل هذه الأفكار فى جوانب مهمة من صور السـلوك الاجتماعى ، وان كانت تتضمن مسائل من الواقع ، يرجع قبولها أو رفضها لا الى الاعتقاد بنفعها وضررها ، ولكن الى الاعتقاد فى صحتها أو بطلانها .

وفكرة التقدم الانسـانى من هذا النوع . ومن المهم استيضاح هذه النقطـة . فنحن الآن كثيرا ما نسلم بها ، بعد وعينا بالتقدم المطرد فى المعرفة والفنون والقدرة على التنظيم والأدوات النافعة من كل نوع ، حتى أصبح من اليسير اضافة التقدم الى أهـداف كالحرية والاتحاد العالم : تلك الأهـداف التى لا تتطلب اكثر من جهـودنا وحسن نوايانا لتحققها . ولكن على الرغم من اعتماد كل زيادة فى القـوة والمعرفة على الجهد الانسانى ، فان فكرة تقـدم الانسـانية ، ومنها نبعت كل هـذه الأفكار الجزئية ، واستمدت قيمتها ، تثير سؤالا محددا لن تسـتطيع رغبات الانسـان أو جهوده التأثير فيه ، مثلما تعجز رغباته أو جهوده عن اطالة الحياة يوم تحين المنية .

وتعنى هذه الفكرة تحرك الحضارة واستمرار تحركها فى الحاضر والمستقبل فى اتجاه مرغوب . ولكننا اذا أردنا التيقن من تحركنا صوب الاتجاه المرغوب ، فان علينا أن نعرف على وجه الدقة : ما هو هــذا الهدف ؟ ويظن اغلب الناس ان الثمرة المرغوبة للتقدم الانسانى عبارة من حالة من المجتمع ينعم فيها كل سكان الأرض بحياة رغيدة هنيئة .. غير انه من المتعذر أن نتأكد من أن الحضارة ، فى الاتجاه الصحيح ، لتحقيق هــذا الهــدف . ومن المستطاع القول أن بعض جوانب من « تقدمنا » تؤيد هذا الظن ، وان كان هناك دائما عوامل مقابلة ، وفيما يتعلق بازدياد السعادة لن يتعــذر على الدوام أن نثبت كيف تتجــه اتجاهات تقدم حضارتنا عما هو مرغوب فيــه . وقصــارى القــول ، يتعذر اثبات توافق الهــدف المجهول الذى يتجــه اليــه الانســان مع الرغبة . فقد تكون الحركة تقدما ، او ربما اتجهت اتجاها غير مرغوب ، وبذلك لا تكون تقــدما . ان هذه مسالة خارجة عن دائرة الاستدلال العقلى ، وهى من المسائل المتعذر حلهــا فى الحــاضر ، تماما كمسالة خلود الشخصية . فهى متصلة بسر الحياة ..

وفضلا عن ذلك ، فحتى اذا أمكن التسليم بأنه يحتمل أن تتجه الحضارة الى مدى بعيد نحــو الاتجــاه المرغوب فيه ، على نحو يؤدى الى حدوث رفاهية عامة ، لو حدث اتباع كاف للاتجاه ، فانه يتعــذر اثبات أن الغاية البعيدة تعتمد اعتمادا كاملا على الارادة الانســانية . فقد يعرض التقدم فى اى موضــع لأى عائق يتعذر تخطيه . ولنضرب مثلا بما حدث فى حالة المعرفة . فمن المســلم به بوجه عام القول بأنه يعتمد مستقبلا على استمرار التقدم استمرار الجهد الانسانى (على افتراض عدم تعرض العقل الانسانى للتدهور) . ويرتكن هــذا الفرض على تجربة محدودة للغاية . ولقد تقدم العلم بلا توقف خــلال القرون الثلاثة أو الأربعة الأخيرة ، وأدى الى كشف جديد والى ظهور مشكلات جديدة ، وطرق حل جديدة ، وفتح ميادين جديدة للكشف . ولم يرغم رجال العلم حتى الآن على التوقف ، واستطاعوا العثور دائما على سبل ساعدتهم على التقــدم الى ما هو أبعد . ولكن ما يدرينا بأنهم لن يتعثروا يوما ما عندما يواجهون عوائق لا يستطاع تخطيها ؟ .. فمن الصعب أن نستخلص نتائج من تجارب الاربعة القرون التى تم فيها التنقيب بنجاح فى ظاهر الطبيعــة ، بما يتوقع من نتائج فى غضون الربعمائة أو الأربعة الاف قرن التالية ، فعلى سبيل المثال فى علم الأحياء أو الفلك ، كيف يمكننــا الاطمئنان الى أن التقــدم فيهما لن يتــوقف نهائيا ، لا لنفاد

المعرفة ، ولكن لنفاد مصادرنا في البحث . لأن أدواتنا العلمية قد وصلت الى آخر حدود كمالها ، فأصبح من المتعذر اجراء أى تحسن فيها ، أو لاننا قد اصبحنا نواجه فى حالة الفلك قوى ليس لدينا أى تجارب فيها مشابهة التجارب التى نعرفها على الأرض ، الخاضعة للجاذبية ؟ فمن الفروض التى لن يستطاع برهنتها عدم استبعاد وصولنا فى القريب الى نقطة فى معرفتنا بالطبيعة ، يتعذر على العقل الانسانى تخطيها .

على أن هــذا الافتراض بالذات هو النبراس وأداة الالهـــام التى تلهم الانسان بمتابعة أبحاثه فى العلم . فلو ثبت بطلان هذا الافتراض، لكان معناه عدم امكان اهتدائه للهدف الذى يعد فى حالة الفزياء مثــلا معرفة أضخم وأعمق مما لدينا الآن ، ان لم تكن المعرفة الكاملة بالكون وبما يجرى فى الطبيعة .

وهكذا يكون التقدم المتواصل فى معرفة الانسان للبيئة ــ وهــو ما يعد من المقومات الانسانية للتقدم العام ــ افتراضــا قد يصـــح أو لا يصح . ولو صح ، سيبقى افتراض أبعد من ذلك : نصيب الانســان من « القدرة على بلوغ الكمال » اخلاقيا واجتماعيا .. وهو ما يعتمد على دلائل اقل من ذلك تأثيرا . وليس هناك ما يدل على امكان بلوغ الانسان فى تقدمه النفسى أو الاجتماعى مرحلة تظل فيها أحوال الحياة بعيــدة عن الاقتناع بحيث تستحثه على الاعتقاد بانه عاجز عن التقــدم الى ما هو أبعد منها . وان كانت هذه المسألة خارجة عن استدلالات العقل ، ولن تستطيع أية ناحيــة ارادية فى الانســان تغييرها ، لأنهــا متصلة بسر الحياة .

لقد قيــل ما فيه الكفــاية عن انتماء فكرة « تقدم البشرية » الى افكار من نوع « النعمة الالهية » أو « خلود الشخصية » . فهى فكرة صحيحة وزائفة معا ، ومماثلة للأفكار المذكورة فى امكان اثبات صحتها أو زيفها . والاعتقاد بها يتبع الايمان .

فكرة التقــدم اذن نظــرية تتضمن مواءمة بين المــاضى والتنبؤ بالمستقبل . فهى مبنية على تفسير التاريخ يرى الناس يتقدمون تقدما حثيثا فى اتجاه محدد مرغوب فيه ؛ ويستخلص من ذلك أن يســتمر هــذا التقدم الى غير حــد ، والى أن تتطلع الى أن يتمتع أبناء هــذه الأرض آخر الأمر بحالة من السعادة تبرر كل ما يجرى فى الحضارة . ولولا هذا لبدا الاتجاه غير مرغوب فيه . ثمة ناحية متضمنة أخرى . فلابد أن تكون عملية التقدم نتيجة محتومة للطبيعةالنفسية والاجتماعية

للانسان . فلا ينبغي ان تقع تحت رحمة أية ارادة خارجية . ولولا هذا لما وجد ضمان لاستمرارها وتفجرها ، ولانتهى الأمر الى ترديها الى فكرة النعمة الالهية .

ولما كان الزمان هو الشرط الأساسي لامكان التقدم ، لذا لا يخفى ان هذه الفكرة ستفقد كل قيمتها لو وجدت أية أسباب مفحمة تؤيد الفرض القائل بأن توقف الزمان الموضوع تحت تصرف البشرية في المستقبل القريب أمر محتمل الوقوع . فلو صح الاعتقاد بتوقع فقدان الأرض صلاحيتها للاقامة سنة ٢٠٠٠ أو سنة ٢١٠٠ واعتماده على أي مبرر صحيح ، فان مذهب التقدم سيفقد حينذاك قيمته ويختفي على الفور . ومسالة تقرير الحد الأدنى للزمان الذي يجب ضمانه لتقدم الانسان مستقبلا ، وحتى يستطيع التقدم اكتساب قيمته واجتذاب المشاعر من المسائل الدقيقة . ويبلغ عمر التاريخ المكتوب للحضارة ستة آلاف سنة ، أو ما يقرب من ذلك ، ولو اتخذنا هذا العدد مقياسا لتصوراتنا لأبعاد الزمان ، ربما أمكننا الزعم بأننا لو تيقنا من أن ما بقي لنا على الأرض هو عشرة أمثال هذا القدر من الزمان ، فان فكرة التقدم لن تفقد في هذه الحالة أي شيء من جاذبيتها . فلو تأملنا التغيرات التي طرأت في مدى ستة آلاف سنة ستبدو الستون ألفا من « الزمان التاريخي » فسحة كبيرة من الوقت ، تفتح أمام الحياة آفاقا فسيحة للانطلاق بلا حد على ما يبدو .

ومع هذا فليس هناك ما يدعو الى الوصول الى قرار بخصوص هذه المسالة السيكلوجية .. فلقد أكد لنا العلم ما ثبت عن احتمال ثبات الأوضاع الحاضرة في النظام الشمسي لآلاف عديدة من السنوات الآتية . فمهما حدث من تغير تدريجي في المناخ ، فان الشمس لن تتوقف عن القيام بدورها كمصدر للحياة لمدى زمني يفوق كل مقدرات الخيال ، ويسخر منها . وباختصار ان ما يضمن امكان التقدم هو الاحتمال الكبير المستند على العلم والفلك بوجود زمان طويل يتحقق فيه التقدم .

ربما عجب الكثيرون اذا عرفوا ان فكرة التقدم التي أصبح ادراكها الآن ميسورا الى أبعد حد ، من أصل حديث نسبيا .. ولقد زعم بحق ، أن مفكرين مختلفين من القدامى قد تصوروه منذ أمد بعيد (كسينكا على سبيل المثال) ومن أبناء العصر الوسيط (كالأب روجر بيكون)! . غير انه لا يصح القول بوجود تماثل بين التكهن بالفكرة

وبين الملاحظات الشائعة ـ كالقول بنهوض الانسان تدريجيا من حالة البداوة والهمجية الى مستوى معين من الحضارة اعتمادا على سلسلة من المخترعات ، أو على امكان حدوث بعض الاضافات مستقبلا الى معلوماته عن الطبيعة ـ وهى أحداث لا مفر من حدوثها فى مرحلة معينة من التأمل الانسانى . ان ما يحدد قيمة مثل هذه الملاحظات ويقرر قيمتها بالضرورة هو السياق الكامل للافكار التى ظهرت فيها . ففكرة التقدم تستمد قيمتها ، واثارتها للاهتمام واثرها ؛ من تأثيرها فى المستقبل . فانت قد تتصور الحضارة كشيء قد تدرج فى النهوض فى الماضى ، وان كان هذا لا يعنى ادراكك لفكرة التقدم ، ما لم يضف الى ذلك تصورك بأن غايتها هى التقدم بغير حد فى المستقبل . فللأفكار مناخها الفكرى . ولذا أرى التحدث فى هذه المقدمة ببعض الايجاز عن عدم مصادفة فكرة التقدم فى العصر الكلاسيكى القديم وما تلاه من عصور مناخا ملائما لظهورها . فلم يبدأ بصورة محددة تخطى العوائق التى حالت دون ظهورها الا بعد القرن السادس عشر ، وظهر حينئذ جو مناسب ، اكتسب ملاءمته تدريجيا .

(١)

لعل مما يثير الدهشة بوجه خاص أن الاغريق ، مع ما عرف من خصب تأملاتهم للحياة الانسانية لم يلمسوا فكرة بسيطة واضحة لنا الى أبعد حد كفكرة التقدم . بيد أننا لو حاولنا ادراك تجربتهم والطابع العام لفكرهم ، لن يبقى هناك محل لعجبنا . فتاريخهم المكتوب لا يرتد بعيدا للوراء ، ولم يظهر خلال العهد الذى تناولوه أية أحداث مثيرة للانتباه من الكشوف الجديدة التى توحى بحدوث أية زيادة غير محددة فى المعرفة ، أو أى ازدياد فى السيطرة على قوى الطبيعة . ففى العهد الذى استغرقت فيه ألمع عقول عندهم فى مشكلات العالم ، ربما استطاع الناس الارتقاء بصناعة السفن أو اختراع براهين هندسية مستحدثة ، ولكن علمهم لم يستطع تغيير أحوال الحياة أو فتح آفاق أمام المستقبل ، أو لعل ذلك قد تحقق بقدر ضئيل . فلم تواجههم أية حقائق قوية بقدر يساعدهم على الوقوف فى وجه التبجيل العميق للماضى الذى يبدو كامنا فى فطرة البشر ، كما ان أهل أثينا على عهد بركليس وأفلاطون ، وان كانوا قد تميزوا « بالعصرية » الواضحة بالمقارنة باغريق عصر هوميروس ، الا انهم لم يعرفوا مثلنا أو يعوا الفرق بين حديث وعتيق .

ولا جـــدال انه لم تغب عن بصيرة اليونانيين الحادة أن الحضـارة الانسانية كانت تعتمد على عملية نمو تدريجي ، حققت بعد عناء ارتقاء الانسان من الحضيض والهمجية • فمثلا صور اسخيلوس كيف كان البشر يحيون فى الأصل معرضين للأخطار فى كهوف رطبة مظلمة ، ثم انتشلهم بروميثيوس من هذه الحالة ، بعد أن علمهم فنون الحياة • ونصادف عند أوربيـد اعترافا مماثلا بارتقاء البشرية من الهمجية البـدائية الى حالة التحضر بفضل اله أو شبه اله ، قام بنفس دور بروميثيوس • فى مثل هذه الفقرات ، تظهر لنا ــ كما يمكن القول ــ فكرة حدوث تقدم للانسان، وربما جاز القول بانصاف ، بأن كلا من اسخيلوس وأوربيد قد آمنا بحدوث تقدم يتمشى مع الخرافة الشاعرية القائلة بحدوث تدخل من القوى الخارقة • على ان أمثال هذه الاعترافات بالتقدم لم تتعارض مع الاعتقاد الشائع بتعرض العنصر الانساني للتدهور فى البداية • كما أن الاعتقادين لم يظهرا عادة كمذهبين متنافسين • وقد لاقت ترحيبا عاما الأسطورة القديمة عن وجود عهد ذهبي من البساطة ، سقط منه الانسان ، وقبلت كحقيقة ، وربط المفكرون الرواد بينها وبين الاعتقاد بما أعقب ذلك من تدرج فى الرقى الاجتماعي والمادى خلال عهود التدهور التالية(١) • ونحن نصادف هاتين النظرتين مجتمعتين على هذا النحو عند أفلاطون على سبيل المثال فى محاورته « القوانين » ، وفى أقدم تاريخ معقول للحضارة كتبه ديكارخوس تلميذ أرسطو (٢) • وان كان قد نظر الى حياة البساطة فى العصر الأول ، التى لم تتعرض فيها قوى البشر للانهاك ، ولم يعرف فيها كل من الحرب والمرض ، كحالة مثالية ، السعيد من البشر هو القادر على العودة اليها • صحيح استطاع الانسان منذ عهود موغلة فى القدم تحسين أحوال بنى جنسه ، وان كانت أمثال تلك الكشوف العريقة كالنار أو الزراعة أو الملاحة أو التشريع ، لم توح بالظن بامكان الاعتماد على الكشوف الجديدة فى بلوغ أحوال أكثر تعقيدا للحياة ، لا تختلف من حيث نصيبها من السعادة عن الحياة البسيطة فى العالم البدائى •

---

(١) فى البحث القيم للتاريخ اليونانى الباكر ، الذى استهل به توكوديدس كتابه، قام بتتبع التقدم الاجتماعي عند اليونانيين فى العصور التاريخية • واهتدى الى ملاحظة فيما حدث من ازدياد فى الثراء •

(٢) تفتقر نظرة أرسطو ذاته الى الوضوح الكامل • فهو يعتقد ان كل الفنون والعلوم والأنظمة قد تكرر فى الماضى كشفها وضياعها أو اكتشفت وضاعت مرات لا نهاية لها (كتاب الميتافيزيقا الى آخر الفقرة والسياسة ــ الفصل الرابع الفقرة الثانية • والقول بوجود عدد من المرات اللانهائية يدل على ما يبدو على الاعتقاد فى فكرة الدورات) •

ولكن وان كان الفلاسفة اليونانيون قد اعترفوا بالتقدم النسبي، فان نظرتهم العامة قد تركزت على القول بأنهم يحيون في عصر تدهور وانحدار محتوم ، ترجع حتميته الى أنه مرغم على اتباع هذا المصير بتأثير طبيعة الكون. وما لدينا من الخواطر البعيدة الأثر لهيراقليطس وفيثاغورس وامبادوقليس لا يزيد عن بعض معلومات ناقصة ، وان كنا نستطيع الرجوع لمحاولة أفلاطون في فلسفة التاريخ القائمة على التخمين لتصوير اتجاه الفكر اليوناني وتأملاته في هذا الموضوع • فالعالم من خلق الاله ، ومنه يستمد قوته الدافعة • ويتميز هذا العالم بالكمال ، لأنه من صنعه، ولكنه ليس خالدا • فهو يحتوى على بذور تدهوره • وسيستمر بقاء هذا العالم ٧٢٫٠٠٠ سنة شمسية • وفي خلال النصف الأول من هذا العهد ، حافظ الخالق برعايته على الاطراد والنظام الأصليين اللذين بثهما في العالم • ولكن هذا العالم قد وصل بعد ذلك الى نقطة بدأ بعدها في الرجوع على أعقابه ، ان جاز مثل هذا القول • فلقد تراخت القبضة التى يمسك بها الاله بزمام هذا العالم ، واضطرب النظام • وتعد الـ ٣٦٫٠٠٠ السنة التالية سنوات تدهور تدريجي واضمحلال • وفي نهاية هذه الحقبة ، سيتحول العالم — لو ترك لنفسه — الى الفوضى ، ولكن الله يمسك بالزمام مرة أخرى ويعيد الأحوال سيرتها الأولى ، وتبدأ العملية من جديد • ويناظر الجزء الأول من دورة العالم هذه العصر الذهبي في الأسطورة ، الذى عاش فيه الناس في سعادة وبساطة • ونحن نحيا الآن لسوء الحظ في غمار عصر التدهور •

وطبق أفلاطون نظرية التدهور على دراساته للمجتمعات السياسية • فلقد اعتقد أنه قد سبق ظهور أرستقراطية من الحكم المثالى في عهد سابق لعصر انتكاس العالم ، عندما كانت الأحوال لم تصل الى مثل هذا القدر من السوء (١) • وبين ما لحق بها من تدهور تدريجي من خلال المراحل المتعاقبة للتيموقراطية (حكومة الطامعين) والأوليجاركية (حكومة الأثرياء) والديموقراطية والطغيان • وأرجع في تفسيره هذا التدهور أساسا الى انحطاط العنصر البشرى نتيجة للتهاون وأخطاء أنظمة الدولة والزواج ، وما تبع ذلك من ظهور مواليد ذوى نقص في تكوينهم العضوى •

---

(١) وضع أفلاطون بالمثل للمجتمع المثالى الذى وصفه في محاورة اكريطياس في سنة ٩٠٠٠ قبل سولون • اما الدولة التى وضع تصميمها في محاورة القوانين فقد تخيلت كمخطط يقبل التنفيذ العملى في أيامه وان كانت لم تزد حينئذ ، عن ثانى المفضلات ؛ ورسم ارسطو مخططا لدولة مثالية لم يحدد لها تاريخا او مكانا معينا •

لم تكن نظريات أفلاطون الا أبرز أمثلة للميل الذى عرف عن المفكرين الفلسفيين باليونان : نسبة المثالية للثبات واعتباره اسمى قيمة من التغير . وتأثرت بهذا الاعتقاد كل تأملاتهم للمجتمع الانسانى . فلقد اعتقدوا بوجود نظام مثالى مطلق للمجتمع ، عندما يستقر يصبح أى انحراف عنه إتجاها الى الأسوأ . وعندما نظر أرسطو الى الموضوع من ناحية عملية رأى أنه لا ينبغى أن يتغير أى نظام اجتماعى راسخ ، أو أن يكون هذا التغير طفيفا بقدر المستطاع (١) . وحال هذا التزمت ضد التغير دون ادراك الحضارة حركة تقدمية . فلم يخطر على بال أفلاطون أو أى مفكر آخر أنه يمكن أن يتحقق النظام الكامل بالاعتماد على سلسلة طويلة من التغيرات والتكيفات . فلما كان مثل هذا النظام صورة مجسمة من العقل ، لذا فمن غير الميسور خلقه الا بفضل فعل مقصود مباشر من عقل مخطط ، ربما كان من ابتكار حكمة الفيلسوف أو موحى به من قبل الاله . ومن هنا يتحتم اعتماد تحرر أى مجتمع على المحافظة بقدر الامكان على سلامة النظم التى يفرضها المشرعون المستنيرون ، لان التغير مرادف للفساد والخراب . تفسر هذه المبادىء « القبلية » سر اعجاب كثيرين من الفلاسفة اليونان بحكومة اسبرطة . اذ كان يفترض محافظتها بلا تغير ولأمد طويل غير مألوف على نظام من وضع مشرع ملهم .

(٢)

وهكذا نظرا للزمان كعدو للبشر . يقول هوراس : « الزمان يبخس قيمة العالم (*) . وفيه تعبير عن الاعتقاد المتشائم الذى ساد فى معظم مذاهب الفكر القديم .

وشاعت نظرية دورات العالم على نطاق واسع ، بحيث يكاد يستطاع وصفها بالنظرية التقليدية للزمان الكونى عند اليونانيين . وانتقلت من عندهم الى الرومان . وتبعا لما ذكره بعض الفيثاغوريين : « تكرر كل دورة اتجاه الأحداث السابقة حتى أدق تفاصيلها . فما دام الكون يتحلل ويرجع الى حالة الفوضى الأولى بدا لهم عدم وجود أى مبرر لخلق الفوضى أو السديم عالما مختلفا أيما اختلاف عن سابقه . فما من شك فى أن أية دورة لاحقة لن تختلف عن الأولى الا من حيث عددها ، وستتماثل معها

---

(١) السياسة ١١ ــ ٥ .

Damnosa quid non imminuit dies ?

★ يقصد هوراس بذلك أن قيمة العالم تتعرض للبخس بمرور السنين ــ المترجم

فيما عدا ذلك • وليس بوسع أى انسان أن يكتشف رغم الدورة التى يحيا فيها • وما دام لم يتقرر ـ على ما يبدو ـ أية نهاية لتيار الحياة ، فلا عجب اذا احتوى تاريخ العالم على عدد لا ينتهى من الحروب الطرواديه على سبيل المثال ، أو اذا قام عدد لا حصر له من أمثال أفلاطون بكتابة عدد لا يفرغ من محاورات الجمهورية • واعتمد فيرجيل على هذه الفكرة فى النشيد الرابع عندما تأمل رجوع العصر الذهبى :

سيعاود الظهور ربابنة آخرون من أمثال تيفوس ، وستظهر سرة أخرى أمثال « آرجون » لنقل الأخيار من الأبطال وستشب حروب أخرى يبرز فيها أمثال أشيلوس فى أمثال طروادة (*) •

وربما جاء الاعتقاد فى نظرية « الرجعى » فى صورة يتجنب فيها الزعم الغريب بوجود تماثل مطلق بين الدورات ، ولكنها فى أغلب الأحوال قد عنت التكرار الرتيب ،الذى كان لا يتوقع اثارته لأى اهتمام بتأمل المستقبل • ينبغى ألا يتناسى افتقار أى مفكر الى سبيل معرفته لمدى قرابة نهاية دورته من الساعة التى يحيـــا بها فى الحاضر • واتبع أنصـــار الرواقيـــة ، أكثر المذاهب تأثيرا فى أواخر العصر اليونانى ، نظـــرية الدورات • وانعكس الأثر السيكلوجى الطبيعى للنظرية فى صـــورة قوية عند مرقص أوريلوس • فكثيرا ما اركن اليها فى « خواطره » • قال أوريلوس : « تحوم النفس العاقلة حول العالم بأسره ، وتحلق فى الفراغ المحيط به ، وتحدق فى الزمان اللامتناهى متأملة احداث الدمار الدورى للعالم ، واعادات مولده • وتستخلص من ذلك كيف لن ترى ذريتنا أى شىء جديد ، وكيف لم ير جدودنا ما هو أعظم مما رأينـــا • وربما جاز القول بان أى شخص فى الأربعين من عمره من أصحاب الذكاء المتواضع قد رأى كل ما مضى وما سيأتى • فكم هناك من اطراد فى العالم » (١) •

(٣)

ومع هـــذا فقد استطاع واحـــد من الفلاســـفة الرواقيين أن يرى بوضوح ، وأن يؤكد ، توقع حدوث زيادة فى المعرفة مستقبلا •

---

* Alter erit tum Tiphys et altera quae uehat Argo-Delectors heroas : erunt etiam altera bella, - Atque iterum and Toriam magnus mittetur Achilles.

(١) من الغريب أن تعود نظرية الدورات الى الحيـــاة فى القرن التاســـع عشر على يد نيتشـــه ، ومن المثير للاهتمام ، ملاحظة قوله : انه قد امضى وقتا طويلا الى ان امكنه التغلب على ما يوحى به هذا الاعتقاد من شعور بالتشاؤم

كتب سنيكا : « يجهل العديدون اليوم سر خسوف القمر · ولم يتم تعريفنا بذلك الا حديثا · وسوف يجىء اليوم الذى ينجح فيه الزمان ومثابرة بنى البشر فى ايضاح مشكلات تبدو مستغلقة الآن · اننا نقسم سنوات حياتنا القليلة قسمة غير متساوية بين الدراسة والرذيلة · وعلينا ان نتوقع تحقق القدرة على تعليل ظاهرة كالشهب اعتمادا على جهود عدة اجيال · نعم سيجىء يوم يدهش فيه اخلافنا من جهلنا بأسباب ستبدو واضحة لهم » ·

« كم هناك من حيوانات جديدة عديدة ، استطعنا معرفتها لأول مرة فى العصر الحالى ؟ وسيأتى زمان سوف يعرف البشر فيه الكثير مما نجهله · ان الكثير من الكشوف قد تركت لكى تكشف عنها العصور الآتية ، عندما نكون قد اختفينا من ذاكرة أبناء البشر · اننا نظن اننا على دراية بأسرار الطبيعة ، وان كنا فى الحق نقف على حافة محرابها » ·

ولكن هذه التكهنات بعيدة كل البعد عن اثبات دراية سنيكا ــ ولو بقدر طفيف ــ بمذهب تقدم البشرية ، لأن مثل هذا المذهب يتنافر أشد النفور مع مبادىء فلسفته ، وتشاؤمه العميق حين ينظر الى المسائل الانسانية : فبعد الفقرة التى استشهدت بها مباشرة ، قام سنيكا بالتوسع فى الكلام عن ارتفاع شأو الرذيلة : « هل تدهشون عندما يقال لكم ان المعرفة لم تكمل بعد رسالتها كاملة ؟ · ولماذا لم تبلغ البشرية بعد ذروة خبثها ؟ » ·

ومع هذا فربما قيل ان سنيكا قد اعتقد على أى حال فى تقدم المعرفة ، وادرك قيمتها ، وان كانت القيمة التى نسبها لها ، لا ترجع الى ما ينتظر أن تحققه من مزايا للبشرية فى جملتها · فمن وجهة نظره ، ترجع قيمة العلم الطبيعى الى أنه يفتح أمام الفيلسوف آفاق عالم علوى ، يستطيع أن « يحلق فيه بين النجوم » وبذلك يسخر من الأرض وكل كنوزها · وعندما « يتحرر عقله من سجنه ــ كما يمكن القول ــ فانه يستطيع العودة الى مأواه الأصلى » وبعبارة أخرى ، لا ترجع فائدة العلم الطبيعى الى نتائجه ، بل بكل بساطة الى أثره على الفكر · ومن ثم ، فانه لا يكون موضع عناية البشرية فى جملتها ، ولكنه يعنى قلائل من صفوة الأفراد، كتب عليهم العيش فى عالم شقى ، وبوسعهم اتباع هذا الطريق، لتحرير أنفسهم من العبودية ·

أعتقد سنيكا اعتقادا جازما فى نظرية تدهور البشر ، وفساده الميئوس منه · وتتعرض الحياة الانسانية على الأرض دوريا للدمار بتأثير

الرائق والفيضان بالتناوب • ويبدأ كل عصر بعصر ذهبي يحيا فيه الناس في بساطة فجة وبراءة ترجع الى جهلهم لا الى حكمتهم • وعندما يتدهورون من هذه الحالة تصبح الفنون والمخترعات عاملا مساعدا في زيادة التدهور بما تهيئه من أسباب للترف والرذيلة •

ومع الاعتراف بما في ملاحظات سنيكا من توقعات لبعض الكشوف المستقبلة للعلم ، بدت فريدة في الفكر القديم (١) ، الا انها بعيدة كل البعد عن أي اشارة لمذهب التقدم • فمنسه ، وبالمثل عند أفلاطون والفلاسفة القدامى، الزمان عدو الانسان •

(٤)

ومع هذا فقد كانت هناك مدرسة للتاملات الفلسفية ، لعلها كانت ستنتهي الى انشاء نظرية للتقدم ، لو كانت النظرة التاريخية لليونانيين أعظم اتساعا ، وكانوا مختلفين في طابعهم • فالنظرية الذرية لديموقريطس تبدو لنا الآن ، من جملة جوانب ، أدهش ما أنجز الفكر اليوناني ، وان كانت لم تحدث أكثر من أثر هين على اليونانيين ، وربما قل أثرها أكثر من ذلك ، لو ان عقلية ابيقور النيرة لم تقتنع بها • وقام الابيقوريون بالنهوض بها • ولعل الآراء التي طرحوها عن نشأة الجنس البشري من انشائهم أساسا • ولقد رفض هؤلاء الفلاسفة رفضا باتا فكرة العصر الذهبي وما يتبعه من تدهور ، باعتبارها تتعارض تعارضا واضحا مع نظريتهم القائلة بتكون العالم آليا من ذرات ، بغير تدخل الهي ، فبدت لهم أحوال أبناء البشر الأولى مشابهة لأحوال الدواب • ومن هذه الحالة البدائية التعسة ، شقوا طريقهم بعد عناء حتى بلغوا حالة الحضارة القائمة • ولم يتحقق ذلك بفعل ارشاد خارجي أو نتيجة لأي مخطط مبدئي ، بل بفضل آماد طويلة من ممارسة الذكاء الانساني (٢) • ومن العلامات التي صاحبت التحسن التدريجي الذي طرأ على وجودهم : اكتشاف النار ، واستعمال المعادن ، واختراع اللغة ، والنسيج ، ونهوض الفنون والصناعات والملاحة ، وارتقاء الحياة العائلية ، وتوطد النظام الاجتماعي بفضل الملوك والحكام والقوانين ، وانشاء المدن • وتبعا لما قاله ليوقريطس : كانت آخر خطوة في سبيل اصلاح الحياة ، ظهور الفلسفة

---

(١) انها عامة ومحددة • وبهذا تتميز على اشارات افلاطون العابرة في الجمهورية لما يتوقع لرياضيات المساحات من تقدم مستقبلا •

(٢) ليوقريطس (٥) ٩٩ ، ٤٤٨)

النيرة لابيقور الذى بدد الخوف من القوى الخفية ، وهدى الانســان من ظلمات الفكر الى النور •

غير ان ليوقريطس والمدرسة التى تبعها لم يتكهنوا باطراد استمرار التحسن الى ما هو أبعد من هذا فى المستقبل • واعتقدوا بمجىء يوم يحل فيه الدمار بالعالم (١) ، أما العهد الفاصل بين هذين التاريخين فلم يشغل اهتمامهم ، فلقد اعتقدوا ككثير من الفلاسفة الآخرين بأن فلسفتهم هى آخر كلمة يمكن أن تقال عن الكون ، ولم يخطر ببالهم قط أنه يمكن ان تتحقق خطوات متقدمة هامة فى المعرفة على يد الأجيال التالية • وعلى أى حال تركزت نظراتهم على الفرد ، وسمت كل تأملاتهم لغاية جعل حياة الفرد محتملة بقدر الامكان ، فى الحاضر ، هنا والآن ، وتشابهت فلسفتهم مع فلسفة الرواقيــة فى اتصـافها بالاستســلام ، أى كانت متشائمة تشاؤما مطلقا ، ومن ثم تعارضت مع فكرة التقدم ، وتسرب من بين أقوال ليوقريطس ذاته بين حين وآخر شعور بالشك فى قيمــة الحضــارة •

والحق انه من المستطاع القول بوجــود استعداد عنــد اليونان القدامى ، جعلهم غير مهيئين للتقبل الجاد لمثل هذه الفكرة ، فى حالات عرضـها عليهم • ولا وجود لأى عهــد فى تاريخهم يمكن وصفه بالعصر المتفائل • فلم يشعرهم ما أنجزوه فى الفن أو الأدب والرياضة والفلسفة اطلاقا بالتشامخ والرضا عن الذات ، أو بالانبهار ووضع آمال عريضة فى قدرات الانســان ، فاعتقدوا بأن فى حوزة الانسـان موارد خصبة تساعده على مواجهة كل شىء atto pos'en 'novsev epmetai أى يذهبوا الى مما هو أبعد من ذلك •

اصطبغ هذا التشاؤم اليونانى الفطرى بصبغة دينية ، ولعــل الابيقوريين أنفسهم قد اكتشـفوا انه من الصــعب محــوه ، فكانوا يشعرون دائما أنهم يواجهون قوى مجهولة لا يمكن حسابها ، وانه تكمن اخطار فادحة فى منجزات الانسان ، ومكاسبه • وعلى هذا الشعور ، بنى هوراس فكرته التى انتقد فيهـا قدرات الانســان على الابتكار • وتوحى أى منطوقة فى أدب أسفار فيرجيل بالاعتقاد بأن حياة صـديقه ما كانت لتتعرض للخطر فى غمار البحار ، لو أن فن الملاحة لم يكتشف

(١) نفس المصدر ص ٩٥ •

قط ، أو خضع الانسان صاغرا للحدود التي فرضتها الطبيعة • ولكن الانسان قد اتصف بالصفاقة :

بلا طائل ، ما قام به الإله الحكيم ، عندما فصل

البر عن البحر (*) •

واقتحم ديادلوس الفضـاء ، مثلما غزا هرقل الجحيم • وساعدنا اكتشاف النـــار على الاحاطة بسر محظور • فهل كانت هذه السيطرة المصطنعة على الطبيعة أمرا ماهونا أو حكيما ؟

لم ير الانسان في أي عمل مشقة ، أو يفوق قدراته

ولم تنج حتى السماء من رغبات الانســـان

ولقد دفعت نوايانا المتهورة جوبيتر الى الغضب فلم يعد يجرؤ على التهديد بوعوده •

عبر معنى هذه القصيدة على وجه التقريب عن كيف كانت « فكرة التقدم » ستبدو للاحساس الفطرى لليونانيين أرباب الحكمة ، لو أنهـا عرضت عليهم • فلعلها كانت ستصدمهم بجرأتها بوصفها نظرية عن أناس ارتقوا بلا حق ، واستخفوا بالخطر ، عندما واجهوا قوى مجهولة لا يمكن حسابها •

وارتبط هذا الشعور أو الاتجاه بفكرة « المويرا » Moira • ولو حاولنا اختيار أى معنى ، باعتباره قد تحكم بوجه عام فى الفكر اليونانى، أو ساده من عهد هوميروس حتى الرواقيين ، فاننا لن نجد أغلب الظن. ما هو أفضل من فكرة « المويرا » • ولا وجود لدينا لأى كلمة مرادفة لها • وما شاع عن التماثل بين الكلمـة وكلمـة « قدر » يؤدى الى الضلال - « فالمويرا » تعنى نظاما ثابتا للكون ، ولكنها كحقيقة ينبغى أن يخضع لها الانسان تشترك فى الكثير مع « المذهب القدرى » ، من حيث اعتمادها على فلسفة للاذعان والاستسلام تحول دون خلق أى جو متفائل من الأمل• كان هذا الاعتقاد هو الذى حافظ على بقاء كل شىء فى موضعه ، وخصص له مكانه الحقيقى ومهمته الحقيقية ، فأقام حدا فاصلا بين بنى البشر والآلهة على سبيل المثال • وربما كان تقدم البشر نحو الكمال أو نحو مثال العلم بكل شىء ، أو مثال السعادة سيبدو تحطيما للفواصل التى

★ Nequiquam deus abscidit - Prudens Oceano dissociabili, Terras

تفضل الانسان عن الالهى . فالطبيعة الانسانية لا تتغير ، لقد حددت « المويرا » حدودها .

(٥)

نستطيع أن ندرك الآن لماذا لم تهتد العقول اليونانية فى نظرياتها اطلاقا الى فكرة التقدم . فأولا لم تيسر تجربتهم التاريخية المحدودة الايحاء بمثل هذه الفكرة التركيبية . وثانيا — لقد أوحت مسلمات فكرهم ، وتشككهم في التغير ، ونظرياتهم في المويرا والتدهور والدورات بنظرة للعالم بالغة التعارض مع الرقي والتقدم . وليس من شك أن الفلاسفة الابيقوريين قد خطوا خطوة يصح اعتبارها هامة نحو فكرة التقدم ، عندما استبعدوا نظرية التدهور ، واعترفوا بان الحضارة من صنع سلسلة من التحسينات المتلاحقة التي تحققت بفضل الانسان وحده . ولكنهم لم يذهبوا بعيدا فى هذا الشأن . اذ تركزت نظراتهم على حالة الفرد فى الحاضر (هنا والآن) وخضعت دراستهم لتاريخ البشرية خضوعا صارما لهذا الاهتمام الشخصى . وخضعت قيمة اعترافهم بالتقدم الانسانى فى الماضى للنزعة العامة لنظريتهم فى الحياة ، وغايتها . فلم يزد هذا الاعتراف عن فقرة واحدة من برهانهم على أن الانسان غير مدين بأى شيء للتدخل العلوى ، وبان عليه ألا يخشى من أية قوة خارقة للطبيعة ، ومع هذا فلعلها لم تكن محض مصادفة أن يكون مذهب الفكر الذي استطاع طرق الطريق الذى ربما كان سيؤدى الى الاهتداء الى فكرة التقدم أكثر المذاهب لتى انجبتها اليونان تصلبا فى معاداة الخزعبلات .

وربما اعتقد بانه ما كان من المستبعد تعرف خيال بعض من تأملوا هذه المسألة في عهد فيرجيل أو سنيكا الى منظر المستقبل كنتيجة لتوطد حكم الرومان وتنظمهم في جزء كبير من العالم المعروف ، وتحضير الشعوب البربرية . ولكن علينا الا ننسى أن أحوال الحياة لم تتعرض للتغير الذى كان سيوحى بنظرة أسطع للوجود الانسانى . فلقد أدى فقدان الحرية الى زيادة التشاؤم ، واشتدت الحاجة الى فلسفات الاستسلام اليونانية أكثر من أى وقت مضى . ورأى أولئك الذين لم يقنعوا بها الاتجاه بافكارهم نحو فلسفات وأديان غيبية جديدة ، كانت قليلة الاهتمام بالمصير الدنيوى للمجتمع الانسانى .

(٦)

تعارضت فكرة العالم التي سادت خلال العصور الوسطى وكذلك الاتجاه العام لمعتقدات الناس مع بعض الافتراضات الأساسية التي تتطلبها فكرة التقدم • وتبعا للنظرية المسيحية التي نادى بها آباء الكنيسة ، والقديس أغسطين خاصة ، ما تهدف اليه حركة التاريخ كلها هو تامين سعادة نفر صغير من الجنس البشرى فى عالم آخر • ولم تسلم النظرية المسيحية بأى تقدم أبعد للتاريخ الانسانى على الأرض • فقد ظن أغسطين ، وكذلك كل المؤمنين من أبناء العصور الوسطى أن التاريخ سيبعد مكتملا على خير وجه اذا انتهى أجل العالم خلال حياته • فلم يكن يعنيه وجود ارتباط بين أى تحسن تدريجى يطرأ على المجتمع أو ازدياد فى المعرفة ، وبين الفترة الزمنية الباقية على يوم الحساب ، ففى مذهب أغسطين ، كان العصر المسيحى آخر عهد فى التاريخ المثل للعهد القديم للانسانية • وهو لن يدوم الا بالقدر الذى ييسر للرب تجميع الذين كتب لهم النجاة من أبناء هذا العالم • ومن المستطاع الجمع بين هذه النظرة والاعتقاد الشائع على نطاق واسع باستمرار حكم المسيح ألف سنة على الأرض ، وان كان تصور مثل هذا الاتجاه لا يجعل منه نظرية للتقدم •

كما أن الفكر فى العصور الوسطى لم يعتبر التاريخ تقدما طبيعيا ، ولكنه رآه مجموعة من الأحداث التى جاءت نتيجة للتدخل الالهى والوحى • ولو تركت الانسانية لنفسها لما كان من المستبعد انحرافها الى غاية غير مرغوبة الى أبعد حد ، ولالاقى معظم الناس مصير الشقاء الدائم الذى نجت منه الأقلية بفضل التدخل العلوى • وليس من شك فى أن الايمان بالنعمة الالهية وبعالم آخر آت قد استطاع الالتقاء بالايمان فى التقدم فى نفس الروح ، وان كان الفرضان الأساسيان اللذان اعتمدا عليه قد بدوا بعيدى الاتصال • وفى حالة تصدر أى مذهب للنعمة الالهية بلا منازع يتعذر بزوغ أى اعتقاد فى التقدم • وهكذا تحكم مذهب النعمة الالهية ، كما وضعه القديس أغسطين فى كتابه « مدينة الله » فى فكر العصور الوسطى •

وفضلا عن ذلك ، فقد كان هناك مذهب الخطيئة الأزلية ، وهو عائق عسير التخطى ، يعترض حدوث أى تحسن خلقى فى الجنس البشرى معتمدا على أى عملية تدريجية من التطور . فما دام النوع الانسانى باقيا على الأرض ، فان كل طفل سيولد مفطورا على الشر ، جديرا بالجزاء ، وبذلك سيتعذر بلا مراء حدوث تقدم أخلاقى للبشر نحو الكمال .

(٧)

على أن هناك ملامح معينة فى النظرية الوسيطة ، علينا ألا نغفل مغزاها . فهى أولا رغم اتباعها الاعتقاد بالتدهور ، مؤيدة بذلك أساطير العبرانيين ، الا أنها قد تخلت عن نظرية الدورات عند اليونانيين ، وأدركت تاريخ الأرض ظاهرة فريدة فى الزمان ، يتعذر تكرارها ، أو حدوث شبيه لها . وأهم من كل ذلك هو الفكرة التركيبية التى وضعها اللاهوت المسيحى ، وحاول فيها لأول مرة تحديد معنى محدد لكل اتجاه الأحداث الانسانية ، وفيها صور الماضى كشىء متجه الى هدف محدد مرغوب فى المستقبل . وبعد أن اتبع الناس بوجه عام هذا الاعتقاد ، وانتشر بينهم لعدة قرون ، استطاعوا التخلى عنه هو ومذهب النعمة الالهية الذى اعتمد عليه ، وان كانوا لم يقنعوا بالعودة مرة أخرى الى نفس النظرات التى رضى عنها القدامى الذين بدا لهم التاريخ الانسانى فى حالة ادراكه جملة حكاية ذات معنى هين الشأن (١) ، فكان عليهم البحث عن تركيبة فكرية جديدة تحل محل الأولى .

ومن الملامح الأخرى للنظرية الوسيطة ، والمناسبة لبحثنا ، فكرة نقلتها المسيحية عن المفكرين اليونانيين والرومان . ففى العصر المتأخر من التاريخ اليونانى ، والذى بدأ بغزوات الاسكندر الأكبر بزغ تصور

---

(١) يلاحظ أن أغسطين (فى مدينة الله الفصل العاشر) قد قارن طريقة تعلم شعب الله فى شتى مراحل التاريخ بتعلم الفرد . وبرودنتيوس تشبيه مماثل استعمله لغاية مختلفة Symmachum (ص ٥/٣ وما بعدها)

Tradis semper processibus aucta – Crescit vite hominis et longo proficit usu – sic aevi mortalis habet se mobilis ordo-sic variat natura vices, infantia repit, etc.

ولقد قسم فلوروس (فى Epitome) التاريخ الرومانى الى اربعة عهود مناظرة للطفولة والمراهقة والشباب والشيخوخة .

ترجمة هذه الأبيات : مازالت تتطور حياة الانسان رغم خطواتها الحثيثة ، وتستفيد من الخبرة الطويلة

على هذا النحو يسير نظام حياة الانسان واضطرابه وأطوار حياته منذ بدء حبوه .

وجود وحدة شاملة لكل ربوع العالم المسكون · أى فكرة واحدة العنصر الانساني برمته · وربما كان من المناسب تسميتنا لها بفكرة ال Ecumenical ، أى مبدأ «الاكومين» (١) Ecumene أى العالم الآهل المسكون كمقابل « للبوليس » أو « المدينة » · وارتقت الفكرة على أثر الاتساع الكبير للحدود الجغرافية للعالم اليوناني ، نتيجة لفتوحات الاسكندر وسياسته الرامية الى تحطيم الحواجز بين اليونانيين والبرابرة ، ثم انعكست في المذهب الرواقي القائل باخوة كل أبناء البشر ، وان البلد الحقيقي للانسان ليس بلدة معينة ولكنه العالم برمته، أى « الاكومين » (العالم المسكون) · وسرعان ما شاعت الفكرة ، وقامت أكثر الفلسفات المتأخرة ذات التأثير الشعبي بترويجها · وكما جاءت الفكرة متضمنة في تطلعات الاسكندر وسياسته لانشاء الامبراطورية ، كذلك ظهرت متضمنة وبوضوح أشد . في النظرية الامبراطورية لروما· ومن المستطاع القول بان الامبراطورية الرومانية ، كانت تسعى من الناحية النظرية لتحقيق وحدة العالم عن طريق وضع نظام موحد ، أى خلق وحدة للبشرية في عالم له كيان عضوى سياسي واحد · وكلمة عالم (Orbis أو terrarum) التى استعملها شعراء الامبراطورية الرومانية عند التحدث عن الامبراطورية تزيد عن مجرد مبالغة شاعرية أو وطنية · فهى تعبر عن الفكرة والمثل الأعلى الذى لم يتحقق للامبراطورية · وهناك حجر من «هاليكارناسوس» فى المتحف البريطاني، عبر فيه عن الفكرة من وجهة نظر أخرى · وترجع نقوش الحجر الى عهد أغسطس ، وفيه وصف الامبراطور بانه « حامى مجتمع البشر » · هنا نصادف فكرة الجنس الانساني وتصوره ككل أى الفكرة « الاكومينية » التى فرضت على روما المهمة التى وصفها فيرجيل بمهمة « انشاء أمة واحدة تخضع لحاكم واحد » كما وصف غايتها بليني بطريقة أكثر انسانية بانها خلق نظام أبوى واحد يرعى كل شعوب الأرض ·

تحولت هذه الفكرة ، التى اتخذت فى الامبراطورية الرومانية والعصور الوسطى صورة الدولة الجامعة والكنيسة الجامعة الى معنى التماسك الداخلى بين الشعوب بوصفها مسهمة فى حقل الحضارة ، وعندما ظهرت فكرة التقدم فى النهاية فى العالم ، كان هذا المبدأ من بين العناصر التى ساعدت على ازدهارها ·

---

(١) لاحظ بلوتارك منذ أمد بعيد الصلة بين سياسة الاسكندر والتعاليم العالمية لزينون راجع (De Alexandri Magni virute).

(٨)

يستحق الراهب الفرنشيسكي روجر بيكون ، الذي ينفرد في العصور الوسطى بمكانة مميزة ، اهتماما خاصا • ولقد نسب اليه المجاهرة بفكرة التقدم ، بل وقورن بكوندرسيه وكونت • وتستند مثل هذه المزاعم الى فقرات منتزعة من سياقها ، ثم فسرت بتساهل على ضوء نظريات متأخرة • ولا تستطيع هذه المزاعم الوقوف أمام أى استقصاء لنظراته العامة عن الكون وغايات كتاباته •

تركزت غايته على اصلاح التعليم فى أعلى مراتبه ، وادخال دراسات دنيوية ذات برنامج علمى واسع ومتحرر • وراعى فى كتابه الأساسى Opus Majus (الكتاب الأكبر) هذه الغاية ، وجاء عرضه لكشوفه أمرا ثانويا بالنسبة لها • والكتاب موجه الى البابا اكلمنس الرابع ، الذى كان قد طلب من بيكون بيانا عن بحوثه فصمم الكتاب لاقناع الحبر الأعظم بنفع العلم من وجهة نظر الكنيسة ، مع حثه على قبول اصلاح الناحية الفكرية ، الذى ما كان ليتحقق حينئذ بغير موافقة الكنيسة • وسعى بكل براعة ودهاء لبيان عدم امكان الاستغناء فى اية دراسة ذكية للاهوت والرسائل عن الدراسات التى أولع بها كالرياضة والفلك والفيزياء والكيمياء • وعلى الرغم من اتجاه بعض براهينه الى محاولة استغلال حسن نية البابا ليس الا ، فانه ما من شك فى أن بيكون كان مخلصا اخلاصا مطلقا فى اعتقاده ان اللاهوت هو سيد العلوم ، dominatrix التى لا ترجع قيمتها الى أى شىء سوى كونها ضرورية لهذا اللاهوت •

لا جدال ان بيكون قد بنى دعواه ومشروعه الاصلاحى على مبدأ الاتصال المتبادل بين كل فروع المعرفة ، وفكرة « وحدة » العلوم ، وفيها بشائر لأفكار عصر قادم • ويعد هذا المبدأ احدى الدعامتين الأساسيتين اللتين استحق من أجلهما الخلود • فهى تؤلف الموضوع الرئيسى لكتابه « أوبوس ماجوس » • وربما تيسر له استيفاء عرض هذه الفكرة ، لو أنه عاش لاكمال عمله الموسوعى scriptum Principale الذى لم يبدأ كتابته الا قبيل وفاته • أما السبب الآخر لاستحقاق الشهرة فمعروف جيدا • فلقد ادرك ما لم يدركه أحد قبله : أهمية المنهج التجريبى فى استقصاء أسرار الطبيعة • ويكاد يكون الرائد الوحيد للطريق الذى شقه سميه العظيم (فرنسيس بيكون) ، بعده بأكثر من قرون ثلاثة ، واسترعى انتباه العالم •

ولكن على الرغم من الهام روجر بيكون بهذه الأفكار المستنيرة ، ونبذه للكثير من تحاملات عصره ، وثورته الجريئة ضد طغيان الفلسفة المدرسية السائدة ، الا أنه مع ذلك كان ابنا لعصره في جوانب أخرى • فلم يستطع التحرر من النظرة الوسيطة الشائعة عن الكون • ولم تختلف نظراته العامة لاتجاه التاريخ البشري ، اختلافا ملموسا عن نظرة القديس أغسطين • فعندما كان يقول ان الغاية العملية لكل معرفة تامين سلامة الجنس البشري ، فانه كان يفسر هذا القول على أنه يعني « ما يؤدى الى السعادة في الحياة الآخرة » •

ومن المناسب ملاحظة أن بيكون لم يكتف بالاشتراك في الاعتقاد بالتنجيم ، الذي كان سائدا حينئذ ، بل لقد رآه من أهم أقسام «الرياضة» ولم ترض الكنيسة عن هذه الدراسة ، وبدت لها خطيرة ، ودافع بيكون عن فائدتها لصالح الكنيسة ذاتها • وتشابه مع القديس توما الاكويني في اعتقاده بوجود تأثير للأجرام السماوية على وظائف الجسم • ورأى بالكواكب علامات تنبيء بما يضمره لنا الله منذ الأزل تبعا لمشيئته ، ويتمثل لنا في مظاهره الطبيعية أو في أفعال الارادة الانسانية ، أو في أفعاله المباشرة• فمن المستطاع التنبؤ بالطوفان والأوبئة والزلازل والثورات السياسية والدينية من علامات في الأجرام السماوية • ويخضع وجود الأديان الستة الأساسية لما يدور بين جوبيتر والكواكب الستة الأخرى، وتوقع بيكون جادا انطفاء جذوة الدين الاسلامي قبل نهاية القرن الثالث عشر ، بناء على نبوءة لأحد المنجمين العرب •

ومن بين أعظم الفوائد التي ستعود على الانسانية من دراسة أساطير التنجيم ، امكان الاعتماد عليها في المعرفة المؤكدة لتاريخ ظهور المسيح الدجال ، وبذلك تستطيع الكنيسة الاستعداد لمواجهة أخطار هذا اليوم العصيب ، ومحنته ، ويعني ظهور المسيح الدجال ، نهاية العالم • وقبل بيكون هذه الفكرة ، وقال ان جميع العقلاء يؤمنون بها ، « ولسنا بعيدين كثيرا عن تاريخ ظهور المسيح الدجال » • وهكذا لم تهدف الاصلاحات الفكرية التي دعا اليها الى أكثر من تهيئة العالم المسيحي لزيادة التوفيق في مواجهة الفساد الذى سيحل بالعالم بعد حكم المسيح الدجال • وقال « ان الحقيقة ستسود (ويعني بذلك احراز العلم للتقدم) ولكن بعد عناء ، الى أن يظهر المسيح الدجال ، وأسلافه • وأوضح أن هذا يحتمل أن يتحقق بعد مهلة قصيرة » •

وتظهر وفرة المرات التي عاود فيهما بيكون الرجوع الى هذا الموضوع ، وتأكيده له ، مدى استحواذ فكرة ظهور المسيح الدجال على

أفقه الذهني · وعندما تطلع الى المستقبل ، كان ما رأى هو مشهد الفساد والطغيان والصراع في ظل حكم عدو همجي للعالم المسيحي ، ثم نهاية العالم التى ستجيء بعده · وعلينا الاعتماد على وجهة النظر هذه عند الحكم على الملاحظات التى أبداها عن تقدم المعرفة · قال بيكون : « من واجبنا الاضافة الى ما تركه القدامى بلا اكتمال ، لاننا قد طرقنا أبواب اجتهادهم ، التى ستدفعنا الى تحقيق نتائج أفضل ، اللهم الا اذا كنا حميرا · ولقد صحح أرسطو أغلاط المفكرين الأقدم ، وصحح ابن سينا وابن رشد أرسطو في بعض مواضع ، وأضافا الكثير مما هو مستحدث · وسيستمر الحال على هذا المنوال حتى نهاية العالم » · واستشهد بيكون بفقرات من كتاب « أبحاث فيزيائية » لسنيكا لبيان كيف يتحقق الحصول على العلم شيئا فشيئا · ولقد سبق التنبيه بالفعل الى هذه الفقرات ، وبيان مدى الانحراف المترتب على الاعتماد عليها في الزعم بأن سنيكا من دعاة التقدم · ونسب نفس الادعاء ـ وهو ليس أقل انحرافا ـ لبيكون مع الكثير من الثقة · ولا تتوافق فكرة التقدم ، كما لا يخفى ، مع رؤياه للعالم · ولو ان برنامجه لاحداث ثورة في التعاليم الدنيوية لاقى قبولا ـ فلقد خر هذا البرنامج صريعا ، ونسى كتابه لعصور طويلة ـ لكان من الجائز اعتباره صاحب اتجاه اصلاحي تقدمي ، ولكن كم هناك من مصلحين قبل بيكون وبعده ، لم تخطر فكرة التقدم لهم على بال ؟

(٩)

وهكذا تبين نظريات الأب بيكون عن الاصــــلاح العلمي ـ والتي لا يصح النظر اليهـا بأي حال كتباشير لفكرة التقدم ـ مدى استحالة امكان ظهور هذه الفكرة في العصور الوسطى · فثمة تنافر بين المسيحية الوسيطة وبينها ، اذ كان للنظرات السائدة عن دور النعمـة الالهية والاعتقاد باحتمال بلوغ العالم لنهايته بغتة ـ كأهل بيت داهمهم لص بالليل ـ أثر لم يختلف عن تأثير النظريات اليونانية عن طبيعة التغير ، وتكرار عودة دورات العالم ، أو بالأحرى كانت ذات أثر أقوى ، لأنهـا لم تكن نتائج مستخلصة من براهين عقلية ، ولكنها عقائد دوجماطيقية تستند الى سلطان الاله · كما كانت النظرة المتشائمة الوسيطة الى أحوال الدنيا أتم وأشد صرامة من التشاؤم عند اليونان · وكان هناك توقع للسعادة في عالم آخر ، من قبيل التعويض ، غير أن أثر هـذه الفكرة التى ألهبت الخيال ، قلل الاقدام على تأمل مصير الانسان على الأرض ·

أمضت البلدان المتحضرة فى أوربا قرابة القرون الثلاثة فى الانتقال من عقلية العصور الوسطى الى عقلية العالم الحديث • كانت هذه القرون من ألمع العصور النقدية فى التاريخ ، وان كانت ظروفها لم تساعد على ظهور فكرة التقدم ، رغم قيام « الوسط » الفكرى بتمهيد الطريق أمام مولد هذه الفكرة •

استمر هذا العصر التقدمى ، الذى جرت العادة على تسميته بعصر النهضة (الرينسانس) من القرن الرابع عشر الى القرن السابع عشر • وتتلخص النتائج الكبرى التى تهم غايتنا فى هذا الكتاب ، وحققها العقل الأنسانى فى هذه المرحلة من تقدمه فى نتيجتين : استعادة العقل الأنسانى ثقته بنفسه ، والاعتراف بالقيمة التى تتمتع بها الحياة على الأرض مستقلة عن أى أمانى ومخاوف مرتبطة بالحياة بعد الموت •

ولكن الناس عندما نبذوا وسذاجة» العصور الوسطى ، وخزعبلاتها، واتبعوا اتجاها أكثر تحررا نحو السلطات اللاهوتية ، وعندما وضعوا تصورا جديدا لقيمة الشخصية الانسانية ، رجعوا الى المفكرين اليونان والرومان للاهتداء بهم ، واستحضروا روح العالم القديم لطرد العصور المظلمة • وهكذا تراجعوا بعقولهم الى الوراء ، الى حضارة قديمة جعلوا منها مثالا لهم بدافع حرارة الولع بالكشوف الجديدة ، ورد الفعل ضد نزعات العصـور الوسطى • وارتقى العرش سلطان جـديد : سلطان القدامى من الكتاب • واتبع رجال النهضة ، وثبتوا ، فى تأملاتهم العامة الكثير من نزعات الفلسفة اليونانية ، وعقائدها الجامدة • وعلى الرغم من تحقق بعض الكشوف الكبرى ذات الآثار الثورية البعيدة فى هذا العصر ، فان أغلب العقول الفعالة عكف على اعادة اكتشاف ما هو قديم ، والتوسع فيه ، ونقده ومحاكاته • ولم يبدأ التأمل فى البحث وشق الطريق نحو نقطة انطلاق جديدة الا فى السنوات الأخيرة من عهد النهضة • فلم يبدأ رد الفعل ضد الآثار العميقة للفكر الوسيط الا حينئذ •

ولو اردنا تصوير مدى قصور هذا العصر ، فما علينا الا الرجوع الى ماكيافيلي وهو من أعظم المفكرين الأصل الذين انجبتهم ايطاليا ·

وثمة أسس رئيسية معينة وراء علم سياسة ماكيافيلي ، قام ببيانها عرضا في الأسلوب غير المنهجي الذي عرف به ، وان كانت هذه الأسس ذات قيمة جوهرية لادراك معتقداته · الاساس الأول ـ تشابه عالم الانسان في كل العصور · فمع التسليم بوجود اختلافات تفرق بين بلد وآخر ، الا أنها تعرض دائما نفس مظاهر المجتمعات المتجهة نحو الرخاء ، والأخرى المتجهة نحو التدهور · وتصل تلك المتجهة الى الارتقاء ، الى نقطة تعجز بعدها عن أي ارتفاع آخر ، ولكنها لن تظل على حالها في هذا المستوى ، ولذا فانها ترغم على التدهور ، لأن أحوال الانسان في حركة دائمة · وعلى هذا فهي اما تتجه الى الصعود أو الهبوط · وبالمثل تتدهور الدول حتى تبلغ الحضيض في آخر الأمر ، ثم تبدأ في الصعود · وهكذا لن يستطيع أي دستور أو نظام اجتماعي جيد الاستمرار لاكثر من فترة قصيرة ·

لا يخفى تأثر ماكيافيلي بالقدماء في هذه النظرة الى التاريخ · والنتيجة المستخلصة من مقدماته هي عظم قيمة دراسة الماضي ، لانها تيسر للناس الاطلاع على ما سيأتي فيما بعد لوجود نظير في العصور القديمة لكل أحداث المجتمع في أى عصر ، « لأن مرد هذه الأحداث هو الناس الذين اتصفوا دائما بنفس الأهواء ومن ثم يتحتم أن تكون الآثار واحـــدة » ·

واتبع ماكيافيلي أساتذته القدامى أيضا عندما سلم بانه لا يمكن أن يتحقق أى نظام حسن للمجتمع الا اذا اعتمد على تصميم حصيف لمشرع حكيم · فما صور الحكومات والأديان الا مبتكرات شخصية لعقل فرد بالذات · ولن يتحقق أى دستور يدعو الى الرضاء ، ولن يتيسر لأى دين البقاء لأى فترة من الزمان الا اذا قمعت بلا هوادة أى نزعات تهدف الى الانحراف عن التصورات الأصلية لخالقها ·

والصحيح ان هناك رباطا منطقيا يربط بين هذين الافتراضين · ويبنى المشرع تشريعاته على الاعتقاد بثبات الطبيعة الانسانية · فما يوصف بانه خير عند جيل ، ينبغي أن يتصف بخيريته بالنسبة لأى جيـل آخر · فالتغير يعني الفساد عند ماكيافيلي ، كما كان الحال عند أفلاطون · وهكذا استبعدت نظريته الأساسية أى تصور لنظام اجتماعي مقبول يبزغ تدريجيا بفضل العمل اللاشخصي للأجيال المتعاقبة التي تكيف أنظمتها

تبعا لحاجاتها وتطلعاتها المتغيرة . ومن العلامات المميزة ، ومن النقاط الأخرى التي تشابه فيها مع المفكرين القدامى قيامه بالبحث عن الدولة المثاليه في الماضي — في روما الجمهوريه .

لم تترك هذه المعتقدات القائلة بتماثل الطبيعة البشرية ، ووجود مشرع قادر على كل شيء ، مجالا لظهور ما يشبه نظرية التقدم . ومع أن هذه المعتقدات لم تلق تاييدا في الصورة القاطعة التي قدمها ماكيافيلي ، الا انها كانت كامنة وراء بعض أشهر تاملات القرن الثامن عشر ، كما أشير في بعض المراجع على خير وجه .

(١١)

ما قاله ماكيافيلي عن تماثل الطبيعة الانسانية يعني استمرار اتصاف الانسان بنفس الاهواء والرغبات ونقاط الضعف والرذائل ، وتوافق هذا الزعم مع النظرة السائدة على نطاق واسع بحدوث تدهور للانسان خلال الألف والخمسمائة السنة الأخيرة . فبعد أن رفع من قدر قدامى اليونان والرومان الى مكانة من السمو يتعذر بلوغها ، وبخاصة في عالم المعرفة ، كان استخلاص تدهور البشرية أمرا منتظرا ومتوقعا . فما دام اليونانيون في الفلسفة والعلم أهل ثقة وهداية ، ولن يلحق بهم أحد في الفن والأدب ، وما دامت جمهورية روما — كما اعتقد ماكيافيلي — دولة مثالية ، فان معنى ذلك ، كما يبدو ، هو حدوث تدهور في قوى الطبيعة التي لن تستطيع انجاب عقول من نفس النوع . وما دامت مثل هذه النظرية العقيمة سائدة ، فان ظهور نظرية للتقدم كان أمرا متعذرا كما لا يخفى .

غير أنه في خلال القرن السادس عشر ، بدأ الناس هنا وهناك مع بعض التردد والاجتهاد يتمردون ضد طغيان القدم ، أو بالأحرى يمهدون الطريق أمام التمرد السافر الذى اندلع في القرن السابع عشر . وتعرض الحصن المنيع للعلم القديم للهجمات ، فهز كوبرنيك سلطان بطليموس وأسلافه ، وجرحت أبحاث فيساليوس في التشريح عظمة جالينوس . وهاجم رجال من أمثال تايسيو وكاردان وراموس وبرونو أرسطو من كل جانب ، وظهرت في فروع العلم الجزئية مستحدثات بشرت بحدوث ثورة جذرية في دراسة الظواهر الطبيعية ، وبرغم انهم لم يدركوا المغزى العام للنبوءات التي أتيات بها هذه الأبحاث ادراكا واضحا فقد كان المفكرون ورجال العلم يحيون في غسق فكري : الغسق الذى يصحب

الغير . فعند أحد الأطراف نصادف الفكر الغيبي الذي بلغ ذروته في نظريات برونو وكامبنيلا ، ونصادف في الطرف الآخر شكوك مونتاني وشارون وسانشيز Sanchez . ومن دلائل اضطراب أحوال المعرفة ، قبول برونو وكامبنيلا لنظريات كوبرنيك في الفلك ، ورفضها من واحد ممن يعدون من جملة جوانب من المحدثين ، وأقصد بذلك فرنسيس بيكون .

على ان هذا الاتجاه المتصاعد نحو تحدي سلطان القدامى ، لم يزد من انفصال هذا العصر عن الروح التي شكلت عصر النهضة . فهو ثانوي عرضي بالنسبة الى غاية أهم وأعم . اذ كانت النهضة في باكورتها تهدف الى رد اعتبار الانسان ، ابن الطبيعة ، وتطالب بوجوب تحكمه في ادارة دفة حياته ، وتؤكد حريته في عالمي الفن والأدب . وعكفت النهضة في أواخر عهدها على دراسة مشكلة استيفاء هذا التحرر في عالم الفكر الفلسفي ، وقدمت ميتافيزيقا برونو الجريئة التي كفر عنها بميتته محروقاً حلا مكملا بعيـدا عن الحلول التقليـدية . فلقد عني تأليهه للطبيعة ، والانسان كجزء من الطبيعة ، تحرر الانسانية من أي سلطان خارجي . على أن بعض العقول التأملية الأخرى في العصر ، رغم انها كانت أقل جرأة ، الا انها كانت ملهمة بالمثل بفكرة التحرر عند استجواب الطبيعة . وانهمكوا جميعا في تنفيذ برنامج النهضة ـ برهنة قيمة هذا العالم للانسان بغض النظر عن علاقته بأي عالم علوي . هنا اشترك في أساس واحد كل من جوردانو برونو بنشوات وجدانه ، وفرنسيس بيكون برصانته . وكانت الحركة بأكملها تمهيدا ضروريا لعصر جديد يسوده العلم .

يلاحظ ان العلم ونشاط الفكر قد قوبلا بترحاب وغبطة . وعبر عن هذا التفاؤل رابليه . فلقد ارسل جارجنتوا رسالة الى ابنه بانتاجرويل الذي يدرس في باريس رفع فيها من شأن ما طرأ حديثا على العلم والتعليم من تحسن : « كل العالم زاخر بالنـابهين من أهل العلم والمعرفة ، وبالمكتبات الضخمة . وفي ظني ان عهود افلاطون أو شيشرون وبابينيان لم تر يسرا في الدراسة مشابها لما أراه الآن » . لا جدال ان دراسة اللغات والآداب القديمة كانت المسألة التي قدرها جارجنتوا في أي تعليم متحرر ، وان كان الرضا بالانتشار الحاضر للعلم ، وما فيه من ايحـاء بتفوق المعاصرين على القدامى في هذه النقطة على أقل تقدير ، من النقاط ذات الدلالة . ويتألق هذا الرضا من خلال ملاحظات راموس . في غضون

قرن واحد ، رأينا تقدما أعظم بين رجال العلم وفي أعمالهم فاق ما رآه اسلافنا خلال الأربعة والعشرة قرنا الماضية برمتها (١) ·

في هذه المرحلة الأخيرة من مراحل عصر النهضة ، التي تضم الربع الأول من القرن السابع عشر ، مهدت الأرض التي يمكن أن تنبت فيهما فكرة التقدم · ويبدأ ما نعرفه من تاريخ أصلها بلا منازع بعمل رجلين ينتميان لهذا العصر : بودان الذى لا يكاد يعرف الا عند بعض التلاميذ المتخصصين في علم السياسة ، وبيكون الذى عرفه العالم بأسره · فلقد تفوق الاثنان على مفكرى عصريهما في ادراك قيمة هـذا العصر · وعلى الرغم من عدم اكتشاف الاثنين لأية نظرية للتقدم ، الا انهما قد شاركا في الفكر الذى ساعد على ظهورها فيما بعد ·

---

(١) لاحظ غليوم بوستل في كتابه De Magistratibus Atheniensium liber (١٥٤١) حدوث تقدم مستمر في الزمان · (Secula semper proficerre) وستترى اضافة في كل يوم للمعرفة الانسانية · ولن يتوقف هذا الا اذا أرادت الارادة الالهية تحطيم كل الكنوز المكتسبة من المعرفة التي نقلتها الكتب من القدم ، بفعل الحرب او الوباء او أى كارثة أخرى · انظر بجمع كل ما هو معروف عن حياة هـذا العالم الذى كاد ينسى قايل في كتابه De Gallcimi Postellivita et Indele ١٨٩٢ · وكان بوستل قد زار الشرق ، ورجع بمخطوطات منه وسجن أكثر من مرة بتهمة المروق · وكان يحلم بتنصير المسلمين وباخضاع العالم برمته لامبراطورية فرنسا ·

الفصل الأول
بعض تفسيرات للتاريخ العالمي: بودان وليروا

(١)

الهوة واسعة بين عبقرية ماكيافيللي ، وجان بودان المؤرخ الفرنسي الذي نشر مقدمة للدراسات التاريخية (١) ، بعد وفاة ماكيافيللي بقرابة الأربعين عاما فهنالك اختلاف واسع بين نظرته ومنهجه وبين نظرة ومنهج ذلك الرائد العظيم الذى تعرض لمهاجمته • فلم تسترع انتباه بودان أية مستحدثات مذهلة أو معتقدات لا أخلاقية ، فبدا فاترا مأمون الجانب •

ولكن بودان قد فاق فى اتساع مجال فكره ماكيافيللى الذى اكتفى بالتركيز على نظريته السياسية • فلا ترجع أهميــة نظرته الى تأملاته السياسية التى سعى من ورائها الى اثبات أفضلية الملكية كنظام للحكم(٢)، ولكنها ترجع الى محاولته الاتيان بنظرية جديدة فى التاريخ العالمى ، بدلا من تلك التى سادت فى القرون الوسطى ، بعد رفضه للنظرية التى ذاعت عن وجود عصر ذهبى يعقبه تدهور للبشرية ، ودحضه للنظرة التى سادت بوجه عام بين رجال اللاهوت فى العصور الوسطى ، واستندت على نبوءات دانييل ، وفيها تقسم التاريخ الى أربعة عصــور مناظرة للملكيـات بابل وفارس ومقدونيا وروما ، وقيل أن امبراطورية روما ستدوم حتى يوم القيامة • فلقد رأى بودان تقسيم التاريخ الى ثلاثة عصور كبيرة : الأول يناهز الالفى عاما ، وفيه سادت شعوب الجنوب الشرقى • أما الثانى ودام نفس المدة ، فاتخذت فيه الصدارة الشعوب التى سماها شعوب الوسط (البحر المتوسط) • وفى الثالث ، تزعمت الحضارة شعوب الشمال بعد تغلبها على روما • واتسم كل عصر بالطابع السيكلوجى الذى تتميز به الاجناس الثلاثة : فالطابع الدينى يغلب على الأول ، والحكمة العملية على

---

(١) Merhodus ad faciem historiarum cognitionem 1566.

(٢) Les Six Livrrs do la République 1576.

الثاني ، والملل للحرب والاختراع على الثالث • وفي هذه القسمة يشار للطريقة التي اتبعها هيجل (١) ، ولكن ما يثير الاهتمام هو اعتمادها على عوامل انثروبولوجية ، روعي فيها دور المناخ والمؤثرات الجغرافية • وعلى الرغم مما ظهر في هـذا المرضى بأسره من فجاجة ، واقحام لبراهين المنجمين ، فانه يعد خطوة جديدة في دراسة التاريخ العالمي •

قلت ان بودان قد رفض نظرية تدهور الانسان بعد أن مر بعصر سالف من الفضيلة والسعادة • والسبب الذى برر به هذا الرفض له أهميته : القول بأن قوى الطبيعـة قد سارت على وتيرة واحـدة على الدوام • فمن غير المقبول الزعم بأن الطبيعة قد انجبت رجالا مناسبين للعصر الذهبي ، وخلقت الظروف المناسبة لذلك ، ثم لم تكرر فعلتها في أى عصر آخر • وبعبارة اخرى ، أكد بودان أن في الطبيعة قدرات ثابتة لا تتعرض للنقصان • وكما سترى فيما بعد ، كان هذا المبدأ بالغ الأهمية، ولا ينبغى الخلط بينه وبين المذهب الذى ادعاه ماكيافيللى عن عدم تعرض ما هو انسانى للتغير • فلقد تغيرت أحوال الانسان تغيرا واسعا منـذ العصر البـدائى للانسـان ، « ولو أمكن نقض ما يدعى بالعصر الذهبى ومقارنته بعصرنا لحق لنا تسميته بالعصر الحديدى (٢) ، لأن التاريخ يعتمد اعتمادا كبيرا على ارادة البشر الدائمة التغير، ففي كل يوم ، تظهر للوجود قوانين وعادات وانظمة جديدة ، دنيوية ودينية ، وكذلك أغلاط جديدة (٣) » •

على اننا نستطيع أن نلحظ وسط هذه الأحوال المتغيرة جانبـا من الانتظام ، وقانونا للتقلبات • فالارتفاع يعقبه سقوط ، والسقوط يتلوه صعود • ومن الخطأ الاعتقاد بأن الجنس البشرى سائر على الدوام نحـو التدهور (٤) • ولو كان ذلك كذلك لكان معناه بلوغنا أحط مرحلة في الرذيلة والشر ، منذ أمد طويل • وعلى العكس من ذلك ، فهناك اتجاه تدريجى صاعد ، يتخلل التقلبات • وخلال العصور التى سميت بحماقة بالذهبية والفضية ، عاش الانسان كالدواب المتوحشة ، والتقل من هذه

---

(١) قسم هيجل التاريخ الى (١) عالم للشرق ، وآخر لليونان ، وثالث للرومان ، ورابع جرماني حديث •

(٢) ص ٣٥٣ من Methodus الفصل السابع •

(٣) ص ١٢ في نفس المرجع الفصل الأول •

(٤) ص ٣٦١

الحالة ، بسؤدة ، الى حالة الانسانية والنظام الاجتماعي السائد اليوم (٥) ·

وهكذا اعترف بودان بحدوث تقدم عام في الماضي · ولا جديد في هذا الاعتراف · فلقد سبق أن اتبع هذه النظرة الابيقوريون على سبيل المثال · ولكن العالم قد ألم بالكثير منذ كانت فلسفة ابيقور حية ، وكان على بودان مراعاة ما حدث من تقلبات جديدة خلال ألف ومائتي عام · فهل يستطاع جعل نظرية الابيقوريين مسايرة للزمان ؟

(٢)

تناول بودان المسألة كلها على وجه التقريب من ناحية علاقتها بالمعرفة الانسانية · وعندما أنكر بودان انكارا قاطعا القول بتدهور الانسان ، فانه لم يفعل أكثر من التعبير عما شعر به العديدون من مفكري القرن السادس عشر شعورا مترددا مبهما · فلم يضع الفلاسفة ورجال العلم الذين انتقدوا القدامى في بعض جوانب أية نظرة عامة عن المكانة المميزة للعصر القديم · وكان بودان أول من فعل ذلك ·

وقال بتعرض المعرفة والأدب والفنون للتقلب · فهي ترتقي وتنتشر وتزدهر ، ثم تصاب بالوهن وتحتضر · وأعقب تدهور روما عصر جدب طويل ، ولكن جاء في أعقاب هذا العصر احياء باهر للمعرفة وغزارة في الانتاج الفكري لم يتفوق عليها أي عصر · وتستحق كشوف القدامى في العلم قدرا كبيرا من التقدير ، وان كان المحدثون لم يقفوا عند حد القاء ضوء جديد على الظواهر التي تركها القدماء دون تفسير على الاطلاق · اذ قاموا باستحداث كشوف ذات أهمية مساوية — أو أعظم — بلا مراء ، كبوصلة البحرية ، على سبيل المثال ، التي يسرت الابحار الى جميع ربوع الأرض ، وقيام تجارة عالمية . أحدثت تغيرا في العالم ، وخلقت منه دولة واحدة ، ان صح مثل هذا القول (١) · ويكفي أن نذكر ما أحرزناه من تقدم في الجغرافيا والفلك ، واختراع البارود وتقدم المنسوجات

(٥) ص ٣٥٦ في نفس المصدر

(١) سبق لكاردان الاشارة الى البوصلة والطباعة والبارود كثلاثة مخترعات حديثة « لا وجود عند العصور القديمة كلها لاى أشياء مساوية لها » · وأردف : « والتي أتجاوز عن المخترعات الأخرى لهذا العصر التي وان كانت تتميز بروعتها ، الا أنها كانت بالاحرى متطورة من فنون قديمة ، فلم تكن بالأشياء التي تتفوق على عقول أجدادنا » ص ٦٠٩ من كتاب De subtilitate (الكتاب الثالث)

الصوفية وغيرها من الصناعات ، ومن الميسور ذكر اختراع الطباعة وحدها كمقابل لكل ما استطاع القدامى انجازه (١) .

ويستخلص من كل هذا — وهو أمر أصبح جليا فى نظر القارىء الحديث — توقع حدوث تقلبات مماثلة فى المستقبل ، وظهور اختراعات وكشوف جديدة لا تختلف فى روعتها عن كل ما ظهر من أمثالها فى الماضى . ولكن بودان لم يهتد الى هذه النتيجة ، لانه اقتصر على الماضى والحاضر ، ولم يكن لديه ما يقوله عن تقلبات المستقبل ، وان كان لم تستحوذ عليه أية رؤيا لنهاية العالم ، أو ظهور المسيح الدجال ، ولعل هذا يرجع الى الثلاثة القرون من النزعة الانسانية التى تفصل بينه وبين روجر بيكون .

(٣)

على أن تأثير القرون الوسطى التى عكفت هذه القرون الثلاثة على التغلب عليها ، كان ما زال متغلغلا . كما ان سلطان اليونان والرومان الذى ارتفع بعد اعادة احياء العلم والمعرفة ، كان — دون أن يدروا — من العوائق التى حالت دون تمتع مفكرين من طراز بودان بحرية الارتياب عند نقد الكتاب القدامى . وعلى هذا اعترضته فى محاولته التأملية للبحث عن مفتاح للتاريخ العالمى نظريات اللاهوت والكونيات من مخلفات الماضى . ومما له دلالة عن اتجاه عقله انه عندما ناقش ما طرأ من تدهور دورى فى العلم والأدب ، أشار الى أن ذلك قد يرجع الى الارادة الالهية التى رأت عقاب أولئك الذين أساءوا استعمال العلوم وسخروها لخراب البشر .

بيد أن تأملاته قد تعرضت للانحطاط بوجه خاص بتأثير ايمانه بالتنجيم الذى سيطر على عقول الكثيرين من الجهابذة ، رغم محاولات أنصار « النزعة الانسانية » مثل بترارك ، واتياس سيلفيوس وبيكون ، واستنكارهم له . أما فيما عدا ذلك فقد تميزوا بتحررهم الفكرى . هنا تشابه بودان مع ماكيافيلى واللورد بيكون . ولكنه اتجه بسبب عدم اقتناعه بما يقال عن تأثير النجوم على الأحداث الانسانية الى البحث عن

---

(١) ص ٣٥٩ - ٣٦١ — من كتاب **Methodus** الفصل السابع . أشار بودان أيضا الى حدوث تدهور منذ عهد الامبراطورية الرومانية الباكر فى بعض النواحى كالعادات والأخلاق . وظهر هذا على سبيل المثال فى الخلاص من مشاهد المصارعة .

مفتاح آخر للتغيرات التاريخية ، واهتدى اليه في تأثير الاعداد • وأحيا بذلك معتقدات فيثاغورس وأفلاطون ، وان كان قد حورها بحيث تساير فكرته • وعدد الأعمار التي عاشها الكثيرون من مشاهير الرجال للتدليل على قوة تأثير العددين ٧ و ٩ ، أو مضاعفات هذين العددين • ومن الأعداد التي أثبتت تأثيرها الخير العدد ١٢ ، والعدد الكامل هو ٤٩٦ (١) ، وأعداد مماثلة أخرى • وذكر عدة أمثلة لبيان كيف تدل الأعداد بأسرارها الخفية على مدى بقاء الممالك وتحكمها في سير أحداث التاريخ • فعلى سبيل المثال ، دامت الممالك الشرقية من عهد فينوس حتى غزو الاسكندر الأكبر للفرس ٧٢٧ سنة (١٢) ٣ ، كما دامت الجمهورية الرومانية من تأسيس روما حتى موقعة اكتيوم ٧٢٩ سنة (٩)٨ .

(٤)

لعلنا لن نستطيع توقع أية رؤيا للتقدم عند أي مؤمن بمثل هذه النظرية التي تصور مدى قصور تصور الناس للعالم على عهد النهضة • وافضل ما قد يقال عنها هو ان بودان قد حاول في هذا المقام ، وكذلك عندما آمن بالتنجيم ، القيام بمحاولة فجة لخلق صلة وثيقة بين التاريخ الانساني وباقي العالم ، وتوطيد الفكرة القائلة باتباع العالم بأسره مخططا الهيا يتوثق فيه الرباط بين كل الأجزاء • ومع هذا فقد حرص بودان على تجنب القول بالقدرية ، وذكر ــ كما رأينا ــ إن التاريخ يعتمد اعتمادا كبيرا على ارادة الناس ، وبذلك اقترب من فكرة التقدم أكثر من أي مفكر قبله ، فأصبح على حافتها •

فلو استبعدنا اعتقاده بالتنجيم ، وايمانه بالفيثاغورية ومختلف الأفكار اللاهوتية المرضية التي لا تشوب برهانه لرأينا كيف أفصح عمله عن نظرة جديدة الى التاريخ ، نظر فيها بعين التفاؤل الى دور الانسان على الأرض ، بغير اشارة الى مصيره مستقبلا • في هذه النظرة المتفائلة ، ثلاث نقاط تستحق الاشادة ، فلقد أثبتت ضرورتها فيما حدث من ازدهار لاحق لفكرة التقدم • أولا ــ التصميم الحاسم على رفض فكرة التدهور التي حالت دائما دون ادراك الفكرة ــ ثانيا ــ الادعاء بغير تحفظ بالتماثل الكامل بين عصره والعصر الكلاسيكي القديم في ناحيتي العلم والفن ، كما كان في بعض النواحي أعظم وأسمى • ولقد ترك القدامى

---

(١) وهو عدد يتساوى مع جملة الأعداد المشتركة في تكوينه •

يعتنون تصبهم ومجدهم ، ولكنه شاد نصبا آخر للمحدثين ، كان في الواقع أسمى ارتفاعا • وسوف ندرك نتيجة هذا عندما نقوم ببحث الحركة الفكرية التي بزغت فيها فكرة التقدم فيما بعد • ثالثا ـ اعتقد بودان في اشتراك كل شعوب الأرض في صالح واحد وهو ما يناظر الفكرة ال Ecumenica عند اليونان والرومان (١) ، وان كانت هذه الفكرة قد اكتسبت أهمية جديدة بتأثير الكشوف الملاحية الحديثة • وكرر القول بان العالم دولة واحدة ، وبما تشارك فيه الأجناس المختلفة في سبيل الخير العام ، مع اختلاف نزعاتها وخصائصها ، وقد لعبت فكرة « وحدة » الشعوب هذه دورا هاما في ارتقاء فكرة التقدم •

كانت هذه الأفكار في الجو • فلقد طرح باحث كلاسيكي فرنسي اخر : لويس ليروا مترجم أفلاطون وارسطو نظرات مماثلة في كتاب اقل شهرة : « حول تقلبات محتويات العالم وتنوعها (٢) » • ويحتوى على بحث للعصور الكبرى التي بلغت فيها شعوب معينة مكانة فذة في السيادة والرخاء ، وبه بوادر لتواريخ الحضارة التي ظهرت فيما بعد ، مع التركيز بقدر هين على الأحداث السياسية ، وابراز منجزات البشر في العلم والفلسفة والفنون • استعرض ليروا التاريخ ابتداء من تقدم الانسان من حالة الفظاظة والبداوة الى حالة المجتمع المنتظم ، واعتمد في هذا البيان على ظنون أفلاطون في محاورة بروتاجوراس ، وأشاد بفضائل المصريين والأشوريين والفرس واليونان والرومان والعرب ، وبالعصر الحديث في نهاية المطاف • واعتقد أن الوقائع تؤيد القول باشتراك فن الحرب والخطابة والفلسفة والرياضة والفنون فيما يسود من ازدهار أو انحطاط على السواء •

ولكن شئون الانسان تتعرض للاضمحلال • فهى ليست ثابتة وتمر كلها من خلال نفس الدورة : البداية والتقدم والكمال والفساد والنهاية • ومع هذا فان هذا الرأى لا يفسر أسباب تعاقب الامبراطوريات الحاكمة في العالم ، أو انتقال الرخاء من أى شعب لآخر ، أو الى مجموعة من الشعوب الأخرى • واهتدى ليروا الى العلة في النظام الذى وضعته العناية الالهية ، واعتقد أن الله يرعى كل بقاع الأرض ، ومن ثم وزع التفوق في السلاح والبيان بالعدل والقسطاس المستقيم ، بين آسيا

---

(١) انظر ص ٢٣ السابقة •

(٢) De la vicissitude ou variété des choses en l'univers

الطبعة الثانية ـ ١٥٨٤ وقد رجعت اليها •

وأوربا وافريقيا ، فجمل الفضيلة والرذيلة والمعرفة والجهل تنتقل من بلد لآخر ، حتى يشارك كل منها بدوره في كل من الخير والشقاء على السواء . ولم يتمتع أي بلد بالجاه والعزة خلال أي فترة طويلة من الرخاء .

ولكن ما الذي يمكن أن يقال عن العصر الحديث في غرب اوربا ؟ هنا آكد ليروا أن ما يتعرض له هذا العصر هو نفس ما صادفته أزهى العصور في الماضي ، وان كان أعلى شأنا في بعض جوانب . فلقد أمكن استعادة كل فنون القدم تقريبا المعتمدة على العبقرية وعلى الصنعة ، بعد فقدها زهاء الألف والمائتي عاما . وظهرت مخترعات جديدة ، وبخاصة الطباعة والبوصلة البحرية « واستطيع أن أضع المدفعية في المرتبة الثالثة ، وان كانت تبـدو قد اخترعت لدمار الجنس البشرى ، وليس لنفعه » . ولقـد تفوقنا على القـدماء في معرفتنا بالفلك والكونيات ، « ونستطيع أن نؤكد بأن العـالم برمته قد عرف هـذه الأشياء الآن ، وبوسـع جميع الأجناس تبادل كل السـلع ، وأشباع الحاجات ، شأنهم في ذلك شأن أهـل نفس المدينة أو الدولة » . وهـكذا ظهرت زيادة ملحوظة في الثراء .

والحق ان الرذيلة والشقاء ما زالا يثيران الأسى ، كأي وقت مضى ، كما اننا نعاني من المروق المثير للازعاج ، وان كان هذا لا يثبت وجود تدهور عام في الأخلاق . ولو صحت تلك الشكاوى المتأصلة التي اتخذت شكل اهزوجة يترنم بها العجائز في كل آن ، لكان معنى هـذا بلوغ العالم ذروة الشقاء ، واختفاء الكمال اختفاء مطلقا . وانتقد سنيكا منذ أمد طويل هذه الحالة نقدا صحيحا (**) . ولعل ليروا كان يقصد بالذات كتاب « دفاع عن هيرودوت » ، وفيه عرض عالم اليونانيات هنرى اتيين بتحامل يذكرنا « بكالفان » اجحاف العصور الحديثة وفساد الكنيسـة الرومانية ، فبخسها حقها (١) .

على أننا اذا اعتمدنا في حكمنا على التجارب الماضية ، الا يترتب على ذلك القول بوجوب اتباع العصر الحديث لنفس الطريق الذى اتبعته

** Hoc maiores nostri questi sunt, hoc nos querimur, hoc posteri querentur. eversos esse mores. At ista stant loco eodem.

(١) l'introduction au traité de la conformité des merveilles anciennes avec les modernes.

الطبعة الثانية ــ ١٥٨٤ وقد رجعت اليها .

العصور الزاهية في الماضي ، التي ينافسها ، وربما تفوق عليها ؟ ان حضارتنا أيضا بعد بلوغها الكمال ستضمحل بالضرورة ، وتتلاشى ٠ أليس هذا درسا واضحا مستخلصا من التاريخ ؟ ٠ ولا يحجم ليروا عن مواجهة هذه المشكلة ٠ فهي النقطة التي تستنتج من كل ما عرض ، ولقد بسطها بكل وضوح :

« اذ اعتبر تذكر الماضي عبرة للحاضر ، وانذارا للمستقبل ، فان ما يخشى هو حدوث تدهور في الحكمة والقوة (السلطة) والدراسة والكتب بعد بلوغ مثل هذا الامتياز ، مثلما حدث في الماضي ، وأن يجيء الاضطراب في أعقاب النظام والكمال السائدين اليوم ، وأن تحل البداوة محل الحضارة ، والجهل محل المعرفة ٠ وانني أتوقع في مخيلتي اقدام شعوب مختلفة في الهيئة والمظهر والزى على اكتساح أوربا ، والقيام بنفس ما قام به القوطيون والهون والفاندال واللومبارديون في قديم الزمان ، كتدمير المدن والقصور واحراق المكتبات واتلاف كل ما هو جميل ٠ وأتوقع حدوث حروب في كل البلدان ، داخلية وخارجية ، وانشقاقات ومروق ، يدنس كل ما هو انساني ومقدس ، ومجاعات وأوبئة وفيضانات ، ويقترب العالم من نهايته حينئذ ، وتنتشر القلاقل على نطاق واسع ، فتعود الأشياء الى أصلها الهيولى » (١) ٠

ولكن ليروا بعد ان ساقنا الى مثل هذه النتيجة المتشائمة ، اكتشف مدى تنفيرها ، فاعرب عن عدم رضائه عن اقرارها ٠ لقد تهرب من عقدة التمثيلية التي وضعها ، كأى كاتب درامي وقع في حيرة بأن قدم حلا للعقـــدة ٠

« ومهما بلغ من اتباع هذه الأشياء للقانون المقدر للعالم ، واتباعها لأسباب طبيعية ، فان الأحداث تعتمد أساسا على العناية الالهية التي تعلو على الطبيعة ، وهي وحدها التي تعرف الطريق المرسوم للأحداث » ٠ وبعبارة أخرى « انها تعتمد فوق كل شيء على العناية الالهية ، لو صح البرهان المستخلص من التجربة الماضية ٠ فمن يدرى فربما استطاع العصر الحديث اثبات انه استثناء من القاعدة التي سادت حتى الآن ؟ ٠ فلنعمل وكأن ما سيحدث هو كذلك » ٠

كانت هذه هي العبرة العملية التي فرضها ليروا في الكتاب الأخير

---

(١) تمشيا مع روح العصر ، قام المؤلف بالاستطراد بعد آخر جملة من عرضه للمشكلة وتأمل امكان اقتراب نهاية العالم ، وهي مسالة استمرت تشغل الاذهان ٠

من بحثـه : علينـا الا نسمح لانفسنا بالتعرض للتململ او القرح . من المصير الذى لاقته الحضارات الماضية • فعلينا ان نبذل كل ما في وسعنا لنقل كل ما تحقق لأخلافنا ، وأن نزيد من كشوف الماضى بما نستحدثه من أبحاث ، لان المعرفة لا تنفـد ولا تستقصى : « وعلينـا الا نتصف بالبساطة بحيث نتوهم أن القدماء قد عرفوا وقالوا كل شيء ، ولم يتركوا شيئا لخلفائهم ، او أن الطبيعة قد زودتهم بكل خبراتها ، لكى نبقى بعد ذلك جدباء الى الأبد » هنا اتبع ليروا مبدأ بودان الذى تأكد بعد ذلك في صورة أفصح وأبلغ في القرن التالى : خلود القوى الطبيعية • فالطبيعة هى هى على الدوام • ولديها القـــدرة على انجـاب عقول كبيرة فى كل الأوقات • وتتمتع العناصر بنفس القدرات • فالكواكب تتبع نفس نظامها القديم ، والناس مصنوعون من نفس المادة ، وليس هناك ما يحول دون مولد اناس ذوى أمخاخ مماثلة لأفلاطون وأرسطو وابوقراط •

والحل الذى اهتدى اليه ليروا ضعيف فلسفيا بما فيه الكفاية ، لانه يطالبنا باغفال ما عرفنـاه من تجاربنا ، وبالاعتماد على أسس بعيـدة الاحتمال • غير ان تصميم ليروا المتفائل على الهروب من منطق برهانه له اهمية • فهو لا يتصور وجود غاية متزايدة في تاريخ الانسان ، أو وحدة كامنة فيه • ولكنه يعتقد ان العناية الالهية ـ وهى نفس عناية القديس اغسطين الالهيـة القديمة التى رتبت أحـداث التاريخ الرومانى بحيث تتوافق مع ظهور المسيح ـ قد تعمدت لسبب غير معروف اطالة العصر الحديث الى أجل غير محدد • وهكذا خضع ليروا لغريزة التفاؤل والثقة التى كانت قد بدأت بالفعل فى خلق الجو الملائم للثورة الفكرية التى حدثت فى القرن التالى •

وترجم كتاب ليروا الى الانجليزية ، وان كان لم يتساو في تأثيره فى كل من فرنسا وانجلترا مع نظريات بودان ، رغم ايمانه ـ كما يلاحظ القارىء ـ بنفس النظريات الثلاث التى دعا اليها بودان ، ولابد ان يكون قد ساعد على نشرها : العالم لم يتدهور ، والعصر الحديث ليس اهون شأنا من العصر الكلاسيكى القديم • ويتالف من اجنـاس الارض الان مايصح تسميته بالمملكة البشرية الواحدة •

الفصل الثاني
المنفعة كغاية للمعرفة : بيكون

(١)

يحتل فرنسيس بيكون مكانة فريدة بين عظماء المذهب الحديث ، ورواده • فلقد وضع برنامجا محددا لاحداث تجريد كبير في المعرفة • اذ كان أكثر من معاصريه وعيا بوجوب الانقطاع عن الماضي ، والبدء الكامل من جديد • ويبدو منهجه في التفكير اقرب لنا عقليا من تأملات امثال برونو أو كامبينيلا • ومن هنا يسهل علينا أن ندرك لماذا يغلب النظر اليه ــ وبخاصة في بلاده ــ كاكثر من رائد ، أي كأول فيلسوف للعصر الحديث ، ومن ابنائه بلا نزاع •

لا جدال ان طريقة تصنيفنا لأولئك الذين يقفون على حافة عالمين ليست من المسائل الجوهرية ، وان كان من الواجب الاعتراف بأنه ولو أن بيكون كان متقدما في جملة جوانب على معاصريه الذين لا يستطاع الفصل بينهم وبين عصر النهضة ، الا انه في بعض نواحي أخرى كالاعتقاد في التنجيم والأحلام ، كان متماثلا معهم • وتفوق عليه برونو وكامبينيلا في نقطة اساسية واحدة ــ وبما أمكن اتخاذها معيارا للتقدم العقلي في هذا العصر • فقد اعتقد بيكون ان ما قام به كوبرنيك وكبلر وجاليليو كان ضربا من العبث ، وتمسك في عناد بالمذهب العتيق عن اعتبار الأرض مركزا للكون •

ينبغي أيضا أن نذكر أن البرنامج الذى وضعه في منهجه الطموح لاصلاح العلم ــ القول بأن التجربة مفتاح اكتشاف أسرار الطبيعة ــ لم يكن فتحا جديدا • ولا حاجة لتكرار التذكير بأن روجر بيكون قد مهد له ، لان معتقدات هذا المفكر المدهش قد سقطت ميتة في عصر لم يكن ناضجا لتقبلها ، ولكن ما ذكره فرنسيس بيكون عن الاستجواب المباشر للطبيعة ، كان معروفا بالعمل في القرن السادس عشر ، عمليا ونظريا •

وما فعله فرنسيس بيكون هو زيادة شدة الاصرار صراحة على المبدأ ، وصياغته فى صورة أدق • اذ قام بتوضيح الأفكار التقدمية التى ألهمت الفكر العلمى فى الحقبة الأخيرة من عهد النهضة الأوربى ، الذى لا يستطاع — فيما اعتقد — فصله عنه •

على انه عندما قام بتوضيح هذه الأفكار التقدمية ، وتحديدها ، شارك فى تقدم الفكر الانسانى مشاركة كان لها أهمية بعيدة ، وتهم موضوعنا الحالى بوجه خاص • ولقد سبق لروجر بيكون ، ولسنيكا من قبله بأمد طويل ، التبشير بأمل حدوث ازدياد مطرد فى المعرفة مبنى على تطبيق الطرائق الحديثة ، وان كانت هذه الفكرة الخاصة بزيادة المعرفة قد اكتسبت قيمة جديدة كلية عند فرنسيس بيكون • فبعد ان كان كشف الطبيعة عند سنيكا وسيلة للهروب من أحزان الحياة ، وخستها ، وكانت الغاية الأساسية من زيادة المعرفة عند قسيس اكسفورد (روجر بيكون) الاستعداد لمواجهة المسيح الكذاب ، قام فرنسيس بيكون بالافصاح عن الاتجاه الحديث • اذ كانت المنفعة غاية المعرفة عنده •

(٢)

كان المبدأ القائل بأن الغاية الصحيحة للمعرفة رفع مستوى حياة البشر ، وزيادة سعادة الناس ، والتخفيف من شقائهم (*) النجم الهادى لبيكون فى كل جهوده الفكرية .. فلقد صرح بأن تقدم سعادة البشرية الغاية المباشرة للمؤلفات التى كتبها أو صمم على كتابتها • واعتقد ان كل من سبقوه قد أخطأوا سواء السبيل عندما عجزوا عن ادراك ان الهدف الصحيح المشروع للعلوم Finis scientiarum هو « تزويد الحياة الانسانية بمخترعات وخبرات جديدة » • وجعل من هذا المبدأ معيارا لتعريف القيم المقارنة لمختلف فروع المعرفة •

على هذا تكون الغاية الحقة لاستقصاء الطبيعة ، توطيد سيطرة الانسان على الطبيعة ، وليس اشباع غايات التأمل كما ظن فلاسفة اليونان • واعتقد بيكون انه بالامكان تحقيق ذلك فى حالة الاعتماد على الطرائق الجديدة فى معالجة المشكلات • ومهما كان الرأى فى عمله الجرىء ، عندما هبط بالعلوم الطبيعية من السحب وخصها بمهمة تهيئة الرخاء المادى وراحة الانسان ، الا أننا نستطيع انتقاد بيكون لاعتقاده بوجوب

---

* Commodis humanis inservire.

تركيز كل فرع من فروع المعرفة على ناحية النفع العملي وحده · فلقد اعتقد ان من واجب الرياضة القيام بدور الخادم المطيع بلا تطلعات خاصة بها لو اقتضت الضرورة ، على أن تقدم الانسان العظيم في التحكم في الطبيعة منذ عهد بيكون لم يتحقق على هذا النحو · فما كان من المستطاع تحقق الكثير من أقيم وأروع ما نجح العلم في تحقيقه للحضارة ، لو ان كل فرع من فروع المعرفة لم يهتد بمثله المستقلة في استيفاء التأمل(١)· غير أن هذا لا يبخس من قدر المبدأ البراجماتي الذي وضعه بيكون . عندما وضع أساس النظرية النفعية للمعرفة ، أو يقلل من أهمية مشاركته في خلق جو ذهني جديد ، نمت فيه فيما بعد نظرية التقدم ·

(٣)

ويظهر تقدير بيكون لليونانيين ، ومعرفته لكتاباتهم ، في كل صفحة كتبها تقريبا · ومع هذا فقد كانت محاولة زعزعة سلطانهم من بين الأهداف الاساسية التي سعت اليها محاولاته · فقد اعترف ان هذا السلطان من العوائق القاتلة لارتقاء العلم : « لا ينبغي البحث عن الحقيقة اعتمادا على الحظ الحسن ، باعتبارها شيئا يختمر في الزمان ، لان بلوغها يعتمد على التجربة · وكم كان نصيبهم منها قاصرا » ففي زمانهم · « كانت معرفة كل من الزمان والعالم محصورة وشحيحة · فلم يتوافر لهم أي علم تاريخي بمعنى الكلمة ، عن حتى ألف عام منه · وكل ما كان لديهم عبارة عن حكايات وتقاليد عتيقة · انهم لم يعرفوا أكثر من نتفة صغيرة من بقاع العالم ، وبلدانه » · ففي كل مذاهبهم ، وتأملاتهم العلمية « يصعب القول بوجود تجربة واحدة رمت الى تقديم العون للبشرية » · اذ كانت نظرياتهم مبنية على الظن ، ومن هنا بقي العلم ساكنا خلال الألفي عام الأخيرة ، بينما نمت وازدهرت الفنون الآلية المعتمدة على الطبيعة والخبرة ·

وأشار بيكون في هذا المقام الى ما في كلمة «عصر قديم» من تضليل، وأبدى ملحوظة سيتكرر ظهورها عند كتاب الأجيال اللاحقة · فما ندعوه بالعصر القديم ، واعتدنا تقديره يمثل عهد صبي العالم ، وان كان عصر كهولة العالم وتقدمه في السن ـ أي العصر الذي نحيا فيه ـ هو الذي

---

(١) قاد فيما بعد بتوضيح هذه المسائل على خير وجه فونتنيل في مقدمة كتابه :
l'Utilite des mathematique.
ضمن مؤلفاته (طبعة ١٧٢٩) · ص ٣ من المقدمة وما بعدها ·

يستحق في الحقيقة أن يسمى بالعصر القديم . اننا في الواقع القدامى ، أما اليونانيون والرومانيون فكانوا أكثر شبابا منا بالنسبة لسن العالم. ولما كنا نقصد العجائز باعتبارهم أكثر دراية بالعالم من الشباب ، فمن الحكمة أن نتوقع الحصول على أشياء أعظم من عصرنا تفوق ما تستطيع الحصول عليها من القدم ، وبخاصة اذا تذكرنا ما طرأ على رصيد المعرفة من ازدياد بفضل العدد الذى لا ينتهى من المشاهدات والتجارب . الزمان هو أعظم مكتشف ، والحقيقة بنت الزمان ، وليست بنت التقات .

ويكفى أن نستشهد بالمخترعات الثلاثة التى لم يعرفها القدامى : الطباعة والبارود والبوصلة . انها قد غيرت من مظهر العالم بأسره ، وأحواله . أولا فى عالم الكتابة ، وثانيا فى الحرب ، وأخيرا فى الملاحة ، وترتب عليها تغيرات لا حصر لها ، بحيث يمكن القول بانه لا وجود لأى امبراطورية أو نحلة أو كوكب قد أحدث تأثيرا أعظم من هذه المكتشفات الآلية (١) على المسائل الانسانية . ولعل ما بهر بيكون أكثر من أى شىء كان آثار الملاحة واكتشاف البقاع المجهولة ، كما سبق أن حدث فى حالة بودان . وليسمح لى بالاستشهاد بفقرة من أقواله دالة على ذلك :

« ربما صح فى سبيل اثبات أمجاد هذا العصر . وفى معرض الكلام عن جوانب منافسته للعصر القديم القول بانه لم يسبق القاء أى ضوء على هذا الصرح العظيم للعالم قبل أن يجىء عصرنا وعصر آبائنا . فعلى الرغم من بمعرفتهم (القدامى) لنصف الكرة الأرضية الا أن هذا قد تحقق بالبرهان العقلى وليس بالتجربة الفعلية ، وفى حالات الأسفار فانها لم تبتعد الى أكثر من نصف الأرض . أما القول بدوران الأرض كالأجرام السماوية ، فلم يتحقق ولم يقدم على اثباته أحد قبل العصور الأخيرة . وعلى هذا تستحق هذه العصور الحديثة بجدارة الوصف بانها فاقت الكمال ، وان ما ظهر من براعة فى الملاحة والكشف بالمقارنة بالقدامى — اذا قلنا انهم بلغوا الكمال — ربما دفع الى توقع حدوث تفوق وزيادة فى العلوم كلها . فلعل الله قد أراد أن يتحقق كل ذلك فى عصر واحد ، أى أن تكون متعاصرة . فكما قال النبى دانييل فى حديثه عن العصور الأخيرة : كان من المقدر أن تحدث فى نفس العصر أحداث مثل تفتح العالم ، وامكان التنقل من بقعة الى أخرى فيه ، وازدياد المعرفة (*) .

---

(١) « الاورجانوم الجديد » (١٢٩) . سبق ان رأينا كيف بدت هذه المخترعات ذات قيمة بارزة عند كاردان . وظهرت كذلك لكامبنيلا . أما بودان فقد وضعها ضمن قائمة أكبر ، كما رأينا .

(*) Plurimi pertransibunt, et multiplex erit scientia.

وكما رأينا ، لقد تحقق قدر كبير من ذلك بفضل تعاليم العصور الأخيرة، التى لم ترجع فى الكثير لهذين العصرين السالفين (اليونان والرومان) ، ولم تعد لتعاليمهما » ·

نستطيع أن نكتشف فى كل هذا اعترافا محددا بحدوث تقدم فى المعرفة ، ولم تتح الفرصة لبيكون للاقتراب من معرفة تاريخ الحضارة . وان كان قد طرح بعض ملاحظات يصح اعتبارها قريبة الى صورة النظرية ، فلقد تشابه مع بودان عندما قسم التاريخ الى عصور ثلاثة :

١ ـ الحقب القديمة للعالم ·

٢ ـ الجزء الأوسط من الزمان الذى ضم عالمى اليونان والرومان ·

٣ ـ « التاريخ الحديث » ، ويشمل ما نسميه الآن بالعصور الوسطى ·

فى هذا التسلسل ، هناك ثلاثة عصور بالذات ، برزت بفضل خصوبتها فى العلم ، وصلاحيتها للتقدم : عصرا اليونان والرومان ، وعصرنا · و « من العسير أن نزعم أن عصرا من هذه العصور قد دام أكثر من قرنين » أما باقى عصور الزمان فقفراء كالصحارى من ناحية الفلسفة والعلم · وتعد روما واليونان « أفضل مثلين للدولة القائمة على الحرب والسلم وفضائل السياسة والقانون » · على أنه حتى فى هذين العهدين العظيمين ، فان ما تحقق من تقدم فى العلم الطبيعى لم يزد عن قدر ضئيل · فلقد كانت عقول الناس فى عهد اليونان غارقة فى التأملات الأخلاقية والسياسية · وفى روما ، انصرف الفكر والجهد الى ناحية الفلسفة الأخلاقية ، وتفانى أصحاب أعظم العقول فى خدمة الدولة · وفيما بعد فى العصر الثالث ، كانت دراسة اللاهوت هى الشغل الشاغل لشعوب غرب أوربا · والواقع ان أنفع كشوف حققت راحة الانسان قد حدثت فى أبكر العصور « بحيث يستطاع القول باخلاص بأنه عندما بدأ التأمل ، ووضع مذاهب للعلم ، توقف الكشف عن المنجزات التى تحقق النفع » ·

يكفى هذا عن التاريخ الماضى للبشرية ، وفيه تآمرت عدة مؤثرات جعلت التقدم فى السيطرة على الطبيعة بطيئا ، مذبذبا وعابرا ، فماذا عن المستقبل ؟ أجاب بيكون عن ذلك بأنه لو فهمت أخطاء الماضى ، وأمكن تجنبهـــا ، فستتوافر آمال كبيرة فى حدوث تقدم مطرد فى العصر الحـــديث ·

غير أنه ربما صح التساؤل : ألا يوجد شيء ما في تكوين الأشياء يحدد عهود الركود والازدهار ، أي قوة لا حيلة للانسان وارادته تجاهها ؟ ألا يصح القول بوجود فترات فيضان وتحاريق في العلوم تتخلل دورات العصور ، تضيء فيها حينا وتخبو في حين آخر ، أي بعد أن تصل الى نقطة معينة تعجز عن التقدم الى ما بعدها ؟ • واستنكر بيكون هذه النظرية الخاصة « بالرجعى » أو Ricorsi بوصفها أكبر عائق لتقدم العلم ، نظرا لما تحدثه من عدم ثقة أو يأس • ولم يقم بدحضها صراحة ، ولكنه ساق أسبابا لنظرته المتفائلة تضمنت الرفض • فمن المستطاع شرح الوقائع التي تستند اليها نظرية الرجعى القدرية بغير لجوء لأى قوانين غيبية • فما حال دون اطراد التقدم أو اتصاله هو التعصب ، والأخطاء التي عاقت الناس عن سلوك الطريق القويم في أفعالهم • ولا تنبعث صعوبات التقدم من مؤثرات خارجية عن قدراتنا ، ولكنها ترجع الى الفهم الانساني الذي استنزف الوقت والجهد في مسائل غير مناسبة « فثمة تناسب طردي بين الأخطاء التي اقترفت في الماضي والآمال التي نضعها في المستقبل » •

(٤)

ولكن هل يستمر عصر التقدم الجديد الذي توقعه بيكون ، وسعى لتحقيقه ، الى أجل غير محدد ؟ • لم يتناول بيكون هذه المسألة ، ولأنه كان يعتقد انه يحيا في العصر القديم للعالم فقد كان يتوقع انتهاء دور الانسان على الأرض بعد مضي وقت طويل • ومن العسير توقع قيام أي مسيحي محافظ في ذلك العصر بالتنبؤ • ويلوح لنا أنه قد تخيل بتأثير حماسه الفياض أن القيام بأي « استجواب رصين » للطبيعة سيؤدى الى انتزاع كل أسرارها في غضون أجيال قليلة • وانهمك بيكون بوصفه مصلحا انهماكا كبيرا في النتائج المباشرة المتوقعة في الحاضر القريب ، ولم يتجه بخياله الى استقصاء ما يحتمل حدوثه في المستقبل البعيد ، وان كانت هذه الاحتمالات ستترتب منطقيا على ادراكه « للدور الملازم للزمان الذي سيزيد من القدرة على كشف الحقيقة » • ووضع آمالا عريضة في عصره • فعيه زارت المعرفة العالم لثالث مرة ، ذلك العصر الذي كان بيكون شديد الاقتناع بتفوقه على اليونان والرومان في ميدان المعرفة • ولو قدر له العودة لزيارة انجلترا سنة ١٧٠٠ ، والاطلاع على ما قام به العلم منذ وفاته لشعر بأكثر من الرضاء عن آماله •

ولكن على الرغم من تشبعه بالروح التقدمية ــ وتشابه في هـذا الشأن مع ليوناردو دافنشى الذى سبقه فى الزمان ، فان كل ما قاله عن توقع لازدياد المعرفة لا يصح اعتباره مساويا لنظرية التقدم . لقد مهد الطريق . وساعد على الوصول الى هذه النظرة ، تصوره أن التقدم سيحدث الى غير حد فى المستقبل . ذلك التصور الذى يعد ضروريا لهذه النظرية اذا أريد لها أن تتمتع بأية قيمة ، وفيما يتعلق بالتقدم فى الماضى ، فانه لم يضف شيئا يذكر على ما لاحظه بودان ، بالرغم من تفوقه عليه فى الوضوح وتوكيد هذا المعنى . ولا ترجع أصالة نظرته الى اعترافه بتقدم المعرفة وقدرتها على التقدم الى ما هو أبعد ، ولكنها ترجع الى الغاية التى نسبها اليها . فغاية العلوم انما ترجع الى النفع الذى تحققه للجنس الانسانى . وتعنى زيادة المعرفة اتساع سيطرة الانسان على الطبيعة ، وما يتبع ذلك من ازدياد لرفاهيتـه وسعادته من ناحيـة اعتماد هاتين الناحيتين على عوامل خارجية . ربما بدا هذا المذهب فى نظـر أفلاطون أو سنيكا أو أى مسيحى يحلم « بمدينة الله » ماديا تافها ، وان كان قد أفصح عن معنى ثورى . فلقد عنى الاعتقاد بان السعادة على الأرض غايه تستحق السعى لذاتها ، وتتحقق بتعاون البشر على أوسع نطاق . هذه الفكرة مسلمة ينبغى أن يسلم بها أى مذهب عام فى التقدم ، وتعد دليلا لمشاركة بيكون العظيمة فى «مجمـوعة الأفكار التى ساعدت على تحقيق الارتقاء اللاحق لهذا المذهب .

وأخـيرا فعلينا أن نذكر تسليم بيكون ، وكذلك أغلب معـاصريه الاليزابثيين بمذهب التدخل الفعال للعناية الالهيــة ، كما ظهر عنـد القديس أغسطين . وتحكم هذا الاعتقاد الى حد ما فى تصـورهم لتاريخ الحضارة . على أننا نستطيع القول ــ فيما أعتقد ــ بانه رغم اعتراف بيكون به من الناحية الشكلية ، الا أنه لم يلح فى تأكيده أو التركيز عليه .

(٥)

عرض بيكون تصوره للاهمية الاجتماعية للعلم فى مخططه للدولة المثالية : «اتلانتا الجديدة» . ولم يكمل أكثر من جزء من الكتاب ، ونشرت هذه الشذرة بعد وفاته (١) ، ولا يخفى أن الاهتمام السائد الذى حرك

---

(١) فى سنة ١٦٢٧ ، وتم تأليفه حوالى ١٦٢٣ ، ويكاد يكون من الموثوق به معرفة بيكون لكتاب Christianopolis ليوهان فالنتين الذى احتوى على مخطط لكلية علمية تعمل على اصلاح العالم المتحضر ، ووضع الدريا ــ وكان يعرف كلا من يوتوبيا مور وكامبنيلا ــ

خيـاله كان يختلف عن الاهتمـام الذى هدى افلاطون • فبينما هدف افلاطون الى اعداد نظام ثابت وطيد معتمد على أسس راسخة ، اتجهت نية بيكون الى تيسير قيام مجتمعه المتخيل وسيطرته على الطبيعة اعتمادا على التقـدم فى الكشوف • والرؤوس فى مدينة افلاطون من الميتافيزيقيين الذين ينظمون مصالح الناس بوساطة معتقدات مجردة استقرت ، ولم تعد بحاجة الى مزيد • أما أهم ما تضمنته « أتلانتا الجديدة » ، فكانت كليـة الباحثين العلميين الذين دأبوا على الكشف عن حقائق جديدة قد تغير أحوال الحياة • هنا ظهرت نغمة العصر : فكرة الرقى عن طريق التقدم ــ رغم كونها فى مجال محـدود وحسب ــ فأحدثت تحويرا فى فكرة النظام الثابت التى احتكرت الهيمنة على النظرات القديمة •

ومن ناحية أخرى ، علينا الا نتجاهل أن مجتمع بيكون المثالى كان يعتمد على نفس العوامل القائمة فى مجتمعى افلاطون وارسطو المثاليين• فهو لم يعتمد على النمو ، ولكنه من وضـــع مشرع حكيم أصيل هـو « سولا مونا » • ويشبه فى هذه الناحية الجمهوريات المثالية الأخرى التى ظهرت فى القرنين السادس عشر والسابع عشر • وفى يوتوبيا توماس مور يقوم المشرع « يوتوبيوس » بخلق نظام اليوتوبيا فى البداية ثم ينتهى الأمـر بعد ذلك • أما أصل « مدينة الشمس » عنـد كامبنيلا فلم يذكر بوضوح ، وان كان الشك لن يتطرق فى انه قد تخيل أنظمتها كأنها من خلق حكمة مشرع واحد • ورد « هارينجتون » فى كتابه « أوشيانا » على ماكيافيلى ، فرأى وجوب قيام رجل واحد بخلق الجمهورية ، لو أريد لها الاستقرار فكأنها كتاب أو بناء ينبغى أن يبدعه رجل واحد •

أما مدى الحرية التى كان بيكون ينوى منحها لأهل مدينته الفاضلة، فأمر لا نستطيع تقريره • فلقد توقف الكلام فى كتابه قبل أن يصل الى الحديث عن أحوال أهـل المدينة ، وان كان الانطبـاع الذى يرسخ فى أذهاننا يدل على تصوره للدولة كأنها عائلة خاضعة لأب واحد • وربما كانت دولته أقل صرامة من النظام الالهى الطاغى فى مدينــة الشمس عند كامبنيلا ، والذى تأثر فيه بافلاطون • على أن كامبنيلا ذاته قد اشترك

مجتمعه المثالى فى جزيرة سماها كفر سلامة Caphar salama اسم قرية فى فلسطين) وأحدث كتاب اندريا أثرا مباشرا أيضا على Nova Solyma لصمويل جوت (١٦٤٨) انظر مقدمة هلد (F. E. Held) لكتابه الذى أشرف على نشره • اما فى Macaria لهارتلب وهى دولة متخيلة أخرى فى القرن السابع عشر (١٦٤١) فلم يظهر من ملامحها السعى وراء العلم A description of the famous Kingdom of Macaria

فى هذه الناحية مع مور ــ ولعلنا نستطيع التيقن من أن بيكون كان يتفق معهما فى ذلك ــ فلم يعتقد فى وجود حدود ثابتة بين الطبقات ، مع مراعاة خير أهل جمهوريتهما وسعادتهم بلا تمييز ، بخلاف المشروع الذى عرضه أفلاطون فى محاورة « القوانين » • وفيه تألف من أصحاب الحرف والعمال اليدويين طبقة غير موجودة لذاتها ، يقدر وجودها لصالح المجتمع فى جملته (١) •

وفى النهاية تصح الاشارة الى أن هذه المدن الفاضلة المتخيلة الثلاثة قد اتفقت كلها على الاتسام بطابع انسانى يتفوق على القدم ، وكذلك بميزة عامة أخرى تميزها عن كل من الدولة المثالية لأفلاطون ومخططات المجتمعات المرغوبة حديثا • فلقد تخيل أفلاطون وأرسطو مدنهما فى نطاق الحدود الجغرافية لهيلاس فى الماضى أو الحاضر • أما بيكون وكامبنيلا فقد اتجها الى وضع مدنهما فى بحار بعيدة ، وساعد ابتعاد هذه المدن فى المكان على أن يتوهم بعضهم أنه يمكن تحقيقها • ويضع المخطط الحديث المجتمع المثالى فى عهد آت من المستقبل • اذ كانت مبتكرات مور وخلفائه من ايحاء الكشوف البحرية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . أما الأسلوب الأحدث فقد جاء كنتيجة لنهوض فكرة التقدم •

(٦)

يصح اضافة كلمة أو كلمتين عن « مدينة الشمس » • لم يختلف كامبنيلا عن بيكون فى ايمانه بأنه يمكن استقصاء الحقيقة من الطبيعة بعد الرجوع اليها ، وبالمكانة التى يمثلها العلم فى مدينته الفاضلة (وان كانت أبحاث العلم لم تمثل مكانة بارزة فيها مماثلة لمكانتها فى « اتلانتا الجديدة ») • ومن المعالم الأساسية عنده تعريف المواطنين كافة بالعلم • وهناك ايحاء بالتقدم فى الاختراع الذى يتطلع اليه العلم • فلقد اكتشف ابناء « مدينة الشمس » بالفعل « الفن الوحيد الذى يفتقر اليه العالم ــ على ما يبدو ــ فن الطيران • وهم يتوقون الى اكتشاف آلات بصرية على التو تيسر لهم رؤية النجوم غير المرئية ، وآلات سمعية للانصات الى توافق الأجرام » • لم تقل نظرة كامبنيلا الى الأحوال القائمة ، وتوقعات المرفة،

---

(١) ومع هذا فلا ينطبق هذا الكلام عن محاورة الجمهورية ، كما يشيع القول • راجع الانتقادات المنصفة لتريفر فى كتاب :
A History of Greek Economic Thought
(شيكاغو ١٩١٦) ص ٤٩ وما بعدها •

عن نظرة بيكون من حيث الحماسة والتوقد • ولقد أيد تفاؤله بالرجوع الى التنجيم تمشيا مع طبيعته : « آه لو عرفتم ما يقوله منجموهم عن العصر الآلي (عصر الآلات) • فلقد قالوا ان عصرنا قد شاهد في مائة سنة أحداثا تاريخية تفوق كل ما حدث للعالم بأسره في أربعة آلاف سنة • وفاق ما نشر من كتب خلال هذا القرن ما نشر في الخمسة آلاف سنة الماضية • واستشهدوا بالمخترعات العجيبة للطباعة والمدفعية والمغناطيس وفوائده • وهي علامات واضحة للعصر ـ وكذلك بآلات تجميع سكان الأرض في حظيرة واحدة » • وأرجعوا هذه المخترعات الى تأثير النجوم •

على ان كامبنيلا لم يكن واضحا أو مطمئنا عند كلامه عن المستقبل• فلقد دفعه التنجيم واللاهوت الى التردد،وحلم مثل بيكون بحدوث تجديد كبير • ورأى الأحوال داعية للرضا ، ولكنه شعر بتزعزع في ايمانه • وأحدق منجمو دولته المتخيلة في النجـوم ، واكتشفوا احتمال اختفاء العالم ، وآمنوا بنبوءة يسوع بأن النهاية ستجيء متلصصة في الظلام • ومن ثم توقعوا عصرا جديدا ، بل لعلهم توقعوا نهاية العالم أيضا •

كان العصر الجديد للمعرفة وشيك البدء ، بحيث يمكن القول بأن كلا من كامبنيلا وبرونو وبيكون قد وقفوا عـلى الجسر الفـــاصل بين عصرين (*) •

★ Tenduntque manus ripae ulterioris amore.

الفصل الثالث

الديكارتية

لو اردنا أن نقيم حدودا فاصلة نافعة فى التيار المتواصل للتاريخ ، فان علينا أن نتجاهل الميل للتنبؤات والأحكام الشخصية • ولن نتردد فنزعم أن « التاريخ الحديث فى عالمى المعرفة والفكر قد بدأ فى القرن السابع عشر • ولقد تميز العصر الحديث فى مستهله بما حدث من تمرد فى سائر الأنحاء ضد التقاليد ، وبالفكر الواضح الدقيق الذى تأثر به حتى التعبير الأدبى ، وبسيل من الكشوف الرياضية والطبيعية ، التى تدفقت فى سرعة جارفة بحيث يستطاع القول بأن ما أضيف الى حصيلة المعرفة فى غضون عشر سنوات قد فاق كل ما سبقت اضافته منذ عهد أرشميدس • وتميز أيضا باستحداث التعاون المنظم لزيادة المعرفة ، بفضل « الجمعية الملكية » فى لندن و « أكاديمية العلوم » فى باريس • والمراصد • وبذلك تحقق حلم بيكون فى « أتلانتا » •

ويعد ديكارت محورا لما يعنينا من أفكار القرن السابع عشر • ولقد وصفه أحد المعجبين الانجليز « بأمين سر الطبيعة » (١) • وعلى الرغم من ان كشوفه الرياضية النيرة ، كانت المشاركة الخالدة الوحيدة التى شارك بها فى المعرفة ، وعلى الرغم من أن مذهبه فى الميتافيزيقا والفيزياء لم يكن سوى الاهتمام التاريخى ، فان عبقريته قد أحدثت تأثيرا أوسع على مستقبل تطور الفكر ، وتقلباته ، ففاق بذلك أى انسان آخر فى قرنه •

أثبتت الديكارتية البديهتين الموجبتين : سيادة العقل وثبات قوانين الطبيعة • واعتمدت فى ذلك على منهج مستحدث من التحليل الصارم ، طبق على كل من التاريخ والمعرفة الفيزيائية • وترتب على هاتين البديهتين نتائج هامة • اذ اصطدم القول بثبات ما يحدث فى الطبيعة مع نظرية الارادة الالهية الفعالة . وهز الاعتقاد بسيادة العقل عروش الثقات

---

(١) راجع ص ٢١ من Vanity of Dogmatising لجوزيف جلانفيل •

والتقاليد التى طغت على عقول البشر . وكان الديكارتية تصريح « باستقلال الانسان » .

وفى جو الروح الديكارتية هذا ، تحددت معالم نظرية التقدم .

(١)

ولنتذاكر ما سبق قوله . رأينا كيف لم تزد كل ملاحظات الفلاسفة قبل القرن السابع عشر - التى زعم تضمنها لايضاحات عن فكرة التقدم - عن اعتراف بالحقيقة الجلية الخاصة بحدوث تقدم وتحسن فى المعرفة والفنون عبر ما مضى من تاريخ ، أو اعتراف بأنه يمكن أن نتوقع حدوث تحسن فى المستقبل . فلم تظهر فى أى منها ملامح لنظرية يمكن تسميتها بنظرية التقدم . ورأينا أيضا جملة أسباب تعلل لماذا لم تستطع الفكرة البزوغ فى العصرين القديم والوسيط . كما لم يكن من اليسير ظهورها فى عهد « النهضة » . اذ كانت بحاجة الى ظروف تمهيدية معينة ، لم تتحقق الا فى القرن السابع عشر .

فما دام الناس يؤمنون ببلوغ اليونانيين والرومان فى أوج حضارتهم مستوى فكريا لن يأمل الأخلاف اطلاقا الارتقاء اليه . وما دام سلطان مفكريهم قد بدا معصوما من الخطأ ، فان ما سيسود الميدان هو نظرية فى التدهور تستبعد أية نظرية للتقدم . ويرجع الى كل من بيكون وديكارت فضل تحرير العلم والفلسفة من ربقة ذلك السلطان ، وبدأ فى نفس الوقت - كما سنرى - انتشار التمرد فى ميادين أخرى .

ثمة شرط آخر لنهوض نظرية التقدم : الاعتراف المخلص بقيمة الحياة الدنيوية ، واخضاع المعرفة للحاجات البشرية . وهيأت الروح الدنيوية فى عصر النهضة العالم لهذا التقويم الجديد الذى وضع بيكون صيغته ، وتحول بعدئذ الى المذهب الحديث فى المنفعة .

بقى بعد ذلك شرط تمهيدى ثالث . فلن يستطاع التيقن من استمرار المعرفة فى التقدم ما لم يستقر العلم على أسس وطيدة . ولن يستقر العلم فى نظرنا على أسس وطيدة ، ما لم يعترف بثبات قوانين الطبيعة . فاذا لم نقبل هذا الفرض ، واعتقدنا بامكان حدوث تغير فى اطراد العالم الطبيعى ، من آن لآخر ، لن يبقى لدينا ضمان بامكان تقدم العلم الى غير حد . ودعمت فلسفة ديكارت هذا المبدأ ، الذى يعد ركن زاوية العلم . وبذلك تحقق الشرط التمهيدى الثالث .

(٢)

خلال عصر النهضة ، تمتعت اليونان والرومان بأسمى مكانة في عالم الفكر . وتطلب التقدم اللاحق والتحرر اضعاف هذا السلطان . وبدأ بيكون وآخرون حركة تحطيم هذا الطغيان ، وان كان ديكارت قد أحدث أثرا أبعد وأعمق ، كما كان اتجاهه أشد حسما . فهو لم يتماثل اطلاقا مع بيكون في تقديره للادب الكلاسيكي ، فكان يزهو بنسيانه اللغة اليونانية التي تعلمها في صباه . وأهم ما قام به بفكرة الانقطاع الحاد الكامل عن الماضي ، وانشاء مذهب لا يستعير شيئا من الموتى . وتطلع ديكارت الى حدوث تقدم في المعرفة مستقبلا اعتمادا على منهجه وكشوفه الخاصة (١) . وتخيل ما سيحدثه التقدم الفكرى من آثار بعيدة على أحوال البشر ، فكان أول عنوان اختاره لكتابه « مقال في المنهج — مشروع لعلم كلي قادر على الارتقاء بطبيعتنا الى أعلى مستوى للكمال » . وذهب الى أن التحسن الأخلاقي والمادى يعتمدان على الفلسفة والعلم .

وبذلك بدأ في الانتشار اتجاه يرتكن الى مبررات ترمي الى الاستقلال عن القدم . وتقدم العالم في السن والنضج . وتشابه ديكارت مع بيكون في هذا المعنى ، الذى نقله وردده الكثيرون ممن تأثروا بديكارت . وعبر بطريقة أخاذة عن ذلك باسكال الذى ظل حتى سنة ١٦٥٤ منتميا الى أهل العلم ، ومن أتباع المعتقدات الديكارتية . وقال بوجوب النظر الى الأجيال المتعاقبة من البشر ممن ظهروا في عصور متعددة كأنهم فرد واحد متصل البقاء مستمر في التعلم . واستفاد هذا الانسان الجامع في كل طور من حياته بالمعرفة التي اكتسبها في المراحل السابقة . ولقد تقدم في السن الآن . ولعل هذا التشبيه أن يكون أكمل وأكثر تحررا من مقارنة الجنس البشري بفرد ، والتي صادفناها عند بيكون . وظهر تعبير باسكال هذا في بعض الشذرات التي ظلت بلا نشر لأكثر من مائة عام . وكثيرا ما يستشهد به من قبيل الاعتراف بالتقدم في المعرفة الانسانية ، وليس في التدليل على التقدم العام للانسان .

ولعل ديكارت كان سيجيب على أولئك الذين لاموه لاستخفافه بقدامى المفكرين بأنه عندما أنكر سلطانهم قد أظهر في الحقيقة ، بمحاكاته لروحهم ، تقديرا لهم . كما فاق في اتباع روحهم أولئك الذين اتبعوهم تبعية العبيد . وأدرك باسكال هذه النقطة وكتب : « هل هناك اجحاف

---

(١) على سبيل المثال ملاحظاته عن الطب في نهاية « مقال في المنهج » .

يفوق زيادة تقدير هؤلاء القدامى عن التقدير الذى أظهروه تجساه من سبقوهم ، وتقديرهم بدرجة بعيدة عن العقل ، ذلك التقدير الذى لم يستحقوه منا الا لأنهم لم ينظروا بنفس النظرة الى أولئك الذين تمتعوا بنفس الميزة ؟ » ٠

وفى الوقت نفسه ، اعترف باسكال برجوع تفوقنا ذاته على القدامى فى مدى المعرفة اليهم : « فلقد بلغوا نقطة معينة ، ويسر لنا أهون جهد بذلناه الارتفاع الى ما هو أسمى حتى الفينا أنفسنا فى ذلك المستوى ، بأقل عناء » ٠ واتجه ديكارت اتجاها بعيد الاختلاف ٠ فلقد دفعه التطلع للبدء من جديد واصلاح أسس المعرفة الى تجاهل ما تحقق فى الماضى ٠ أو الاستخفاف به ، فحاول قطع أوصال الاتصال « بمقص انتروبوس » كما يقول الاغريق ٠ وعاده (١) هذا الوهم عن طرح مذهب تقدم المعرفة ، كالذى استطاع تقديمه فى شتى الجوانب ٠ اذ ينبغى لمثل هذا المذهب أن يعمل نفس الحساب للماضى والمستقبل على السواء ٠

وشاءت الأقدار أن تنمو نظرية التقدم من فلسفته ، رغم عدم قيامه بانشائها ، اذ قام بالنهوض بها رجال ممن تشبعوا بالروح الديكارتية ٠

(٣)

اختلف العالم اللاهوتى فى فرنسا فى بادىء الأمر حول هل يمكن التوفيق بين مذهب ديكارت وتعاليم الكنيسة ؟ وجاءت اجابة اليسوعيين بالنفى ، أما آباء «الاوراتورى» فردوا بالايجاب٠وتحمس «اليانسنيون» فى بور رويال للديكارتية ، وان كان من المحتمل أن تكون القوى الروحية الكبرى لليانسنيين أكبر عامل فى ايقاف الانتشار المباشر للمعتقدات الديكارتية التى سادت فرنسا زهاء الخمسين عاما ٠ فلقد ظهر كتاب مقال فى المنهج سنة ١٦٣٧ ٠ أما « أوجستينيوس » ليانسيوس ، فنشر سنة ١٦٤٠ ٠ وفى سنة ١٦٤٣ ، ساعد ظهور كتاب أرنو Frequent Communion على زيادة شعبية اليانسينية ٠

تشابهت الحركة اليانسينية فى فرنسا على نحو ما مع الحركة البيورتانية فى انجلترا ، وسيطرت على أصحاب العقول الجادة على نفس النحو تقريبا ٠ فبعد أن اضطلع اليسوعيون بمهمة تيسير المسيحية ، والبحث عن حل وسط بين الدنيا والدين ، وأمطروا العالم بوابل من

---

(١) وربما أمكن توجيه اللوم اليه بالذات ، لاتباعه السكولائية فى براهينه الميتافزيقية ٠

المؤلفات «اللا افتائية» (*) المصممة لهذا الهدف ، صوب مذهب اليانسينية أسهمه ضد ما لحق بالايمان والأخلاق من فساد؛ وقرر عدم وجود حل وسط مع العالم • فلا توافق بين الافتائية والأخلاق ، لأن الانسان فاسد بطبعه ، والجوانب الفاسدة موجودة حتى فى أفضل أفعاله •

ان أهمية هاتين القوتين ــ اليانسينية بصرامتها ، وآباء الكنيسة بفتاويهم ــ انما ترجع الى محاولتيهما ، باتباع طريقين متعارضين ، مواجهة موجة فسق الفكر والسلوك الملحوظة فى تاريخ المجتمع الفرنسى، من عهد هنرى الرابع الى لويس الخامس عشر • ولهذه النزعة الفاسقة فلسفتها • فهى ضرب من فلسفات الرجوع الى الطبيعة ، ومن ألمع دعاتها رابلييه وموليير • والتعارض حاد واضح بين شعار « مسايرة الطبيعة » ، ومبادىء الديانة المسيحية • ولقد صاحبت هذه النزعة نظرات تشككيه شاعت فى فرنسا على نطاق واسع ، ابتداء من السنوات الأولى فى القرن السابع عشر • وحاول اليسوعيون المصالحة بافتراض « عدم وجود تعارض على الاطلاق من الناحية العملية بين مبادئنا الدينية وفلسفتكم الطبيعية • ولا يحدث اختلاف فى الرأى الا عند تطبيق المبادىء • ويتميز اللاهوت بمرونة تسمح بتطويعه وفقا للمشيئة • فلا تنبذوا دينكم بحجة صلابة روح العصر وحارب يانسينوس وأتباعه بلا هوادة فجور روح العصر ، وحرصوا على اتباع أجمد العقائد ، ونبذ أى مهادنة او تراجع • وصادف مذهبهم نجاحا مدهشا ، واقتحم كل مجال ، ولم ينج من آثاره الا قلائل من ادباء عهد لويس الرابع عشر ، ومن المستطاع تتبع آثاره فى حكم لارشفوكو و « النماذج الخلقية » للابروير • وتسبب اثره فيما لاقى موليير من مصاعب عند عرض بعض تمثيلياته • هذا يبين سر اتصاف بلاط الملك لويس الرابع عشر بالوقار ــ رغم ما فيه من فساد ــ بالمقارنة ببلاطى هنرى الرابع ولويس الخامس عشر • فلقد كان المعيار السائد صارما حتى رغم عدم اتباعه •

وساعدت عبقرية باسكال ما حالف اليانسينية من توفيق • فبعد أن تجاوز مرحلته الديكارتية ، أصبح أعظم ألسنة حال اليانسينية تأثيرا، وبسر كتابه « بروفنسيال » فهم أعقد مسائل اللاهوت الى حد ما ، وشجع العامة على ابداء رأيهم فيها • وساعد صفاء حياته على اهتمام الجميع بالمشكلات العويصة ، كمشكلة هل يتصف الانسان بالحرية الى حد جعل العناية الالهية زائدة عن الحاجة ؟ على أن باسكال قد أدرك ان « الافتائية »

---

* Casuistry

ليست العدو الوحيـد الذى يهدد الروح الحقة للدين ، التى تؤازرها اليانسنية • واهتدى الى ادراك التعارض العميق بين الديكارتية التى استهوته في البداية والنظرات الأساسية للمسيحية • وكتاب «خواطر» عبارة عن شذرات من مؤلف مصمم للدفاع عن الدين • ولن يتعذر ادراك تركز هذا الدفاع ضد معتقدات ديكارت بوجه خاص •

كان باسكال مصيبا كل الاصابة فى رأيه عن التصورات الديكارتية للعالم رغم ما أظهره ديكارت من ادعاء للتخفيف من غلواء هذا المذهب ، وكذلك تابعه المتحمس مالبرانش ، عندما حاول اثبات توافق هذه التصورات الى حد ما مع تعاليم الكنيسة • ولسنا بحاجة الى اجهاد أنفسنا فى بحث اتجاهات ديكارت الميتافيزيقية • فلقد كانت المسلمتان اللتان جاء بهما الى العالم — سيادة العقل وثبات قوانين الطبيعة — موجهتين مباشرة ضد أسس تعاليم الكنيسة • لقد كان باسكال يهاجم الديكارتية عندما قام بمحاولته الخالدة لبخس سلطان العقل ، وعندما بين مدى ضعفه وخداعه • ومن النتائج الطبيعية لتغير اتجاهه قيامه بالكلام فى « الخواطر » عن زحف العلم بلهجة أقل ثقة من لهجته التى تحدث بها فى الفقرة التى سبق لنا الاستشهاد بها • وكان من الطبيعى تشاؤمه فى النظر الى الرقى الاجتماعى ، كما أنه عندما ركز انتباهه على فكرته الجوهرية القائلة بان المسيحية هدف التاريخ ، لم يهتم بأكثر من اهتمام ثانوى بفكرة الارتقاء •

لم يبدأ التأثير الغالب لليانسينية فى الفتور الا خلال العشرين السنة الأخيرة من القرن السابع عشر • وحتى ذلك العهد ، يبدو أنه قد نجح فى مواجهة انتشار المعتقدات الديكارتية • فلقد بدأت الديكارتيه تنشط وتقوى عندما اتجهت اليانسينية الى التدهور • حينئذ بالذات ، بدأت فكرة التقدم فى البزوغ بصورة محددة ، وساعد جو فرنسا على الترحاب بها •

(٤)

استبعدت نظريتا ديكارت عن النظام الآلى للعالم وفكرة القانون الثابت ، بعد التوسع المنطقى فيهما ، مذهب العناية الالهية ، الذى كان قد تعرض بالفعل لخطر داهم • ولعل الشكاك لم يركزوا على أية دعامة اخرى من دعائم الايمان هجوما أشد • ولعله لا وجود لدعامة أكثر منها حيوية • وهناك ارتباط وثيق بين اضعاف نظرية العناية الالهية

بموضوعنا . فقد كان معنى ذلك أن حلت نظرية التقدم محل نظرية العناية الالهية الفعالة . ولم يتسن الاقدام على اعداد نظرية للتقدم الا بعد أن حدث اطمئنان الى الاستقلال عن العناية الالهية .

واعتقد بوسويه أن مسألة العناية الالهية هي أخطر مسائل ذلك العهد جميعا ، وأكثرها اثارة للخلاف بين مفكرى رجال الكنيسة والمارقين . وكان « برونتيير ، معجبا « ببوسويه » اعجابا حارا فسماه لاهوتى « العناية الالهية » ، وبين كيف سيطرت هذه الفكرة على كل كتاباته . فلقد ترددت في مواعظه الأولى في الخمسينات ، كما كانت الفكرة الأساسية في مؤلفه الطموح : « فصول في التاريخ العالمى » ، الذى ظهر سنة ١٦٨١ . وفي موضوعه الأساسى ، يعد هذا الكتاب ، الذى لاقى ترحيبا كبيرا من أولئك الذين نفروا بوجدانهم من نتائجه ، اعادة لبيان نظرة التاريخ التى قدمها القديس أغسطين في كتابه المعروف ، ففيه نظر للعناية الالهية كمرشد هاد لعالم التجربة الانسانية. من أجل الكنيسة ، وبمعنى اصح من أجل الكنيسة التى يتبعها بوسويه . ولو نظر الى كتاب « الفصول » كفلسفة للتاريخ فانه قد يبدو بلا اختلاف كبير عن نظرية « لمدينة الله » ، بعد جعلها مسايرة للزمان . وان كانت هذه الناحية أقل نواحيها أهمية . وسوف نخفق في فهم رسالته ما لم ندركه كعمل براجماتى ابن ساعته ، مصمم لحاجات زمانه . ففيه اشارات واضحة للميول الفكرية السائدة .

وهناك فكرة أساسية واحدة سيطرت على اهتمام بوسويه بالعناية الالهية طوال حياته : الاعتقاد بأن العقيدة هى أقوى مانع للتهاون الخلقى، وانكارها معناه الخلاص من أقوى قيد يكبح جماح الجانب الشرير من الطبيعة البشرية . وما من شك في أن الأمراء آنئذ قد رحبوا بالبراهين التى اعترضت على فكرة العناية الالهية . واعتقد بوسويه أن مناصرة العناية الالهية أفضل وسيلة لمعاداة الميول الداعرة في زمانه . وصرح في احدى مواعظه (١٦٦٢) : « ليس هناك ما هو ممقوت في نظر الداعرين المتغطرسين أكثر من إدراكهم انهم خاضعون على الدوام لمراقبة العناية الالهية . فهم يشعرون أنه من المضجر ارغامهم على الاعتراف بوجود ارادة عليا في السماء تتحكم في كل الحركات ، وتهذب افعالنا المنحلة بسلطانها الصارم . ولقد حاولوا الافلات من قبضة هذه العناية الالهية للمحافظة على استقلالهم وتحررهم في الخروج عن التعاليم مما يساعدهم على العيش حسب أهوائهم بلا خوف ولا رادع ولا كابح » .

وهكذا عمل بوسويه على مناصرة نفس القضية التي شغلت اليانسنيون ·

ووقع بوسويه ذاته تحت تأثير ديكارت ، وقدر أعماله دائما أعمق تقدير · وساعد بقدر كبير تأثره بحذر ديكارت على اخفاء الأخطاء المخادعه لأفكاره · ولم تفصح افكاره عن طابعها الحق الا عند أولئك الأتباع الذين توسعوا في مذهبه ، وحاولوا التوفيق بينه وبين تعاليم الكنيسة فى كل النقاط · فكشفت فلسفة مالبرانش عن التعارض بين العناية الالهية — كما تفهم عادة — وبين القوانين الطبيعية الثابتة · وكما ذكر مالبرانش: لو كان تأثير الله على العالم مقصورا على كونه مصدر القوانين العامة ، لكان معنى هذا تلاشي حريته ، ولتعرضت قدرته على كل شيء للخطر ، ويكون بذلك خاضعا لنوع من القدرية · ان اعتقاد المسيحيين في قيمة الصلوات سيتعرض للتشتت لو كان الله غير قادر فى أية لحظة معينة على تكييف أو تحوير النظام العام للطبيعة بالنسبة لحاجات البشر ؟ هذه بعض البراهين التي نصادفها في مبحث آلفه فنيلون بمساعدة بوسويه لاثبات عدم توافق مذهب مالبرانش مع التقوى والدين فى مفهوم الكنيسة · وكانا على صواب · اذ كانت الديكارتية نبيذا قوى المفعول ، ومن ثم تعذر سكبه في زجاجات قديمة ·

الصلة وثيقة بين ما دعاه مالبرانش بمذهبه في « العناية الالهية المقدسة » وتفاؤله الفلسفي · اذ يسر له القول بكمال العالم · فبعد أن اعترف بالحقيقة الواضحة عن النقص الذى ينكشف في العالم ، واقر بأن الخالق كان سيهتدى الى نتائج أفضل لو أنه اعتمد على سبل أخرى ، رأى مالبرانش أن واجبنا عند الحكم على العالم يدعونا الى عدم الاكتفاء بمراعاة النتيجة ، فعلينا أن نعنى أيضا بالسبل المتبعة في تحقيقها · وفى رأيه أن العالم أفضل عالم يمكن خلقه بالاعتماد على سبل عامة بسيطة ، والسبل العامة البسيطة هي آكملها ، ووحدها الجديرة بالخالق · وعلى هذا فلو نظرنا الى السبل والنتيجة مجتمعتين ، سندرك استحالة ظهور عالم أكمل · ودل البرهان على البراعة رغم امتلائه بالمسلمات ، وان كان من البراهين التي لا يرضى عنها غير الفيلسوف · فهو يقدم بعض العزاء للكائنات التي تعاني من أوجه النقص الفعلية الموجودة فى العقيدة التي شبوا عليها ، بعد أن يقال لهم بأن العالم ربما استطاع التحرر من هذه النقائص ، ولكن ما سيحدث في هذه الحالة هو عدم حصولهم على الاطمئنان بمعرفة اتباع العالم عند خلقه وفى سيره لمبادىء نظرية أسمى ·

وعلى الرغم من أن تصورات مالبرانش لم تزد عن نظرية ميتافيزيقية، الا أن النظريات الميتافيزيقية لها عادة جوانبها البراجماتية • والنظرية القائلة بأن العالم كامل كما ينبغي أن يكون من علامات مرحلة نما فيها تفاؤل الفكر ، ويمكننا أن نلحظها ابتداء من القرن السادس عشر ، عندما استطاعت هذه النظرية استهواء المثقفين في فرنسا ، لتوافقها مع روح الرضا والأمل اللذين سادا الطبقات العليا للمجتمع ابان حكم الملك لويس الرابع عشر • فقد بدت أحوال الحياة لهم في ظل الطغيان الجديد أكثر توافقاً مع رغباتهم من أحوال الحياة فيما سلف • واستغرقوا في الاستمتاع بالترف والأناقة • وأخذ الناس ما استطاع العرش الملكي تحقيقه لهم فتخيلوا أنه يمكنهم أن يحققوا تحسنا لا نهائيا في الحضارة على يد ارادة متنورة واحدة ، تحت امرتها جهاز اداري مركزي ، وكأنه لم يسبق وجود عصر أمجد من هذا العصر ، ولا أكثر استهواء للعيش فيه •

وهكذا بدأ العالم يتخلى عن نظرية الفساد والتدهور والاضمحلال •

وبعد بضع سنوات ، صادفت نظرية كمال العالم نصيرا أقدر عند لايبنتز الذي سماه ديدرو أبا التفاؤل • واعتقد لايبنتز أن الخالق قد تأمل قبل قيامه بالخلق كل العوالم الممكنة ، وانتقى أفضلها • وكان بوسعه اختيار عالم يتوافر فيه للبشرية نصيب أعظم من الفضل والسعادة • ولكن هذا العالم ما كان ليكون أفضل الممكن ، لو لم يراع الخالق صالح العالم بأسره ، الذي لا تزيد الأرض والبشرية عن جزء تافه منه • ومن المستطاع تجاهل شرور عالمنا الصغير ، ونقائصه بالمقارنة بسعادة الكون كله وكماله • ولم تذكر نظرية لايبنتز المستنبطة من قضية مجردة عن كمال الخالق ، بلوغ هذا العالم للكمال – كما ينبغي أن يكون – الآن أو في أية لحظة معلومة • ان فضائله كامنة في ممكناته التي ستبلغ الكمال خلال زمان لا متناه •

وعلى هذا تكون نظرية لايبنتز المتفائلة قد تحدثت عن الكون في شموله ، وليس عن الأرض • ولا يخفى عدم اختلاف هذه النظرية عن أية نظرة متشائمة لمصير البشرية • وغني عن البيان أن لايبنتز قد اعتقد باستحالة النهوض بنظام العالم « لا فيما يتعلق بالكل وحده بل وبالنسبة لأنفسنا بالذات • ولاحظ عرضا امكان بلوغ العنصر البشري بمضي الزمن كمالا أعظم مما نتخيله في الحاضر » ، وان كانت أهمية تأملاته وتأملات مالبرانش تكمن فيما بدا فيهما من ابتعاد قاطع عن نظريات التدهور القديمة •

الفصل الرابع
مذهب التدهور - القدامى والمحدثون

تعرضت للتحدى نظرية التدهور السائدة ، من خارج دوائر المفكرين ، منذ السنوات الأولى من القرن السابع عشر • وأدى التحدى الى التراشق بالكلمات ، واستمر زهاء المائة عام فى فرنسا وانجلترا ، حول مقارنة مزايا القدماء والمحدثين • وحمى وطيس الصراع ، فى عالم الأدب ، وبخاصة الشعر ، كما اجتذبت المشاحنات اهتمام الناس ، وان كان المتشاحنون البارعون قد جعلوا مجال النقاش يمتد الى الميدان العام للمعرفة • وجرت العادة على استبعاد المشاحنة بين أنصار القديم والحديث بوصفها حادثة غريبة فى تاريخ الأدب ، أدعى للسخرية (١) وكان أوجست كونت ــ فيما أعتقد ــ من بين من نبهوا الى بعض آثارها الواسعة •

والحق ان للنزاع أهمية بارزة فى تاريخ الأفكار ، فهو جزء من التمرد ضد قيود الفكر فى عهد النهضة ، وتمثلت فيه وجهة نظر المحدثين الذين بدأوا بالعدوان ، ومثلوا فكرة تحرر النقد من سلطان الموتى • وبغض النظر عن انحراف الذوق الذى اتهموا به ، فان جدالهم قد أحدث نتائج هامة فى تطور النقد الفرنسى ، وبدأ أثره حتى فى ميدان الأدب البحت ، كما بين المسيو برونتيير بصورة مقنعة • ولكن الصورة التى أثيرت فيها المسائل النقدية قد أثارت النقاش ، ولمست مشكلة ذات أثر هام • والمسألة هى : هل يمكن وضع أبناء العصر الحالى فى منزلة مساوية للقدامى المبجلين ، أم هم أهون شأنا منهم فى الناحية الفكرية ؟ وهو سؤال متضمن فى مسألة أكبر : هل استهلكت الطبيعة قواها ، ولم تعد قادرة على انجاب رجال مساوين فى عقولهم وفحولتهم لأولئك

---

(١) أفضل الكتب وأوفاها فى هذا الموضوع كتاب « ريجو » Rigault-Histoire de la querelle des Anciens et des Modernes. (١٨٥٦)

الذين أنجبتهم يوما ما • هل استنفدت البشرية طاقتها ، أم ان قواها ثابتة لا تستنفد ؟

جاء قول أنصار المحدثين بثبات قوى الطبيعة متناقضا تناقضا مباشرا مع نظرية التدهور ، ولا مراء أنهم شاركوا في سبيل انتقاص هذه النظرية • واذا أدركنا ذلك فاننا لن ندهش اذا رأينا كيف جاءت أول أقوال واضحة عن مذهب التقدم في المعرفة من ايحاء المشاحنات بين القدماء والمحدثين •

(١)

ورغم أن فرنسا كانت المسرح الكبير لهذا النزاع ، الا أن من أثار هذه المسألة بكل وضوح كان السندروتازوني الايطالي النابه والمؤلف الموهوب لقصيدة ساخرة مشهورة (*) ، سخرت من الشعراء المتحمسين في عصره • واتجه تازوني الى كشف تحاملات عصره ، وجاء بمذهب جديد ، وأحدث دويا كبيرا في ايطاليا عندما هاجم بترارك وهوميروس وارسطو•ومن المستطاع مصادفة أبكر مقارنة لفضائل القدامى والمحدثين في كتاب « أفكار من هنا وهناك » الذى نشر سنة ١٦٠٠ (١) • وتحدث تازوني عن المشكلة ، كمسألة خلاف عادية (٢) ، ورأى أن اصدار قرار منصف يتطلب القيام بمقارنة شاملة في شتى الميادين النظرية والخيالية والعملية •

واستهل كلامه بنقد البرهان « القبلي » القائل باعتماد الفن في بلوغه للكمال على التجربة والجهد الكبير ، ولذا يتحتم أن يتمتع العصر الحديث بالتفوق • وأشار الى عدم صحة هذا الاستدلال ، لأن من يزاولون نفس الفنون والدراسات ليسوا دائما أصحاب أقوى الأذهان • فهى قد تنتقل من حين لآخر الى التافهاء • وبذلك تنحط ، أو ربما تنطفىء جذوتها.

★ La Secchia rapita.

(١) Dieci Libri di pensieri diversi.

(كابري ١٦٢٠) ظهرت الكتب التسعة الاولى ١٦١٢ • ويحتوى الكتاب العاشر على المقارنة • واول من ربط بين هذا الكتاب وبين تاريخ الصراع هو « ريجو » •

(٢) جاء عرضا بالنسبة للنزاع الذى ثار حول مزايا كتاب «تحرير أورشليم» لتاسو ومن المستطاع استدلال سبق مناقشة الموضوع قبل ذلك بعهد طويل من ملاحظة « اليتى » في كتابه « دفاع عن هيرودوت » التى ذكر فيها انه بينما عمد بعض المعاصرين الى الاعجاب بالقدامى الى درجة خرافية ، انتقصهم البعض الآخر ، وداسوهم تحت الأقدام •

كما حدث في ايطاليا بعد أن تداعت الامبراطورية الرومانية ، عندما هبطت الفنون لعدة قرون عن مستواها الرفيع • أو بعبارة أخرى ، فان البرهان كان سيبدو مقبولا ، لو ان الاتصال لم يتعرض لأى ثغرات(١) •

وسعى تازونى عند مقارنته الى تأكيد ادعائه ، فقال انه ليس محابيا ، ولكنه رغم اعترافه بتفوق القدامى هنا وهناك، فقد خص المحدثين بأكبر قدر من هذا الثناء • فلقد توسع بحثه الذى تضمن الجانب المادى من الحضارة ، فتناول حتى الزى ، فاختلف في ذلك مع بعض المتشاحنين المتأخرين الذين ضيقوا من موضوع النقاش ، فقصروه على الأدب والفن •

وترجم كتاب « افكار من هنا وهناك » لتازونى الى الفرنسية • ولعله قد عرف الكتاب « بواروبير » الكاتب الدرامى المعروف بوجه خاص بدوره الذى قام به لانشاء الأكاديمية الفرنسية • فلقد ألقى خطابا أمام الهيئة بعد انشائها مباشرة (٢٦ فبراير سنة ١٦٣٥) ، شن فيه هجوما عنيفا واضح البذاءة على هوميروس • وأشعل هذا الخطاب نار الصراع في فرنسا ، بل واتخذ طابعا مميزا • كان هوميروس ـ الذى سبق أن تناوله تازونى بعنف ـ هدفا خاصا لسهام المحدثين ، الذين ظنوا أن نجاحهم في النيل منه يعنى نجاح قضيتهم •

وهكذا ألقى بالقفاز وحدث هذا قبل ظهور كتاب المقال في المنهج لديكارت (١٦٣٧) • ومن المهم أن نذكر ذلك • ولكن أثر ديكارت قد بدا جليا طوال النزاع ، وكان أبرز المحدثين من أولئك الذين استوعبوا الأفكار الديكارتية ، ويصبح هذا على ما يبدو حتى عن ديسماريه دى سان سورلان الذى استهل الحملة بعد خطاب بواروبير بسنوات عديدة ، واتصف سان سورلان بتزمته المسيحى • وهذا أحد أسباب مقته للقدامى • وكان أيضا ـ مثل بواروبير ـ شاعرا رديئا ، وهذا سبب آخر • وتركزت حججه على القول باحتواء تاريخ المسيحية على موضوعات أبعد الهاما للشاعر من تلك التى تناولها هوميروس ، وسوفوكليس ، وبوجوب تفوق الشعر المسيحى على الشعر الوثنى • واعتقد أن كتبه : « كلوفيس » • و « مريم المجدلية » ، و « انتصار النعمة الالهية » من أدلة التفوق التى تثبت خذلان هوميروس • ولم يسمع بهذه المؤلفات سوى قلائل ، فكم يا ترى عدد من قرأها ؟ • ومن العجيب أن تظهر في نفس العهد في انجلترا ملحمة لعلها دعمت بتأييدها دعاوى سورلان الموهومة •

---

(١) ذكر تازونى ان القدامى فى كل الاتجاهات لا مفر منه بعد بلوغ قمة امتياز معينة • واستشهد فى هذا الشأن بنيلبوس باتركولوس •

ولن يعنينا الخلاف الأدبي هنا . أما ما يعنينا فهو دراية سان سورلان ، بالجوانب الواسعة للمسألة رغم عدم شغفه الجدي بها . فلقد قال : لم يتشابه العصر القديم في سعادته أو علمه أو ثرائه أو أبهته مع العصر الحديث الذي يعد في الواقع ممثلا لتقدم السن والنضج أو خريف العالم كما يستطاع القول. ففي حوزته ثمار وغنائم كل مامضى من قرون، بالاضافة الى القدرة على الحكم على مخترعات السلف أو تجاربهم وأخطائهم، والانتفاع بكل ذلك. والعالم القديم أشبه بربيع ذى زهور قليلة. لا شك ان الطبيعة قد أنجبت في كل العصور أعمالا ممتازة . ولكن الأمر ليس على هذا الحال بالنسبة لمبدعات الانسان التى تحتاج الى تصحيح . ان من يظهر على مسرح الحياة متأخرا يتحتم أن يتفوق في السعادة والمعرفة. هنا نصادف القول بثبات قوى الطبيعة بالاضافة الى الفكرة التى سبق لكل من بيكون وآخرين التعبير عنها بتميز العصر الحديث على الماضى بمزايا يمكن مقارنتها بتميز التقدم في السن على الطفولة .

(٢)

وتتبين مدى جدية مسألة النزاع بين المحدثين والقدامى ــ الذين تقدم لمناصرتهم بوالو ، وامتشق الحسام وبارز سان سورلان ــ من وصية سورلان الوقورة . فلقد أوصى قبل وفاته بان يتولى مناصرة المحدثين شاب يافع هو « شارل بيرو » . وسنرى كيف حقق ما عهد اليه به . ويصور هذه الناحية أيضا كتاب ظهر في السبعينات ، لبوهور (*) . وهو من الأباء الشيعيين اليسوعيين الدنيويين . فلقد أثيرت المسألة في واحدة من هــذه المحاورات بطريقة مثيرة للدهشــة في حذرها ومراوغتها ، مما يوحى بخوف المؤلف من التورط وعدم رغبته في خلق أعداء (١) .

كان الجو العام في فرنسا ابان حكم الملك لويس الرابع عشر متعاطفا مع نظرة المحدثين . وشعر الناس بانه عهد عظيم يستطاع مقارنته بعصر

★ Les Entretiens d'Ariste et Eugène.

(١) ذكر ريجو انه قد ساهم بفكرة واحدة من افكار هذا الموضــوع : فكرة انتقال شعلة الحضارة من بلد لآخر في العصور المختلفة يعني من اليونان الى روما ، وحديثا من ايطاليا الى فرنسا . وفي القرن الاخير ، اتخذ الايطاليون الصدارة في الناحية العقائدية وفي مسائل اللياقة . ويماثل القرن الحالي بالنسبة لفرنســا القرن الســالف بالنسبة لايطاليا . فلدينا كل الروحانيات والعلوم ، وتعد باقي الشــعوب همجية بالمقارنة » (ص ٢٣٩ ــ طبعة ١٧٨٢ بامستردام) . ولكن كما سنرى قد سبق لهاكويل الافصاح عن ذلك في كتابه الذي جهله ريجو .

اغسطس . وربما فضل قلائل العيش في أي عهد آخر غيره . واستهوى أذواقهم استهواء شديدا الفنانين من الأدباء ككورنى ثم راسين وموليير فيما بعد ، بحيث لم يرضوا عن تخصيص مكانة أخرى غير الصدارة لهم. ولم يرضوا عن المزاعم التى كانت تنسب التفوق بلا منازع لليونانيين والرومان . قال موليير : القدامى هم القدامى . أما نحن فأبناء هذه الأيام . ولعل هذا هو نفس شعار ديكارت ، ويحتمل أن يكون قد عبر عن الشعور العام ذاته .

في سنة ١٦٨٧ ، نشر شارل بيرو ـ المعروف بمجموعته التى جمعها من الحكايات الخرافية أكثر من معرفته لدور الرائد الذى قام به في هذه المشاحنة ـ قصيدته « عصر لويس الأعظم » ، وتدور حول فكرة تفوق العصر الحاضر على القدم في الاستنارة :

وفاقت نظرة بيرو نظرة سان سورلان في تأدبها ، وان كان نقده قد اتسم بدهائه . فلقد قال ان عباقرة اليونان والرومان قد قاموا بدورهم على خير وجه في عصورهم ، وربما نظر اليهم أجدادنا نظرة تقديس . أما الآن فان افلاطون يبدو مثيرا للضجر . ولعل « هوميروس الفذ » كان سيكتب ملحمة أفضل لو أنه عاش ابان عهد «لويس الأعظم». ومع هذا فان أهم فقرة في القصيدة هي تلك الفقرة التى أكد فيها وجود قوة دائمة في الطبيعة قادرة على انجاب أناس متساوين في الموهبة في كل عصر .

لقد شكلت الطبيعة الأجسام مثلما شكلت الأرواح
فهى قد بذلت نفس الجهد في كل العصور
ان وجودها لا يتغير ، وقواها لا تصادف عسرا في انطلاقها
ومن ثم فهى تخلق الجميع
ان نفس هذه القوى اللامتناهية
قد خلقت في كل العصور عبقريات متماثلة (١) .

كانت قصيدة « عصر لويس الأعظم » خلاصة موجزة في تأكيد الايمان بالتقدم ، وتبعها بيرو بكتاب جامع قارن فيه بين القدامى والمحدثين (٢) . وظهر في اربعة أجزاء خلال السنوات التالية (١٦٨٨ ـ

---

(١) A former les esprits comme à former les corps
La Nature en tout temps fait les mesmes efforts;
Son être est immuable, et cette force aisée
Dont elle produit tout ne s'est point épuisée

(٢) parallèle des Anciens et des Modernes.

١٦٩٦) وبه افاضة في الكلام عن الفن والبلاغة والشعر والعلوم ، وتطبيقاتها العملية • وعرضت المناقشات في صورة محاورات بين نصير متحمس للعصر الحديث ، يقود النقاش ، ومولع بالماضي يتعذر عليه انكار حجج خصمه ، وان كان يصر على التمسك برأيه في عناد •

وبنى بيرو فكرته على تلك الاعتبارات العامة التى قابلناها عفوا عند الكتاب الأوائل ، والتى اقتربت الآن من الشيوع بين أولئك الذين عنوا بالموضوع : تتقدم المعرفة بتقدم الزمان والتجربة — لا يلزم القول بارتباط الكمال بالعصر القديم — من ظهروا أخيرا قد ورثوا من جدودهم، واضافوا اضافات جديدة من صنعهم • ولكن بيرو قد بحث الموضوع بحثا منهجيا ، واستخلص نتائج لم يبق سوى التوسع فيها كى تصبح نظرية محددة لتقدم المعرفة •

وتسببت صعوبة معينة في ظهور الكثير من العوائق أمام الاعتراف العام بحدوث تحسن متزايد عن الماضى • فلقد بدا هناك تعارض بين احدى الحقائق التاريخية الواضحة والقول بأفضلية اللاحقين وامتياز الأحدث ظهورا • فنحن اذا سلمنا جدلا بتفوقنا على أبناء العصور المظلمة في المعرفة والفنون ، هل نستطيع القول بأن أهل القرن العاشر كانوا أفضل من اليونان والرومان ؟ وأجاب بيرو بالنفى عن هذا السؤال الذى سبق لتازونى اثارته • فثمة ثغرات في الاتصال ، والعلوم والفنون أشبه بالأنهار التى تنساب في بعض أجزائها في باطن الأرض ، وعندما تهتدى الى فتحة من الفتحات تتدفق في غزارة ، كالتى تدفقت بها عندما كانت في باطن الأرض • وعلى سبيل المثال قد ترغم الحروب الطويلة الناس على اهمال الدراسة والارتماء بكل قوتهم في الحاجات الملحة ، للمحافظة على البقاء • وربما تبع ذلك عهد جهالة ، ولكن بحلول السلام والرضاء ستبدأ المعرفة والاختراع ، وتحقق تقدما أبعد •

يلاحظ أن بيرو لم يدع أى تفوق للمحدثين في المواهب أو القدرة العقلية ، وعلى العكس فانه قد ارتكن الى مبدأ ثبات الطبيعة الذى أعلنه في قصيدة « عصر لويس الأعظم » فهى لن تتوقف عن انجاب العظماء ، وان كانت لن تنجب ما هو أعظم • فلا اختلاف بين أسود صحارى افريقيا في عهدنا وأسود أيام الاسكندر الأكبر من حيث الشراسة • ويتساوى الأخيار في كل العهود في فحولتهم ، وما يتصف بالتفاوت هو أعمالهم وانتاجهم • ولو أعطى المحدثون ظروفا ملائمة متساوية لتحتم تفوقهم ، لاعتماد العلم والفنون على تراكم المعرفة التى تزداد بالضرورة بمرور السنين •

ولكن هل تنطبق هذه الحجة على الشعر وفن الأدب : ميدان القتال الذى عنى به عناية فائقة المتشاحنون ، ومن بينهم بيرو ذاته ؟ ربما ثبتت قدرة العصر الحديث على انجاب شعراء وأدباء لا يقلون امتيازا عن أئمة القدم ، ولكن هل ثبت وجوب اتصاف منجزاتهم بالتفوق ؟ لم يغب الاعتراض عن فطنة بيرو ، وأجاب عنه ببراعة • ان مهمة الشعر والبلاغة امتاع القلب الانسانى ، ولكى نمتعه يجب أن نعرفه • فهل النفاذ فى أسرار القلب الانسانى أسهل من النفاذ فى أسرار الطبيعة ، أم أن ذلك سيستغرق وقتا أقل ، اننا لا نتوقف عن اكتشاف أشياء جديدة من أهوائه ورغباته • ولو اكتفينا بمآسى كورنى ، فاننا سنصادف فيها تأملات رقيقة دقيقة عن الطموح والانتقام والغيرة أكثر من كل كتب الماضى • ومع هذا فقد احتاط بيرو فى ختام كتاب « الموازنة » ، رغم اعترافه بالتفوق ، واستثنى الشعر والبلاغة « ايثارا للسلامة » •

جاءت مجادلات بيرو أبعد ما تكون عن التجسيم الوافى لفكرة التقدم • ولم يقتصر الأمر على اكتفائه بالاهتمام بالتقدم فى المعرفة ــ رغم تضمن كلامه ــ بلا توسع ــ القول باعتماد السعادة على المعرفة ــ ولكنه لم ينتبه الى المستقبل ، ولم يعن به • فلقد تأثر تأثراً بعيدا بتقدم المعرفة فى الماضى القريب بحيث كاد يبدو عاجزا عن تخيل حدوث أى تقدم أبعد، وقال : « اقرأ جرائد فرنسا وانجلترا ، وألق نظرة على منشورات أكاديميتى هاتين المملكتين العظيمتين ، وسوف تقتنع بظهور كشوف فى العلم الطبيعى فى غضون العشرين أو الثلاثين السنة الأخيرة تفوق كل ما ظهر فى عهد علم القدامى • واعترف بأننى أعتبر نفسى سعيد الحظ لمعرفتى بالسعادة التى نتمتع بها • ومن المتع الكبرى ، استعراض كل العصور الماضية ، وفيها أستطيع أن ألمح مولد كل الأشياء وتقدمها • ولا شىء فى عصرنا لم يصادف زيادة جديدة أو بريقا • فلقد وصل عصرنا على نحو ما الى الكمال • ولما كان معدل التقدم قد ازداد تمهلا منذ بضع سنوات بحيث بدا غير محسوس كالأيام تبدو قد توقفت عن الزيادة فى الطول باقتراب نقطة التحول فى أطول أيام السنة أو أقصرها ، لذا يحق لنا الاعتقاد بأن قليلا من الأشياء تستحق أن نغبط عليها الأجيال القادمة •

تتميز روح الفقرة بعدم الاكتراث بالمستقبل ، بل وبجانب من التشكك فيه • وتتوافق مع النظرة القائلة ببلوغ العالم شيخوخته • ان فكرة التقدم فى المعرفة التى دعا اليها بيرو ما زالت غير مكتملة •

وفي انجلترا ، هوجم الاعتقاد في التدهور ، وأثيرت مقارنة القدامى بالمحدثين ، وحدث هذا بمعزل عما لاقته الفكرة من نهوض في فرنسا .

فلقد نشر كاهن يدعى جورج هاكويل سنة ١٦٢٧ مجلدا من القطع الكبير في ستمائة صفحة لدحض الخطأ الشائع عما يلحق الطبيعة من تدهور مطرد شامل (١) ، ونسى نسيانا كاملا هذا الكاهن وكتابه المتعالم، الذي تفوح منه رائحة القرن السادس عشر . ولقد نشر الكتاب ثلاث مرات ، ومع هذا فقلما اجتذب انتباه الكثيرين باستثناء رجال اللاهوت . ويهدف الكاتب الى اثبات عدم توافق قدرة الله أو ارادته الالهية في حكمه للعالم مع الادعاء السائد بتعرض العالم الطبيعي والسماء والعناصر للتدهور ، وبأن الانسان يعاني اضمحلالا ماديا وعقليا وخلقيا . وتتصف حججه في جملتها بالتفاهة ، ودبيب الملل ، وان كان الكاتب قد انتفع بقراءة بودان وبيكون اللذين أحدثت أفكارهما — على ما يظهر — اضطرابا في عقول رجال اللاهوت .

وتظهر المقارنة بين القدامى والمحدثين في أى دحض عام لمذهب الاضمحلال ، على نحو طبيعي مثلما تظهر مسألة ثبات قوى الطبيعة في أية مقارنة بين القدامى والمحدثين . واحتج هاكويل على أية مغالاة في الاعجاب بالعصر القديم، لأنها تحث على الاعتقاد باضمحلال العالم ، وطبق برهانه على مجالات أوسع من مجالات المعترضين الفرنسيين ، فتضمنت مبادلاته خصائص الظواهر الطبيعية والأخلاقيات الى جانب العلم والفنون والأدب ، وحاول أن يبين عدم حدوث تدهور ذهني أو فيزيائي ، وان أخلاقيات العالم المسيحي الحديث أعظم بكثير من أخلاقيات العهود الوثنية. فلقد حدث تقدم اجتماعي يرجع الى المسيحية ، كما حدث تقدم في الفنون والحرفة (٢) . واستعرض هاكويل — كما فعل تازوني — كل الفنون والعلوم ، واستخلص مساواة المحدثين للقدامى في الشعر ، وتفوقهم عليهم في سائر الأشياء على وجه التقريب .

ومن بين حجج اعتراضه على نظرية التدهور حجة براجماتية من

---

(١) An Apologie or Declaration of the power and providence of God in the Government of the World, consisting in an Examination and censure of the Common Errour etc.
١٦٢٧ — ١٦٣٠ — ١١٣٥

(٢) Una dies dabit exitio.

أثر ذلك في شل الارادة الانسانية : « ان الرأى القائل بتدهور العالم يصيب الآمال بالوهن وجهد الناس بالتبلد » . وتضمن كلامه القول : « بان محاولة تهذيب العالم واجب ودين علينا للأخلاف » .

« علينا اذن الا ندع الظلال التافهة للتدهور المكتوب على العالم تعرقنا عن النظر الى الوراء ، لمحاكاة النبلاء من أسلافنا ، أو عن النظر الى الأمام كى نترك ميراثا لأخلافنا . فكما ترك لنا الأسلاف نفائس ، علينا ان ننتظر دعوة أحفادنا لنا بالبركات لما زودناهم اياه . وما زال من غير المؤكد لنا نوع الأجيال التى ستظهر . والأمر بالمثل بالنسبة لأسلافنا فى عهودهم » .

ونلحظ هنا اننا قد نستوحى التاريخ فنتصوره سلسلة من خطوات الارتقاء فى الحضارة ، وان كنا نلاحظ أيضا مواجهة هاكويل للعقبة التى وضعها اللاهوت المسيحى أمام أى توسع منطقى للفكرة . فهناك عدم تيقن من الأجيال التى ينتظر ظهورها . ولقد سبق ان ارتطم روجر بيكون بنفس هذه الصخرة . واعتقد هاكويل انه يحيا فى آخر أحقاب العالم ، اما مدى استمرار ذلك فمسألة لم يتمكن من حلها : « فهى من بين تلك الأسرار التى خبأها الله فى طى الكتمان » ولكنه عزى نفسه وقراءه بالايحاء بان الآخرة لم تقترب بعد : « يتفق الكهان فى كل الأنحاء على أنهم لم يشهدوا علامتين على الأقل من العلامات التى تسبق نهاية العالم – تقويض دعائم روما وخروج اليهود عن دينهم . أما موعد حدوث هذين الحادثين ، فعلم ذلك عند ربى . وما يعرفه الانسان من بوادرهما قليل .

كان تأكيد عدم تعرض الطبيعة للتدهور ، أو الانسان للاضمحلال أمرا خيرا . ولكن ألا يتسبب فى اخماد الآمال وتعريض محاولات البشر للوهن الاعتقاد « بعدم اعتماد نهاية العالم على قانون الطبيعة » واحتمال انقطاع تيار الحضارة الانسانية فى أى لحظة بأمر الله (*) فلو ظن الناس أن العالم سيتوقف فى غداة يومهم فهل يكون هذا دافعا لهم لبذل الجهد والاعداد لذريتهم ؟

ترجع أهمية هاكويل الى انه ساعد على التركيز على النظرة السائدة فى التدهور والتى عاقت كل النظريات الممكنة فى التقدم . ويصور كتابه القرابة الوثيقة بين هذه النظرية ، والتشاحن حول « القدامى » و « المحدثين » ولا يجوز القول بأنه قد أضاف شيئا ذا بال الى ما يمكن

(*) Una dies dabit exitio.

مصادفته عند بودان وبيكون عن تقدم الحضارة • فثمة تماثل بين تركيبة التاريخ التي حاول القيام بها وبين محاولتيهما • ولقد قال بمرور تاريخ المعرفة والفنون وسائر الأشياء « بخط تقدم دائرى » ، ويعنى ذلك أنها مرت بعهود المولد والنمو والازدهار والاخفاق والذبول • ثم تجيء بعد ذلك حقبة اعادة المولد واعادة الازدهار • ووفقا لهذه الطريقة فى التقدم ، انتقل مشعل المعرفة من شعوب الشرق (كالكلدانيين والمصريين) الى اليونانيين ، وبعد أن اقترب هذا المصباح من الانطفاء بدأ يضيء مرة اخرى عند الرومان • وبعد أن أطفأه البرابرة زهاء الألف عام أعاد ايقاده بترارك ومعاصروه • وعندما نادى هاكويل بهذه النظرة الخاصة « بالتقدم الدائرى » ، فانه اقترب على نحو ملحوظ من مذهب « الرجعى » Rfcorst الذى استنكره بيكون بعنف •

والحق ان هاكويل قد تجاوز بيكون فى نقطة واحدة • وكما رأينا ، لقد سبق أن أشار المفكر الفرنسى بودان الى تفوق العصر الحديث فى السلوك والخلق على العصر القديم ، وان كان لم يسهب فى الكلام عن هذا الموضوع • وتوسع هاكويل فى عرض الفكرة ، وذم بتعصب وقسوة عادات القدامى وأخلاقياتهم • ورغم ما يبدو فى براهينه من تعسف وابتعاد عن الاقناع ــ فهى مستلهمة من دوافع لاهوتية ــ الا أنها تستحق الاشادة كبيان عن تقدم الانسان فى ظل الأخلاقيات الاجتماعية • فلقد اقتصر بيكون ومفكرو القرن السابع عشر ــ بوجه عام ــ فى نظراتهم عن التقدم فى الماضى على الميدان الفكرى • ومع أن هاكويل لم يوفق فى اصابة الهدف ، لانه لم يقل بالفعل شيئا يستحق الذكر ، الا أنه قد جاء ببشائر للمشكلة العظمى الخاصة بالتقدم الاجتماعى والتى اتخذت الصدارة فى القرن الثامن عشر •

(٤)

خلال العشرين السنة التى أعقبت ظهور كتاب هاكويل ، حدث الكثير فى عالم الأفكار • فنحن عندما نتناول كتاب جلانفيل Plus ultra أو « تقدم المعرفة وارتقاؤها منذ عهد أرسطو (١) » ، فاننا ننتقل الى جو مختلف • نشر الكتاب سنة ١٦٦٨ ، واتجهت غايته الى الدفاع عن « الجمعية الملكية » المؤسسة حديثا ، والتى هوجمت بحجة معاداتها لصالح الدين

(١) العنوان من ايحاء فقرة عند بيكون سبق الاستشهاد بها فى ص ٦٩

والمعرفة الصحيحة • اذ كانت التقاليد الأرسطية شديدة التغلغل في الكنيسة والجامعات الانجليزية بالرغم من تأثير بيكون • ورفضت « الجمعية الملكية » بعد ادراكها للنموذج الرومانتيكي الذى وضعته جمعية بيكون التجريبية المبادىء والمناهج المدرسية المقترنة باسم أرسطو •

كان جلانفيل من أهل السماحة من رجال الدين ممن ظهروا بوفرة في الكنيسة الانجيلية في القرن السابع عشر ، واعتقدوا بوجوب توافق الدين مع العقل ، ورفضوا التضحية في سبيله بأى مطلب من مطالب العقل •. وخضع جلانفيل لتأثير بيكون وديكارت وأفلاطونى كيمبردج . ولا نظير لحماسه في اتباع الكشوف العلمية في عصره • وأساء لسمعته لسوء الحظ احد جوانبه الضعيفة • اذ كان رغم تنوره يؤمن ايمانا راسخا بالسحر • ولا تعتمد الشهرة الرئيسية لجلانفيل على اعجابه بديكارت وبيكون ، ومناصرته « للجمعية الملكية » ، بل على كونه مؤلف كتاب Saducismus Triumphatus وهو آية من آيات الخزعبلات • ويحتمل أن يكون قد ساعد على ايقاف تزايد عدم الايمان بالسحرة والأشباح •

وكتاب Plus Ultra استعراض لما طرأ من ارتقاء في المعرفة النافعة • واقتصر على الرياضة والعلم تمشيا مع غايته التى ترمى الى تبرير وجود الجمعية الملكية ، ويسرت كشوف الستين السنة الماضية للمؤلف تقديم صورة بعيدة الأثر للتقدم العلمي الحديث فاقت الصورة التى تمكن من عرضها بودان أو بيكون (١) • واستوعب جلانفيل مذهب النفع عند بيكون ، وتكشفت روحه في الملاحظة التى أبداها عن استحقاق المخترع المجهول للبوصلة البحرية أعظم تقدير :

« اى أعظم من ألف اسكندر أو قيصر • اذ فاق أمثال أرسطو بعشرات المرات • فلقد ساعد بالفعل على زيادة المعرفة ونفع العالم بتجربته أكثر من المجادلين العديدين ممن عاشوا منذ انشاء مدرسة الثرثرة » •

ومع هذا فلم يحسب اغتباط جلانفيل بما تحقق بالفعل في ضلالة ، ومبالغته في الاشادة بأهمية هذا الاختراع • فلقد أدرك بحق ضآلة نفعه بالمقارنة بالمعرفة التى يمكن بلوغها ، ورأى أن الغاية الانسانية التى ترمى « الجمعية الملكية » لتحقيقها تمثل عالما بعيد الغور

---

(١) بالاجمال – كان بوسع بيكون تقديم صورة للعصر الحديث ابعد اثرا • لو انه درس الرياضيات وبذل جهدا في الاحاطة بالبينات التى احدثت ثورة في علم الفلك • وامتاز جلانفيل بادراكه أهمية الرياضة لتقدم العلم الطبيعى •

في نفس مستوى أعمق أعماق الطبيعة ، وعندما يرتفع يصل الى أعلى سموات العالم ، ويمتد الى كل ما يحتوى الكون الأعظم ، ويهدف الى خير البشرية في شتى أنحاء العالم · ولن يتقدم مثل هذا العمل الا رويدا رويدا ، في درجات غير ملموسة · فهي مهمة ينبغي أن تمنى كل أجيال البشر · ولن يأمل جيلنا في أكثر من ازالة ما لا نفع له من أوصابه ، ووضع حجر الأساس ، وتهيئة المكان للبناء : « علينا أن نبحث ونجمع ونراقب ونختبر ونضع رصيدا في البنك تنتفع به الأجيال الآتية فيما بعد » ·

يستوحي القارىء من هذه السطور « عن اتساع العمل » الحاجة الى مستقبل واسع لتحقيق هذه المهمة · ولم يركز جلانفيل على هذا المعنى ، ولكنه جاء ضمنا في كلامه · ولا يخفى أنه لم يشعر بأى اقلاق من الجوانب اللاهوتية التي أثقلت كاهل ماكويل · فهو لم يعبأ بمسألة توقع ظهور المسيح الدجال · ويتبين من الاختلافات في وجهتى النظر بين هذين الكاهنين مدى تغير العالم في بحر أربعين سنة ·

ثمة نقطة أخرى في كتيب جلانفيل تستحق الانتباه · فلقد تضمن مشروعه الكلام عن أهل عالم ماوراء المحيط الأطلسي ، والذين سيشاركون أيضا في الخبرات التي ستتمخض عن السيطرة على الطبيعة ·

« لقد حصلنا مما جنيناه من هذه القارة الهائلة ومن الجزر العديدة وراء الأطلسي على ميدان واسع للطبيعة ، وبذلك أصبح في مقدورنا الاستفادة من ظواهر أكثر ، وازدادت مقومات المعرفة والحياة ، وبذلك غدا محتملا تفوق العصور القادمة على العصور الغابرة في الاستفادة من مثل هذه الغايات ، بالاضافة الى انتقال العلم في نهاية الأمر الى تلك البقاع ، وإثرائه بيرو بنفائس أثمن مما في مناجمها الذهبية · أليس هذا بعيدا الاحتمال » ·

وتأمل أيضا « سبرات » أسقف روشستر في كتاب طريف نشر قبل كتاب جلانفيل بأمد قصير بعنوان «تاريخ المجتمع الملكي» ــ باحساس التحرر ــ انتشار العلم في أنحاء العالم · ففي حديثه عما يتوقع من كشوف في المستقبل · رأى أن ذلك سيعتمد في أحد جوانبه على اتساع ميدان الحضارة الغربية ، أى « لو قدر لهذه العبقرية التي تستعمل الآلات السائدة الآن في هذه الأجزاء من العالم المسيحي ، أن تنتشر انتشارا واسعا بحيث تشملنا وتشمل الأمم المتحضرة الأخرى ، أو لو شاءت الأقدار انتقالها الى بلدان أخرى لم تعرف الحضارة قط » ·

« ولو تخيلنا أن تيارا من الحضارة يتدفق في تلك البلدان التي ما زالت ترزح في الهمجية ، سيطرأ حينئذ تحسن مزدوج في أحوالنا وأحوالهم • اذ سيكتسب حتى من يتمتعون بالمهارة من أبناء البشر مهارة أعظم . كما أن الآخرين لن يقتصروا على متابعة الفنون التي سنزودهم بها ، ولكنهم سيقدمون أيضا على القيام بأبحاث جديدة » •

وتوقع سبرات الكثير ممن اعتنقوا المسيحية حديثا استنادا الى ما أظهرته الشعوب التي تحررت من تفوق في المقدرة على أساتذتها • ورجع الى مثل اليونانيين الذين تمكنوا من مضارعة أساتذتهم الشرقيين، وشعوب أوربا الحديثة الذين استفادوا من الرومان ولكنهم « ضاعفوا رصيد القدامى — أو كادوا — مما استحدثوا من وسائل مناسبة لهم » •

(٥)

بعد انشاء « الجمعية الملكية » ١٦٦٠ و «أكاديمية العلوم الفرنسية» ١٦٦٦ ، ذاع العلم الطبيعي في كل من لندن وباريس • ووصف ماكولى بطريقته المأثورة : « كيف افسحت أحلام الصور الكاملة للحكومات المجال للحلم بأجنحة يطير بها أبناء البشر من برج الكنيسة الى الدير ، وبسفن ذات قاع مزدوج تعجز عن اغراقها حتى أعنف العواصف • واكتسح هذا الشعور كل الطبقات وزاد من نهضتها • وهكذا اتفقت كلمة كل من الفرسان ورجال البرلمان والكنيسة والبيوريتان لأول مرة • وساعد الكهنة ورجال القانون والحكام والنبلاء والأمراء في تضخيم انتصارات الفلسفة البيكونية » • وفى نهاية المطاف ، بدأت البذرة التي رماها بيكون تجنى ثمارها • واعترف بفضله الاكبر أولئك الذين أنشأوا وهللوا « للجمعية الملكية » • وربما صح تسمية القصيدة التي حيا بها كاولى هذه المنظمة بقصيدة في تمجيد بيكون ، أو لعل الأفضل هو تسميتها : ترتيل تحرر العقل الانساني من كل سلطان ، لان الشاعر قد ركز على النقطة الأساسية التي انصب عليها جهد بيكون :

« لقد حطم بيكون هذه الاله خيال المقاتة »

وتخلى حتى « درايدن » ذاته (*) عن موضوعه المأثور : هزيمة الهولانديين وسيادة انجلترا على البحار ، ونظم قصيدة أشاد فيها « بالجمعية » وتنبأ بسيطرة الانسان على العالم :

(*) Annus Mirabilis.

سوف تبحر السفن قاصدة اناش التجارة
وبذلك توثق الصلة بأقصى البقاع
فيصبح العالم مدينة واحدة
ويثرى البعض ، وربما نزود الجميع بحاجاتهم
حينئذ سيمكننا بلوغ الحافة الأخيرة لدنيانا
فنرى المحيط وهو يتعاطف على السماء
ومن هنا سنعرف جيراننا فى الكواكب السيارة
ونصافح أبناء القمر بكل اطمئنان ·

لم ينظر الناس بعيدا فى المستقبل ، ولم يحلموا بكيف سيصبح العالم فى غضون ألف أو عشرة آلاف من السنين · فالظاهر انهم توقعوا نتائج سريعة · واعتقد حتى سبرات باقتراب بلوغ الفلسفة الحقة للكمال المطلق · واعتمد في هذا الرأى على تحقق « أول تمهيد ضرورى عظيم لاقترابها : « منظمة التعاون العلمى » · ومع الاعتراف بما اتصف به الحماس العام من سطحية وعرضية ، الا انه كان علامة. بدء عصر من التفاؤل الفكرى ، يقوم علم الطبيعة بالدور الأول فيه ·

الفصل الخامس

تقدم المعرفة - فونتنيل

(١)

قبل ظهور الجزء الأول من كتاب بيرو بتسعة شهور ، وضع شاب ألمع منه وأصغر سنا ، بحثا موجزا تضمن النقاط الأساسية لمذهب تقدم المعرفة . هذا الشاب هو فونتنيل .

كان فونتنيل من المؤمنين بالطبيعة الحديثة ، والملمين بمبادىء ديكارت . ورغم تشابهه مع ديكارت في عدم اتباع أى مفكر بلا قيد ولا شرط ، الا انه قدر بلا تحفظ قيمة المنهج الديكارتي . وذكر فونتنيل أن الرجل العظيم يملى أحيانا اتجاه العصر . ويصح هذا عن ديكارت الذى يستطيع الافتخار بوضعه فنا جديدا للاستدلال العقلى ، يمكن ادراك آثاره في الأدب . فلقد تميزت أفضل الكتب عن الموضوعات الأخلاقية والسياسية بنظام ودقة أرجعهما الى الروح الهندسية Esprit géometrique المأثورة عن ديكارت (١) . واتصف فونتنيل ذاته بهذه العقلية الهندسية، التى نراها في أفضل أحوالها عند ديكارت وهوبز وسبينوزا .

وظهر عنده ميل الى الأدب ، ونظم أشعارا هزيلة ركيكة . ولم يكن قادرا على تمييز الغث من السمين في الشعر . ولعل هذا النقص يرجع الى الروح الهندسية . ولكنه كتب نثرا واضحا ، واتصف بالقدرة على السخرية ، وببراعة في التنكيت المعتمد على المفارقة ، الذى استغرق فيه بتوفيق ليس بالقليل في كتابه الباكر « محاورات الموتى » . وتضمنت هذه المحاورات لمسات خفيفة الظل ، رغم عدم دلالتها على أية قدرة درامية - فهى لم تزد عن وسيلة عبر فيها المؤلف عن انتقاداته وسخريته

---

(١) راجع كتاب Futilité de Mathematique et de la physique.
(مجموعة مؤلفاته ص ٣ طبعة ١٧٢٩) .

من الحياة . كما حفلت بالمفاجآت والطرائف غير المتوقعة . ويتبين من الاختيار ذاته لابطال الحوار وجود خيال عجيب لا ترابط بينه وبين العقلية الهندسية . فلقد وضعت شخصية ديكارت في مواجهة ديمتريوس أحد الشخصيات المزيفة الثلاثة . وربما عجبنا لامكان عثور ابتقيوس الابيقوري على أي شيء يستطيع قوله لجاليليو .

(٢)

في « محاورات الموتى » ، التي ظهرت سنة ١٦٨٣ لمس فونتنيل مسألة الصراع بين القديم والحديث أكثر من مرة . فلقد تناولها موضوع النقاش بين سقراط ومونتاني ، عندما زعم سقراط ساخرا أنه يتوقع ان يتفوق عصر مونتاني على عصره ، وأن يكون الناس قد انتفعوا بتجارب القرون العديدة ، وأن يبدو العالم بعد تقدمه في السن أحكم وأضبط مما كان في صباه . وأكد له مونتاني ان الأمر ليس كذلك . وعارض سقراط هذا القول بذكر مذهب ثبات قوى الطبيعة التي لم تتدهور في منجزاتها الأخرى ، فهل هناك ما يدعوها الى التوقف عن انجاب أبناء عقلاء ؟ واستطرد فلاحظ الهالة الضخمة والرفعة التي تحاط بها العصور القديمة نتيجـــة للابتعاد عنها : « في أيامنا كنا نقـــدر أسلافنا أكثر مما يستحقون ، واليوم يقدرنا أحفادنا أكثر مما نستحق . والواقع أنه لا وجود لأي اختلاف بين أسلافنا وبيننا ، أو بيننا وبين أخلافنا . فكل شيء على ما هو عليه » (١) . ولكن مونتاني احتج : كنت أميل الى الاعتقاد بحدوث تغير دائم في الأشياء ، ولكل زمان الخلق المناسب له . ألا يوجد هناك عهود علم وعهود جهل وعهود مرذولة وأخرى مهذبة ؟ ورد سقراط بأن هذا صحيح ، ولكن في الظـــاهر فقط . فقلب الانســـان لا يتغير ، بتغير بدع حياته . وهناك ثبات في نظام الطبيعة (٢) .

تتوافق هذه النتيجة مع الروح العامة « للمحاورات » . ففيها تأكيد لثبات قوى الطبيعة ، وان كان هذا لم يعن أكثر من استبعاد أوجه الخلاف بأسرها باعتبارها عديمة الجدوى . وفي موضع آخر ، استبعدت الكشوف الحديثة ، كالدورة الدموية وحركة الأرض كأشياء بلا نفع ، لأنها لم تضف شيئا الى سعادة البشرية ومتعتها . فلقد اكتسب أبناء البشر في عهـــد مبكر قدرا معينا من المعرفة النافعة التي لم يضيفوا اليها شيئا . ومنـــذ

---

(١) C'est toujours la même chose

(٢) l'ordre général de la Nature a l'air bien constant.

ذلك الحين ، اكتشفوا على جهل أشياء بلا ضرورة • ان الطبيعة لم تتصف بعدم الانصاف بحيث ترضى بتمتع عصر بمتع تفوق ما يتمتع به عصر آخر • فما هي قيمة الحضارة ؟ انها تصقل كلماتنا وتشوش أفعالنا ولكنها لا تؤثر في مشاعرنا (١) •

ربما تعذر على المرء أن يتوقع اقدام مؤلف هذه المحاورات بعد ذلك بسنوات قليلة على مناصرة المحدثين حتى بالرغم من أنه قد قارن فرنسا باليونان في رسالته التمهيدية الى لوسيان • وان كان فونتنيل قد عنى عناية جادة بمسألة النقاش كمشكلة من مشاكل الفكر • ونشر في يناير سنة ١٦٨٨ كتابه « استطراد في الحديث عن القدامى والمحدثين » • وهو كتيب صغير ، ولكنه أدسم وأحفل بالايماءات من كتاب صديقه بيرو الضخم الذي بدأ في الظهور بعد ذلك بتسعة شهور •

(٣)

يمكن الاستشهاد بالمثل الآتي في معرض الكلام عن الاختلاف على امتياز القدامى على المحدثين : هل كانت الأشجار في العصور الغابرة أضخم مما هي عليه الآن ، ولو كان ذلك كذلك ، لكان معناه عدم امكان ظهور أمثال لأفلاطون وديموستين في العصور الحديثة • أما اذا لم يكن الأمر كذلك فان هذه المضاهاة ستصبح ميسورة •

وعرض فونتنيل المسألة بهذا الاجمال في مستهل كتاب « الاستطراد » • ولقد سبق لكل من سان سورلان وبيرو القول بثبات قوى الطبيعة ، ولكنهما لم يقدما أي برهان ، وذكرا المبدأ بطريقة أقرب للعرضية ومن قبيل المثال ، وان كان البحث برمته شديد الارتباط به • فلو أمكن البرهان على أن الانسان لن يتعرض للتدهور لكان معنى هذا كسب قضية المحدثين بالفعل • فينبغي أن يعتمد في حسم مواضع الخلاف على الفيزياء لا على البلاغة • وقدم فونتنيل ما اعتبره برهانا ديكارتيا صوريا عن ثبات قوى الطبيعة •

لو صح القول بأن أذهان القدامى كانت أفضل من أذهاننا ، لكان معنى هذا وجوب تميز أمخاخ هذا العهد بتكوين أفضل ، وتألفها من أنسجة أصلب أو أرق ، وتشبعها أكثر « بالروح الحيوانية » • على أن

---

(١) انظر الى محاورات هارفى واراسيسطراتوس (طبيب يونانى من القرن الثالث ق•م) ريجاليليو مع ابيقيوس ومونتزوما مع فرناند كورتيز •

هذا الاختلاف لو وجد ، لتحتم اتصاف الطبيعة بحيوية أكثر • وفي هذه الحالة ، ينبغي أن تكون الأشجار قد اتصفت بمثل هذا التفوق في الحيوية، وأن تكون قد تميزت بضخامتها وجودتها • والحقيقة أن الطبيعة تعتمد على عجينة واحدة على الدوام ، وتعيد تشكيلها على آلاف الأنحاء ، وتصنع منهـا الآدميين والحيـوانات والنبـاتات • فهي لم تصنع هوميروس وديموستينوس وأفلاطون من طينة معجونة بطريقة أفضل أو أرق من طينة شعرائنا وخطبائنا وفلاسفتنا • وعليك ألا تفترض أن العقول ليست أمرا ماديا • فهي متصلة برباط مادي بالمخ • وعلى هذا فان ما يتحكم في هذه الاختلافات الذهنية هو نوع هذا الرباط المادي •

ولكن على الرغم من أنه لم يتغير ما يجـرى في الطبيعة من عصر لعصر ، الا أن آثارها تختلف تبعا لاختلاف الأجواء : « فلابد أن تترك اختلافات المناخ ــ التي تؤثر تأثيرا واضحا للغاية في حياة النبات ــ بعض الآثار على العقول الانسانية ، وذلك كنتيجة للتبعية المتبادلة بين كل أجزاء العالم المادي » • الا يمكن القول اذن بأن اليـونان والرومان قد أنجبتا ــ كنتيجة للأحوال المناخية ــ أناسا ذوي خصائص ذهنية مختلفة عن الخصائص التي تستطيع فرنسا انتاجها ؟ • ان ثمار البرتقال تنمو بسهولة في ايطاليا ، أما زرعها في فرنسا فيحتاج الى عناء أكبر • ويجيب على هذا بأن تأثير الفن والتهذيب في الأمخاخ الانسانية يفوق تأثيرهما في التربة • فنقل الأفكار من بلد لآخر أيسر من نقل النباتات • وساعدت التجارة والتأثير المتبادل على عدم احتفاظ الشعوب بخصائصها العقلية الأصلية الراجعة الى المناخ • وربما لم يصح ذلك عن الأجواء المتطرفة في المناطق الجليدية والحارة ، ولكننا نستطيع تجاهل المؤثرات المناخية تجاهلا تاما في المناطق المعتدلة • فهناك تماثل كبير بين أجواء اليونان وايطاليا وفرنسا ، يصعب احداث أي اختلاف محسوس بين اليـونانيين واللاتين والفرنسيين •

وانتقل سان سورلان وبيرو في براهينهما انتقالا مباشرا من ثبات الحيوية في الأسود والأشجار الى ثباتها في البشر • فاذا كانت الأشجار متماثلة منذ الأزل ، فلابد أن تكون العقول أيضا متماثلة ، ولكن ما القول في المقدمة المنطقية لهذه القضية ؟ فمنذا الذي يعرف ان الأشجار هي هي بكل دقة ؟ • فمن الفروض التي لا يستطاع برهنتها القول بأن أشجار البلوط والزان على عهد سقراط وشيشرون كانت افضل قليلا من أشجار

بلوط وزان هذه الأيام . وأدرك فونتنيل وهن هذا التعليل ، ورأى وجوب اثبات عدم وجود اختلاف بين الأشجار والأذهان الانسانية فى ناحية عدم التعرض للتدهور . على أن برهانه النظرى لم يزد عن ترديد للمبدأ الديكارتى عن ثبات عملية الطبيعة ، بعد أن قدمه فى صورة بعيدة كل البعد عن العلم . فثبات قوانين الطبيعة فرض ضرورى بدونه يستحيل قيام العلم . ولكنه هنا قد سخر لغاية غير مشروعة ، لانه يعنى أنه فى حالة وجود نفس الظروف يتحتم حدوث نفس الظواهر الفيزيائية . وعلى هذا كان من واجب فونتنيل اثبات عدم تغير الأحوال على نحو يحدث تغيرات فى خصائص المنتجات العضوية للطبيعة . ولكنه لم يقدم على ذلك . فهو لم يراع على سبيل المثال امكان تغير الظروف الجوية من عصر لآخر ، وكذلك من بلد لبلد .

(٤)

وبعد أن اثبت فونتنيل وجود مساواة طبيعية بين القدامى والمحدثين أرجع بعد ذلك كل الاختلافات الى الأحوال الخارجية :

١ ــ الزمان .

٢ ــ الأنظمة السياسية ، والأوضاع العامة بوجه عام .

لقد سبقنا القدامى فى الزمان ، ومن ثم فان الاختراعات الأولى كانت من ابتكارهم ، لهذا لا يصح اعتبارهم أفضل منا . فلو اتخذنا مكانهم ، ما كان من المستبعد أن نخترع نفس الاختراعات . ولو حلوا محلنا . لأضافوا الى هذه المخترعات مثلما فعلنا . ولا سر فى هذا الأمر . فعلينا أن ننسب فضلا متساويا الى أوائل المفكرين الذين مهدوا الطريق وللمفكرين المتأخرين الذين ساروا على الدرب . واذا كانت محاولات القدامى لتفسير العالم ، قد استعيض عنها حديثا باكتشاف مذهب بسيط (يعنى المذهب الديكارتى) فعلينا أن نعترف أننا لن نبلغ الحقيقة الا اعتمادا على استبعاد السبل الزائفة . واستنادا على ذلك ، يمكن القول بان نظرية الأعداد الفيثاغورية ، ومثل افلاطون ، و « الكيفيات » عند أرسطو ، قد ساعدت بطريقة غير مباشرة على تقدم المعرفة : « اننا مدينون للقدماء لانهم استنفدوا كل النظريات الزائفة تقريبا ، التى يمكن تاليفها . ولا عجب ، وبعد استنارتنا بنظراتهم الصحيحة وأخطائهم على السواء اذا استطعنا التفوق عليهم » .

ولكن كل هــذا لا ينطبق الا على الدراسـات العلمية كالرياضـة والفيزياء والطب باعتبار أنها تعتمد من جانب على الاستدلال الصحيح ، وعلى التجربة من جانب آخر · ولا تتحسن طرائق الاستدلال الا رويدا ، وكانت أهم خطوة جاء بها العصر الحديث الطريقة الي استهلها ديكارت · فلقد اتسم الاستدلال العقلي قبله بالتراخي.فادخل ديكارت معيارا أصلب وأدق ، ظهرت آثاره في أفضل أعمالنا في الفيزياء والفلسفة . كما يمكن أن نلمح هذه الآثار أيضا في كتب الاخلاقيات والدين ·

علينا أن نتوقع تفوق أبنائنا علينـا مثلما تفوقنا على القدامى ، بتأثير التحسن في المنهج ، الذى يعد علما في ذاته : أشق العلوم وأقل ما يدرس منهـا ـ وبتأثير وفرة التجربة · ولا يخفى أن هذه العملية لا تتوقف عند حد (*) · ولابد أن يكون التميز في القدرة من نصيب الأكثر حداثة من رجال العلم ·

بيد أن هــذا لا يصـح على الشعر والبلاغة ، وقد ثارت حولهما مشاحنات شديدة العنف · فالشعر والبلاغة لا يعتمدان على الاستدلال الصحيح · انهما « يعتمدان أساسا على حيوية الخيال ، التي لا تحتاج الى طريق طويل من التجارب ولا على وفرة من القواعد لبلوغ كل الكمال الذي تستطيع بلوغه » · فمن المستطاع بلوغ مثل هذا الكمال في قرون قليلة · فاذا كان القـدامى قد بلغوا الكمال في الأدب المتخيـل ، فان ما يتبع ذلك هو الاعتقاد بعدم امكان التفوق عليهم ، وان كان لا يصح لنا القول بعدم امكان مضاهاتهم ، كما يميل المعجبون بهم الى الادعاء ·

(٥)

الى جانب الزمان وطبيعته ، علينا أن نراعي عند بحث هذه المسالة الأحوال الخارجية ·

فلو صح القول بثبات قوى الطبيعة ، فكيف نفسر شـدة الجهل وعمقه في البلدان البربرية بعد تدهور روما ؟ · فلم يكن مصطلح القرون الوسطى قد شاع بعد · أن تقطع الاتصال من بين الحجج المستملحة عند المدافعين عن القدامى · فهم يقولون أن سر اتصاف هذه العصور بالجهالة والبربرية هو التوقف عن قراءة الكتاب اليونانيين والرومان · وبمجرد احياء دراسة النماذج الكلاسيكية ، عاد للحياة العقل والذوق السليم ·

(*) que tout cela n'a point du fin.

وهذا صحيح ، ولكنه لا يثبت شيئا . فلم تنس الطبيعة كيف تصنع امثالا لعقول شيشرون والمؤرخ الروماني ليفي . فهي تنجب في كل عصر رجالا يصلحون للاضطلاع بدور العظماء ، وان كان العصر لا يسمح لهم دائما باظهار مواهبهم . فقد تنجح في فرض عهود طويلة من الجهالة وفساد الذوق الفيضانات والحروب الشاملة والحكومات التي لا تشجع أو تحبذ العلم والفن ، كتعصب الصينيين ضد تشريح الجسم على سبيل المثال .

ولكن عليك أن تلاحظ انه رغم ان العودة الى دراسة القدامى قد نجحت بضربة واحدة في اعادة مثل الجمال التي خلقوها والمعارف التي جمعوها للحياة ، فانه كان بمقدورنا أن نكتشف بالاعتماد على أنفسنا « مثل الحق والجمال » حتى في حالة عدم تحقق المحافظة على منجزاتهم ، ولو كلفنا ذلك عناء سنين طويلة . فأين كنا سنعثر عليها ؟ في نفس الموضـــع الذى عثر عليهـــا فيه القـــدامى ، بعـــد الكثير من التحسس والتلمس .

(٦).

تحتـــوى المقـــارنة أو تشبيه حيـــاة البشرية مجتمعة بحياة الفرد الواحد . والتي أقامها بيكون وباسكال وسان سورلان وبيرو على حقيقة عامة تســتند اليها المسألة برمتها . ولقـــد عرضها فونتنيل على النحو الآتي : يستطاع القول بأن العقل المثقف يحتـــوى على كل عقول العصور السالفة . وبمعنى آخر ، يحتـــوى أى عقل مفرد على ثقـــافة منتزعة من التاريخ بأسره . وهكذا امضى هذا الانسان حياته الدنيا التي عاشها منذ بداية العـــالم في طفولة استنفدت في أهم ضرورات الحياة ، ونجح في شبابه نجاحا كبيرا في موضوعات الخيال كالشعر والبلاغة . بل وبدأ يتعقل بجرأة تفوق قدرته على بلوغ الفكر الرصين . وهو الآن في سن الرجولة أكثر تنورا ، وأقدر على الاستدلال العقلي . وكان بامكانه التقدم الى ما هو أبعد ، لولا شروده بتأثير عشقه للحرب الذى دفعه الى النفور من العلوم التي عاد اليها في النهاية .

والتشبيهات خطرة في حالة التمادى فيها ، فهي توحي بنتائج غير مضمونة . وربما ساعد على التنور تشبيه نمو الانسانية بنمو الفرد، غير ان استدلال بلوغ الجنس الانســـاني للشيخوخة لمجرد مسايرة المقارنة أمر لا نجد له مبررا واضحا كل الوضوح . وكان هذا ما فعله بيكون وآخرون ، وأدرك المغالطة فونتنيل .

فقد اعتقد أن « شيخوخة » الانسانية اذا كانت تعنى الاضمحلال ، فانها تعنى أيضا توافر حكمة التجربة • وفى هذا تعارض مع مبدأ ثبات القوى الطبيعية • وذكر ان الانسان لن يعرف أى شيخوخة ، وسيظل قادرا بدرجة متساوية على تحقيق انتصارات شبابه ، وستزداد خبرته بالأشياء بحيث تصبح هذه الحقبة عهد حيوية ، أو « اذا ابتعدنا عن لغة المجاز قلنا ان الانسان لن يتدهور أبدا » •

وفى العصور الآتية ، ربما نظـر الينا ــ فى أمريكا مثلا ــ بنفس المبالغة فى الاعجاب التى ينظر بها الى القدامى • وربما دفعنا تنبؤنا الى ما هو أبعد وقلنا ان الفترة الزمنية التى تفصلنا عن اليونانيين ستبدو قصيرة نسبيا فى نظر الأخلاف ، وسيدفعهم هذا الى تصنيفنا كمعاصرين للقدامى ، مثلما نفعل نحن عندما نجمع سويا بين اليونانيين والرومانيين بالرغم من أن الرومانيين قد بدوا فى عصرهم محدثين بالنسبة لليونانيين • فى هذا العهد الذى سيجىء بعد عمر طويل ، سيتيسر للناس مقـارنة فضائل سوفوكليس وكورنى بلا تمييز ولا تحامل •

والاعجاب بلا تعقل بالقدامى من بين العوائق الأساسية للتقدم • ولم يقتصر الأمر على عدم تقدم الفلسفة ، ولكنها هوت فى هوة الأفكار غير المعقولة ، بعد أن قام الناس بالبحث عن الحقيقة فى الكتابات الملغزة بدلا من البحث عنها فى الطبيعـة بسبب تفانيهم فى الخضوع لسلطان أرسطو • ولو قدر لسلطان ديكارت أن يلقى نفس المصير ، لن تكون العواقب أقل وخامة •

(٧)

يكشف هذا البحث العتيد الخالى من التعالم عن روح دالة على الحذق « ودقة هندسية » ، لاحظ فونتنيل أنها بين علامات العصر الجديد الذى استلهمه ديكارت ، ويكشف أيضـا عن تفتح ذهن المؤلف ، واستعداده لاتباع ما يسوقه اليه البرهان • فهو قادر بالفعل على رؤية الديكارتية ، لأنه يعرف أنه من المحال اعتبارها أمرا نهائيا • ولا شبيه بين أبناء العصر لفونتنيل فى تفتح الذهن أو التحرر من التعصب • وساعدته هذه السمه العقلية على التجول بنظره تجاه المستقبل ، فاختلف بذلك عن بيرو الذى انشغل هو وأسلافه بالاهتمـام بالحاضر والماضى ، وعن ديكارت الذى انشغل أيضا فى كشوفه الأصلية ، فلم يستطع أن يلقى بأكثر من نظرة عابرة الى الأحفاد •

ولما كان تأمل المستقبل احد العاملين المطلوبين لصياغة نظرية عن تقدم المعرفة ، بدت كل الظروف مواتية لظهور مثل هذه النظرية بعد أن مهد لها الطريق بودان وبيكون وديكارت وأنصار المحدثين ــ كرد فعل لعصر النهضة وكشوف العلم المذهلة ، وبذلك توطد معنى التقدم بالنسبة للماضي والحاضر • ولكن نظرية تقدم المعرفة تتضمن كلاما عن المستقبل غير المحدود ، وتكتسب قيمتها منه • وخطا فونتنيل هذه الخطوة ، فلقد كادت الفكرة تستبعد من أثر التشبيه المضلل الذى عقده بيكون بين الحاضر والشيخوخة ، والذى رفضه فونتنيل صراحة • فلن يمر الانسان بدور الشيخوخة ، ولن يصاب ذهنه بالاضمحلال قط و وستستمر اضافات النظرات السديدة للمفكرين فى الأجيال القادمة » •

على أنه لا ينبغى الاكتفاء بتصور التقدم كشيء ممتد فى المستقبل بغير حد • اذ يجب تصوره أيضا كشيء ضرورى مؤكد • وهذه هى السمة الضرورية الثانية للنظرية • فلن يكون للنظرية أكثر من قيمة أو دلالة هينة ، لو اعتمد ما يؤمل من تقدم المستقبل على المصادفة أو حكمة ارادة خارجية لا يمكن التنبؤ بها • وأكد فونتنيل ضمنا ايمانه بالتقدم عندما صرح بأنه كان فى وسع القدامى تحقيق كشوف العصر الحديث وما حدث فيه من ارتقاء ، لو انهم تبادلوا الموضع مع المحدثين ، لأن هذا يساوى القول باستمرار التقدم وازدياد المعرفة ، بغض النظر عن دور أفراد بالذات فى تحقيقه • فلو لم يولد ديكارت لقام واحد آخر بعمله ، ولن يوجد فى هذه الحالة أى ديكارت قبل القرن السابع عشر • فكما قال فى أحد كتبه الأخيرة (١) : « ثمة نظام ينظم تقدمنا • ويتحقق التقدم فى كل علم بعد حدوث تقدم فى عدد معين من العلوم السابقة • ولن يتحقق ذلك الا حينئذ • فعلى كل علم أن ينتظر دوره فى الخروج من البيضة » •

كان فونتنيل اذن أول من صاغ فكرة تقدم المعرفة كمذهب كامل• ولم يدرك آنئذ هو ولا الآخرون نتائج الفكرة أو آثارها البعيدة • فكان كل ما حدث هو التهليل الذى قوبل به كتيبه الذى ظهر مصحوبا بنظريه متحرقة عن الشعر الباستورالى ، كدفاع قدير عن المحدثين •

---

(١) Preface des élements de la géometrie de l'infini
(مجموعة مؤلفاته الجزء العاشر ص ٤٠ طبعة ١٧٦٠) •

(٨)

لو صحت نظرية التقدم الى غير حد في المعرفة ، لكانت من الحقائق التي توطدت في الأصل اعتمادا على الاستدلال الزائف • فلقد ارتكنت على مبدأ يستبعد فكرة التدهور ، كما يستبعد بالمثل فكرة التطور • هذا بالاضافة الى أن النظرة باكملها الى الطبيعة التي تعلمها فونتنيل من ديكارت كانت قد ماتت منذ أمد بعيد وولى عهدها •

ولكن ما هو أهم من ذلك هو ملاحظة كيف عاق هذا المبدأ الذى وطد التقدم بلا حد في المعرفة فونتنيل من الكلام عن نظرية تقدم المجتمع، فثبات الطبيعة كما تصوره صحيح بالنسبة للعواطف والارادة نفس صحته بالنسبة للذهن • فهو متضمن في الاعتقاد بأن الانسان ذاته هو هو دائما من الناحية النفسية ، لا يتغير ولا يمكن اصلاحه (*) • وعبر فونتنيل عن نظريته في الجنس البشرى في « محاورات الموتى » (١) ، فبدا في نظره لم يتعرض لأى تغير : العالم مؤلف من حشود من الحمقى، ومجرد حفنة من العقلاء • وسوف تظل أهواء الناس كما هي ، وستحدث حروب في المستقبل مثل تلك التى حدثت في الماضى • والحضارة بلا جدوى ، فهي لا تزيد عن طلاء لامع •

وحتى اذا سلمنا بأن النظرية ما كانت لتقف في طريق فونتنيل ، فانه كان آخر من يحتمل أن يحلم بحدوث ارتقاء في المجتمع • فقد كان إبيقوريا بطبعه ، من نفس النوع المرفه كأبيقور ذاته ، واستمتع طوال حياته التى استمرت مائة عام براحة البال تمشيا مع المثل الابيقورية الصميمة • فهو لم يحفل بتاتا بالمتاعب السائلية ، ورضى طموحه المتواضع ، عندما عين وهو فى سن الأربعين سكرتيرا دائما لأكاديمية العلوم•فهو لم يكن بالرجل الذى يترك عقله للغوص في كروب العالم ، وشروره • ولم تثر اهتمامه الحماقات والانحرافات التى أحدثت هذه الكروب والشرور الا باعتبارها مادة للنكات •

ومع هذا فيستحق التنويه بعد ذلك ان مؤلف نظرية تقدم المعرفة التي اتسعت فيما بعد وتحولت الى نظرية عامة في التقدم الانساني — كان ليسمح بشرعية هذا التوسع ، برغم كونه هو الذى أضفى على فكرة فونتنيل القيمة الانسانية وجعل منها قوة في العالم •

(*) l'order general de la Nature a l'air bien constant.

(١) يمكن اكتشاف ذلك أيضا في كتاب « العوالم وكثرتها » •

ما قام به فونتنيل كان أكثر بكثير من مجرد صياغة الفكرة · فلقد دعمها عندما بين أن التزايد السريع في المعرفة مستقبلا أمر مؤكد ·

كانت مسلمة ثبات قوانين الطبيعة التي كانت قاعدة لا غناء عنها لتقدم العلم الحديث مسالة أساسية عند ديكارت ، وان كان لم يصر عليها صراحة · ولعل فونتنيل قد ساعد أكثر من أى مفكر آخر على شيوعها ، فكانت هذه هي الخدمة التي أداها تابع ديكارت · ولكن الظاهر أن فونتنيل قد كشف عن أصالته عندما قدم الفكرة الخصيبة الخاصة باتحاد العلوم ، وتوثق الاتصال المتبادل بينها (١) ، أى أنها لا تمثل عوالم منفصلة ، كما اعتقد حتى ذلك العهد ، ولكنها تؤلف نسقا ، فيه يساعد تقدم أحدها على تقدم الآخر · وعرض بأستاذية بارعة العلاقات المتبادلة بين الفيزياء والرياضة · ولم يتوافر لأحد في أيامه نظرة أشمل لجميع العلوم ، بالرغم من أنه لم يشارك فى أى علم أى مشاركة أصيلة. واتجه حب استطلاعه الى كل شيء · فبوصفه سكرتيرا للأكاديمية ، كان مرغما وفقا للمعيار السامى الذى وضعه لواجباته على اتخاذ الصدارة في الاحاطة بكل ما كان يجرى في جميع فروع المعرفة ، وكان هذا ميسورا حينئذ ، وربما كان متعذرا الآن ·

يحتمل ان يكون فونتنيل عندما ألقى مجموعة خطب تأبين العلماء الذين اشتركوا في عضوية الأكاديمية ، قد اعتقد بمشاركته في تحقيق المثل الأعلى « لوحدة » العلوم · اذ كانت هذه الخطب بمثابة سرد تاريخى للتقدم العلمى فى كل فرع من فروع العلوم · فهى متحررة من اللغة التقنية ، فذة في وضوحها · ولم يرض عنها رجال العلم وحدهم ، بل والمثقفون عامة من أصحاب الفضول العلمى· وينقلنا هذا الى دور هام آخر لفونتنيل : دور شرح عالم العلم الى العالم فى الخارج · ويرتبط هذا الدور بصلة وثيقة بموضوعنا ·

والواقع أن تقريب العلم للشعب ـ وهذه خاصة من خصائص القرن التاسع عشر ـ كان من مقومات نجاح فكرة التقدم · فما كان من الميسور تغلغل هذه الفكرة في عقول عامة الشعب وتحولها الى قوة حية في المجتمعات المتحضرة ، الا بعد أن تحقق ادراك معنى العلم وقيمته بوجه عام ، وانتشار نتائج كشوف العلم الى حد ما · وساعدت منجزات العلم

---

(١) كما رأينا ظهرت بوادر لهذا المبدأ عند روجر بيكون ·

الطبيعي على جذب انتباه الناس الى المذهب العام للتقدم ، أكثر من أي عامل آخر ٠

قبل النصف الأخير من القرن السابع عشر ، كان من المتعذر القول بتسرب أخبار المستحدث من الكشوف الطبيعية البارزة الى خارج الدوائر الاكاديمية ٠ ولكن الشغف بهذه العلوم بدأ يشيع في أواخر عهد لويس الرابع عشر ، فكان العلم موضع أحاديث الصالونات ٠ ودرست السيدات الميكانيكا وعلم التشريح ، ومن بين أوائل شواهد ذلك ، تمثيلية موليير : « النساء العالمات » ، التي ظهرت سنة ١٦٧٢ ٠ وفي سنة ١٦٨٦ ، نشر فونتنيل كتاب أحاديث عن « العوالم وكثرتها » ٠ وفيه قام أحد العلماء بشرح علم الفلك الجديد الى سيدة في حديقة منزل ريفي ٠ وهو أول كتاب ـ أو على أقل تقدير أول كتاب يستحق الذكر في مؤلفات تعريف الجماهير بالعلم ، وأبعدها تأثيرا ٠ وقوبل بالنجاح الجدير به ، وأعيد نشره المرة تلو الأخرى ٠ ولم يكد يظهر حتى ترجم الى الانجليزية ٠

والحق أن كتاب « العوالم وكثرتها » كان شيئا أعظم من مجرد كتاب رائد في تقريب الموضوعات التقنية للشعب ٠ فهو من النماذج الطريفة لهذا النوع ٠ ولابد أن نذكر أن الاعتقاد بدوران الشمس حول الأرض كان ما زال سائدا حينئذ ٠ ولم تتوافر معرفة أفضل الا لقلائل ، لأن ثورة الكونيات المرتبطة بأسماء كوبرنيك وكبلر وجاليليو لم تحدث آثارها الا بعد لأي ٠ فلقد رفضها بيكون ، كما دفع اتهام الكنيسة لجاليليو ديكارت الى الاحجام عن الاصرار على هذا الرأي ، لانه كان لا يخشى شيئا مثل خشية الاصطدام بسلطان الكنيسة (١) ٠ ولم يخاطر « رافايل » عند ميلتون في الكتاب الثاني من الفردوس المفقود (نشر ١٦٦٧) بتأكيد المذهب الكوبرنيكي ، فشرحه بتعاطف ، ولكنه لم يقطع برأي في هذه المسألة (٢) ٠ وكان كتاب فونتنيل فتحا جديدا ٠ فلقد عرف الجماهير بصورة جديدة للعالم ، وبقي على الناس ترويض خيالهم على اعتيادها ٠

---

(١) ص ٤٢ ، ٤٣ من كتاب Histoire de la philosophie cartesienne. ـ الجزء الاول ٠

(٢) لاحظ ماسون في الجزء الثاني من « مجموعة اشعار ميلتون » وجود تناظر بين حياة ميلتون (١٦٠٨ ـ ١٦٧٤) وعهد النزاع بين المذهبين (ص ٩٠) ٠ وفي اجابة لاصدقاء ميلتون من جمعة البيورتان « السيمتكيمنيان » على كتاب الأسقف هول « اعتراضات متواضعة » ١٦٤١ ، ذكر مذهب كوبرنيك كمثل لا شك فيه لاحدى الحماقات الجسيمة ٠ وكان لماسون ملاحظات معارضة عن تأثير النظام البطلمي على افكار البشر ومخيلتهم في سائر الأنحاء حول كل الموضوعات حتى مائتي سنة مضت ٠

لعلنا نحسن تصور كل ما عناه هـذا التعبير ، اذا افترضنا مدى ما سنشعر به من اختلاف لو حدث واكتشف فجأة صحة نظام الكون القديم الذى قلبه كوبرنيك رأسا على عقب ، وأن نتصور رجوعنا الى العالم المحصور للغاية الذى يتركز حول الأرض • فلقد أدت كل العوامل ـ كفقدان كوكبنا لمكانته المرموقة ، وانحطاط مرتبته بين الكواكب الأخرى، وضرورة الاعتراف بوجود عوالم مسكونة أخرى ـ الى ظهور نتائج ترددت أصداؤها فى خارج عالم الفلك • وكأن أحد الناس قد حلم بأنه يحيا فى باريس أو لندن ، واكتشف بعد استيقاظه أنه موجود بالفعل فى جزيرة مجهولة فى المحيط الهادئ ، وأن هذا المحيط أوسع بدرجة غير معقولة مما تخيل • وكان رد فعل « المركيز » فى كتاب « العوالم وكثرتها » لهذه الرؤيا المدهشة « هذا هو العالم • انه كبير للغاية مما جعلنى أتوه فيه ، فلم أعد قادرا على معرفة أين أنا ، وأصبحت شيئا لا يزيد عن لا شيء • فالأرض صغيرة بدرجة مفزعة ! » •

كان من المستبعد الا تحدث مثـل هـذه الثورة فى القيم الكونية تأثيرا نفاذا فى الفكر الانسانى • فلقد كانت المكانة المميزة للأرض من الأركان الأساسية فى العقيدة برمتها ، من ناحية مصير الكون والانسان ، كما جـاء فى تعاليم الكنيسة ، التى أحاطتها بصـورة خداعة أكثر من الصورة التى كان من الواجب أن تظهر فيها • وكانت الكنيسة قادرة على تعديل تعاليمها بحيث تساير الموقف الجديد ، بعد أن تضاءل حظ الخطة المسيحية من التمجيد عندما اتضح أن أهمية العنصر الانسانى كمركز للكون مجرد وهم • فهل يستطيع الانسان بعد تجريده من ادعاء مكانته فى الكون ، وبعد أن اكتشف ضياعه فى الفضاء الشاسع اختراع نظرية أكثر تواضعا لمصيره المقصور على دنياه الصغيرة • أو الصغيرة بدرجة مفزعة (*) ؟ وأجاب القرن الثامن عشر عن هذ السؤال بنظرية التقدم •

(١٠)

يعد فونتنيل من بين أفضل المفكرين تمثيلا لهذه الحقبة المحصورة بين عهد المفكرين الممثلين للقرن السابع عشر وعهد المفكرين الممثلين للقرن الثامن عشر • ولا وجود لدينا لاسم مميز تطلقه عليها • وتمتد هذه الحقبة الى أكثر من ستين عاما ، وتبدأ حوالى سنة ١٦٨٠ • فبالرغم من قيـام مونتسكيو وفولتير بالكتابة قبل سنة ١٧٤٠ بأمد طويل ، الا أن المؤلفات

(*) Effroyablement petite.

البعيدة الأثر للتنوير قد بدأت بكتاب « روح القوانين » لمونتسكيو سنة ١٧٤٨ · وتركزت عناية افكار هذا العهد المتوسط على مراجعة الأفكار المستمدة من فلسفة ديكارت . والاستعانة بها في الاجابة عن المعتقدات الموروثة من القرون الوسطى·وربما جاز تسميتنا لها بالعهد الديكارتي· ففي هذه السنوات ، لم تحل وفاة ديكارت دون اضطلاع الديكارتية بدورها في تحويل الفكر الانساني ·

وعندما نقول الديكارتية ، فاننا لا نعني المذهب الميتافيزيقي للفيلسوف ، أو أية نظرية من نظرياته التي عرف بها «كالمعاني الفطرية»· مثلا · اننا نعني المبادىء العامة التي قدر لها أن تترك أثرا باقيا على مظاهر الفكر : سلطان العقل على المصادر الموثوق بها ، وثبات قوانين الطبيعة ، واعتماد البرهان على معايير حاسمة · كان فونتنيل بعيدا كل البعد عن قبول كل نظرات ديكارت · ولم يتردد اطلاقا في نقده ، ولكنه كان ديكارتيا صميما ، بمعنى تشبعه العميق بهذا المبادىء التي خلقت على حد قوله « عنصرا من المتمردين ضد الجهالة والتعصب السائدين (١) » ولعل فونتنيل قد فاق كل المتمردين ضد التعصبات السائدة ، فيما قام به لتأكيد أثر المعتقدات الديكارتية ، واعادتها الى نصابها ·

ويهدف كتاب « العوالم وكثرتها » الى احداث تغير في الفكر ، وازالة الأخطاء القديمة · أما كتاب « تاريخ العرافات » الذى ظهر في العام التالي فعبارة عن تكييف متحرر لبحث لاتيني مغمور، لأحد الهولانديين ، سخرته براعة فونتنيل لتطبيق الحلول الديكارتية على مسائل اللاهوت · وتتركز فكرة الكتاب على نسبة الدجل والاحتيال الى العرافين اليونانيين الذين لم تكن أعمالهم من صنع أرواح شريرة — كما اعتقدت الكنيسة — لاذت بالصمت عند وفاة المسيح · والأثر الذي يتركه الكتاب هو بخس سلطان الآباء الأول للكنيسة ، وان كان الكاتب قد اتسم بحصافة جعلته يبتعد عن المجاهرة بهذا المقصد ، لأن نشر مثل هذا الرأى لا يخلو من خطر · وبعد عشرين سنة ، ألف أب يسوعي بحثا لدحضه ، وكشف عما فيه من سموم خفية · وتمخض عن ذلك نتائج ما كان من المستبعد أن تؤدى الى القضاء على فونتنيل لولا أصدقاؤه الأقوياء بين اليسوعيين أنفسهم · فلم يكن فونتنيل يتصف بجرأة مماثلة لفولتير · وبعد نشر كتاب « تاريخ العرافات » ، اقتصر في نقده للتقاليد

Eloge de M. l'émery. (1)

عن ميـدان العلم ، اذ كان مقتنعا بوجوب التدرج عنـد مهاجمة المسائل الشديدة الرسوخ » (١) ٠

وفي نفس هذا العهد الديكارتي ، وبنفس الحذر ، قام « بايل » باعداد ســم خفي ، كذلك الذى سبق لفونتنيل تحضيـر جرعة شديدة الفاعلية منه ، وتميز بالمعية تذكرنا بفولتير ، كمـا تشابه هـذا الشاك الكبير « أبو الشك الحديث » كما سماه جوزيف دى مايستر مع فونتنيل، ووقف بين قرنين ، وانتمى لكليهما ٠ ونظر الى الانسانية نظرة سوداوية شابهت نظـرة فونتنيل ٠ فلم يكن يثق بما يقال عن اتصـاف القلب الانساني بالخير ، وأصبح هذا الاتجاه من العقائد المميزة لعصر التنوير ٠ ولكن كشوف العلم لم تؤثر فيه ، فلم يكن يهتم بجاليليو أو بنيوتن ٠ فبينما اتجهت أهم أعمال فونتنيل الى تفسـير التقدم الوضعي للمعرفة ، كان دور بايل هداما بصورة مطلقة ٠

هناك اتصال وثيق بين مبدأ عدم تغير قوانين الطبيعـة ونهوض المذهب التاليهى الذى شاع فى هذا العصر ٠ وفيه قصر مهمة الله فى الواقع على خلق الة الطبيعة التى تحررت من أى تدخل من جانب خالقها بمجرد انتظامها ، وان كان وجوده ربما كان ضروريا للمحافظة عليها ٠ لم يكن من المستطاع لأية نظرة تتعارض بحدة مع الاعتقاد الســائد أن تشق طريقها كما فعلت بغير نقد نفاذ للاهوت الشائع ٠ وقدم بايل هذا النقد ٠ وتتلمذت « العقلانية » على أعماله زهاء السبعين عاما ٠ فلقد زود مفكرو القرن الثـامن عشر من انجليز وفرنسيين بالموفور من الحجج الدامغة ، وساعد على تحرير الأخلاق من اللاهوت والميتافيزيقا ٠

اهتز مذهب النعمة الالهـية الذى نادى به بوسويه ببلاغته بفضل الحركة الثورية الفكرية التى سـاعدت على نشرها الصـالونات وكذلك الكتب ٠ وعنت هذه الحركة ارتقاء للعقل ــ العقل الديكارتي ــ للعرش ، وقيامه بالنظر فى أمر التاريخ وكذلك العقائد ، أمام محكمته الصارمة ٠ واستحدثت قواعد جديدة للنقد ومعايير جديدة للبرهان ٠ وعندما لاحظ فونتنيل عدم امكان اثبات وجود الاسكندر الأكبر ، وبأن وجوده لا يزيد عن أمر محتمل (٢) ، كان ذلك بمثابة تبشير بأن الاعتراف بالمعتقدات الموروثة لن يدوم وقتا طويلا عند أولئك الذين تدربوا على منهج ديكارت وتحليله ٠

---

(١) المصدر السابق ٠

(٢) كتاب « العوالم وكثرتها » ٠

يتبين من الجدل بين انصار العصر القديم وأنصار العصر الحديث الذى جرى فى كل من فرنسا وانجلترا على حدة ان ظهور هذه المشاحنات كانت مسالة محتومة لتحرير الروح الانسانية من سلطان القدامى • وقرابة نهاية القرن ، أثار الجدل الدائر فى فرنسا الانتباه فى انجلترا ، وأدى الى اندلاع شجار أدبى كان أقل أهمية مما دار فى فرنسا ، ولكنه لم يقل حـــدة عن الشجار الذى احتدم هناك • وأبرز المؤلفـات التى دارت حول هذا الحديث بحث لسير وليم تمبل بعنـــوان Essay وآخر لووتون بعنـــوان Reflexions ، وسخرية سويفت المسماة «معركة الكتب» ، ومع هذا فلا يذكر هذا الحادث الا بسبب صلته بالعرض الممتاز الذى قدمه بنتلى « لرسائل فلاريس » المزيفة •

والحق أنه كان من المحال الا تتردد أصداء للمشاحنات الأدبية عبر القنال الانجليزى • فلعلها أول مرة يتتبع فيها العالم الأدبى فى انجلترا روائع الكتاب الفرنسيين فى ذلك العصر ، أو يتلوقها بمثل هذا الشغف الكبير • ذكر ماكولى يسف مقهى « ويل » ، وكان درايدن قد اعتاد ارتيادء . وكذلك كل أدعياء الاهتمام بالأدب الرفيع : « كان هناك حزب يناصر بيرو والمحدثين وحزب آخر لبوالو والقـدامى » • وكان المسيو دى سان افيرمون الفرنسي النابه الذى عاش طويلا فى انجلترا فى المنفى عند مناقشته لهذا الموضوع يرى لزاما عليه الانحياز لأحد الأطراف • ورغم ما اتصفت به الشذرات المتناثرة التى كتبها سان افيرمون من اثارة للملل وسطحية ، الا انها تكشف عن عقلية ذات ثقافة واسعة ، والكثير من البداهة والفطنة • وفى حكمه على كتاب « الموازنة » لبيرو قال « ان اكتشاف الكاتب لنقائص القدامى أفضل من كشفه لمميزات المحدثين • وكتـابه حسن قادر على معالجة أخطائنا الوفيرة » • ولم يكن افيرمون متعصبا ، أما صـــديقه سير وليم تمبل فقد كان يستثار من انتقاص الفرنسيين للقدامى ، ويندفع الى المعمعة بشجاعة فاقت حصافته وحكمته•

كان تمبل سيء الاعداد للخوض فى المعركة ، وان كان بحثه « عن المعرفة القديمة والحديثة (*) (١٦٩٠) بعيدا كل البعد عن استحقاق ازدراء ماكولى الذى وصف موضوعه « بانه مثير للسخرية والاشمئزاز

★ Essays on Ancient and Modern Learning.

الى آخر درجة » (١) • ويتحتم الاعتراف بأن أفيد نتيجة عاد بها البحث هي الرد الذي انتزعه من ووتون • فلقد كان ووتون يتمتع بأفق واسع في المعرفة وبعقلية أكثر تبصرا من باقي المتشاحنين باستثناء فونتنيل ، مع تفوقه عليه في معرفته بالقدامى • ويبرز بحثه كأفضل ما دار في النقاش بأسره من حيث معقوليته وابتعاده عن التحامل • واعترف ووتون بأن الحق كان في جانب براهين فونتنيل « عند مقارنته لعبقريات الرجال في مختلف عصور العالم ، وعند قوله بالتساوي المطلق بين الناس في القدرة على الفهم في كل العصور ، منذ بدأ العلم ينتشر بين البشر » • غير أن هذا لا يتعارض مع القول بتفوق القدامى في بعض الفروع على كل من جاءوا بعدهم ، ولا يلزم لتبرير هذا الامتياز افتراض وجود قوة عبقرية مميزة يمكن ادراكها بوضوح في العصور الغابرة ، ولكنها انطفأت منذ أمد طويل ، وأن الطبيعة قد استنفدت طاقتها الآن واستهلكت ، فهناك تفسير بديل • فربما كانت هناك ظروف خاصة « لعلها ناسبت هذه العصور فساعدتها على التفوق على عصرنا ، كما ناسبت تلك الأشياء التي استطاعوا التفوق علينا فيها وعلى أي عصر أو شيء آخر » •

ولكن علينا أن نبدأ باقامة حد فاصل بين مجالين للنشاط الذهني: مجال الفن ويتضمن الشعر والخطابة والعمارة والتصوير والنحت ، ومجال المعرفة ، ويتضمن الرياضيات والعلوم الطبيعية وعلم وظائف الأعضاء ، وكل ما يتبع ذلك من معارف • ويسمح المقام في حالة المجموعة الأولى باختلاف الرأي • على أنه من المستطاع الاعتراف بتفوق اليونانيين والرومانيين في الشعر والأسلوب الأدبي بغير تحيز لتساوي المحدثين معهم في الناحية الذهنية • فمن الميسور ارجاع ذلك — من جانب — الى

---

(١) النقطة الوحيدة فيه التي تحتاج الى اثبات هنا هي تمسك الكاتب في حجة فونتنيل الملحة : لما كانت قوى الطبيعة ثابتة ، فهناك تماثل في القدرة الانسانية في كل العصور • ويتساءل تمبل « الا يصح القول بأن ظروفا معينة قد ساعدت على ظهور نتاج ما لم يتناسب مع الظروف في أي عصر آخر أو مع الكثير من العصور » • ولقد تحدث فونتنيل عن الأشجار • واما أن الظروف والأحداث المختلفة « تستطيع انتاج شجرة ما من البلوط أو شجرة ما للتين تستحق أن يجيء ذكرها في سياق أي قصة ، وان كان لن يظهر ما يماثلها أطلب الظن في أي بلد أو زمان آخر • فمسألة لا يصعب تصورها • » الا يصح القول بأن نفس الشيء قد حدث عند انتاج العبقرية أو خفة الروح في ناحية ازدهارهما وتدرجهما في العالم او بعض أجزاء أو عصور منه ، وأن هذا قد حدث اعتمادا على الكثير من الظروف الأخرى التي ساعدت على ازدهار هذه المواهب • التي قد تعوق الظروف التي تساعد على نمو شجرة باسقة أو حيوان ؟ »

عبقرية لغتهما ، والى الظروف السياسية من جانب آخر ، كحالة الخطابة على سبيل المثـــال التى تعرى الى الضرورة العملية للخطابة (١) • أما فيما يتعلق بالمجموعة الاخرى ، فان المعرفة ليست مسألة رأي أو ذوق ، وعلى هذا فمن المستطاع اصدار حكم قاطع فيها • واســتطرد ووتون ، بعد ذلك واستعرض منهجيا ميـدان العلم ، وبين في سـهولة ويسر ، متفـوقا على « بيرو » في الاستيفاء والدقة ، أفضلية المنـــاهج الحديثة والخطوات العديدة التى تم خطوها •

والتزم « ووتون » الحذر عند كلامه عن المستقبل • فلن يسهل القول : هل ستتقدم المعرفة فى العصر التالى تقدما متناسبا مع التقدم فى هذا العصر • وخشي أن يحدث هذا التعثر ، لأن العلم القديم ما زال عظيم الســيطرة على الكتب الحديثة • وهناك ميـل لاغفال الدراســات الفيزيائية والرياضية • ولكنه أنهى كتاب « الخواطر » بخاطر قال فيه « ربما أقدم عصر تال آخر ــ لعله ليس التالى مباشرة وفى بلد يحتمل أن يكون قليل التوارد الى الأذهان ــ على القيام بما يشتهى عظماؤنا رؤيته منجزا ، يعنى رفع المعرفة الحقة على أسس موضـوعية الى أعلى درجة مستطاعة من الكمال يستطيع الفانون من البشر تحقيقها فى هذه الحالة البعيدة عن الكمال » •

سبق لفونتنيل أن اعترف بالاختلاف الذى أصر عليه ووتون بين العلوم التى تحتاج الى سنين طويلة لتقدمها ، وبين الفنون القائمـة على الخيال ، والتى تبلغ كمـــالها فى عهد قصـــير • واختلفت حججه فى هذه النقطة عن حجج صديقه بيرو • فلقد أدرك بيرو قدرة الأجيال المتأخرة على تحقيق قدر أعظم من الامتياز يتجاوز أسلافهم ، فى الأدب والفن ، وكذلك فى العلم ، اعتمادا على ميزة الزمان والخبرة الطويلة • أما فونتنيل فرأى أن ميدان الشعر والخطابة محدود ، ومن ثم فقد وجب وجود عهـد بلغا فيه حد الامتياز الذى لا يمكن تجاوزه ، واعتقد اعتقادا شخصيا فى بلوغ الخطابة والتــاريخ بالفعل أسمى كمال مستطاع عند شيشرون وليفى •

ولكن كلا من « فونتنيل » و « ووتون » لم يقتربا من المشكلة التى أثارها بيرو ــ وان صح القول بانه لم يثرها اثارة واضحة : هل حدث تقدم فى الأنواع المختلفة للأدب والفن ؟ ، وهل انتفعا وازدادا ثراء بفضل

---

(١) سبق ان لاحظ ذلك فونتنيل فى كتاب « الاستطرادات » •

التقدم العام للحضارة ؟ . وكما رأينا ، اعتقد بيرو أن الزيادة في التجربة والدراسة السيكلوجية قد يسرت للمحدثين التوغل بعمق أكثر في أغوار النفس الانسانية ، وبذلك أمكنهم تحقيق كمال أعظم عند معالجة مسائل سلوك البشر ، ودوافعه وأهوائه . وهذه الفكرة قابلة للتنمية . فلقد كتب شيلي في مقدمة كتابه : « ثورة الاسلام » متحدثا عن تجاربه الفكرية والفنية فقال :

« ان شعر العصر القديم في اليونان والرومان وشعر ايطاليا الحديثة وشعرنا قد تراءى لي في نفس صورة الطبيعة في الخارج ، ففيه متعة واستهواء ... وتأملت الشعر في أشمل معانيه ، وقرأت الشعراء والمؤرخين والميتافيزيقيين الذين أتيحت لي فرصة قراءتهم ، وتأملت أجمل مناظر الأرض وأسماها بوصفها المصادر المشتركة لتلك العناصر التي يضطلع الشاعر بتجسيمها والجمع بينها » .

وذيل شيلي كلامه قائلا :

« بهذا المعنى ، يمكن القول بوجود شيء يشبه الكمال في منجزات الخيال ، على الرغم من المسلمات التي يتبعها المدافعون عن التقدم الانساني وقولهم بأن الكمال كلمة لا تنطبق على غير العلم » .

وبعبارة أخرى ، تزود كل زيادة تطرأ على التجربة الانسانية من عصر لآخر ، وكل مخاطرة يقوم بها الذهن في تأملاته ، الفنان في كل جيل من الأجيال المتعاقبة بمصادر أوفر في التناول الفني . وكلما تقدم الزمان ازدادت المادة التي تعرضها الحياة بأوسع معانيها . ويقع على عاتق الشاعر تجسيمها والجمع بينها » . وهذا صحيح بكل جلاء . ألا يبدو ان ما يتبع ذلك هو عدم استبعاد الأدب من القيام بدور في التقدم العام للحضارة ؟ واعتقد الأب بتراسون وهو من بين أواخر أنصار المحدثين : « أن القول بوجود انقسام في النظرة العامة الى تقدم العقل الانساني بحيث تكون هناك نظرتان ، احداهما تخص العلم الطبيعي ، والأخرى تخص الفنون الجميلة ، ربما ناسب انسانا بروحين ، ولكنها عديمة النفع لمن له روح واحدة » . وطرح الأب بتراسون المسألة بطريقة مجردة للغاية سعيا وراء الاقناع ، على أن القرن التاسع عشر قد أثبت انه لم يكن مخطئا كل الخطأ . فكما سنرى ، أثارت المسألة من جديد مدام ستايل . وهكذا بزغت في النهاية النظرية القائلة بأن الفن والأدب لا يختلفان عن القوانين والأنظمة في كونهما تعبيرا عن المجتمع ، وبذلك يكون بينهما وبين الجوانب الأخرى للتقدم الانساني اتصال وثيق،ويلاحظ

أنه بالرغم من استنكار هـذه النظرية لعادة النظر الى أعمال الفن وكأنها منعزلة قائمة فى فراغ ، ولا تنتمى لتاريخ محدد ــ وهى النظرة التى سادت بين نقاد القرن السابع عشر ــ الا أنها قد تركت مشكلة الجماليات حيث كانت الى حد كبير •

كان من المستطاع أن يساعد ما قاله بيرو عن اثراء مادة الفنان نتيجة للمستحدثات الى ضم الأدب والفن الى المجال العام للتقدم الانسانى دون تنازل عن التفرقة التى أصر « ووتون » وآخرون على اقامتها بين العلوم الطبيعية والفنون الجمالية • ولكن التفرقة التى أيدها فولتير بشدة قد تسببت فى استبعاد الأدب والفن من نظرة أولئك الذين اعترفوا فى القرن الثامن عشر بالتقدم فى الأنشطة الأخرى للانسان •

(١٢)

من الجدير بالذكر ، والعجيب ، ألا يدرك المحدثون ــ فيما يبدو ، بما فى ذلك فونتنيل ــ ما حملته فى طياتها النظرية التى قاموا بالدعوى اليها عن التقدم الفكرى للانسان • فلقد تناولوا هـذه المسألة بطريقة تكاد تكون عرضية كمثـال للدفاع عن قضية ، وليس كنتيجة بالغـة الأهمية • واستطاع الأب تيراسون الذى ذكرت اسمه من قليل ادراك أثرها فى صورة أوضح ، وكان من علماء الهندسة ومن الديكارتيين ، وشارك فى آخر مراحلها عندما كان لاموتييه ومدام داسييه على رأس المتشاحنين • قال تيراسون ان العقل الانسـانى قد مر بعهـد طفولة وشباب ، وبدأ نضجه بعد الامبراطور أغسطس • وأوقف البرابرة تيار تقدمه حتى جـاء عصر النهضـة • وفى القرن السابع عشر ، وبتأثير الفلسفة التنويرية لديكارت ، تخطى العقل الانسانى المرحلة التى كان قد بلغها فى عصر أغسطس ، وعلى القرن الثامن عشر أن يتفوق على القرن السابع عشر • وليست الكلمة النهائية للديكارتية • فهى نقطة فى طريق التقدم • وما يسر قيامها هو التأملات السالفة ، وسيجىء فى أثرها مذاهب أخرى ، وعلينا الا نتبع تشبيه الانسانية بالفرد الواحد ، أو توقـع عصر شيخوخة ، لأن الانسـانية بخـلاف الفرد مكونة من كل العصور » • فهى دائمـة الكسب بدلا من الخسارة ، وسيدوم عصر النضج الى ما شاء الله ، لأنه دائم التقدم وليس ساكنا • وسوف تتفوق الأجيال الأخيرة دائما على الأجيال الأولى ، لأن التقدم نتيجة طبيعية وضرورية نابعة من تكون العقل الانسانى » •

الفصل السادس

التقدم العام للإنسان - الأب سان بيير *

كانت التأملات النورية فى أحوال الانسان الاجتماعية والأخلاقية من الملامح البارزة في القرن الثامن عشر بفرنسا • وحوالى سنة ١٧٥٠ بدأت هذه التأملات كامتداد للحركة الفكرية للقرن السابع عشر ، تلك الحركة التي غيرت من نظرات الفكر التأملى ، وتميزت بعقلانيتها ووحدتها واتصالها • في عهد راسين وبيرو ، استقبل الناس ببشاشة تنور العصر الذى عاشوا فيه ، وازداد هذا الوعى قوة وحدة بمرور السنين • انها روح عصر فولتير • وفى آخر سنوات عهد لويس الرابع عشر ، والسنوات التالية ، بدأ يتغلغل في عقول الناس الشعور بالتباين بين هذا التنوير العقلي وبين ظلمات الوضع السائد ، من شرور اجتماعية ، وشقاء يعم المملكة ، وبشاعة الحكم والاستبداد • فهل تكون لمنجزات العلم وفنون الحياة أية قيمة ما دام من غير الميسور تبديل الحياة ذاتها ؟ • الا يستطاع احداث انقلاب فى البناء الاجتماعي لاعادة بنائه من جديد على نحو ما حدث في الانقلاب واعادة البناء الذى نادى به ديكارت فى مبادىء العلوم ومناهج الفكر ؟ وبعد سنوات ، ازداد وضوح الجهالة التي ترزح تحتها السلطات الحاكمة ، واتجه الموهوبون من المفكرين قرابة منتصف القرن الى تركيز عقولهم على مشكلات العلم الاجتماعي ، والقاء ضوء العقل على طبيعة الانسان وجذور المجتمع ، واهتدوا الى حلول معوجة ، ذات آثار بعيدة •

وبعد امتداد العقلانية الى ميدان الاجتماع ، اتسع نطاق فكرة التقدم فى الفكر ، وتحولت الى فكرة التقدم العام للانسان • وحدث هذا بطريقة طبيعية ، وتحققت النقلة فى سهولة ويسر • وما دام قد ثبت أن الشرور الاجتماعية لا ترجع فى أصلها الى قصور فطرى أو قصور غير

---

* برنارداق دى سان بيير وهو مؤلف رواية بول وفرجينى التى ترجمها المنفلوطى منذ ستين سنة •

(المترجم)

قابل للاصلاح . في الكائن البشرى ، أو في طبيعة الأشياء ، بل ترجع الى الجهل والأهواء فسيتضح بكل بساطة ان تحسن أحوال الانسان وبلوغ الرفاهية مسألة تنوير للجهل وازالة للخطأ ، وزيادة في المعرفة ، ونشر للنور . فلابد من ان يساعد نمو « العقل الانساني الكلي » – وهذه عبارة ديكارتية تجسمت في فلسفة مالبرانش – على تأكيد سعادة مصير البشرية .

في الفترة ما بين سنة ١٦٩٠ وسنة ١٧٤٠ ، شقت فكرة التقدم غير المحدود للتنوير طريقها في دوائر الفكر الفرنسية . ولابد أن تكون الأحاديث قد دارت حولها في صالونات كصالونات مدام دى لامبير ومدام تنسان ومدام دوبان ، حيث كان فونتنيل من ألمع الضيوف . وانتمى الى نفس الزمرة صديقه الأب دى سان بيير . وفي كتاباته تلمع لأول مرة النظرية بعد اتساع مجالها بحيث أصبحت تحتوى على التقدم نحو الكمال الاجتماعي (١) .

(١)

شب سان بيير على المبادىء الديكارتية ، وجعل من ديكارت مثلا أعلى على نحو شبيه بليوقريطس عندما أضفى المثالية على أبيقور ، ولكنه لم يكن ميالا الى الفلسفة ، ولم يأسر العلم الطبيعي انتباهه ، الا في حالات امكان توجيهه لرفاهية الانسان . كان سان بيير من أنصار مذهب النفعية الطبيعية . ولعل أحدا لم يشابهه في الاصرار على جعل المنفعة معيارا لكل الأفعال والنظريات . ولما طبق هذا المعيار ، استبعد من قائمة العظماء أغلب من اتفق على نسبة العظمة اليهم . فلم يعن سان بيير الا بقدر ضئيل بالاسكندر ويوليوس قيصر وشرلمان (١) . وكان سطحيا في معرفته بكل من التاريخ والعلم ، كما كان تصوره للمنفعة ضيقا ومبتذلا بعض الشيء ، فوضع عظماء المكتشفين النظريين من أمثال نيوتن ولايبنتز في مرتبة أدنى من مرتبة أرباب الحذق ممن سخروا مهاراتهم العلمية في ابتداع أشياء صغيرة تناسب الحياة ، وبدت له نفائس الفن ككنيسة نوتردام بباريس تافهة القيمة بالمقارنة بطريق او كوبرى أو قناة .

---

(١) أفضل ما كتب عن حياته وأعماله بحث لدرويه بعنوان
l'Abbé de Saint Pierre l'homme et l'oeuvre.
(١٩١٢) وان كانت الدراسة الأقدم عهدا لجوميه مازالت في بعض النقاط تستحق الرجوع اليها . ولقد اعتمدت على الطبعة الكاملة لمؤلفاته في ١٢ مجلدا ، التي نشرت في حياته في نوتردام (١٧٣٣ – ١٧٣٧) .

كان من أنصار المذهب التأليهى كأغلب المميزين المعاصرين له • وعلى فراش موته ، أقيمت المراسم المعتادة للكنيسة فى حضور أبناء أسرته ، وفى أعقابها قال للكاهن أنه لا يؤمن بأية كلمة من كلمات هذه المراسم • ومن المستطاع استشفاف نظراته الحقيقية فى بعض مؤلفاته من خلال الحجب المألوفة التى حرص أهل الحصافة من كتاب العصر على تغليف مهاجمتهم للكنيسة بها • فمن الحيل التى لجأت اليها العقلانية لترويج بضاعتها ــ عندما كان من الخطر الجهر بآرائها علنا ــ حيلة تلجأ الى مهاجمة الاسلام بحجج يمكن ذكرها بالمثل ضد المسيحية • وكان هذا ما فعله فى كتابه « حديث ضد الاسلام » • ولاحظ سان بيير أيضا فى كتاب « التفسير الطبيعى للأطياف » : « ربما كان من المفيد لتخفيف ميولنا المتعصبة قيام حكومتنا بوضع جائزة سنوية تمنحها أكاديمية العلوم لأفضل الشروح المستمدة على القوانين الطبيعية ، للآثار غير العادية للخيال والأعاجيب التى رواها الأدب اليونانى واللاتينى ، والمعجزات المصطنعة التى تحدث عنها البروتستانتيون والانشقاقيون والمسلمون » • وحرص الكاتب على السير الى جانب الحائط (كما نقول فى العامية) ولم تستطع الكنيسة ذكر استثناءات لهذه القاعدة ، وان كان أى قارىء فطن لن يعجز عن ادراك ما تضمنه هذا الكلام من هجوم على كل المعجزات ، لأن المعجزات التى يقبلها البروتستانتيون هى نفسها التى يؤمن بها الكاثوليكيون •

كان سان بيير من أبرز شخصيات عصره ، وربما أمكننا القول أيضا بأنه كان نموذجا جديدا • فلقد استطاع الجمع بين خصائص النزعة الانسانية (الهيومانية) للقرن التاسع عشر ، وحب السلام ، فى جو القرن الثامن عشر • ولد مصلحا ، وكرس حياته لتأليف مشاريع تهدف الى زيادة السعادة الانسانية ، وأدخل كلمة « الجود » (*) فى اللغة الفرنسية ، وساعد على شيوعها ، وبدت له فضيلة « الجود » سيدة الفضائل • أما جوانب المسائل العامة التى لم يشر الى أوجه نقصها ، أو يقترح حلولا ناجعة لعلاجها فقد كانت قليلة • وأغلب كتاباته « مشاريع » أو محاولات لاصلاح الحكومة والاقتصاد والمالية والتعليم تحتوى كلها على أدق التفاصيل ، وترمى الى زيادة البهجة وتخفيف الألم • وصاحبت فطنة الأب سان بيير والمعيته ناحية ضعيفة لابد أن تكون قد حطت من تأثيرها بعض الشىء • اذ كان عظيم الثقة فى معقولية مشاريعه،

(*) Bienfaisance.

فكان دائم الاعتقاد ، بأنه لو أمكن النظر اليها بانصـاف ، لن تعجز السلطات المسئولة عن تسخيرها لصالحها • والحماس والتفاؤل من طابع المصلحين ، ولكن تفاؤل سان بيير قد اقترب من « العبط » • وربما اتفق معه عديدون على الاعتقاد بعدم نفع نظام الرهبنة عند رجال الدين الكاثوليكي ، ولكنه عندما اقترح الغاءه ، تخيل ان البابا عندما سيعجز عن الاعتراض على حججه سيعمد على الأخذ باقتراحه على الفور ، وربما التمست المعذرة لأولئك الذين نظروا اليه كواحد من الحمقى ، بعد أن تعذر نظرهم الى أقواله بمنظار الجد • وتكشف الصورة التى عرض فيه مشروعه الخالد للقضاء على الحرب عن نفس السذاجة والتفاؤل • ولاحظ روسو كيف تكشف كل مخططاته عن رؤية صافية لما يتوقع لها المخططات من آثار « غير انه بدا كالأطفال عند اختياره للوسائل التى تساعد على تحقيق هـذه الغايات » • ولكن قدراته كانت عظيمة ، وترك أثـرا ملحوظا بالفعل ، ولعل هذا الأثر كان سيزداد لو أنه منح موهبة الأسلوب •

(٢)

لم يكن سان بيير أول من خطط مشروعا محددا لاقامة سلام دائم• فقبل ذلك بأمد طويل ، قدم اميريك كروسة للعالم مشروعا لانشاء هيئة الأتراك والفرس والتتار ، وتعتمد فى أحكامها على هيئة تقيم فى البندقية عالمية لا تقتصر عضويتها على الأمم المسيحية فى اوربا ، ولكنها تضم أيضا لفض المشاحنات بالاعتماد على وسائل سلمية(١)، وذكر ان ما سيتمخض عن السـلام العالمى هو « بلوغ ذلك القرن الجميل الذى وعـد قدماء اللاهوتيين بتحققه بعد انطواء ستة آلاف سنة ، وقالوا ان العالم سيحيا آنئذ فى سعادة واطمئنان • وتشاء الأقدار أن يكون هذا الموعد قد فات، وحتى لو لم يكن الأمر كذلك ، فقد أصبح منح هذه السعادة لهذه الشعوب يعتمد على مشيئة الحكام وحدهم » • وفيما بعد ، وفى هذا القرن ، جاء آخرون بمشروعات مماثلة نشرت فى مؤلفات مغمورة • ولكن الأب سان بيير لم يشر الى أى أحد من أسلافه •

لم يغب عن فطنـة سان بيير الشقاء العـام الكامن وراء البريق السطحى لعهد لويس الرابع عشر ، والذى حل بفرنسا وأعدائها نتيجة

---

(١) كتاب Le Nouveau Cynée باريس ١٦٢٣) وأعيد نشر الكتاب حديثا مع ترجمة انجليزية لبولش T. W. Balch (فيلادلفيا ١٩٠٩) •

لسياسة الحرب وطموحها التي اتبعها هذا الملك . ويعد كتاب « حوليات سياسية (*) » تصحيحا نافعا لما يقال عن عهد لويس الرابع عشر. وخلال فترة الكفاح الطويل ، حول من يخلف العرش الاسبانى ، حول سان بيير انتباهه الى الحرب ، وانتهى الى الاعتقاد بانها شر بلا ضرورة ، أو حماقة في أغلب الظن . وفى سنة ١٧١٢ ، حضر مؤتمرا عقد فى أوترخت بوصفه سكرتيرا للكاردينال دى بوليناك ، أحد ممثلى فرنسا فى المؤتمر ، وعززت تجاربه هناك روحه المتفائلة واقتناعه بأن السلام الدائم هدف يمكن تحقيقه بالفعل . وفى السنة التالية . نشر الذكريات التى قام باعدادها فى مجلدين أضاف اليهما مجلدا ثالثا بعد ذلك بأربع سنوات .

وعلى الرغم من أنه لم يعرف ـ فيما يبدو ـ ما كتبه كروسة ، الا أنه لم يدع أية أصالة ، وأسمى مشروعه اسما وقورا « مشروع هنرى الأكبر لتحقيق سلام دائم ـ شرح الأب دى سان بيير » ، اشارة الى « المشروع الكبير » الذى نسبه سالى الى هنرى الرابع ، وقصد به الحط من نفوذ النمسا ، وتضمن اقامة اتحاد للدول المسيحية فى أوروبا تنتظم فى مجموعات خاضعة لمجلس من الحكام لتنظيم المسائل الدولية وحسم كل نزاع (١) . وبعد أن تجاهل سان بيير حقيقة غاية سالى الرامية الى الخلاص من قوة منافسه ، استعاض عنها غاية أخرى لمشروعه وهى اقامة تحالف دائم لكل حكام أوربا فيه ضمان متبادل بالمحافظة على دولة كل منهم ، ونبذ الحرب كوسيلة لفض النزاع . ووضع سان بيير شروط هذا التحالف ، وبحث حالة كل قوة أوربية ، الواحدة تلو الأخرى مبينا أن امضاء هذه الاتفاقية لصالحها كلها ، وكيف سيبدأ عهد ذهبى بمجرد توقيعها .

لا ننوى الآن التعقيب على هذا المشروع الذى حاول المؤلف ـ بما عرف عنه من سذاجة ـ لفت انتباه رجال الحكم جديا اليه . ومن الميسور انتقاده على ضوء ما تلا ذلك من أحداث ، وادراك أنه لو قدر للمستحيل أن يتحقق وجربت المحاولة ونجحت فربما تسببت فى بلاء أكبر من كل الحروب التى وقعت منذ ذلك الحين حتى الآن . فهى قائمة على تثبيت الأوضاع السياسية فى أوربا تبعا للأمر الواقع ، زاعمة أن توزيع القوى القائم فى أوربا مقبول للغاية ومتوافق مع أفضل مصالح الشعوب المعنية. وربما ساعد تنفيذ هذا المشروع على الحيلولة دون تقسيم

---

* Annales politiques

(١) شرح هذا المشروع فى كتاب Memoire لسالى (الكتاب الثلاثون) .

بولاندة ، ولكنه كان سيحافظ على احتلال النمسا لايطاليا • وصمم المشروع أيضا للحكام سلطانا وراثيا ، وحمايتهم من الحروب الأهلية • ومعنى هذا هو عدالة النظم القائمة أساسا • وربما أدى تحقيق المشروع الى توطيد اقدام كل شرور الحكومات الأوتوقراطية (الاستبدادية) ولم يدرك مؤلفه أن أصل البلاء في فرنسا هو عدم تقدير السلطة للمسئولية • وتطلب اثبات ذلك انتقال الحكم الى الملك لويس الخامس عشر ، واخفاق محاولات الاصلاح في عهد خليفته ، بل واعتقد الأب سان بيير أيضا أن أى ازدياد في السلطان الاستبدادى للحكومة أمر مرغوب فيه ، ما دام مصحوبا بزيادة في تنوير القائمين به ، وفضائلهم •

وفي سنة ١٧٢٩ ، نشر مختصرا لمشروعه ، لم يكتف فيه بالكلام عن نتائجه المباشرة ، ولكنه تحدث عن قيمته للأخلاف البعيدين ، وقال : لم يستطع احد أن يتخيل المزايا التى سيحققها لأوروبا مثل هذا التحالف بين الدول الأوروبية بعد خمسة قرون من ظهوره • فلقد أصبحنا قادرين الآن على ادراك البشائر الأولى ، وان كان في غير مقدور العقل الانسانى ادراك آثارها البعيدة في المستقبل ، التى قد تحقق نتائج أثمن من أى شيء عرفه الانسان حتى الآن • وعزز سان بيير برهانه بان لاحظ تعذر تنبؤ أسلافنا البدائيين بالتحسينات التى استطاعت مختلف العصور تحقيقها بالنسبة لأنظمتهم البدائية ، لضمان النظام الاجتماعى •

(٣)

من الظواهر ذات الدلالة ، أن تجيء معتقدات سان بيير عن التقدم أفكارا عابرة ضمن مشروعاته المميزة • وفي سنة ١٧٣٧ ، نشر سان بيير « مشروعا للنهوض بطريقة حكم الدول » ، حدد فيه نظرته للاتجاه التقدمى للحضارة ، وروى وجود تعارض بين حقيقة التاريخ ، والأسطورة القديمة عن وجود عصر ذهبى عاش فيه الناس في وئام ، واعقبته عصور ذهبية وبرونزية وحديدية • واعتقد سان بيير أن العصر الحديدى قد جاء في البداية ممثلا لطفولة المجتمع ، عندما كان النـــاس يعيشون في فقر ويجهلون الفنون ، أى على نحو شبيه بالحالة الحاضرة للهمج في أفريقيا وأمريكا • وتبع ذلك العصر البرونزى ، وفيـــه زاد الأمان ، وظهرت قوانين أفضل ، وبدأ اختراع ألزم الفنون • ثم جاء العصر الفضى ، ولم تتجاوزه أوروبا بعد • ولا جدال أن عقلنا قد بلغ مرحلة التفكير في كيفية امكان الخلاص من الحرب ، وبذلك اقترب من العصر الذهبى للمستقبل ، وان كان فن الحكم والتنظيم العام للمجتمع ما زال في طفولته ، رغم كل

ما حدث من ارتقاء عن الماضي • ومع هذا فان كل ما هو مطلوب هو سلسلة قصيرة من فترات الحكم الحكيمة في دولتنا الأوربية ، حتى يستطاع بلوغ العصر الذهبي ، أو بعبارة أخرى خلق الجنة على الأرض •

ان رجال الحكم من الحكماء قلائل • وشارك الأب سان بيير فيما توهمه الكثيرون أن الحكومة تتمتع بالقدرة على كل شيء ، وبأن في وسعها منح السعادة للناس • وترجع نقائص الحكومة ــ كما اعتقد ــ أساسا الى عدم اقدام أقدر الأذهان حتى الآن على دراسة علم الحكم • واتجه أهم جانب في مشروعه الى انشاء أكاديمية سياسية تحقق في السياسة ، ما حققته أكاديمية العلوم بالنسبة لدراسة الطبيعة ، وتعمل كهيئة استشارية لرجال الحكم في كل المسائل التي تهم الصالح العام • واعتقد انه في حالة اتباع هذا الاقتراح وغيره ، فان العصر الذهبي لن يتأخر ظهوره طويلا •

تبين هذه الملاحظات ــ التي ذكرت في الواقع عرضا obiter Dicta اختلاط نظرة سان بيير العامة للعالم ، بتصور لاتجاه الحضارة نحو اسعاد البشرية•وفي سنة ١٧٣٧ ، نشر مؤلفا خاصا لتفسير هذا المعنى بعنوان « ملاحظات عن التقدم المتواصل للعقل العالمي » •

وعاد الى مقارنة حياة البشرية جمعاء بحياة الفرد • وتشابه مع فونتنيل وتيراسون في تشبثه بالتشبيه حتى عندما يخفق التشابه • وربما أمكننا اعتبار عصرنا مؤلفا من كل الشعوب التي ظهرت وستظهر ، وبوسعنا القول بأنه مر في عصور مختلفة ، فيمكن القول مثلا بأن الجنس البشري عندما يبلغ عشرة آلاف سنةمن العمر ، يصح اعتبار القرن من الزمان في عمره ، معادلا لسنة واحدة من أحد المعمرين • على ان هناك هذا الاختلاف الجسيم : فالانسان الفاني عندما تتقدم به السن يفقد عقله وسعادته نتيجة لما يعتري بدنه من ضعف • أما الجنس البشري فيرى نفسه بعد عشرة آلاف سنة ، تعاقبت فيهما أجيال لامتناهية بلا انقطاع ، أقدر على الارتقاء في الحكمة والسعادة مما كان في نهاية أربعة آلاف سنة •

وفي الحاضر لا يزيد عمر الجنس البشري ــ على ما يظهر ــ عن سبعة أو ثمانية آلاف من السنين • وما زال « العقل الانساني في طفولته » ، بالمقارنة بما سيكون عليه بعد خمسة أو ستة آلاف سنة من الآن • وعندما يبلغ هذه المرحلة ، فانه لن يكون قد مر بأكثر مما تدعوه بشبابه الأول ، اذا تذاكرنا ما سيكون عليه عندما يتقدم في السن عشرة آلاف سنة ينمو خلالها عقله ، وتزداد حكمته •

هنا نصادف لأول مرة في تعبير محدد الكلمات ، توقعا لما تنتظره البشرية من حياة تقدمية حافلة . فالحضارة ما زالت في طفولتها . ولقد تصورها بيكون ـ وشايهه باسكال في ذلك ـ أنها قد بلغت الشيخوخة. والظاهر أن فونتنيل وبيرو قد اعتقدا أنهما في عنفوانهما ، ولم يضعا أى شروط لمدى استمرارها ، ولكنهما لم يعنيا بما يتوقع لها من مستقبل . وكان الأب سان بيير أول من تنبه الى المصير البعيد للجنس البشرى ، وقسم الزمان الى عصور ممتدة ، ولم يتصور ارتباط مصيرنا بمصير النظام الشمسى ، ولم يجد جدوى فى النظر في امتداد التقدم آلاف السنوات ، ما لم يحدث اطمئنان الى وجود استقرار مناظر فى عالم الكون .

وكبينة لما حققه العقل بالفعل من تقدم ، ذكر سان بيير ان اية مقارنة بين أفضـــل منحزات الانجليز والفرنسيين في الأخلاقيـات والسياسة ، وبين أفضل منجزات أفلاطون وأرسطو تثبت احراز الجنس الانساني تقدما محسوسا ، وان كان هذا التقدم ربما جاء أعظم بقــدر كبير ، لولا حدوث ثلاثة معوقات ، بل لقد تسببت هذه المعوقات أحيانا وفي بعض البلدان في احـداث نكسات . هـذه المعوقات هي الحروب والمزعبلات وغيرة الحكام الذين يخشون ما سيتعرضون له من أخطار من جـراء تقـــدم علم السياسة . نتيجة لهــذه العراقيل ، لم يهب الجنس البشرى من جـديد من النقطــة التى كان قد وصلها فى عهــد أفلاطون وأرسطو ، الا في عهد بودان وبيكون .

ومنــذ ذلك الحين ، ارتفع معــدل التقدم ، ويرجع هــذا الى جملة أسباب : ما زاد من ثراء بتأثير التوسع في التجارة البحرية . والثراء يعنى زيادة أوقات الفراغ ، وزيادة الكتاب والقــراء . ثانيــا ـ ازداد الاقبال فى دور العلم على دراسة الرياضة والفيزياء ، اللتين تساعدان على تحريرنا من الخضوع لسلطان القدماء . و لاننسى ما حققه انشـاء الأكاديميات العلمية من تيسيرات لنقل الكشوف الجديدة وتعميمها ، وساعد فن الطباعة على نشر هذه الكشوف . وأخيرا يسرت عادة الكتابة بغير اللاتينية تعريف الجميع بهذه الانجازات . وربما استطاع المؤلف أيضـا الاشــارة الى المحــاولات الحــديثة لتعميم العلم ، التى كان صــديقه فونتنيل من بين روادها .

واستطرد سان بيير ، فوضع مبدأ مشكوكا فيه ، عن وجود نسبة واحدة من الاختلاف بين الطبقات المنحطة في أى بلدين ، والطبقات المثقفة

ثقافة عالية فيهما ، وقال ان باريس ولندن تعدان فى الوقت الحاضر البلدين اللتين وصلت فيهما الحكمة الانسانية الى أعلى مرحلة متقدمة . ومن المحقق أن افضل عشرة رجال من أعلى طبقات أصفهان والقسطنطينية أهون شأنا فى معرفتهما بالسياسة والأخلاقيات من أبرز عشرة من علماء باريس ولندن . ويصح هذا عن كل الطبقات . فاذكى ثلاثين من أطفال سن الرابعة عشرة فى باريس أعظم تنورا ممن يماثلونهم فى العمر فى القسطنطينية . ويصح نفس الاختلاف النسبى عن الطبقات الدنيا فى المدينتين .

غير انه بينما تحقق التقدم للعقل النظرى فى سرعة فائقة ، لم يحدث ألا تقدم هين « للعقل العملى » (وجاءت هذه التفرقة على لسان الأب سان بيير) . ففى مسائل الأخلاقيات والسعادة العامة ، لم يتغير العالم كثيرا ، كما يظهر . فاوساط علمائنا يعرفون أكثر مما عرفه سقراط وكونفوشيوس عشرين مرة ، أما أفضل رجالنا ، فليسوا أفضل مما كانوا عليه . وأضاف ارتقاء العلم الكثير الى الفنون ورفاهية الحياة والمتع فى جملتها ، وسوف يضيف ما هو أكثر . فالتقدم فى « العلم الفيزيائى » جزء من تقدم « العقل الانسانى الكلى » ، الذى يرمى الى زيادة سعادتنا . ولكن هناك علمين آخرين أهم بكثير لزيادة السعادة ـ الأخلاق والسياسة ، وقد أدى اهمال العباقرة لهما الى عدم ارتقائهما الا قليلا فى خلال ألفى سنة . ومن المؤسف ألا يكرس ديكارت ونيوتن جهودهما للنهوض بهذين العلمين اللذين يعدان أنفع للبشرية من العلوم التى اهتديا فيها الى أعظم كشوفهما . لقد وقعا فى الخطأ السائد عن القيم المقارنة لمجالات المعرفة المختلفة : الخطأ الذى يجب أن نعزو اليه أيضا الافتقار الى منظمات للسياسة والأخلاق ،الى جانب المنظمات المشتغلة بالعلوم والفنون الجميلة .

واعتمد سان بيير على هذه الحجج ، وقنع بالاعتقاد بعدم وجود عوائق غير قابلة للازالة لتقدم الجنس البشرى نحو السعادة ، أو عدم وجود عراقيل يتعذر التغلب عليها ، شريطة مشاركة الحكومات للأب سان بيير فى الرأى . فلقد بدأت الجزعيلات تتداعى بالفعل ، ولن تحدث حروب أخرى ، لو اتبع مشروعه البسيط للسلام الدائم . ولو قامت الدول فى التو بانشاء الأكاديميات السياسية والأخلاقية ، وكرس أرباب القدرة من الناس مواهبهم لعلم الحكومة ، فاننا سنحقق تقدما أعظم فى مائة سنة ، مما نستطيع تحقيقه فى ألفى سنة بالمعدل الذى نسير عليه .

نعم لو تحقق هذا ، فان العقل الانساني سيتقدم في ألفي أو ثلاثة آلاف سنة بحيث يكون أحكم أبناء ذلك العصر أسمى بكثير من أحكم أبناء عصرنا ، بنفس النسبة التي يتفوقون بها على أحكم الهمج من أهل افريقيا . سسوف يتسنى يوما ما لهذا « الارتقاء غير المحدد للعقل » احداث ازدياد في السعادة الانسانية تذهلنا أكثر مما تذهل « الكفار » حضارتنا .

(٤)

الحق أن الأب سان بيير قد نظر باستخفاف شنيع الى أعمق المشكلات المعقدة التي تتحدى العقل الانساني . فلم يخطر على باله مدى عمقها وتعقدها ، وتناولها بكل بساطة . فنظر الى الطبيعة الانسانية وكأنها أمر مجرد ، بالاعتماد على طريقته التي كان سيصفها أغلب الظن بالديكارتية . واعتمد ببساطة على الافكار الشائعة حوله في مجتمع مشبع بالديكارتية مثل فكرة سيادة العقل الانساني ، والتنور النقدي ، وارجاع قيمة الحياة لذاتها ، ومعيار النفع . واستنادا على هذه الأفكار ، وعلى ميل عقله للتعصب لم يحتج الأمر الى براعة كبيرة للانتقال من فكرة التقدم في العلم الى فكرة التقدم في الطبيعة الأخلاقية للانسان وأحواله الاجتماعية . أما الأفكار الأخرى كالقدرة الخارقة للحكومات على التحكم في مصير البشر ، وامكان خلق حكومات مستنيرة وتقدم التنوير الى ما لا نهاية ، فكلها من بنات أفكاره ، ومن نتائج برهان قائم على القياس المنطقي ، لم يتعذر التوسع فيه في بحثه الوجيز .

ولكن علينا الا نبتعد عن الانصاف عند الحكم عليه . فلقد كان مفكرا أعظم قدرا ممن خلفوه وأحجموا أمدا طويلا عن الاعتقاد في التقدم . ومن اليسير الاستهزاء ببعض مشروعاته ، واستبعاده كواحد من الحمقى الذين اتصفوا أيضا بثقل الدم . ومع هذا فلا جدال أن الكثير مما جاء في مشروعاته قد اتصف بصحته ونفاسته . اذ كانت معتقداته الاقتصادية التي تميز فيها بالأصالة متقدمة على عصرها ، بل لقد وصفه كاتب محدث « بأنه معاصر للقرن الثامن عشر ومنحرف عنه في نفس الوقت (*) » وقام تيرجو بتنفيذ بعض مقترحاته الاقتصادية ، وان كان من المتعذر القول بأنه قد تم الاعتراف باهميته في النهوض بالأفكار الثورية التي

(*) Un contemporain égare au xviii siècle.

أصبح لها القدح المعلى في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، ولم يقدرها معاصروه تقديرا صحيحا •

ومن السهل تعليل ذلك • فنظرياته مدفونة في بطون « مشروعاته » المتعددة • ولو أنه بدلا من التوسع في ذكر تفاصيل الاصلاحات التي لا نهاية لها ، اكتفى بتأليف نظريات عامة في الحكومة والمجتمع والاقتصاد والتعليم ـ لعلها لن تكون ذات قيمة جوهرية أعظم ـ لما كان من المستبعد الاعتراف به كرائد للموسوعيين •

فمبادئه هي نفس مبادئهم : القدرة المطلقة للحكومة والقوانين على تشكيل أخلاق الشعب ، واخضاع المعرفة بأسرها لاله المنفعة ، وتأليه العقل الانساني ، والاعتقاد بالتقدم • ودفعه الايمان الفج « بالمذهب النفعي » الى الاستهانة بدراسة العلوم الرياضية والطبيعية باعتبارها بلا قيمة نسبيا ـ بالرغم من توقيره لديكارت ـ واحتقر الفنون الجميلة بوصفها مضيعة للوقت والجهد اللذين يستطاع انفاقهما فيما هو أجدى• ولم يكن على بينة بالعلم الطبيعي ، ولم تتوافر لديه أية حساسية فنية • أما الفلاسفة الموسوعيون فلم يذهبوا الى ما هو أبعد ، ولكنهم عكفوا على التزام هـذا الاتجاه ، فاظهروا نفورا وعدم اكتراث بالعلوم النظرية ومالوا الى ترجيح كفة أهل الصنعة على كفة الفنانين •

واختلف الأب سان بيير في معتقداته الدينية عن فولتير والفلاسفة الاجتماعيين المتأخرين في ناحية هامة واحدة ، وان كان هـذا الاختلاف يرجع الى مذهبه النفعي ، وكما رأينا ، لقد ماثلهم في اتباع « التاليهية » وتشرب بروح « بايل » ومذهب العقلانيين الانجليز الذى كان متغلغلا في المجتمع الفرنسي ابان الجزء الأخير من حياته • ومع هذا فقد كان الهه شيئا أكثر من الخالق المنظم عند الموسوعيين•لقد كان اله الانتقام والمثوبة(*)، الذى آمن به فولتير • ولكن ايمانه هنا كان أكبر من فولتير•فبينما جعل فولتير المثوبة والعقاب في هذه الحياة ، كان الأب سان بيير يؤمن بخلود الروح وبالفردوس والجحيم • واعترف بتعذر البرهنة على الخلود ، وأنه مجرد احتمال ، ولكنه تشبث به ، بل وبتزمت • ويتضح من كتاباته أنه قد تعلق بهذه الفكرة بسبب نفعها ، فبدت له من لوازم التهذيب الخلقي ، وكذلك من مكملات الاعتقاد بأن الجنة سوف تضيف الى السعادة الانسانية في جملتها •

★ Dieu Vengeur et remunérateur.

ولكن بالرغم من تفوق دينه فيما احتواه من بنود الايمان ، الا أنه لم يختلف عن فولتير وديدرو والآخرين في صراحة عدائه للخزعبلات · ولم يتشابه معهم في المغالاة في اتباع تيار العقلانية العدوانية ، فهو من أبناء جيل أقدم ، وان كانت مبادئه قد ماثلت مبادئهم ·

وهكذا يعد الأب دي سان بيير ممثلا للنقلة من الديكارتية الأولى التي شغلت بمسائل فكرية صرفة ، الى فكر أواخر القرن الثامن عشر ، الذي تركز على المشكلات الاجتماعية · فهو من طلائع الروح الانسانية للموسوعيين ، الذين جعلوا من الانسـان مركزا للكون ، وانما بمعنى جديد ، فهو مبتكر فكرة الايمـان بمسيرة الانسـان والتقدم الاجتماعي بلا حد ، أو أول من نادى بها على أقل تقدير ·

الفصل السابع

تصورات جديدة للتاريخ

مونتسكيو - فولتير - وتيرجو

يتعذر وضع نظرية وطيدة عن التقدم الانسانى بالاعتماد على البراهين المجردة ، أو الأسس الهشة التى وضعها الأب سان بيير • ففى آخر المطاف ، ينبغى أن يرتكن الحكم على هذه النظرية على البينات التى يعرضها التاريخ • ولم تكن مصادفة أن تتعاصر مع هذه الفكرة الثورة التى حدثت للتاريخ • فلو اريد للتقدم أن يكون من المعانى التى تزيد عن مجرد حماس حالم متفائل ، فينبغى أن يثبت أن دور الانسان على الارض لم يكن فصلا من المصادفات التى لا تؤدى الى أى شىء ، ولكنه خاضع لقوانين يستطاع الكشف عنها ، تقرر اتجاهه العام ، وتضمن وصوله الى الوضع المرغوب • وحتى ذلك العهد ، استطاعت النظرية المسيحية القائلة بوجود تصميم معين وراء فكرة النعمة الالهية ، وعلل غائية ، الاهتداء الى نظام معين ووحدة معينة فى التاريخ • ودعت الحاجة الى ظهور مبادىء جديدة لهذا النظام وتلك الوحدة للحلول محل المبادىء التى انتقصتها العقلانية • وكما اعتمد تقدم العلم على التسليم بخضوع الظواهر الطبيعية لقوانين ثابتة ، كذلك اذا أريد انتزاع أى نتائج من التاريخ ، فلابد من الحصول على مسلمات مماثلة عن الظواهر الاجتماعية •

وهكذا توافقت مع الحركة العامة للفكر الاتجاهات التى استهلت حوالى منتصف القرن الثامن عشر ، وأدت الى ظهور علم الاجتماع وتاريخ الحضارة ، وفلسفة التاريخ ، وبدأ عصر جديد فى رؤيا الانسان للماضى بكتاب « روح القوانين » الذى يستطيع الزعم بأنه أصل علم الاجتماع الحديث ، وبكتاب « مقال عن العادات » لفولتير ، وبمخطط لتيرجو عن التاريخ العالمى •

(١)

لم يكن مونتسكيو بين رسل فكرة التقدم . فهى لم تستطع البتة احتلال أى موضع في ذهنه . ولكنه شب في نفس البيئة الفكرية التى انجبت هذه الفكرة . وتغذى على الجدل التحليلى لبايل وعلى ما ذكره ديكارت عن القانون الطبيعى . ولم تشارك منجزاته فى تصور الماضى ، ولكنها شاركت فى تصور المستقبل .

فلقد حاول جعل النظرية الديكارتية تمتد بحيث تشمل وقائع المجتمع ، عندما علل تشابه الظواهر السياسية مع الطبيعة في الخضوع للقوانين العامة . واستطاع ادراك هذه الفكرة التى تعد أهم أفكاره وأكثرها فاعلية عندما ألف كتاب «نظرات فى عظمة الرومان وتدهورهم» ١٧٣٤ ، وفيه حاول تطبيق هذه الفكرة :

« كما رأينا فى تاريخ الرومان ، ليس ما يتحكم فى العالم هو البخت . فهناك أسباب عامة أخلاقية ومادية ، لها أثر فعال فى كل نظام للحكم ، اما أن ترتفع به وتحافظ عليه ، واما أن تقضى عليه . وكل ما يحدث خاضع لهذه الأسباب . فاذا سلمنا بوجود سبب جزئى قد تسبب في الدمار الذى حل بدولة كنتيجة عابرة لاحدى المعارك على سبيل المثال ، فان ما تسبب في جعل سقوط هذه الدولة يترتب على معركة واحدة فحسب ، هو أحد الأسباب العامة .. وباختصار هناك حركة أساسية وراء كل الأحداث الجزئية » .

على أن هذا الكلام اذا كان قد استبعد دور البخت ، فان معناه أيضا الاستغناء عن دور النعمة الالهية والتصميم والعلل الغائية . فمن بين الآثار التى ترتبت على كتاب « النظرات » التى ما كان بمقدور مونتسكيو تجاهلها ، الانتقاص من معالجة « بوسويه » للتاريخ .

وبعد ذلك بأربعة عشر عاما ، ظهر كتاب « روح القوانين » ولا وجود بين الكتب التى أحدثت تأثيرا ملحوظا على الفكر غير قلائل أكثر منه تخييبا لآمال القارىء الحديث . فلقد افتقر الكاتب الى موهبة المعمار المنطقى ، ان صحت مثل هذه التسمية . وبدا الكتاب كمجموعة من الأفكار عجز الكاتب عن تنسيقها فى نسق واضح . واعتلى العرش مبدأ جديد هو فاعلية العلل العامة ، ولكننا اذا تجاوزنا عن التفرقة الواضحة بين العلل المادية والمعنوية ، فاننا لن نصادف أى تصنيف لهذه العلل . فليس هناك ما يثبت لنا حدوث تعداد كامل للعلل المعنوية . ولا وجود

لأى تفرقة بين العلل الأصلية والمشتقة ، والعلة الســامة التى حاول مونتسكيو بكل وضوح تثبيتها فى عقل القارىء هى أثر البيئة الطبيعية المتمثلة فى العلل الجغرافية والمناخية ٠

وأثر المناخ على الحضارة ليس فكرة جديدة ٠ فكما رأينا ، لقــد سبق أن لاحظ بودان ذلك فى العصر الحديث ، واعترف به فونتنيل ، كما طبق هذه الفكرة الأب ،سان بيير عند كلامه عن أصل الدين الاسلامى٠ وتحدث الأب ديبوس فى كتاب « تأملات فى الشعر والتصوير » عن علاقة المناخ بعصور الفن والعلم ٠ وقدر هذه الأهمية أيضا شاردان فى كتاب « الرحلات » الذى درسه مونتسكيو ، وكان أكثر توفيقا فى جذب الانتباه الى هذه الفكرة ٠ فمنذ قام بعرضها ، اعترف كل الباحثين بالأحــوال الجغرافية كعامل مؤثر فى تقدم المجتمعات البشرية ٠ ولم يتمخض بحثه للمسألة عن أية نتائج نافعة٠فهو لم يضع حدودا لتأثير العوامل الطبيعية بحيث يتعذر على القــارىء تقرير هــل يعتبر هذه العوامل أساسية أم ثانوية ، وهل تحدد طريق الحضارة أم تعترضه فحسب٠قال مونتسكيو: « تتحكم فى أحوال الناس جملة مؤثرات : المناخ والدين والقوانين وقوانين الحكم والنماذج التاريخية والأخلاق والعادات ، والروح العامة هى حصيلة هذه المؤثرات مجتمعة » ٠ كان هذا التوفيق بين المناخ ومنتجات الحياة الاجتمــاعية من الخصــائص المميزة لفكره غير المنهجى ٠ ولكن ما لاحظه الكاتب عن وجود علاقة دائمة بين قوانين أى شعب وروحه العــامة أمر هام ٠ ففيها اشارة الى النظرية القائلة بوجود ارتبــاط وثيق بين كل ما يجرى فى المجتمع ٠

فى عهد مونتسكيو ، توهم الناس أن للتشريعات قدرة فائقة على احداث تغييرات فى الأحوال الاجتماعية ٠ ولقد سبق أن صادفنا هذا الرأى عنــد سان بيير ٠ وكان من المتوقع أن يجىء تصــور مونتسكيو للقوانين العامة كاجمال لهــذا الاعتقاد ٠ ومع هــذا فقد كان اثره على معاصريه أقل مما نتوقع ، بعد أن عثروا على ما توافق أكثر من ذلك مع غايتهم ، فيما قاله عن تأثير القوانين على العادات ٠ وربما كان هناك جانب من الصحة فى ملاحظة كونت التى ذكر فيها عجز مونتسكيو عن اظهار فكرته بمظهر الفكرة المتوافقة الحية ، لانه كان خاضعا لاشعوريا لتأثير الايمان المفرط بالدور الذى تستطيع أن تحققه القوانين ٠

ومن أوجــه النقص الأساسية فى تناول مونتسكيو للظواهر الاجتماعية تجريده لها من الارتباط بالزمان ٠ وكان من مزاياه محاولة

تفسير علاقة القوانين والانظمة بالظروف التاريخية . ولكنه لم يفرق بين أطوار الحضارة أو يربط بينها . فكان ميالا ـ كما لاحظ سوريل ـ الى خلط كل العصور والأنظمة . ومهما كانت قيمة فكرة التقدم ، فاننا نتفق مع كوندت في قوله : بان مونتسكيو لو أحاط بهذه الفكرة ، لكان بوسعه تحقيق ما هو افضل مما انجزه . وأحدث كتابه ثورة في دراسة العلوم السياسية ، وان كان ينتمي من جملة وجوه الى العصر السابق له .

(٢)

في نفس السنة التي عكف فيها مونتسكيو على تأليف كتاب « روح القوانين » قام فولتير بتأليف كتاب « عصر لويس الرابع عشر » ، وكتاب « مقال عن العادات وعقلية الشعوب » ، وكتاب « الحقائق التاريخية الأساسية من عهد شرلمان الى موت لويس الثالث عشر » . وظهر الكتاب الأول ، الذي ما زال يقرأ حتى الآن سنة ١٧٥١ ، ونشرت أجزاء من « المقال » الذي انطوى في زوايا النسيان منذ أمد بعيد في مجلة « المركيز دى فرانس » بين ١٧٤٥ و ١٧٥١ . ونشر مكتملا سنة ١٧٥٦ مع كتاب « عصر لويس الرابع عشر » ، الذي يعد مكملا له . واذا أضفنا الى ذلك كتاب « خلاصة عصر لويس الخامس عشر » ١٧٦٩ ، فاننا سنلاحظ كيف صورت الفصول الأربعة عشر الأولى من « المقال » تاريخ العالم قبل شرلمان ، وكيف تضمن العرض كلاما عن الصين والهند وأمريكا ، وبذا يبدو كتاب فولتير بمثابة عرض كامل لحضارة العالم من أبكر أيامه حتى عصر فولتير . واذا اعتبرنا مونتسكيو منشىء علم الاجتماع ، فان فولتير هو الذي خلق تاريخ الحضارة . ويعد كتاب « المقال » رغم كل قصوره من بين الكتب بعيدة الأثر في القرن .

ذكر فولتير في كتابه « عصر لويس الرابع عشر » أن غايته لا تهدف الى عرض أفعال فرد واحد ، ولكنها ترمي الى تصوير روح الأفراد (*) ، في أعظم العصور استنارة التي ظهرت حتى الآن » . كما قال : « ان تقدم الفنون والعلوم من الجوانب الأساسية في موضوعه » . وعلى نفس النحو ، أشار في كتاب « المقال » الى أنه ينوى تتبع « تاريخ الروح الانسانية » ، لا تفاصيل الوقائع وبيان الخطوات التي اتبعها الانسان في تقدمه من السذاجة الهمجية في عهد شرلمان وخلفائه الى « دماثة عهدنا »

---

* l'esprit des hommes.

وذكر أن القيام بذلك بمثابة كتابة لتاريخ المعتقدات ، لأن كل التغيرات الاجتماعية والسياسية المتعاقبة التى غيرت وجه العالم ، انما ترجع الى تغير فى المعتقدات • فالتعصب يخلف تعصبا آخر ، والخطأ يتبعه خطأ آخر • وفى النهـــاية وبمرور الزمن ، استطاع النـــاس تصحيح معتقداتهم ، وتعلموا كيف يفكرون » •

وباختصار ، تدور فكرة الكتاب حول ما تحدثه الحروب والأديان من تعويق لتقدم البشرية ، ولو أمكن الخلاص منهما ومن التعصب الذى نجم عنهما ، فان العالم سيرتقى بسرعة فائقة •

وقال « ربما اعتقد أن العقل والصناعة سيصادفان ارتقاء متزايدا ، كما ستنهض الفنون النافعة ، وتختفى تدريجيا الشرور التى ابتلى بها الناس ، والتعصب الذى لا يعد أهون سيف مصلت فى يد من يحكمون الشعوب • وستتمكن الفلسفة بعد انتشارها فى سائر الأنحاء من القيام بدور العزاء والسلوى لما تعانيه البشرية فى كل العصور من بلاء » •

لا جدال فى وجود اختلاف بين هذه اللهجة ولهجة الأب سان بيير • فلقد خففت سلاطة لسان فولتير دائما من روح تفاؤله ، وان كنا نصادف عنده فكرة التقدم رغم اعتدال تصورها ، معتمدة على نفس الأساس : العقل الكلى الكامن فى الانسان القادر على الصمود رغم كل الأهواء التى تثير الحرب ضده ، ورغم كل الطغاة الذين يترقونه فى بحار الدم ، ورغم كل الدجالين الذين قد يقضون عليه بالخزعبلات • وكانت هـــذه بكل التأكيد النظرة التى اتبعها بعد تبصر • وحالت حصافته دون تورطه فى اية تأملات حالمة عن المستقبل • وساقته سلاطة اللسان دائما الى استعمال لغـــة المتشائم ، ولكنه فى مرحلة مبكرة من حياته ، امتشق الســـلاح ، وناصر الطبيعة الانسانية ضد « عدو البشر الأسمى باسكال » ، الذى كتب ضد الطبيعـــة الانسانية بروح مماثلة تقريبـــا لكتابته ضـــد اليسوعيين » ، وعاود الهجوم مرة أخرى فى نهـــاية حياته • فلما كان باسكال قد استودع خواطره نظرية فى الحياة ــ تتبع الاعتقاد فى الخطيئة الأزلية وفكرة قيـــام الحيـــاة بالاعداد للموت ــ الاعتقاد الذى يتعارض بصراحة مع روح التقدم • شعر فولتير بالسليقة بما فى هذا الكلام من عدوان ينبغى صده • وأشاد بلهجة مرحة فى قصيدة معروفة بقيمـــة الحضارة وكل آثارها ، بما فى ذلك الترف ، ورد بذلك على أولئك المتحسرين على العصور القديمة : عصر فيرجيل الذهبى ، والأيام الطيبة فى العصر

الحديدي · فالحياة في باريس ولندن وروما اليوم (القرن الثامن عشر) افضل بغير حد من الحياة في جنة عدن :

حيث لم يرطب زور حواء الأنبذة
فلم تعرف فيه الطحالب وماء الحياة
ولم يعرف اطلاقا بريق الحرير والذهب
هل تعجبون لذلك بجدودنا ؟
الذين كانوا يجهلون الصناعة ، ولم يعرفوا بحبوحة العيش
هل هذه ميزة ، انها الجهالة بعينها (*)

ولنعـد الى كتاب « المقال » وفيه شن هجوما مريرا على تصـور تاريخ العالم ، كمـا قدمه بالمعية بوسويه ، كان هـذا الكتاب في ذهن فولتير دائما ، واشار الى انه لم يكن جديرا باسم التاريخ العالمي ، لانه لم يتحدث عن اكثر من اربعة أو خمسـة شعوب ، وبخاصـة الشعب اليهودى الصغير « الذى لم يكن معروفا لباقي العالم ، أو كان محتقرا عن جدارة » · ولكن بوسويه يركز عليه الاهتمام ، وكان هناك ارتباطا بين ابعد أصول الامبراطوريات القديمة وبين اليهود · وقصد فولتير بوسويه عندما قال : سنتحدث عن اليهود بنفس الطريقة التى نتبعها في الكلام عن الاسقوثيين(**)أو اليونانيين·فنناقش الوقائع،ونوازن بين كل الأحكام المحتملة · وتضاءلت تبعا لنظريته الجديدة اهمية تاريخ العبرانيين لأول مرة ، وانحط مكانه ·

على أن فولتير لم يكتف بتحـدى نظرة بوسويه في هذه النقطة الفرعية ، مع جوهريتها · فلقد استبعد الكلام نهائيا عن المثل الغائية . ولم تلعب العناية الالهيـة في تاريخه أى دور · وبذلك عززت كتابته تعاليم مونتسكيو · وفيما عدا ذلك ، اختلف كل من مونتسكيو وفولتير اختلافا مطلقـا في طريقيهما · فلم يكترث فولتير بغير التسلسل العلمي للاحداث والدوافع المباشرة للناس · واقتصر تفسيره للتاريخ على الكشف

(*) Le Mondain
D'un bon vain frais ou la mousse ou la sève,
Ne gratta point le triste gosier d'Eve.
La soie et l'or ne brillaient point chez eux
Admirez - vous pour cela nos aieux ?
Il leur manquait l'industrie et l'aisance :
Est - ce vertu ? c'était pure ignorance

(**) من الشعوب القديمة التى عاشت قرب بحر قزوين

عن العلل الجزئية . ولم ينظر في فاعلية تلك العلل العامة الكبرى التى تخصها مونتسكيو ، في سعيه لاثبات خضوع تقلبات المجتمعات للقوانين . اذ اعتقد فولتير ان المصادفة تتحكم في الأحداث عندما لاتكون خاضعة بوعي للعقل الانساني ، وعنصر المصادفة واضح في التشريع ، « لان كل القوانين تقريبا قد وضعت لمواجهة حاجات عابرة ، كالأدوية التى تستعمل عشوائيا ، فتشفى أحد المرضى وتقتل آخرين » .

وتبعا لنظرية فولتير ، كان من المستطاع انحراف تقدم الانسانية في أى لحظة واتباعها طريقا مختلفا ، ولكن بغض النظر عن أى طريق ستتبعه فان طبيعة العقل الانساني ، كفيلة بأن تحقق تقدما في الحضارة . على أن قارىء « المقال » و « لويس الرابع عشر » ، ربما شعر بعد قراءته للكتابين بهشاشة التقدم وعشوائيته . فلو صح القول بأن المصادفة تتحكم في الأحداث ، أو أن أحداثا عارضة هي التى تتحكم في نهوض الامبراطوريات وسقوطها وتعاقب الأديان وثورات الدول ومعظم التحولات الكبرى في التاريخ ، فهل يكون هناك أى أساس مفحم للاعتقاد بأن العقل الانساني — الأساس الذى نسب اليه فولتير تقدم الحضارة — سيسود في المدى الطويل ؟ . لقد انتظمت الحضارة هنا وهناك ، وبين حين وآخر ، الى درجة معينة ، فكانت هناك عصور من التقدم السريع . ولكن كيف نستطيع الاطمئنان الى أن هذه الأحداث ذاتها ليست عابرة أيضا ؟ ، بعد أن جاء التدهور في أعقاب الازدهار ، والنكوص في أعقاب التقدم . فهل يستطاع القول بأن التاريخ مؤيد للقول بنهوض العقل ، الى درجة تحول دون قيام المصادفة بتهديد ارادته ؟ وهل يزيد مثل هذا الاستدلال عن مجرد أمل لا تؤيده وقائع التجارب الماضية . انه مجرد خاطر يتمشى مع روح عصر التنوير ؟ .

وهكذا أثار كل من فولتير ومونتسكيو مسائل أساسية ذات أثر بالغ بالنسبة لمذهب التقدم . انها مسائل تنتمى الى ما سرعان ما أصبح يدعى فلسفة التاريخ ، وهو اسم من اختراع فولتير ، ولكنه لم يقصد به المعنى الذى أصبح يدل عليه فيما بعد .

(٣)

قبل نشر كتاب المقال لفولتير بست سنوات في صورته الكاملة ، كان هناك شاب يتحفز لاصدار كتاب في نفس الموضوع . ولقد اكتسب تيرجو الخلود كاقتصادى واداري ، ولكنه لو تمكن من اتمام كتابه

« أحاديث عن التاريخ العالمي » الذي وضع تصميمه في سن الثالثة والعشرين ، فلعله كان يستحق في التاليف التاريخي خلودا أعظم مما استحق في الميادين الأخرى . ولدينا معلومات جزئية عن مخطط الكتاب ، بالاضافة الى محاضرتين القاهما في السوربون سنة ١٧٥٠ ، وبذلك أصبحنا على دراية بنظراته العامة .

استوعب تيرجو ما تضمنه كتاب « روح القوانين » . ولا يستبعد أن يكون قد قرأ الأجزاء التي ظهرت من كتاب فولتير في مجلة « ميركير دي فرانس » . وهدف كتابه مثل كتاب فولتير الى تحدى نظرة بوسويه الى التاريخ ، ورمى الى تتبع مصير الجنس الانساني على ضوء فكرة التقدم ، وأشار من حين لآخر الى العناية الالهية ، ولكن هذه الاشارات كانت من قبيل المداهنة . فلم يكن للعناية الالهية أي دور فيما قصد قوله . واغتصبت الدور التي قامت به عند بوسويه ، العلل العامة التي تعلمها من مونتسكيو ، وان كان عقله المنهجي قد ساعده على تنسيق وتصنيف الأفكار التي تركها مونتسكيو مهوشة نوعا ، وانتقد الاستقراءات المذكورة في « روح القوانين » عن أثر المناخ ، ووصفها بانها دالة على العجلة ومغالى فيها ، وأشار الى أن العلل الطبيعية لن تستطيع احداث أثرها الا اذا اعتمدت في فاعليتها على « المبادىء الخفية التي تشارك في صنع عقولنا وسلوكنا » . ويتبع ذلك ان العلل النفسية والأخلاقية هي العنصر الأول الجدير بالاعتبار ، ومن أخطاء المنهج محاولة تقدير العلل الطبيعية قبل استقصاء العلل الأخلاقية ، وقبل التيقن من تعذر الاعتماد عليها وحدها في التفسير . وبعبارة أخرى ، ينبغي أن تعتمد دراسة تطور المجتمعات على السيكلوجيا ، وتعني فلسفة لوك عنده وعند كل معاصريه التقدميين .

وهكذا يمكن القول بأن العلل العامة الضرورية التي يصح أن نسميها شروطا ، هي التي حددت اتجاه التاريخ : طبيعة الانسان ومشاعره وعقله في المقام الأول ، وبيئته الجغرافية والمناخية في المقام الثاني ، وان كان هذا الاتجاه التاريخي عبارة عن علل ومعلولات جزئية صرفة » ، « تربط حالة العالم في أي لحظة معلومة بكل الحالات التي سبقتها » لم يناقش تيرجو مسألة حرية الارادة ، بيد أن فكرته عن الاتصال العلي لا تتعارض مع « حرية الفعل عند عظماء الرجال » .

وتصور تيرجو التاريخ العالمي تقدما ثابت الخطى ، رغم تؤدته ، للجنس البشري ككتلة واحدة تجاه كمال أعظم في عصور يتناوب فيها

الاضطراب والهـدوء · ولا تتحرك عنـاصر الكتلة في جملتها بخطوات متساوية لان الطبيعة لا تتصف في نعمها بعدم التحيز ، وبذلك تتمتع البعض بمواهب يحرم منها الآخرون · وأحيانا تساعد الظروف على تنمية منح الطبيعة ، كما تتركها أحيـانا مدفونة في زوايا النسيان · ويرجع التفاوت في خط سير الشعوب الى الظروف وتنوعها بلا حد · وربما اعتقد أن هذا التفاوت من دلائل أننا في بداية للعالم ، لانه سيختفي في الزمان الأبدى البعيد ·

على أن نمو المجتمعات الانسانية لم يكن خاضعا للعقل الانساني · فلم يقصـد الناس بوعي جعل السعادة السـامة غاية لأفعالهم ، ولكنهم انقادوا للهوى والطموح ، ولم يعرفوا قط الى أى هدف يتجهون · فلو ان العقل كانت له الكلمة العليا ، لما كان من المستبعد توقف التقدم على الفور : وربما اضطرت الشعوب لتجنب الحرب ، الى البقـاء في عزلة ، وبذلك يظل الجنس البشرى منقسما على نفسه الى الأبد ، الى جملة طوائف منعزلة تتحدث بلغات مختلفة · ولعل اشعاع أفكار هذه الطوائف كان سيتصف بأنه محدود ، كما سيتسم العلم والفن والحكم فيها بالجمود ، ولعلها ما كانت لترتقي الى أية مكانة سامية · وتاريخ الصين مثل للنتائج التى تترتب على تقيد الاتصال بين الشعوب · وهكذا بزغ الاستنتاج غير المتوقع بأن التقدم ما كان ليحدث بغير الابتعاد عن العقل والعدالة ·

لن يصعب علينا أن نلاحظ أننا لا يمكن أن نقبل هـذه البراهين القائمة على الزعم بأن العقل هو السائد بين الشعوب البدائية ، والتى تفترض في نفس الوقت بأن سلطان هذا العقل سيتوارى نهائيا ، لو انهم أقدموا على العيش في سلام · ولكن على الرغم من قيام تيرجو بطرح مشكلته في صورة غير مقنعة ، الا انه كان يرمى الى اثبات ما تقوم به « الأهواء الخطيرة الصاخبة » من تحريك ودفع للعالم في إتجاه مرغوب حتى يجيء الوقت الذى يتولى فيه العقل ادارة دفة هذا العالم ·

وهـكذا فبالرغم من امكان مسـايرة تيرجو لفولتير في قوله بان التاريخ « أكداس من الجرائم والحماقات والتعاسات (*) » ، الا أن نظرته لمعنى معاناة الانسانية كانت مختلفة ، وكادت تقترب من بساطة تفاؤل الشاعر الانجليزى الكسندر بوب : « كل ما هو كائن صواب » ، وبدت

(*) Un ramas de crimes, des folies et de malheurs

له كل التجارب الفعلية للجنس البشرى كعناصر لا غنى عنها فى سبيل التقدم • ولم يستنكر أخطاءه وكوارثه • ولاحظ ان الكثير من التغيرات والثورات قد تبدو ذات آثار بالغة الخطورة ، وأن كل تغير قد جاء ببعض النفع ، لانه كان بمثابة تجربة جديدة ، ومن ثم جاء حافلا بالدروس • فالانسان يتقدم اعتمادا على ما يقترف من اخطاء • واثبت تاريخ العلم (كما سبق أن أشار فونتنيل) امكان الاهتداء الى الحقيقة من خلال انقاض الفروض الزائفة •

وقوبلت مشكلة ما يعقب عصور التنوير من عصور اضمحلال وهمجية بالقول بأن العالم لم يخلد الى السكون خلال مثل هذه العهود المظلمة • فالواقع أنه قد حدث تقدم لم يخل من أهميته رغم عدم وضوحه نسبيا • ففى العصور الوسطى ، التى تعد مثلا بارزا ، حدث ارتقاء للفنون الآلية والتجارة وبعض عادات المدنية • وساعدت كل هذه العوامل على تمهيد الطريق امام العصور الأسعد حالا • هنا تتعارض نظرة تيرجو للتاريخ تعارضا شنيعا مع نظرة فولتير • فلقد اعتقد تيرجو ان المسيحية كانت من المقومات القوية للحضارة ، ولم تكن عائقا أو عنصرا معاديا لها • ولو انه تمكن من تنفيذ مخططه لما كان من المستبعد قيام كتابته باحداث توازن ملحوظ مع النظرة التى اعتنقها فولتير ، وتماما فيما بعد جيبون بطريقة أكثر اعتدالا ، وقيل فيها : « أن انتصار البربرية والدين كان من المحن التى أصابت العالم » •

وعرض تيرجو أيضا قانونين للتقدم • فلاحظ انه عند تقدم أى شعب ، فان كل خطوة يخطوها تحدث اسراعا فى معدل التقدم • ومهد « لقانون » كونت الشهير عن المراحل الثلاث للتطور الفكرى ، وان كان لم ينسب اليها الأهمية الأساسية الواسعة التى ادعاها لها كونت : « قبل أن يدرك الانسان الاتصال العلى للظواهر الطبيعية ، لم يكن هناك ما هو أكثر تجاوبا مع الفطرة من افتراض صدورها عن كائنات عاقلة خفية مشابهة لنا • وهل هناك شئ آخر كان بوسعها أن تتشابه معه ؟ » • وهذه هى نفس المرحلة اللاهوتية عند كونت • « عندما أدرك الفلاسفة حماقة الخرافات التى تقال عن الآلهة ، بغير أن يكونوا قد اكتسبوا بعد أى استبصار بالتاريخ الطبيعى ، فانهم اعتقدوا أن فى مقدورهم تفسير علل الظواهر بالاعتماد على تعابير مجردة تعتمد على كلمات مثل جواهر وملكات » • اليست هذه هى المرحلة الميتافيزيقية عند كونت ؟ ولم يتحقق الا فى عهد متأخر انشاء فروض يمكن تنميتها بوساطة الرياضة واثباتها

بالتجربة . وكان هذا بفضل ملاحظة تبادل التأثير الآلي للأجسام » . ففي هذا الكلام ، نصادف نفس المرحلة الوضعية التي جاءت عند كونت. وليس من شك في أن ملاحظة تيرجو لم تتسم بنفس الأهمية البعيدة التي نسبها اليها كونت ، ولكن بغض النظر عن قيمتها ، فان تيرجو يستحق الاشادة كأول من طرحها .

تسمح لنا الملاحظات التي وضعها تيرجو لمخططه بان نستنتج أن كتابه عن التاريخ العالمي ـ لو انه اكتمل ـ لتفوق في الاتساع والعمق على كتاب المقال لفولتير . ولعله كان يعرض في صورة مستساغة معتقدات مونتسكيو التي لم يعرها فولتير سوى انتباه ضئيل . ولعله كان يتوسع في الكلام عن الصلة الوثيقة والتفاعل المتبادل بين كل الظواهر الاجتماعية كالحكومة والأخلاق والدين والعلم والفنون . ورغم توافق فكرته العامة مع فكرة فولتير في تصورها للتقدم التدريجي للبشرية نحو حالة من التنور والمعقولية ، الا انه جعل فكرة التقدم أكثر حيوية . فلقد بعث له الفكرة كمحور نسقي ، فقامت بنفس دور فكرة العناية الالهية عند القديس أغسطين وبوسويه ، أي زودت التاريخ بوحدته ومعناه . أما النظرة القائلة بان الانسان قد اتجه الاتجاه الصحيح دون قصد ، فجاءت على نقيض فكرة الخطة الالهية التي صورها بوسويه وعهد بتنفيذها الى أبناء البشر الذين يجهلون هذه الخطة . كما انها تتعارض تعارضا حادا مع نظرات فولتير وغيره من فلاسفة العصر ممن عزوا التقدم للعقل الانساني وحده وصراعه بوعي ضد الجهل والهوى .

الفصل الثامن

الموسوعيون والاقتصاديون

(١)

من المستطاع وصف الحركة الفكرية التي أعدت الرأي العام الفرنسي للثورة ، وزودته بمبادىء اعادة انشاء المجتمع « بالحركة الانسانية » (الهيومانية) بمعنى أن الانسان كان فيها المحور الذي تركز عليه الاهتمام ٠

قال ديدرو : « ونخص بالذكر كائنا (واحدا) علينا ألا نتجاهله على الاطلاق ٠ فلو أقصينا الانسان أو الكائن المفكر المتأمل عن ظهر البسيطة، فان مشهد الطبيعة بجلاله وتأثيره لن يزيد حينئذ عن مشهد سوداوي صامت ٠ ان وجود الانسان هو الذي يجعل الأشياء الأخرى مثيرة للاهتمام ٠ فلماذا لا نجعله المركز الذي تتركز عليه شتى النواحي ٠٠ ان الانسان هو الكلمة الوحيدة التي علينا أن نبدأ منها » ٠ ومنذ ذلك الحين ، أصبحت السيكلوجيا والأخلاق وتكوين المجتمع الموضوعات التي تأسر الانتباه عوضا عن المشكلات المتعالية عن الانسان التي شغلت أذهان ديكارت ومالبرانش ولايبنتز ، فتضاءلت أهمية مسألة هل العالم هو أفضل عالم يمكن انشاؤه ، لان ما يهم قد أصبح علاقة عالم الانسان الصغير بإرادته وقدراته ، واقتصرت أهمية علم الفيزياء على العون الذي يقدمه لعلم المجتمع ، وامكان تسخيره لحاجات الانسان ٠ وأقرب شبيه لهذه الحالة التي حدث فيها تقدم للفكر ليست عصر النهضة الذي تنسب النزعة الانسانية اليه ، كما جرت العادة ٠ والأصح هو القول بقرابته لعصر التنوير في اليونان في النصف الأخير من القرن الخامس ق٠م ، كما تمثل عند بروتاجوراس وسقراط وآخرين ممن انصرفوا عن البحث في المشكلات القصية للكون ــ التي كانت حتى ذلك العهد موضع الدراسة الأساسية للفلاسفة ــ واتجهوا الى دراسة الانسان وطبيعته وأعماله ٠

وسنرى كيف تكيفت تلقائيا الحركة العامة للفكر في هذه الصورة المنقحة الحديثة المركزة حول الانسان مع ثورة الكونيات في المذهب البطليموسي ، فلم يكن مستهجنا ولا من دلائل الحمق أن يرى الانسان في نفسه أهم كائن في الكون اعتمادا على سيطرته على مركز الكون • هذه هي النظرة المضمرة في المذهب المسيحي • ولقد بنيت على نظرة خاطئة عتيقة الى الكونيات • وعندما تبين الموضع الصحيح للأرض ، واكتشف الانسان أنه يحيا في كوكب تافه من بين العديد من الكواكب التي تدور حول الشمس ، أصبح من المتعذر تبرير أهميته في الكون ، وانحطت مكانته التي غدت مساوية لحشرة على كوم من الوحل (*) ، كما تصور فولتير في صورة حية من كتابه « ميكروميجاس » • ولكن الانسان واسع الحيلة • فبعد اخراجه من بيته ، أي مركز الكون ، اكتشف طريقة جديدة لاستعادة أهمية ذاته ، ففسر مكانته المتواضعة على انها تحرر • ولما اكتشف نفسه يحيا في جزيرة تافهة تطفو على سطح الفضاء الهائل ، انتهى الى الاعتقاد بأنه سيد مصيره ، فبوسعه الخلاص من المكونات العتيقة لعقله كالعلل الغائية والخطيئة الأزلية وغيرها ، بعد أن غدا قادرا على شق طريقه • فلما كان غير مقيد بأي نظام كوني ، فانه ليس بحاجة الى عمل حساب للكون الا اذا تراءى ما يحقق له من نفع • أما اذا كان فيلسوفا ، فلا بأس اذا انتهى الى القول بأن العالم يبدو في نظره مصنوعا من احاسيسه • وبفضل هذه النظرة النسبية أمكن العودة الى فكرة التمركز حول الانسان ، في صورة جديدة أبعد تأثيرا •

وعبارة « مصنوع من أحاسيسه » منقولة عن فلسفة لوك التي ظفرت آنئذ بالقبول في فرنسا • وعندما استعملت مصطلح « الديكارتية » فانني لم أستعمله للدلالة على المعتقدات الميتافيزيقية لديكارت (كالمعاني الفطرية ، وفكرة الجوهرين وما أشبه) ، وانما للدلالة على المبادىء العظيمة التي استطاعت البقاء بعد انقضاء مذهبه الميتافيزيقي كأفكار سيادة القوانين الطبيعية وعدم خضوعها لأي تدخل من العناية الالهية • وما زالت هذه المبادىء تتحكم في الفكر ، أما معتقدات ديكارت الجزئية عن الظواهر الذهنية فقد حل محلها في فرنسا سيكلوجية لوك بعد أن عزز تأثيرها فولتير وكونديلاك •• والاعتقاد بأن كل الأفكار مستمدة من الحواس كامن وراء كل النظريات التي شاعت عن الانسان والمجتمع ، وعلى ضوئها انتقد المفكرون الثوريون : ديدرو وهلفسيوس وأقرانهم النظام القائم ، وكشفوا

(*) Tas de boue.

عن التعاملات الراسخة . وعنت هذه النزعة الحسية (التي تجاوزت فيما بعد غاية لوك ذاته) النسبية البحتة للمعرفة ، وأدت على الفور الى الرجوع الى الاعتقاد البراجماتي القديم لبروتاجوراس : « الانسان مقياس كل شيء » . وبدت روح الفلاسفة الفرنسيين في القرن الثامن عشر براجماتية سافرة . اذ كان نفع الانسان النبراس الذى اهتدوا به . وتقاس قيمة التأمل من مقدار نفعه القاطع للانسانية . فقال أحدهم : « ترتكن قيمة الحقيقة وصحتها على مدى نفعها ، الذى يعد المقياس الأوحد لأحكام البشر » وصرح آخر « بأن النفع أساس كل شيء » (*) وقال آخر « الاتصاف بالخير مرادف للاتصاف بالنفع ، والاتصاف بالشر يعنى عدم النفع أو الضرر ، هذه هي خلاصة الأخلاق » . وجاء هلفسيوس بنظرية مبشرة بما قاله بنتام بعد ذلك قال فيها ان النفع هو الأساس الوحيد للأخلاق ، وامتدح بيكون المؤمن بمذهب النفعية مديحا مماثلا للمديح الذى ظفر به لوك . وكما كان من أثر بيكون أن انشئت الجمعية الملكية قبل ذلك بمائة عام ، فقد عاد اسمه للحياة ثانية على يد مؤسسى الانسكلوبيديا .

وراء كل تأمل فلسفي تيار خفي من المشاعر . وكانت هذه القوة الشعورية في حالة فلاسفة القرن الثامن عشر في فرنسا شديدة البأس ، وربما اتسمت بالعنف . اذ كان ما يهدفون اليه هو تحقيق نتائج عملية، فكان ما قاموا به حملة مدروسة لاحداث تغيير في المبادىء وروح الحكومات وتحطيم الاكليروسية . فلما كانت مشكلة الجنس البشرى هي بلوغ السعادة اعتمادا على قدراته ، اعتقد هؤلاء المفكرون أن حلها يستمد على الانتصار التدريجي للعقل على الهوى ، وللمعرفة على الجهالة ، لم تخطر فكرة الثورات العنيفة لهم على بال ، وعقدوا الأمل على انتشار المعرفة في خلق رأى عام يرغم الحكومات على تغيير روح قوانينها ، ونظام ادارتها، ويجعل سعادة الشعوب المبدأ الهادى لها . كانت الحركة في جملتها ـ رغم احتمال اختلاف النظرة بين المفكرين كافراد ـ مستلهمة من الثقة المتفائلة بصلاحية الانسان لبلوغ الكمال ، أى قادرا على التحسن بلا حد، وكان الايمان بالتقدم الدعامة التي ارتكز عليها ايمانهم ، وان كان انشغالهم بالمشكلات المباشرة للاصلاح قد دفعهم الى تناول فكرة التقدم في صورة أقرب الى الابهام وعدم التحديد ، فلم يجهروا بهذه الكلمة ذاتها في كتاباتهم الا لماما . ولم تحتل الفكرة الا مكانا ثانويا بالنسبة للأفكار

(*) L'utile Circonscrit tout.

الأخرى التي نمت وسطها : العقل والطبيعة والانسانية والتنور · فلم تكن الكلمة قد بدأت بعد في التحرر واعلان استقلالها والحصول على شخصية واضحة ، رغم أنها بدأت تقوم بدور حيوى بالفعل ·

عندما نستعرض المؤثرات التي كانت تعمل على خلق رأى عام جديد خلال الأربعين السنة التي سبقت الثورة ، قد يكون من المناسب للغاية التي نهدف اليها أن نجمع تحت عنوان واحد المفكرين (بما في ذلك فولتير) الذين ارتبطت أسماؤهم بالموسوعة (الانسكلوبيديا) ومثلوا قوة هجومية نقدية واعية ضد النظريات التقليدية والأنظمة القائمة · ولم يكن المفكر البناء روسو اقل منهم تهجما ، وان كان له موقف معارض انفرد به ، بسبب عدائه للحضارة الحديثة · ثالثا ـ علينا أن نبرز اختلاف مدرسة الاقتصاديين الذين كانوا مصلحين متفائلين أيضا ولو أنهم كانوا ذوي ميول محافظة أكثر من الموسوعيين الصميمين ·

(٢)

وصفت « الانسكلوبيديا » (١٧٥١ ـ ١٧٦٥) بحق بأنها العمل الذي تركزت حوله الحركة العقلانية التي حولت في سنة ١٧٨٩ فرنسا الى شيء مختلف عن فرنسا ١٧١٥ ، فهي تمثل المحرك المنظم لحركة دعائية واسعة ، نظرية وعملية اضطلع بها رجال ذوو نظرات بعيدة الاختلاف ، ارتبط اغلبهم بها ارتباطا مباشرا · ومن الملاحظات السديدة القول بتشابه ما أدته « الانسكلوبيديا » من أجل عقلانية القرن الثامن عشر في فرنسا مع ما قامت به من أجل انجلترا في القرن ١٩ مجلة «فورتينايت ريفيو» ، عندما كان يرأس تحريرها المستر مورلي (١٨٦٨ ـ ١٨٨٢) واتجهت الى نشر نقد نفاذ للمعتقدات التقليدية · ولو قدر لديدرو الذى أشرف على تحرير الانسكلوبيديا بمعاونة العالم الرياضي دالمبير العيش بعد ذلك بمائة سنة لكان من المحتمل قيامه بالاشراف على تحرير احدى المجلات ·

رأينا كيف كان « اتحاد » العلوم من بين الأفكار التي صاحبت نظرية التقدم الفكرى · كما كان من بين هذه الأفكار أيضا نشر المعرفة بين الشعب · كانت هاتان الفكرتان مصدر الهام « الانسكلوبيديا » فكان عليها توطيد سبل الاتصال بين كل فروع المعرفة « بحيث تساعد على انطواء مختلف هذه الفروع العديدة تحت نسق واحد » ، وأن تكون مكتبة

لتثقيف الشعب ، وان كان قد قصد بها أيضا العمل كأداة للدعاية . وخلفت « الانسكلوبيديا » في تاريخ ثورة الفكر من بعض الوجوه قاموس بايل الذي قام قبل ذلك بجيلين بجمع مادة لشن حملة لتحطيم المعتقدات التقليدية . وواصلت « الانسكلوبيديا » الحملة ضد أصحاب النفوذ والخزعبلات اعتمادا على سبل غير مباشرة ، ولو ان من نهض بهذا العبء رجال لم يتشابهوا مع « بايل » في تشككه ، بل كانت لهم مثل وغايات موجبة وأماني اجتماعية ، ولم تتوافر لهم فقط الثقة بالعقل والعلم . اذ آمن أغلبهم ايمانا راسخا بأن البشرية يمكنها أن تتقدم نحو الكمال .

وكما لاحظ فيما بعد واحد من زمرتهم : « لقد كانوا أقل كلفا بتوسيع حدود العلم ، من سعيهم وراء نشر التنوير وشن الحرب على الترمت (١) » واختلفت وجهات نظر كتاب « الانسكلوبيديا » كأفراد اختلافا بينا . ويتعذر اطلاق كلمة مدرسة عليهم . وان كانوا قد اتفقوا الى حد بعيد في الميول المشتركة بحيث أمكنهم التعاون والتحالف .

وعزز الدعاية التي تركزت في « الانسكلوبيديا » ما نشره خارج « الانسكلوبيديا » بعض زعماء الفكر ممن تعاونوا مع أصحابها أو ارتبطوا بهم ارتباطا وثيقا وفي طليعتهم ديدرو ذاته والبارون دى هولباخ وهلفسيوس .

(٣)

الواقع أن تفاؤل الانسكلوبيديين قد اعتمد على شدة الوعي بحركة التنوير في عصرهم . ونظر الى التقدم في المعرفة كمسلمة بديهية . ولكن هل كان هناك أى ضمان لقيام التنوير الذى كان مقصورا حينئذ على دوائر صغيرة بتنوير العالم يوما وبعث الحياة في البشرية ؟ . وعثروا على الضمان المطلوب لا في استقراء تجارب البشرية في الماضى . وانما في احدى النظريات « القبلية » : امكان تطويع الطبيعة البشرية اعتمادا على التعليم والأنظمة . وكما رأينا لقد سبق لسان بيير اتباع هذا الزعم ، الذى ساد تأملات العصر . وأمكن استنباطه منطقيا من السيكلوجية الحسية عند لوك وكوندياك ، واتسع بمغالاة في كتاب هلفسيوس عن الروح * (١٧٥٨) .

---

(١) ص ٢٥٦ من كتاب Esquisse لكوندورسيه (نشر ١٨٢٢) .

(*) De l'esprit.

في هذا الكتاب ، الذى أحدث تأثيرا كبيرا في انجلترا ، سـعى هلفسيوس ضمن غايات أخرى لاثبات مساواته علم الأخلاق بعلم التشريح ، وادراك قدرة أى مجتمع حسن التنظيم على النهوض الى أسمى مكانة من التقدم الذهني ، لأن مصدر التفاوت الذهني والأخلاقي بين انسان وآخر هو اختلاف التعليم والظروف الاجتماعية • وليست العبقرية ذاتها من منتج الطبيعة • فالعبقرى من نتاج الظروف الاجتماعية لا الطبيعية ، لأن هلفسيوس لا يعترف بتأثير المناخ • وما يتبع ذلك هو الاعتقاد بأن تغيير التعليم والنظام الاجتماعي ييسر تغيير سلوك الناس •

وعلى الفور استطاع ديدرو اكتشاف الخطأ الذى وقع فيه هلفسيوس عندما تجاهل ما بين الأفراد من اختلافات طبيعية لا تقبل الازالة ، كاختلاف تركيب الأمخاخ • ومع هذا فلم يكن هذا الخطأ جانبا ضروريا من النظرية القائلة بقيام النظم الاجتماعية باحداث أثر بعيد عن السلوك الانساني • ولم يقع مفكرون آخرون في هذا الخطأ مع الاعتراف باغفالهم جميعا لعامل الوراثة • على أن النظرية قد احتوت في تطبيقاتها الجماعية على حقيقة جنح نقاد القرن التاسع عشر الى تجاهلها بتأثير دراستهم للوراثة : الميراث الاجتماعي من أفكار وعواطف الذى يخضع له الفرد منذ نعومة أظفاره أهم من الميول التى تنقل جسمانيا من الأب الى الطفل • ولقد أيد حديثا قدرة التعليم والدولة على تشكيل أبناء المجتمع على نطاق واسع ، التغير السيكلوجى الذى طرأ على الشعب الألمانى في مدى جيل من الزمان •

ويترتب على ما جاء بالنظرية التى عرضها هلفسيوس القول بعدم وجود أى عائق غير قابل للاجتياز بين أجناس الأرض المتقدمة ، والأجناس الساكنة أو المتخلفة • وكتب البارون دى هولباخ : « ينبغى أن تكون الأخلاق الحقة واحدة عند جميع سكان المعمورة ، لأن الهمجى والمتحضر ، والأبيض والأحمر والأسود والهنود والأوروبيين والصينيين والفرنسيين والزنوج وأهل الاسكيمو يشتركون في نفس الطبيعة • ولا تزيد أوجه الاختلاف بينهم عن تحويرات في الطبيعة المشتركة من تأثير المناخ والحكومة والتعليم والعقائد وشتى الأسباب التى تؤثر فيهم • ولا يختلف الناس الا في المعتقدات التى يكونونها عن السعادة ، والسبل التى يتخيلونها لطرق الحصول عليها » • هنا أيضا اعتنق المفكرون في القرن الثامن عشر نظرية لم يعد بالامكان رفضها ووصفها بالحماقة • فلقد عاد

To: www.al-mostafa.com

البعض الى الاعتقاد بأن العديد من الاختلافات في القدرة التي تبدو أساسية انما ترجع الى اختلاف الميراث الاجتماعي ، والى المؤثرات التاريخية والمتعاقبة من أمد بعيد ، ومن ثم فلا وجود لأى شعب في العالم حكمت عليه الطبيعة بالانحطاط الأبدى ، أو يفتقر بحكم انتمائه الى جنس معين افتقاراً ميئوساً من اصلاحه الى ما يؤهله للقيام بدور نافع لمستقبل الحضارة ٠

(٤)

وضع مذهب امكان الاعتماد على القوانين والأنظمة لاحداث تشكيل لا يقف عند حد لسلوك الناس ــ سواء ارتبط أو لم يرتبط بالاعتقاد في وجود مساواة طبيعية بين ملكات الناس ــ الأساس الذى يمكن ان تقام عليه النظرية التى تدعو الى صلاحية البشر لبلوغ الكمال ٠ وعلى هذا فانه يعد مرحلة هامة في تطور « مذهب التقدم » ٠

وفضلا عن ذلك ــ فلقد اتسع مجال هذا المذهب ، واستحدثت ميادين جديدة له ، عندما تبين عدم اقتصار تطبيقه على الشعوب السائرة في ركب الحضارة في الحاضر ، وانما أيضا على تلك المتخلفة التى قد تبدو همجية غير قابلة للصلاح ، وبذلك بدا مبشرا باتساع مجاله بحيث تنطوى تحته البشرية جمعاء ، في المستقبل٠ولقد سبق لتيرجو تصور « جحافل الجنس البشرى وهى تسير مترنثة قدما ، وبلا توقف » ، وذكر أن العقل الانسانى يحتوى في كل مكان على بذور الحضارة ٠ ويرجع التفاوت بين الناس الى التنوع غير المحدود للظروف والأحوال ٠ وقدر لهذه الفكرة بعد توسيع نطاق تأثيرها أن تعزز فكرة التقدم ، بعد أن اتسع مجالها وأصبحت تمثل خليطا متكاملا لا يضم الأمم الغربية المتحضرة وحدها ، بل يضم العالم الانسانى برمته ٠

وفي فرنسا خلال القرن الثامن عشر ، نشط الاهتمام بشعوب الأرض القصية وبحضارات الشرق غير المألوفة وأجناس أمريكا وافريقيا غير المتحضرة ، ويعرف الجميع كيف استشهد فولتير ومونتسكيو بقبائل كندا القديمة وبالفرس في معرض حديثهما عن عادات الغرب وأخلاقياته مثلما اعتمد تاسيتوس على الجرمان في نقده لمجتمع روما ٠ ولكن قلائل هم الذين اطلعوا على المجلدات السبعة التى نشرها الأب راينال (١٧٧٢) بعنوان تاريخ الهندين ٠ ومع هذا فيعد هذا الكتاب من آيات ما كتب في هذا القرن ٠ وترجع أهميته العملية المباشرة الى الوقائع التى سلح بها

الكتاب أنصار « النزعة الانسانية » فى حملتهم ضد استرقاق الزنوج . كما أنه ساعد أيضا على شن هجوم فعال ضد الكنيسة ونظام الكهنوت . واتبع المؤلف نفس الطريقة التى اتبعها على نطاق واسع معاصره الكبير جيبون . فالتاريخ المعتمد على الحقائق أبلغ فى الاتهام من أى هجوم يتسلح بالبلاغة . وذكر راينال الضمير الأوربى بالشقاء الذى تعرض له الوطنيون فى العالم الجديد على يد الغزاة المسيحيين وقسسهم. صحيح أنه لم يكن من الدعاة المتحمسين للتقدم ، وكان عاجزا عن التفرقة والمقارنة بين حالة الفطرة التى يحياها الهمج والمزايا التى تتمتع بها أعلى المجتمعات تحضرا ، ولكنه لاحظ « قابلية الجنس البشرى للتشكل فى الصورة التى نريدها له » ، واعتماد سعادة الانسان اعتمادا كليا على الارتقاء بالقوانين . وبوجه عام ، اتسمت نظرته بالتفاؤل عند استعراضه لتاريخ أوربا الذى خصص له الكتاب الأخير من مؤلفه .

(٥)

تميز البارون هولباخ بعقلية أرجح من عقلية هلفسيوس ، وان كانت كتاباته قد جاءت — فيما يحتمل — أقل أثرا ، رغم كونه الأخ الروحى لاثنين من الثوار البارزين : هيبير وشوميت . وقدم كتابه عن « مذهب الطبيعة — ١٧٧٠ » للعالم نظرية ذات نزعة طبيعية خالصة ، فيها رفض للمذهب التأليهى السائد . فالاله لا وجود له ، والموجود هو الطبيعة المادية وحدها الكافية لذاتها (*) . ويوحى الكتاب باحتمال تمهيد فكرة ليوقريطس عن التقدم لنظرية التقدم الحديثة . ولكنه قوبل بفتور لدى الكثيرين ، ولعله لم يقنع سوى قلائل . وأعظم أجزائه تأثيرا هو الاتهام الصريح العنيف للحكومات والأديان ، وارجاع أغلب الشقاء الذى تعانيه البشرية اليها .

ومن المستطاع الاهتداء الى نظراته عن التقدم فى مؤلفاته الأخرى ، ككتاب النظام الاجتماعى بوجه خاص . فالانسان مجرد جزء من الطبيعة ، ولا يتمتع بأى مكسانة مميزة . والخير والشر ليسا فى فطرته على السواء ، ونحن نكتسب الخير والشر عن طريق التعليم وتأثير الرأى العام والقوانين والحكومة . وهنا أشار الكاتب الى أهمية غريزة التقليد ،

(*) ذكر سنكا Errας si existumas vitia nobiscum esse.

ودورها في المجتمع ، وهي الفكرة التي اعتمد عليها « تارد » عالم الاجتماع الحديث عند وضع مذهبه .

وقوة الحق قادرة على القضاء شيئا فشيئا على الشرور التي ترجع الى أخطاء الاستبداد والخزعبلات ، ان لم تتمكن من الخلاص منها كلية . ومن الميسور النهوض بحكوماتنا وقوانيننا اعتمادا على تقدم المعرفة الناقصة ، ولو ان هذا سيستغرق أمدا طويلا ، لأن تحديد طرق العلاج يحتاج الى قرون من الجهد الذهني المتواصل وتكرار التجارب ، للكشف عن مساوىء المجتمع (*) . وعلى أى حال فاننا لن نستطيع التطلع الى بلوغ سعادة غير قابلة للتغير ، أو بلا قيد أو شرط ، فمثل هذا القول مجرد خرافة « تتعارض مع طبيعة أى كائن تتعرض آلة بنيته الضعيفة للعطب ، ولا يخضع خياله الملتهب دائما لهداية العقل . لقد كتب على الانسان قضاء حياته بين المتعة والشقاء . وتعنى السعادة زيادة جانب المتعة على التوجع » .

آمن هولباخ ايمانا قاطعا بالجبرية . ولم يترك أى موضع للارادة الحرة في التعاقب الصارم للعلل والمعلولات . وما زالت الصفحات التى حاول فيها أن يثبت نظرية العلية الضرورية تستحق القراءة . ولقد استخلص من فلسفته الطبيعية المنزع عدم وجود فارق أساسى بين الطبيعة والفن ، فلا فارق من حيث العقلانية بين الحضارة والدولة الهمجية . وهنا تشابه مع أرسطو :

« لم تكن كل المخترعات المتعاقبة التى قام بها العقل الانسانى لتغيير حالة وجود الانسان والنهوض بها وزيادة سعادته بأكثر من نتيجة ضرورية لماهيته وماهيات الموجودات الأخرى التى تتفاعل معه . ولا يزيد كل ما نفعله أو نفكر فيه أو نتصف به أو سنتصف به عن نتيجة لما أرادته لنا الطبيعة الكلية . وما الفن الا الطبيعة نفسها فى دور فعال تقوم به اعتمادا على الأدوات التى ابتكرتها » .

وهكذا يكون التقدم طبيعيا وضروريا . ولا يعنى انتقاده أو استنكاره بالرجوع الى الطبيعة أكثر من قسمة عالم الطبيعة ووضع جزء منه فى مقابل جزء آخر .

لو أن هولباخ تعمق منطقه أكثر من هذا ، لما كان من المستبعد

(*) Des Experiences reiterees de la Societe

اتباعه لنظرة أكثر رصانة واستيعابا لماضي البشرية ، ولتيسر له أن يدرك كيف كانت الأنظمة والمعتقدات التي لا يلتفت لها العقل الحديث الا بقدر ضئيل ، طبيعية ونافعة في عصرها ، ولأدرك أنه في أي مرحلة من مراحل التاريخ ، لا يقل ميراث الماضي ضرورة للتقدم عن الأفكار المستحدثة وقدرتها على الحسم والتوضيح ، ولقد نزع معظم المفكرين في أيامه الى الحكم على دور البشرية في الماضي دون مراعاة لاختلاف الزمان . فنظر الى كل الأشياء التي سبق القيام بها أو التفكير فيها والتي لا يستطاع تبريرها في العصر الجديد للتنوير كأشياء عابرة وأخطاء لا تغتفر . وفي فرنسا ، بدت التقاليد والخزعبلات والعادات « وكل شرائع الأباطيل والبلايا » المنقولة عن الماضي ثقيلة ممقوتة بحيث لم تستطع مدرسة الاصلاح الديني النظر الى أصلها نظرة منزهة منصفة . وضاقت النظرة الى التاريخ ، فقال دالمبير أنه قد يحسن صنعا لو أمكن الخلاص من التاريخ ، واتجه الميل الى تجاهل ذاكرة المجتمع والميراث المشترك من تجـارب الماضي التي تشكل المجتمع البشري وتجعل منه شيئا مختلفا عن مجرد قطيع من الأفراد .

ومع هذا فلم يتخذ الايمان بالتقدم أية صورة مغالى فيها ، ولم ينخدع هولباخ أو أي مفكر آخر من زعماء عصر « الانسكلوبيديا » أو يدفعهم الى الأحلام المتفائلة بالمستقبل الذي ينتظر البشرية ، فلقد تفوقوا على الأب الطيب سان بيير في شعورهم الواضح للعوائق . واتفق هلفسيوس مع هولباخ في توقع حدوث تقدم حثيث ، وأعرب « ديدرو » عن تردده وتشككه ، في مسألة التقدم غير المحدود للمجتمع .

(٦)

لم ينفرد مصلحو فريق « الانسكلوبيديا » بالدعوة لفكرة التقدم ، فلقد شاركت بالكثير في سبيل تدعيم هذه الفكرة جماعة أخرى من المفكرين ذات المبادىء البعيدة الاختلاف ، بالرغم من اشتراك بعض أعضائها في كتابة مقالات « بالانسكلوبيديا (١) » ويعد ازدهار الدراسة المتخصصة للاقتصاد من أهم وقائع الاتجاه العام للفكر المعني بتحليل الحضارة . ورأى دارسو الاقتصاد انهم عند ما يسعون للكشف عن نظرية صحيحة للانتاج والتوزيع واستغلال الثروة ، لن يكون بوسعهم تجاهل مؤثرات النظام

---

(١) اتبع « كويزنلي » وتيرجو نفس نظرة هذه الطائفة رغم عدم اعتناقهما مبادىء الفريوقراطيين .

السياسي وغاية المجتمع . فلن يستطاع فصل مشكلات الانتاج والتوزيع من النظرية السياسية ، لأن الانتاج الاقتصادى يثير مشكلة دور الحكومه وحدود التدخل في التجارة والصناعة . ومسألة «التوزيع» وثيقة الارتباط بمسائل الملكية والعدالة ، والمساوة . كما أن مسألة استغلال الثروات متداخلة مع عالم الأخلاق .

تصور الاقتصاديون الفرنسيون أو الفزيوقراطيون ، كما أصبحوا يدعون فيما بعد ، والذين ألفوا مدرسة محدودة قبـــل سنة ١٧٦٠ من « كويزناى » رثيسا و « ميرابو » و « مرسييه دى لاريفيير » وغيرهم ـ موضـــوعهم الخاص بالرجوع الى وجهـــة نظر فلسفية واسعة ، فكانت نظريتهم الاقتصادية العامة أشبه بنظرية في المجتمع البشرى . فبعد ان وضعوا مذهبا لطريقة اتباع المجتمعات السياسية « للنظام الطبيعى » ، استنبطوا من ذلك تعاليمهم الاقتصادية .

وزعموا مثل « الانسكلوبيديين » بأن غاية المجتمع هى بلوغ أبنائه السعادة على الأرض . وهذا هو الهدف الوحيد للحكومة . والغرض من بحث مرسييه دى لاريفيير (١) » (وفيه عرض مناسب لنظرات الطائفة) كما جاء على لســـانه ، هو الكشف عن نظام طبيعى لحكم أبناء البشر ممن يعيشون في مجتمعات منتظمة ، يضمن لهم السعادة فى الحياة الدنيا : نظام يتصف فيه كل شيء بصحته التى ستحقق بالضرورة ، فيه تضامن وثيق كامل بين مصالح الجميع ، مما يساعد على عيشهم فى وئام ابتداء من الحاكم الى أصغر رعاياه .

ولكن علام تعتمد هذه السعادة ؟ . كان رده على ذلك : « اذا تحدثنا انسانيا قلنـــا باعتماد أعظم سعادة ميسورة لنا على توافر أعظم قدر من الأشياء المناسبة لاستمتاعنا ، وعلى أعظم قدر من الحرية التى تساعدنا على الانتفاع بها » . ولا ترجع ضرورة الحـــرية الى تيسير الاستمتاع بهـــا فحسب ، بل وأيضا لأنها تساعد على انتـــاج هذه الأشياء بوفرة ، لأن الحرية تنشط الجهد الانسانى . وهناك شرط آخر لتحقيق هذه الوفرة : تضاعف الجنس البشرى . فالواقع ان هناك صلة وثيقة بين ســـعادة البشر وتعداده ، وبين نظام الطبيعة . ومن هذه المبادىء يمكن استخلاص « النظام الطبيعى » والواجبات والحقوق التى يحتاج الى فرضها لتحقيق

---

(١) (١٧٦٧) L'ordre naturel et essential des sociétes politiques.

أعظم قدر مستطاع من مضاعفة الانتاج حتى يتسنى تزويد الجنس البشرى بأعظم قدر من السعادة مع الحد الأقصى للسلطان .

ولما كانت الملكية الفردية شرطا أساسيا للاستمتاع الكامل بنتاج العمل الانسانى ، فلا يلزم لتحقيق السعادة أكثر من المحافظة على الملكية ، وبذلك تجىء الحرية بالتبعية فى كل امتدادها الطبيعى . وكان الخطأ الفادح الذى تسبب فى كل ما وصم به التاريخ هو الاخفاق فى ادراك هذه الحقيقة البسيطة ، لأن العدوان والغرور — سر شقاء البشر — قد دفعا الى انتهاك قانون الملكية الذى يعد أساس السعادة .

وما يستخلص من الناحية العملية من هذا هو تركز دور الحكومة على حماية الملكية ، ووجوب ترك الحرية الكاملة لنشاط الأفراد ، حتى تستغل ثروات الأرض . وسيسير كل شىء على ما يرام لو سمح للتجارة والصناعة باتباع ميولهما الطبيعية . وهذا ما عنته كلمة « فيزيوقراط » ، اى « سيادة النظام الطبيعى » . واعتقد مرسييه انه لو التزم الحكام الحدود الصحيحة لوظائفهم لعاد هذا بأكبر قدر من الخير على الأخلاق « لأن النظام العام للحكومة أفضل مدرسة لغرس الخلق فى المواطن الصالح (١) » .

ومع ان الاقتصاديين « قد ناصروا اجراء اصلاح شامل للمبادىء المسيطرة على السياسة المالية للحكومة ، الا انهم لم يتصفوا بالمثالية كالفلاسفة الموسوعيين ، فلم يبذروا أية بذور للثورة ، وكانت النقطة التى بدأوا منها هى الوجود ، لا ما ينبغى أن يكون . وبغض النظر عن ضيق الأفق الذى اتسمت به نظريتهم فانهم قد اختلفوا عن رجال الفلسفة فى نقطتين عظيمتى الأهمية : عدم الاعتقاد بأن المجتمع من صنع الانسان ، ومن ثم فانهم لم يعتقدوا بامكان وجود أى علم استنباطى للمجتمع ، دعامته طبيعة الانسان وحدها . والى جانب ذلك ، فانهم رأوا ان تفاوت الظروف من بين الأركان الثابتة فى المجتمع ، التى لا تتغير بسبب كونها نتيجة لتفاوت القدرات الطبيعية .

ولكنهم آمنوا بتقدم المجتمع مستقبلا نحو السعادة اعتمادا على زيادة الرخاء ، الذى سيعتمد هو ذاته على زيادة العدالة و «الحرية» . كما أكدوا

---

(١) Regis ad exemplum totus companitur orbis.

لاتهمنا الجوانب الجزئية من المذهب الفيزيوقراطى ، التى تناولت القيم النسبية للزراعة والتجارة التى سرعان ما انتقدها آدم سميث . كما لا يلزم تكرار الانتقادات الواضحة لنظرية حولت علم المجتمع الى علم للانتاج والتوزيع .

اهمية زيادة المعرفة وانتشارها • وشهد كوندورسيه صديق تيرجو وكاتب سيرته بأثرهم في ازدهار الايمان بالتقدم • ولما كان تيرجو قد وقف بمعزل عن الفيزيوقراطيين (فلا جدال انه لم يشعر بأى تشابه معهم) بفضل نظرته الواسعة الى الحضارة ، لذا لا يستبعد أن يكون كوندورسيه قد قصده أساسا بهذا الكلام • على أننا لن نتسبب في تضييق نطاق حكمه اذا تذاكرنا ان الاقتصاديين كطائفة قد اتبعوا كأول مبدأ لهم القيمة « الايدومية »[1] للحضارة ، فصرحوا بأن السعادة في الحياة الدنيا قابلة للتحقق ، وركزوا كل حملاتهم ضد مذهب النكوص الذى كان روسو من أشد المناصرين له •

(٧)

قصد « الاقتصاديون » بالحرية ، الحرية الاقتصادية • فلم يتوافر لهم أو للفلاسفة ، أو لأب الديموقراطية الحديثة « روسو » أية فكرة صحيحة عما تعنيه الحرية السياسية • ولقد شاركوا بالكثير في سبيل تحقيقها ، وان كانت معتقداتهم عنها قد اتسمت بضيقها ونقصها • فلم يتحدوا قط مبدأ الحكومة الاستبدادية • وكل ما قاموا به هو المناداة بوجوب استنارة النظام الاستبدادى ، وبدا لهم الحكم « الأبوى » لأمثال جوزيف وكاترين ممن كانوا يعتمدون في حكمهم على نصح الفلاسفة الحل المثالى لمشكلة الحكم • وعندما عين « تيرجو » التقدمى المنزه عن الغاية — الذى ربما اعتبروه واحدا منهم — وزيرا للمالية بعد ارتقاء الملك لويس السادس عشر للعرش ، بدا وكأن مثلهم الأعلى قد أوشك على التحقق • وتزعزعت آمالهم بعد سقطته السريعة ، ولكنهم لم يتعلموا من ذلك سر الحرية • فلم يعترضوا على مبدأ الرقابة رغم شعورهم بالمرارة من وطأته • ولم يرغبوا فى القضاء عليه ، واكتفوا بالشكوى لأنه قد استعمل ضد العقل والتنوير ، أى ضد ما يكتبون • وفى الحالات التى قام فيها مجلس الدولة والبرلمان بقمع أعمال منافسيهم من خصوم التنوير لم يبد غريبا قيامهم بتبادل التهانى لسير العالم مسرعا تجاه الكمال •

---

(١) Eudaemonic.

الفصل التاسع

الحضارة ، وهل كانت خطأ ؟
روسو وشاستيلو

(١)

لم يترك العقلانيون النظرية المتفائلة للحضارة دون تحد . ففي نفس السنة (١٧٥٠) التي ألقى فيها تيرجو محاضرته في السوربون عن خلاصة التقدم التاريخي ، قدم روسو لأكاديمية ديجون نظرية أثبت فيها حدوث نكوص في التاريخ . وكانت هذه الأكاديمية قد قدمت جائزة لأفضل بحث عن مسألة هل ساعدت اعادة احياء العلوم والفنون على ارتقاء الأخلاق . ومنح روسو الجائزة . وبعد خمس سنوات ، اقترحت نفس الأكاديمية موضوعا آخر للبحث : أصل التفاوت بين الناس . وتقدم روسو مرة أخرى ، ولكنه أخفق في الحصول على الجائزة ، رغم تفوق ما عرضه في هذا البحث الأخير عن بحثه الأول .

ويشترك البحثان في الاعتقاد بأن التقدم الاجتماعي كان خطأ جسيما . فكلما ابتعد الانسان عن حالة البساطة ، ازداد حظه من الشقاء . والقول بأن الحضارة شر بلا منازع لم يأت بجديد . فلقد سبق ماندفيل في انجلترا اثارة الجانب الجوهري في نفس الموضوع ، وانما على نحو آخر في كتاب « حكايات النحل *» : الكتاب الفاضح الذي رمى الى اثبات أن ما يوثق عرى المجتمع المتحضر ليس الفضائل المستحبة عند الناس ، ولكنه رذائل أبنائه التي تعد حجر الزاوية في كل حرفة وصنعة (١) . وقال « اننا سنهتدي في هذه الرذائل » الى الأصل الصحيح لكل الفنون والعلوم » .

---

* Fables of Bees.

(١) ظهرت الطبعة المزيدة سنة ١٧٢٣ .

« فبمجرد توقف الشر ، سيتحتم تعرض المجتمع للفساد . هذا اذا لم يدب فيه الانحلال الشامل .

وترجع اهمية كتاب ماندفيل الى التحدى الذى وجهه الى نظريات اللورد شافتسبرى المتفائلة التى اعتقدت فى خيرية طبيعة الانسان ، واتجاه كل شيء الى ما هو افضل فى هذا العالم المتوافق . وتضمن كتاب ماندفيل القول : « اتصفت الآراء التى كونها (شافتسبرى) عن خيرية خصائلنا وامتيازها بالرومانتيكية والوهمية ، الى جانب اتصافها بالجمال واللطف ، فلقد سعى جاهدا للجمع بين نقيضين يتعذر البتة التوفيق بينهما : نقاء الطباع والعظمة الدنيوية » .

وقبل روسو احدى هاتين النظرتين ، ورفض الأخرى . فرضى عما قاله شافتسبرى عن اتصاف الانسان بطيبته الفطرية ، واتفق مع ماندفيل فى القول بتعارض نقاء الطباع مع أحوال المجتمع المتحضر . فكان متفائلا فى نظرته لطبيعة البشر ، متشائما من ناحية الحضارة .

واستهل روسو أول بحث له بتقدير روعة مظاهر التنوير الحديث ورحلات ذهن الانسان بين النجوم ، ثم عرج على تأكيد أثر الحضارة فى فقدان الناس للحرية الأصيلة التى ولدوا من أجلها . وشبه الفنون والعلوم بزهور الجارلاند المنثورة على القيود الحديدية المقيدين بها ، والتى تدفعهم الى عشق عبوديتهم ــ ثانيا ــ هناك فساد حق وراء جمال المظهر « فأرواحنا تتعرض للفساد فى نفس الوقت الذى تتقدم فيه علومنا وفنوننا تجاه الكمال » . كما ان هذه ليست ظاهرة حديثة « فالشرور الناجمة عن تفاهة حب استطلاعنا ترجع الى عهد قديم قدم العالم » . فمن قوانين التاريخ وجود علاقة منتظمة بين انحطاط الأخلاق وزندقتها وبين تقدم الفنون والعلوم وانحدارها . كالعلاقة بين المد والجذر والأطوار التى يمر بها القمر . ومن الأمثلة المؤيدة لهذا القانون البلاء الذى حل بشعوب اليونان والرومان والصين بالمقارنة بالسعادة التى عرفتها بعض الشعوب مع جهالتها كالفرس والاسقوثيين (من الشعوب القديمة التى عاشت قرب بحر قزوين) والجرمان القدماء : « كان الترف والانحلال والعبودية دائما القصاص الذى حصلنا عليه فى مقابل المحاولات الطموحة التى قمنا بها للخروج من الجهالة المستفيدة التى وضعتنا فيها الحكمة الأبدية . هنا نصادف الفكرة الدينية عن الفاكهة المحرمة فى جنة عدن ، وانما فى شكل جديد .

واتسمت بالضعف محاولة روسو اثبات أثر النهوض بالعلم فى خلق الشرور الأخلاقية ، كما كانت ضئيلة الحظ من الابتكار . واعتمدت على العبارات الطنانة أكثر من اعتمادها على البراهين المنطقية . وفى النهاية تراجع فازال التأثير الذى أحدثته ادعاءاته ، ولم يعرض البحث حتى حالة مقبولة واحدة ، ولكنه حفل بالمفارقات والايحاءات فاجتذب الانتباه أكثر من محاضرة تيرجو الحافلة بالخواطر فى السوربون . ورأى « دالمبير » البحث جديرا بالنقد ، بعبارات مهذبة (١) ، وهزأ منه فولتير فى كتاب « تيمون » .

(٢)

تناول روسو فى « حديث عن التفاوت » بطريقة أكثر مباشرة أثر الحضارة على السعادة ، واتجه الى تفسير كيف تغلب الخسق على الحكم البدائى للقوة ، ووضع الأقوياء لخدمة الضعفاء ، واندفع الناس لشراء راحة البال الموهومة بنفس ثمن السعادة الحقيقية . هكذا طرح روسو المشكلة ، ولزم عليه قبل حلها القيام ببحث « حالة الفطرة » التى كانت قد بدت لهوبز حالة حرب ، وللوك حالة سلام . وتخيل روسو جدودنا الهمج الأوائل يحيون فى عزلة هائمين فى الغابات ، ومن حين لآخر يقدم بعضهم العون للبعض الآخر ، ولا يختلفون عن الحيوانات الا من ناحية الملكية التى يملكونها وتدفعهم الى الارتقاء بأنفسهم* . وبعد مرحلة عاشت فيها العائلات فى عزلة ، فى حالة عدم استقرار نوعا ، بدأت العائلات تتحد سويا وتحيا فى بقاع محددة ، ويجمعها أسلوب مشترك فى الحياة والعيش بتأثير المناخ ، ولكن بغير قوانين أو حكومات أو أنظمة اجتماعية .

كانت هذه الحالة التى لم يهتد اليها الا بعد انقضاء عهد طويل — ولم تكن الحالة الأصلية للطبيعة أو الفطرة — هى التى اعتقد روسو أنها أسعد حقبة عرفها الجنس البشرى :

« لابد إن تعد هذه الحقبة التى نمت فيها الملكات الانسانية ومثلت موقفا متوازنا بين البداوة وتراخيها والنشاط المزعج الذى يمليه علينا هيامنا باللذة — لا بد أن تعد أسعد الحقب وأخلدها . وكلما ازددنا تأملا لها ، زدنا إدراكا أنها لم تتعرض للثورات الا قليلا ، وبأنها كانت

---

(١) فى مقدمة « الانسكلوبيديا » .

* La faculte de se perfectionner.

افضل عهود مر بها الانسان . ولا بد أن تكون الاقدار هي التي دفعته الى تركها . وكان الخير العام يقتضي الا يحـــدث ذلك على الاطلاق . ويؤيد حال الهمج الذين عثر عليهم جميعا على وجه التقريب على هذا النحو القول بأن البشرية قد خلقت لتبقى على هذه الحالة الى الابد ، باعتبارها ممثلة للشباب الحق للعالم ، اما ما حدث من تقدم أبعد فكان خطوات عديدة اتجهت في الظاهر الى الارتقاء بالفـــرد ، ولكنها في الواقع قد أحدثت انحطاطا للنوع الانساني » .

وتسبب روسو الى التمدين والزراعة الانحلال القاضي الذي تسبب في انهاء حالة النعيم هذه . اذ كانت الزراعة أصل ملكية الأرض . وتسبب في التفاوت الاجتماعي أول رجل أحاط بقطعة من الأرض وقال هذه أرضي ، واهتدى الى عدد كاف من البســطاء الذين صدقوه ، فكان بذلك منشيء مجتمع المدن .

وجاء البرهان الذي اعتمد عليه روسو على الوجه الآتي : ان قدرة الانسان على الارتقاء بنفسه هي مصدر ملكاته الأخرى ، بما في ذلك غريزته الاجتماعية ، التي كانت ذات تأثير قاض على سعادته ، ويسرت ظروف حياة الانسان الأولى نمو هذه الملكة . ولـما زادت من ميله الى الاجتماع بالآخرين جعلتـه يجنح الى الشر ، فلقد ساعدت هذه الظروف على ارتقاء عقله . وبذلك دفعت الجنس البشري الى التدهور . ولو أن هذا الارتقاء توقف في نقطة معينة لسار كل شيء على ما يرام ، ولكن قدرة الانسان على أن يستحث الظروف العابرة قد ساقته الى الاندفاع قدما . وبعد أن ترك وراءه أرض النعيم والسلام (اركاديا عند اليــونانيين) التي كان من الواجب أن يبقى فيها آمنا قانعا سار في الطريق المحفوف بالمخاطر الذي دفعه الى كروب الحضارة . لسنا بحاجة الى اتباع روسو في حديثه عن هذه الكروب التي عزاها الى الرخاء والأحوال المصطنعة في المجتمع . واتهامه بليغ مفرط في عموميته ، قادر على احداث أعظم تأثير . والحق أن هناك اتهاما أقوى وأشمل للمجتمع المتحضر قد وضـــعه في نفس الوقت تقريبا — وانما بدافع بعيد الاختلاف — احد من تمثل في فكرهم كــل ما تعارض مع تعاليم روسو . فلقد هدف كتاب بيرك الباكر « دفاع عن مجتمع الفطرة (١) » الى اثبات أنه من المستطاع أن توجه شتى الاعتراضات ذاتها التي قدمها التاليهيون من أمثال بولينجبروك ضد الدين المصطنع ،

---

(١) A Vindication of Natural Society, (١٧٥٦) .

بقوة أشد ضد المجتمع المصطنع . ورسم بيرك بالتفصيل صورة تاريخية لشرور الحضارة بدت أبعد تأثيرا من تعميمات روسو .

(٣)

لو صح القول بأن الحضارة لعنة على الانسان فلعله كان يبدو من المنطق أن يوصي روسو بالقضاء عليها . وكان هذا ما استخلصه فولتير في « تيمون » بعد أن استهزأ بالقضية وحكم بهدم جدرانها للبحث . ولكن روسو لم يوح بأي « اتجاه » لتدمير المكتبات وشتى أعمال الفن في العالم ، واعدام كل العلماء أو اخراسهم ، أو بالخلاص من المدن واحراق السفن . فهو لم يكن مجرد حالم . اما « اركاديته » فلم تزد عن مثل لما ينبغي أن يكون ، تصور على ضوئه أنه يمكن أن يقوم المجتمع في أيامه ويغير ، وأن يربط آماله « بالمساواة » و « الديموقراطية » و « أحدث انقلاب جذري في التعليم » .

أما « المساواة » ، تلك الفكرة الثورية فقد توافقت بطبيعة الحال مع نظرية التقدم ، وسرعان ما ارتبطت بها برباط وثيق ، وان كان من السهل ان ندرك كيف بدت الفكرتان في أول الأمر متعارضتين بعضهما مع بعض . فالواقع أن من استفاد من تقدم المعرفة وازدياد سيطرة الانسان على الطبيعة لم يزد عن نزر يسير . فعندما تباهى كل من فونتنيل وفولتير باستنارة عصرهما ، ومجدا الثورة الحديثة في الفكر العلمي ، فان ما جال بخاطرهما لم يتجاوز طبقة صغيرة من المميزين . واعتقد فولتير ان التعليم العالي ليس من حق « الاسكافيين » ولا « تدل المطابخ » . فلم تخطر كتل الشعب على بال نظرية التقدم على الاطلاق . وكشف روسو عن التباين بين فخامة قصور فرنسا وترف المنعمين وتنور أولئك الذين أتيحت لهم فرصة التعليم ، وبين ما تعانيه كتل الفلاحين من جهالة : أولئك الذين يدفعون من عرق جبينهم ثمن ترف العديدين من المتنورين العاطلين ، ممن يرفهون عن أنفسهم في باريس . وكان هذا التباين المفزع الذي نظر اليه فولتير بفتور هو الدافع المرير الذي ألهم ابن الشعب روسو ودفعه لانشاء نظريته . اذ بدا التفاوت القائم اجحافا جعل رضاء العصر عن نفسه يظهر ممقوتا . فلو صح أن هذه الحالة هي ثمرة الحضارة والتقدم ، فهل تكون هناك أية قيمة لهذا التقدم ؟ وكانت الخطوة التالية الجهر بان الحضارة سبب البلاء ، وأن ما يدعى بالتقدم مرادف بلا جدال للنكوص -

ولكن روسو قد اهتدى من خلال هذه النظرة المتشائمة الى حل ماكر ، فتساءل عن امكان تحقيق المساواة في الدول المنظمة على أساس الحق الطبيعي ؟ . وجاءت الاجابة في كتابه « العقد الاجتماعي » وفيه نرى الفكرة الحية للمساواة وهي تتخلص من النظرية الميتة للتدهور .

وهكذا كانت « الأركادية » التي لم تزد عن حل جانبي عند روسو تعبيراً متطرفا عن ميل ظهر في تأملات مفكري العصر الآخرين ، فلقد ناصر كل من « مورلى » و « مابلى » الرجوع الى العصور البسيطة للحياة ، وخطر ببالهما أنهما يستطيعان انشاء مجتمعات اشتراكية بالاعتماد على اعادة احياء أنظمة وسبل تنتمي الى عهد أسبق في التطور الاجتماعي . واعتقد مابلى مستلهما أفلاطون انه من الميسور الاستعانة بالتشريع في انشاء الدولة على غرار الأنماط العتيقة . ونسبا شرور الحضارة للتفاوت الناجم عن وجود ملكية فردية . ولكن مورلى رفض دعوة روسو « السفسطائي الجرىء » الى توجيه اللوم الى العلم والفن ، واعتقد أن الانسان قادر بعون العلم والمعرفة على بلوغ حالة معتمدة على الشيوعية شبيهة بحالة الفطرة ، وان كانت أكثر كمالا . ورسم صورة لدستور مثالى فى رواية أسماها «الجزر الطافية (١) » وبغض النظر عما بين هذه النظرات من اختلاف ، فانها تمثل فكرة النكوص ، واستنكار ميول التقدم الاجتماعي ، وتوحي بالعودة الى أحوال أكثر بساطة وبداوة .

وحتى ديدرو ، فبالرغم من قلة تعاطفه على النظرات المثالية (اليوتوبية) الا أن فكرة رجوع المجتمع الى البساطة قد استهوته ، والتقى مع روسو الى حد بعيد ، فوصف السعادة بأنها حل وسط بين حياة البداوة والتحضر .

وكتب يقول : « اني مقتنع بأن اشتغال الانسان بالصناعة قد قطع شوطا بعيدا . ولو أن هذا الاتجاه قد توقف من عهد بعيد ، وكان من المستطاع تبسيط النتائج لما بلغنا حالة أفدح من السوء . فأنا أعتقد أن هناك حدا أقصى للحضارة تتمثل فيه أقرب الحالات توافقا مع سعادة الانسان بوجه عام . ولا يبتعد هذا الحد كثيرا عن حالة الهمجية ، كما

---

(١) Supplement. (١٧٥٣) . وجاء فى مطلع الرواية التعبير الآتي « التي اشيد بالحكم المستحب للحقيقة والطبيعة » . ظهر كتاب مورلى الآخر Code de la Nature سنة ١٧٥٥

يتخيل . ولست ادرى كيف يستطاع الرجوع الى هذا الحد بعد تركه أو كيف يستطاع البقاء فيه لو بلغناه » .

لم تكن العودة التى تصورها ديدرو لهمج تاهيتى جادة فى مقصدها ، ولكنها صورت شعوره فى بعض حالات اعجابه « باركاديا » روسو .

ورد هولباخ على كل هذه النظريات بالقول بأن التقدم الانسانى من « حالة الفطرة الطبيعية » الى الحياة الاجتماعية والحضارة « بعدها وعديدها » أمر طبيعى ، اذا سلمنا بوجود ميل فطرى عند الانسان للارتقاء بذاته . وربما عنت العودة الى بساطة الغابات والاحراج أو أى مرحلة غابرة تجريد الانسان من طبيعته (*) ، أو متعارضة مع الطبيعة. ولو أمكن للانسان القيام بذلك لكان معناه الوحيد الشروع من جديد فى القيام بالدور الذى بدأه أسلافه ثم اجتياز نفس الأطوار المتعاقبة من التاريخ مرة أخرى .

الحق ان هناك مسألة واحدة تسببت فى اقلاق المؤمنين بالتقدم . فلا يخفى أن ازدياد الثروة والترف من العلامات الملحوظة فى الدول التقدمية الحديثة . وواضح أيضا أن هناك ارتباطا وثيقا بين نمو المعرفة وازدهار التجارة وفنون الصناعة ، وأن هذا يعنى ازديادا مطردا لتراكم الثروات والاندفاع أكثر فأكثر فى تيار الترف . وعلى هذا شغلت مسألة هل أساء الترف الى السعادة العامة بال الفلاسفة . فلو صح القول بانها أساءت ، ألا يتبع ذلك إتجاه القوى التى يعترف بها باعتماد التقدم اليها الى غاية غير مرغوبة ؟ . فهل تصد ، أم ان الأحكم ترك الأمور لمجراها الطبيعى (**) . لقد رحب فولتير بالثراء مع كل عواقبه ، وأثبت هولباخ عن اقتناع ان الترف يؤدى دائما الى خراب الشعوب . وعدد ديدرو وهلفسيوس الحجج التى يتذرع بها الطرفان . ولعل أفضل رأى قيل فى هذا الموضوع قد جاء فى مقال لهيوم .

(٤)

واضح انه من المستطاع الدحض القاطع لما ذهب اليه روسو وكل المفكرين الآخرين عن النكوص ، لو أمكن بالاعتماد على البحث التاريخى

★ Supplement au Voyage de Bougainville.

★★ de nafurer l'home.

اثبات عدم وجود عصر في الماضي سعد فيه الانسان أكثر من الحاضر . واضطلع بمثل هذا البحث « الشيفالييه دى شاستيلو » فى كتابه عن السعادة الانسانية أو نظرات الى حظ الانسان في مختلف حقب التاريخ ١٧٧٢ (١) ، الذى ذاع على نطاق واسع . والكتاب عرض لتاريخ العالم الغربي ، ويهدف الى اثبات ان التقدم مستقبلا أمر مفروغ منه . ويدل الكتاب على التأثر بالموسوعيين والاقتصاديين . واقتنع شاستيلو بقدرة الأنظمة على احداث تأثير لا يقف عند حد في الطبيعة الانسانية . والتنوير شرط ضرورى لبلوغ السعادة ، أما أهم عائقين فهما الحرب والخزعبلات ، والمسئول عنهما الحكومات ورجال الدين .

ولكنه أقدم على القيام بما لم يقم به أحد من أساتذته : التحقق من هذه المسألة منهجيا بالاعتماد على وقائع التاريخ . ولقد سبق لكل من تيرجو وفولتير (بطريقته الخاصة) تتبع ازدهار الحضارة . ولكن اصالة شاستيلو ترجع الى تركيزه الاهتمام على النتائج المتصلة بالسعادة ، وفحص كل عصر تاريخى بقصد الكشف عن مدى تمتع الناس بقدر منها يغبطون عليه . وهل سبق وجود عصور تفوقت فيه سعادة البشر على عصرنا بحيث قد يبدو الخلود فيه الى الأبد مرغوبا ، وربما بدا من المرغوب فيه الآن العودة اليه ؟ .

وبدأ شاستيلو عرضه باستبعاد افتراض « الاركاديا » التى كان يحيا فيها الانسان لأن ما نعرفه عن الانسان البدائي لا يزيد عن لا شيء . ولا وجود لأية بينات مؤيدة للظنون . أننا لا نعرف الانسان الا في صورته التى ظهر بها في المجتمعات المنتظمة . ولو أردنا استكناه الحضارة الحديثة وتطلعاتها ، فلا بد من عثورنا على الحد الآخر للمقارنة ، في عصر تاريخى معروف ، وليس في « عصر ذهبى » . وعلينا التزام الحرص وعدم الوقوع فى خطأ الخلط بين حالات الرخاء وحالات السعادة ، أو الاكتفاء بالاستناد في أحكامنا على مدى أستمرار الامبراطوريات أو تضخمها وتناسى حال الرجل العادى .

وتميز عرضه للتاريخ بقدر كاف من الايجاز والسطحية ، فذكر مبررات للاعتقاد بعدم امكان الحكم بتمتع الناس بالسعادة ابتداء من عهد

(١) On Public Felicity or Considerations on the lot of Men in the Various Epochs of History.

صدرت طبعة جديدة سنة ١٧٧٦ فيها فصل اضافى هام

قدماء المصريين والاشـــوريين الى الأوربيين في عهد النهضـــة ، ومع هذا فما الذي يمكن أن يقال عن اليونانيين ؟ وكان عصرهم عصر تنوير . وفحص شاستيلو في صفحات قليلة شرائعهم وتاريخهم ، واستخلص « اننا مرغمون على الاعتراف بأن ما يسمى بالعصر الزاهي لليونان كان عصر ألم وعذاب للانسانية . وفيما يتعلق بالتاريـــخ القديم بوجه عـــام يكفي الاستناد الى العبودية وحدها للتأكد من أن أحوال الناس كانت أتعس مئات مضاعفة مما هي الآن . وربما كانت تعاســـة الحيـــاة في عصر الرومان أوضح مما كانت عند اليونان . فهل هناك انجليزي أو فرنسي قادر على تحمل الحياة كما كانت تعاش في روما القديمة ؟ » ومن الطريف ان نذكر أنه بعد أربع سنوات ، صرح انجليزي توافرت له معرفة أوسع وأعمق بالتاريخ بأنه من المحتمل ان تكون أوربا المتحضرة قد نعمت في عهد انطونيو بسعادة أعظم مما تمتعت بها في أي عصر آخر .

ثم اضمحلت روما ، وجـاءت المسيحية التي لم تهـدف الى منح السعادة للناس على الأرض . ولا دليل لدينا على أنها قد جعلت الحكام أقل نهما أو تعطشا للدماء ، ولا أنها جعلت الناس أكثر صبرا أو صفاء . ولا أنها جعلت الجرائم أندر وخففت من قســوة العقوبات ، أو جعلت المعاهدات تتبع بامانة أعظم ، والحروب تشن لأغراض أكثر انسانية . والخلاصة ان أولئك الذين يجهلون الماضي جهلا عميقا هم وحدهم الذين يتحسرون على « الايام القديمة الطيبة » .

لم يتشابه شاستيلو في هذا العرض مع تيرجو في السعي لاثبات التقدم المتصل في عهد النهضة ، فاتفق هنا مع دالمبير وفولتير ورأى أن الحركة الفكرية التي بدأت في عصر النهضة وأسفرت عن ظهور حـركة التنوير في أيامه كانت شرطا من شروط تقدم المجتمع ، ولكنها وحـدها ما كانت لتكفي ، كما يتبين من عدم ترك عصر اليونان الزاهر – مع المعيته في الفكر – أية آثار خيرة على سعادة الناس . كما لم تحدث في الحق أية تحسنات محسوسـة في عالم السـعادة للناس في جملتهم ابان القـرنين السادس عشر والسابع عشر ، بالرغم من تقـدم العلم والفنون . ولكن الحروب العظيمة في هذا العصر قد انهكت قوى اوربا ، وبذلك خلق هذا الانهاك المالي الظروف المواتية لبلوغ حالة من السعادة لم يسبق تحققها في الماضي .

« السلام شرط مفيد لتقدم العقل ، ولكن على الأخص عندما يكون قد جاء بعد شعور الشعوب بالانهاك ، والملل من القتال ، وعندما تختفي

الأفكار الطائشة ، وتضطلع الهيئات السياسية ــ كما يحدث في الأجسام العضوية ــ بمهمة المحافظة على البقاء التي فرضها عليها الألم ، ويعود العقل الانساني بعد استغراقه لفترة ما في الموضوعات المستحبة الى التركيز بحماس شديد على الموضوعات النافعة ، عندئذ يستطاع القيام بمحاولات ناجحة لجلب الاهتمام الى مسالة حقوق الانسان . اما الحكام فبعد أن أصبحوا دائنين ومدينين لرعاياهم ، فانهم يسمحون لهم بالسعادة حتى تتوافر لهم قدرة أكبر على حل المشكلات أو زيادة الجلد » .

يفتقر هذا الكلام الى الوضوح والاقناع ، ولكن النقطة الأساسية قد تركزت على القول بأن التنوير الفكرى معدوم الأثر اذا لم تؤازره الاحداث السياسية التى لايمكن أن تقدم عونا دائما للبشرية بغير تقدم المعرفة .

واتبع شاستيلو الاقتصاديين فرأى اعتماد السعادة العامة على السلام الخارجي والداخلى والرخاء والحرية : حرية استمتاع الانسان بذاته وبصفاء ذهنه .. اما العلامات الممتازة لهذه السعادة فهى ازدهار الزراعة ، وتزايد السكان ، ونمو التجارة والصناعة . وبذل شاستيلو جهدا لاثبات تفوق الزراعة الحديثة على القديمة ، واستفاد من أبحاث هيوم لاثبات ازدياد الكثافة النسبية للسكان في البلدان الأوربية الحديثة . وفيما يختص بتطلعات السلام ، اتبع نظرة متفائلة عجيبة . فلقد ساعدت المحالفات على جعل أوربا أشبه بجمهورية اتحادية ، وأدى توازن القوى الى أن ظهر مشروع الدولة الشاملة الذى حاول لويس الرابع عشر القيام به كأنما هو حديث خرافة ، بعد ان غدت كل البلدان القوية مثقلة بالديون ، وأصبح الاقدام على الحرب اشق مما مضى ، فكل حملة قام بها ملك بروسيا قد بدت أشد عسرا من كل غزوات اتيلا ، كما بدت معاهدة سلام سنة ١٧٦٢ وكأنها آخر كلمة تقال في هذا المقام . وادرك شاستيلو أن الخطر الأساسى كان يكمن في سياسة انجلترا فيما وراء البحار . لم تصادف امثال هذه التخمينات اى توفيق على الاطلاق . وفيما بعد تجرأ أوجست كونت المفكر العظيم ، فذكر تكهنات أكثر جزما وقطعية عن توقف الحروب ، لم تتورع الاحداث عن تكذيبها .

وفيما يتعلق بالمساواة بين بنى البشر ، اعترف شاستيلو بأنها مرغوبة ، ولكنه لاحظ وجود مساواة تقريبية فى مقدار السعادة التى تحظى بها مختلف طبقات المجتمع .. « اذ لايزيد أبناء القصور والوزراء سعادة عن الفلاحين وارباب الحرف » .. فلا تعارض بين عدم المساواة

وسوء توزيع انصبة الافراد وبين اى مقياس وضعى للسعادة . انهما مجرد عاملين مزعجين عابرين فى سبيل بلوغ النوع الانسانى للكمال ، ولن يتم الخلاص منهما الا عندما يصل التقدم الى مداه . وأنجع طريقة لعلاجهما هى زيادة سرعة تقدم الجنس البشرى لان هذا سيؤدى يوما ما الى تحقيق اعظم سعادة مستطاعة له .. ولن يتم ذلك باستعادة حالة الجهالة والبساطة التى سيسعى مرة اخرى للفرار منها .

من المستطاع تلخيص البرهان العام للكتاب فى عبارات وجيزة : لم يسبق تحقق السعادة فى اى عصر من الماضى على الاطلاق . فلم يسبق لأية حكومة ـ مهما بلغت مكانتها ـ ان وضعت نصب عينها مهمة تحقيق ما يجب أن يكون الغاية الوحيدة للحكومة : « أعظم قدر من السعادة لأعظم عدد من الأفراد » . وحقق التنور الفكرى الآن ، ولأول مرة فى تاريخ البشر ، بالاضافة الى ظروف أخرى تحدث لحسن الحظ فى نفس الوقت ، حالة لم يعد بالامكان تجاهل هذه الغاية فيها ، وهناك دلائل تدل على أن هذه الغاية دائبة الصعود والارتفاع شيئا فشيئا . وفى الوقت نفسه ، لقد تحسنت الأحوال . ففى كل يوم تظهر آثار انتشار المعرفة وتحسن أحوال البشر . علينا اذن أن نبتعد عن حسد أى عصر فى الماضى وأن نعتبر أنفسنا أسعد من القدامى .

ربما عجبنا لاطمئنان الكاتب وثقته فى امكان تطبيق معيار السعادة على مختلف المجتمعات ، وان كنت اعتقد أن كونت كان أول من اشار الى صعوبة مثل هذه المقارنات ، عندما قال انه من المحال مقارنة حالتين من حالات المجتمع ، وتقرير تمتعه بالسعادة فى حالة أكثر من الأخرى ، لأن سعادة الفرد تحتاج الى قدر من التوافق بين ملكاته وبيئته ، ولا وجود لاى سبيل لاكتشاف موقف المجتمع فى هذا المقام ، لا بالبرهان ولا بالتجربة المباشرة . ومن هنا استخلص كونت وجوب استبعاد مسألة السعادة من اى كلام علمى عن الحضارة .

صادف شاستيلو نجاحا مرموقا ، فأثنى على كتابه فولتير ثناء عاطرا ، وترجم الى الانجليزية والايطالية والألمانية . وركز الكتاب على مسألة واحدة : المذاهب المتفائلة للفلاسفة ، وجعلها ترتكن على ما يبدو على قاعدة تاريخية اكثر توطدا من القاعدة التى زودها بها كتاب فولتير « مقال عن العادات » ، وامد المتفائلين ببراهين جديدة ضد روسو . ولابد أن يكون قد قام بالكثير فى سبيل نشر الايمان بالكمال وتأكيده .

الفصل العاشر

سنة ٢٤٤٠

(١)

لم ينظر زعماء الفكر في فرنسا بعيدا في المستقبل ولاحاولوا تتبع الخطوط المحددة التي يتوقع اتباع الجنس البشرى لها في تقدمه، وقنعوا بمبادىء وتعميمات مبهمة ٠ ولم يتشككوا البتة في بطء عملية التغير الاجتماعي . فلم تكن الاخلاقيات العقلانية التي يعتمد عليها الارتقاء قد تجاوزت طفولتها ٠. ولعل الفقرة الآتية من كتاب الأب موريليه قد عكست بأمانة كافية ماساد من ارتياح وتفاؤل رغم عدم اسرافه ٠

« علينا أن نأمل ارتقاء أحوال الانسان كنتيجة لتقدم التنور × وجهود المثقفين ★ .. ولنتضرع الا تسلبنا هذا الامل أخطاء عصرنا ومظالمه . يعرض تاريخ المجتمع تناوبا مستمرا للنور والظلمة واتباع العقل والوهم وتذبذبا بين الانسانية والبربرية ، وان كنا نستطيع ان نلمح في تعاقب العصور الخير يتزايد تدريجيا في معدل دائم الارتفاع . فهل هناك مثقف ـ اللهم الا اذا كان من النافرين من البشرية أو ضللته العبارات الطنانة الفارغة ـ يرغب في العيش في العصر البربرى الشاعرى الذى رسمه هوميروس بمثل تلك الالوان الزاهية المفزعة ؟ أو يأسف لانه لم يولد في اسبرطة بين هؤلاء الابطال المصطنعين الذين جعلوا من التهجم على الطبيعة فضيلة ، ومارسوا السرقة والنهب وزهوا بصرع العبيد . أو في قرطاج التي شاهدت حمامات الدم التي سالت فيها دماء الابرياء أو في روما مهددا بالنفي أو تحت حكم نيرون وكاليجولا ؟ ٠ فلنتفق على أن الانسان قد تقدم نحو النور والسعادة رغم تحقق ذلك ببطء » .

ولكن بالرغم مما بدا من اتزان في تأملات أعظم الكتاب للمستقبل ،

× Des lumieres,

★ Des gens instruits,

فمما له دلالة على مدى تأثيرهم فى نشر فكرة التقدم أن يتحقق لأول مرة انشاء « يوتوبيات » تصور ما يتوقع مستقبلا . فكما ذكرت من قبل : جرت العادة حتى ذلك الحين على انشاء الدولة المثالية الفاضلة . أما فى الماضى السحيق ، أو فى أى مكان قصى كبقعة غير معروفة معرفة جيدة ، حتى يستطيع الوهم بناء مايروق له . أما تصميم هذه الدولة المثالية فى المستقبل فكان أمرا مستحدثا . ولذا عندما تحدث سبستيان مرسييه (١٧٧٠) عما ستؤول اليه حضارة البشر ٢٤٤٠ م بدا كلامه علامة مبشرة بمدى التأثير الذى بدات فكرة التقدم تحظى به .

(٢)

ومرسييه معروف كمؤلف هين الشأن للتمثيليات ، ولعل أحدا لا يذكر عنه حتى ذلك . ولكنه كان أعظم من ذلك بكثير . وتدعونا أبحاث المسيو بيكلار عن حياته ومنجزاته الى تقديره . ولو صح أنه من المغالاة القول بأن روحه قد عكست فى صورة مصغرة روح عصره (١) ذاته ، فاننا نستطيع الاعتراف فى أقل تقدير بأنه حصيلة لهذا العصر وخصائصه، فهو يذكرنا من بعض نواحى بالأب سان بيير الذى كان من بين من اقتدى بهم . كان حافز كل أفعاله الحلم ببعث البشرية من جديد عن طريق العقل ، وكرس كل جهوده لتحقيق ذلك ، والهمته فكرة سان بيير عن السلام بكتابة مقال باكر عن « الحرب وأوصابها » .

ففى البداية ، اجتذبته نظريات روسو بدرجة لاتقاوم ، وان كانت الحضارة الحديثة قد استحوذت عليه استحواذا قويا ، فكان فى سلوكه ابنا بارا لباريس مما صعب خضوعه طويلا لمذهب « الاركادية » ، والف كتابا عن « الهمج » بين فيه ان المقياس الصحيح للأخلاق هو قلب الرجل البدائى ، وأثبت أن أفضل ما نستطيع القيام به هو العودة الى الغابة . ولكنه انتهى — على مايبدو — أثناء قيامه بتأليف هذا الكتاب الى الاعتقاد بزيف المذهب برمته ، وبجرى التحول فى معتقداته فى غضون شهور قليلة . ثم تقدم بالفكرة المقابلة ، ورأى ان كل الأحداث قد عادت على البشرية بالخير ، وعكف على رسم صورة متخيلة للحالة التى سيرى الانسان نفسه فيها بعد سبعمائة عام .

---

(١) بيكلار L. Béclard Sebastien Mercier : sa vie, son oeuvre, son temps, ص ٧ فى المقدمة

ونشر كتاب سنة ٢٤٤٠ في امستردام سنة ١٧٧٠ على أنه من تأليف مؤلف مجهول . وحظر تداوله في فرنسا تحظيرا صارما لأنه تضمن نقدا قاسيا لنظام الادارة ، واعيد طبع الكاتب في لندن ونيوشاتل ، وترجم الى الانجليزية والالمانية .

(٢)

اتخذ مرسييه شعارا لرؤياه ونبؤاته قول لايبنتز : «الحاضر يحمل المستقبل بين جوارحه» . وهكذا اعتقد أن مرحلة الحضارة التي تخيلها نتيجة طبيعية ومحتومة لسير التاريخ .

وتدور أحداث « سنة ٢٤٤٠ » حول واحد من أبناء القرن الثامن عشر نام نومة سحرية فالفى نفسه يحيا في العالم المذكور ، بين أمم تعيش كأسرة متآلفة واحدة ، لا تتدخل الحروب في حياتها الا لماما ، وعلى أننا لانصادف في الكتاب الا القليل من الكلام عن العالم في جملته . فلقد تركزت مخيلة مرسييه على فرنسا ، وعلى باريس بالذات . وقنع الكاتب بمعرفة الغاء الرق وحلول الوئام والتحالف الراسخ محل التنافر بين فرنسا وانجلترا ، وتخلى البابا الذى مازال يتمتع بالمهابة والسلطان عن اخطائه وعودته الى عادات الكنيسة الاولى ، وعرض التمثيليات الفرنسية في الصين ، أي أن التغيرات التي صادفتها باريس قد بدت له مرآة فيها الكفاية للتحول العام .

واستمرت فرنسا تتبع الملكية في دستورها ، وزاد عدد سكانها بمقدار النصف ، وبقى عدد سكان العاصمة بلا تغير تقريبا . واعيد بناء باريس تبعا لمخطط علمي ، فتم النهوض بالمرافق الصحية التي بلغت الكمال ، كما تحسنت الاضاءة ، واتخذت شتى الاجراءات لحماية الأمن العام .. وازداد كرم الضيافة ، ومن آيات ذلك اختفاء الفنادق ، وان كان قد نظر الى الترف في الولائم كجريمة منفرة . وتوقف استيراد الشاى والبن والطباق (!)⁽¹⁾ ، ولم يعد هناك أي نظام للاقتراض ، بعد أن أصبح ثمن كل شيء يدفع على الفور ، وأدى هذا الى بساطة ملحوظة في الزى . ولا يعقد الزواج ، الا في حالات وجود ميل متبادل . واختفت المهور ، كما أصبح التعليم يتبع معتقدات روسو ويوجه للارتقاء بالاخلاق .

---

(١) في الطبعة الأولى من الكتاب ، قيل ان التجارة قد الغيت أيضا .

وتدرس اللغات الايطالية والالمانية والانجليزية والاسبانية فى المدارس . اما دراسة اللغات الكلاسيكية فقد اختفت لان اللاتينية لن تساعد انسانا على تحقيق الفضيلة . وأهمل شأن التاريخ أيضا ، ولم يعد تعليمه يلقى أى تشجيع ، بعد أن تبين مدى « خزيه للبشرية ، وامتلاء كل صفحة فيه بالجرائم والحماقات » . وأصبحت المسارح مؤسسات حكومية ، وتحولت الى معاهد عامة تدرس فيها واجبات المواطنين والاخلاق .

وأحرقت عن عمد كل سجلات الماضى تقريبا ، بعد أن اتضح انه من الأنفع الخلاص من افساد الكتب الضارة التى تشوه الحقيقة فحسب ، أو تحتوى على تكرار ممل لنفس الشيء . وتبين أن دولابا صغيرا واحدا فى المكتبة العامة فيه الكفاية لاحتواء الكتب القديمة التى سمح لها بالافلات من ألسنة النيران . وأغلبية هذه الكتب انجليزية . واحتلت كتابات الابه سان بيير المكانة التالية لكتابات فنيلون «لسمو فؤاده رغم ضعف قلمه» . فبعد انقضاء سبعة قرون ، بدت أفكاره العظيمة الجميلة ناضجة تستحق التقدير ، ولقد سبق أن بدا لمعاصريه كواحد من الحالمين ، ولكن الايام أثبتت صدق احلامه» .

ومن الافكار المحببة لمرسييه : الايمان بفاعلية دور رجال الادب فى المجتمع . وسيعترف بهذه الحقيقة اعترافا مناسبا سنة ٢٤٤٠ م ، ولكن الرقابة الحكومية التى اثقلت كاهل هؤلاء الادباء سنة ١٧٧٠ لن يقضى عليها تماما ، فستختفى الرقابة التى تعرقل النشر ، ولكن الرقباء سيبقون . ولن يكون هناك غرامات أو عقوبات بالسجن . ولكن سيبقى هناك تأنيب ونصح . ولو أقدم أحد على نشر كتابه يدافع فيه عن مبادىء تعد خطرة سيرغم على ارتداء قناع أسود فى غدوه ورواحه .

والدين الرسمى للدولة هو «التأليهية» . ومن المحتمل الا يكون هناك أحد لايؤمن بالله . أما اذا اكتشف أى ملحد ، فانه سيوضع موضع اختبار . وستضطر الأمة فى حالة عناده ورفضه «لهذه الحقيقة الملموسة النافعة» الى اعلان الحداد ونفيه خارج حدودها .

والعمل فريضة على كل فرد ، ولكن سوف تتلاشى أوجه الشبه بينه وبين الاستعباد ، وسيؤدى اختفاء النساك والموظفين العديدين والتوابع عديمى الفائدة ، والصناع من منتجى أدوات الترف الصبيانية الى الاكتفاء بساعات قليلة يوميا لقضاء الحاجات العامة . وسيكتفى

الرقباء بالتحرى عن قدرات الناس وتخصيص وظائف للعاطلين ، وسينفى من المدينـــة كل من تثبت عـــدم صلاحيته لغير استهلاك الطعام .

هذه بعض ملامح أساسية من المستقبل المثالى ، التى استطاع خيال مرسييه الاهتداء اليها ، ولم يطرحها كمسائل نهائية ، وتنبأ بقيام العصور التالية بالاتجاه الى ماهو ابعد .. فاين أن تتوقف رغبة الانسان فى بلوغ الكمال بعد تسلحه بالهندسة والفنون الميكانيكية والكيمياء ؟ ولكن مرسييه قد كشف عن ضآلة مافى جعبته فى نبوءاته الهزيلة عما يستطيع العلم تحقيقه . والحق ان هذه المسائل لم تكن تهمه كثيرا .. ولم ير امكان قيام الكشوف العلمية باحداث اى تغيير فى المجتمع . ويعكس عالم سنة ٢٤٤٠ ، ومجتمعه الفاضل الهنى البال نقطتى ضعف أساسيتين فى تأملات عصر الموسوعيين : اخفاق الاعتراف بقوة المشاعر والمصالح البشرية ونقص تقدير معنى الحرية . وعلى الرغم من وفرة تهليل المصلحين وكفاحهم من أجل التسامح الا أنهم افتقروا الى الادراك العام لقيمة المبدأ . فلم يروا أنه عندما يتبع المجتمع العقل والعدالة ذاتهما فى نظمه ينبغى أن يكون التسامح بلا تحفظ مع الاراء الزائفة هو الدرع الواقية للتقدم . كما لم يدركوا تعرض التقدم للتوقف واختفاء الأصالة فى الحالات التى تآلفت فيهما الحكومات من الفضلاء الكاملين ، اعتمادا على طغيانهم الممتزج بالنعومة والمداهنة . لم يكن مجتمع مرسييه المثالى استثناء للقاعدة القائلة بأن المجتمعات المثالية منفرة على الدوام ، ويحتمل أن يكون أنسب مكان لانشائها فى أثينا على عهد أريستوفان « الداعر » الذى حكم مرسييه باحراق مؤلفاته ، لا باريس كما تصورها المؤلف سنة ٢٤٤٠ .

(٤)

فى سنة ١٧٧٠ ، نشر الاديب البوهيمى رستيف دى لابريتون ـ الذى كان من المحتم الا يتردد الباريسيون عن استبعاد كتبه البذيئة من مكتباتهم ـ كوميديا بطولية تصور كيف ستتم الزيجات سنة ٢٠٠٠ . وتصور الكاتب انه بحلول ذلك العصر سيكون التآخى قد ساد المجتمع ، بعد اختفاء كل الفروق الاجتماعية ، وستتحالف عشرون دولة مع فرنسا فى ظل حكم «مليكنا المحبوب لويس فرانسوا الثانى والعشرين» . وكانت الثورة هى التى حثت رستيف على الايمان بالتقدم .. فحتى هذا الحين كان استاذه هو روسو ، وان كان من الصعب التشكك فى

ان فكرة الرواية وعنوانهـا كانا من الهام « رومانس » مرسييه · وعلى هذا تعد « سنة ٢٤٤٠ » ، و « سنة ٢٠٠٠ » أول مثلين للخرافات النبوئية التى ساعدت على ترويجها شعبيا بعد ذلك بمائتى عاما رواية ادوارد بيلامى * ·

و « اطلال الامبراطوريات » للكونت دى فولنى تجســـيم شـعبى آخر للآمال التى أيقظتها فكرة التقدم فى فرنسا · وعلى الرغم من عدم نشر الكتاب الا بعد اندلاع الثورة (١) ، الا أن فكرته قد تم تخيلها قبل ذلك ببضع سنوات · وفولنى رحـالة عميق الشغف بالآثار الشرقيـــة والكلاسيكية ، وتشابه مع لويس ليروا ، فى تنـاوله مشـكلة مصـير الانسان من وجهة نظر دارسى ثورات الامبراطوريات ·

ويستهل الكتاب بخواطر حزينة وسط اطلال بالميرا : « هـكذا تختفى أعمال الرجـال ، وهكذا تتلاشى الأمم والامبراطوريات ·· فمنذا الذى يؤكد لنا ان هذا الانحلال لن يتمثل فى المصير الذى تتوقعه بلدنا يوما ما ؟ » وأمثاله من الرحالة يجلسون على ضفاف أنهـار السـين والتيمز والزويدر ذى (فى هولانده) وسـط صمت الاطلال ويترحمون على الشعوب ومجدها الغابر الزائـل · فهل هنـاك اله خفى قد أعلن اللعنة على الأرض ؟ » ·

فى هذه الحالة الكئيبة يزوره شبح يكشف له سر شقاء البشر ، فيرجع أسبابه اليهم أنفسهم · فالانســان محـكوم بقـوانين طبيعيـة ثابتة ، وما عليه الا أن يدرسها حتى يعرف جذور مصيره وعلل شروره ، ودوافعها · وتتلخص قوانين طبيعته فى عشق الذات واشتهاء السعادة والنفور من الألم · هذه هى المبادىء البسيطة الخصيبة لكل ما يحدث فى عالم السلوك · فالانسـان صانع مصـيره وربما نزع الى التوجع من ضعفه وحماقته ، ولكن « لعله سيشعر بزيادة الاطمئنان الى قدراته عندما يتذكر من اين بدأ ، والى أى ذرى قد أمكنه الارتفاع » ·

ورسم الرحالة المحلق فيما وراء الطبيعة صـورة زاهيـة نوعا لملكتى قدامى المصريين والاشـوريين ، ولكن ربمـا كان من الخطأ ان يستخلص من مظاهر أبهتهما السطحية أن أهل هـذين البلدين كانوا

---

* Looking Backward.

(١) كتاب Les Ruines des Empire. (١٧٨٦) ظهرت له طبعتان لترجمته الانجليزية (١٧٩٥) ·

يتصفون بالحكمة أو يتمتعون بالسعادة . وما يحث الانسان الى نسبة الكمال الى العصور الغابرة هو مجرد « الرغبة فى التخفيف من لوعته فحسب » . فالجنس البشرى لا يتدهور ، ويرجع شقاؤه الى الجهل واساءة توجيه عشق الذات . وهناك عائقان أساسيان حالا دون حدوث الارتقاء : صعوبة نقل الأفكار من عصر لآخر ، والصعوبة الناجمة من بطء انتقال هذه الأفكار من شخص لآخر ، وأمكن القضاء عليهما بعد اختراع الطباعة « التى تعد هبة خالدة لعبقرية السماء » . فسيجىء اليوم الذى يتسنى فيه لكل فرد أن يدرك أصول السعادة الفردية والسعادة العامة . وبذلك سيتحقق لشعوب الأرض التوازن فى القوى فتنقطع الحروب وتفض المشاحنات بوساطة التحكيم ، وتصبح شتى أجناس البشر مجتمعا عظيما واحدا وعائلة واحدة تحكمها نفس الروح وقوانين واحدة ، وتستمتع بكل سعادة تقدر على تحقيقها طبيعة البشر . وسيتحقق هذا رويدا . فلابد أن تعمل نفس الخميرة على تخمير طائفة كبيرة من العناصر المتباينة ، وان كان مفعولها أكيدا ».

هنا توقف العبقرى عن الاسترسال فى نبوءاته ، وأشار الى الغرب متسائلا : « لقد وصلت أصداء صيحة الحرية التى انطلقت فى الشواطىء البعيدة للأطلسى الى القارة القديمة » وتراءت للواقفين على هذه الشواطىء حركة عاتية فى الطرف البعيد من البحر المتوسط تداعى فيها الطغاة وانتخبت هيئة لوضع الدستور ، وضعت القوانين تبعا لمبادىء المساواة والحرية والعدالة . وتعرضت الأمة المتحررة لهجمات الجيران المستبدين ، ولكن مشرعيها أشاروا على الشعوب الأخرى بعقد جمعية عمومية تمثل العالم بأسره ، مع مراجعة الأديان كلها مراجعة متزنة . وأعقب ذلك ذكر اجراءات مادار فى المؤتمر ، ثم انتهى الكتاب دون اكتمال .

لم يتسم هذا الكتاب بالاثارة ، فهو يبدو مضجرا بمعنى الكلمة فى نظر قارىء هذه الأيام ، ولكنه ناسب الذوق المعاصر له ، فقد ظهر عندما كانت فرنسا متيقنة من قدرة ثورتها على تجديد العالم ، وبذلك تجاوب مع آمال الحركة ومشاعرها . ولم يجىء الكتاب بجديد فى مذهب التقدم ، ولكنه ساعد بلا ريب على ترويجه .

الفصل الحادى عشر

الثورة الفرنسية : كوندورسيه

(١)

ابان الربع الثالث من القرن ، ساعدت الروح السائدة على زيادة السلطان الذى حظى به مفكرو الطليعة فى فرنسا لدى الطبقة المتوسطة . فلقد شغف النبلاء وأبناء جيلين من الطبقة العليا من المجتمع بالأفكار الجديدة للفلاسفة والعقلانيين ورجال العلم ، ودار حولها الحديث فى المجالس ، وساعدت صلة فولتير الوثيقة بفردريك الاكبر وعلاقة دالمبير وديدرو بالامبراطورة كاترين الروسية على حظوة هؤلاء الأدباء والآراء التى ناصروها بنفوذ كان له بالغ الأثر عند البورجوازية . وتعرض عامة الناس بنفس القدر الذى تعرض له الأكابر لافساد النظريات التى جاءت بمفاتيح بسيطة للكون (١) ، وزعمت أن الجميع قادرون على الاهتداء الى أحكام فى أعوص المشكلات . والى جانب « الانسكلوبيديا » ، تكاد كتب زعماء الفكر أن تكون قد كتبت كلها للرأى العام ، وليس للفلاسفة وحدهم ، ولم تحل سياسة الحكومة التى اتجهت الى قمع هذه المنشورات الخطرة دون انتشارها ، فبدت جاذبية الفاكهة المحرمة . وفى سنة ١٧٧٠ ، اعترف المحامى العام سيجوييه بعدم جدوى هذه السياسة ، وقال : « لقد سعى الفلاسفة لهز العرش باحدى اليدين ، واحداث اضطراب فى الكنيسة باليد الأخرى . وهدف الفلاسفة الى تغيير نظرة الرأى العام الى الأنظمة المدنية والدينية . ويستطاع القول بأن الثورة قد أحدثت أثرها . فلقد سرى سم الشك الى التاريخ والشعر والتمثيليات

---

(١) قال كنت عن كتابه « النقد الاجتماعى » انه حول علم السياسة الى تطبيق حرفى لبديهية اولية جعلت كل دراسة بلا ضرورة . كتاب « الثورة » La Revolution الجزء الأول الفصل الرابع الفقرة الثالثة .

والقصص ، بل والقواميس ، وكانت كتاباتهم بمجرد نشرها تغرق المقاطعات كأنهـا السـيل ، وانتشرت العـدوى الى ورش الصناع والأكواخ (١) » .

« انتشرت العدوى » ، ولـكن الموظفين الرسـميين الذين كتبوا هذه الكلمات لم يتنبهوا الى أن نجاحها انما يرجع الى مناسبتها للمقام، واستعداد عقول الناس لتلقى بذور الأفكار الثورية نتيجة لفسـاد الحكومة والكنيسة الغني عن البيان . وكما لاحظ فولتير فى نفس هذا العهد : « لقد تحولت فرنسا بل وأوربا كلها الى انسكلوبيديين » .

(٢)

تنوعت أحكام المؤرخين عن دور المفكرين الهدامين والعقلانيين فى أحداث ثورة ١٧٨٩ ، ويحتمل ، ولعل الحقيقة كامنة فى قول أكتون الموجز بارجاع « اندلاع الثورة الى نظريات المفكرين الفرنسيين بالاشتراك مع المثل الذى ضربته امريكا » . كان أرباب النظريات يهدفون الى الاصلاح لا الى الثورة السياسية . ولكن حافز اعلان الحقوق فى أمريكا (١٧٧٤) ، وانتصـار المستعمرات الذى أعقبـه هو الذى عجل بالانتفاضة ، فى الوقت الذى مرت فيه البلاد بعد اعتلاء لويس السادس عشر بفترة تطلع أفضل لتحسين الأحوال ، لم تعرفها اطلاقا قبل سنة ١٧٧٤ . ولكن النظريات كانت قد هيأت فرنسا للتغير الجذرى ، وحددت معالم الثورة . واتسم الزعماء بنفس التفاؤل الذى عرف عن « الموسوعيين » . ولكن روسو كان يمثل وحده أعظم قوة ، فعلى الرغم من انكاره للتقدم ، وكفرانه بالحضارة ، الا انه استطاع ترويج مذهب سيادة الشعب ، ومنحه الجاذبية ومظهر الدقة الرياضية . وربط الثوريون آمالهم (٢) المتفـائلة بهـذا الاعتقـاد . وبدت نظرية المساواة وكأنها لم تعد مجرد مسألة نظرية فحسب ، بعد أن ارتكن

---

(١) روكوان فى كتاب الروح الثورية قبل الثورة :
(ص ٢٧٨) L'Esprit revolutionnaire avant la Révolution.

(٢) من الطريف أن يلاحظ كيف اندفع روبسبير الذى بدت له مقالات روسو كأنها الوحى فى الاعراب عن الاعجاب بتقدم الحضارة ، كما فعل فى الفقرة الافتتاحية من حديثه فى ٧ مايو ١٧٩٤ عندما اقترح مرسوما بعبادة « الكائن الأسمى » (انظر الى نص كلامه فى كتاب ستيفان Orators of French Revolution. الجزء الثانى ص ٣٦١ — ٣٦٢ .

الدستور الامريكى على المساواة الديموقراطية ، فى حين استند فى نص الدستور الانجليزى ــ الذى بدا حتى ذلك الحين أقرب الأشياء الى المثل الأعلى للحرية ــ الى اللامســاواة · وتحولت المجادلات الفلسفية للاعلام الى أسلحة عنف عند الاتباع ، فقضى انصار روسو : شوميت وهيبير على اتباع هولباخ ، وباسم الايمان بمبدأ « العودة الى الطبيعة » الذى روجه روسو فى «اميل» حطم الثائر اليعقوبى تمثال هلفسيوس النصفى . وظهر اتباع لمابلى وموريللى مثل بابيف والاشتراكيين .

فى العهد الأول من الثورة ، ساد فرنسا ايمان ساذج بأن الهزة السياسية تعنى اعادة الاحياء وفاتحة عهد عدالة وسعادة · وصادفت هذه النغمة تعبيرا بعيد التأثير فى خطب الاحتفال « بالاتحاد العالمى » فى شأن دى مارس » فى ١٤ يوليو سنة ١٧٩٠ ، وتميز الاحتفال بطابعه المسرحى . فلقد أمرت باقامته وتنظيمه الجمعية الدستورية ، وان كان حماس الجماهير وتفاؤلها وقد تجمعت لاعلان ولائهما للدستور الجديد كان صادقا وفوريا . فلقد كانوا خاضعين شعوريا او لا شعوريا للمذهب التقدم الذى عمل زعماء الفكرة لسنوات طويلة على غرسه فى عقول الشعب . ولم يخطر على بالهم ــ كما لاحظ تين ــ أن اليمين التى حلفوها والعناقات الاخوية التى تبادلوها لم تحدث أى تغيير فى عقولهم أو قلوبهم .. وانهم على حالهم من اثر دهور طويلة من الخضوع السياسى ، وعهد واحد من الفكر السياسى . واتزاح بصورة مفزعة سريعة الوهم بقدرة أدوات المجتمع الجديد على تغيير الطبيعة الانسانية وخلق جنة على الارض .

جئنا الى لاتيوم للاستكانة

بعد ما صادفنا من أحداث وتقلبات ★

ولكن اتضح ان « لاتيوم » مسرح لصراعات دموية ·

هناك مغالطة أساسية أخرى لازمت هذه المغالطة ، ووقع فيهما كل الفلاسفة ، وروسو الى حد ما ، وانعكست فى الثورة وتكشفت فيها . فلقد نظر هؤلاء الفلاسفة للانسان وكأنه يحيا فى فراغ ، ولم يدركوا ان التقدم الكلى للمجتمع مسألة ضخمة للغاية لا يمكن لكلام أو تشريع ان يحيط بها . وتجاهلوا اثر ذاكرة المجتمع والتقاليد التاريخية ، واساءوا تقدير دور الروابط التى تربط الأجيال سويا ·

★ Post varios casus et tot discrimina rerum venimus in latium.

وهكذا تخيل الثوريون انهم يستطيعون الانقطاع عن الماضي ، ويقيموا نظاما جديدا للحكم وفقا لأصول الرياضة ، ودستورا (على حد قول بيرك) « جاهز الصنع وعلى أهبــة الاستعداد قد بلغ النضج منــذ مولده ، اشبه باله كامل للحكمة قد صاغه حدادونا وولد من عقــل جوبيتر ذاته » ، بحيث يصبح قادرا على خلق حالة رضا شاعرية في فرنسا ، ولن يحتاج بلوغ (العصر الالفي ــ عصر المسيح على الأرض) الى أكثر من اتباع الامم الأخرى لنفس المبادىء . وشيئا فشيئا ، ماتت الاوهام التي خلقها اعلان حقوق الانسان في الرابع من اغسطس، تحت ظل الارهاب . ولــكن خيبة الأمل التي تعرض لها أولئك الذين اعتقدوا في البعث السريع للعــالم ، لم تؤد الى فقــدان بعض النابهين للأمل ، فكان هنــاك على أقل تقــدير واحد كان يؤمن ايمانا لم يتزعزع بأن الحركة في آخر المطاف خطوة هائلة في طريق الانسان نحو الرفاهية بغض النظر عن طول الطريق الذي مازال ينتظره . انه كوندورسيه احد شباب « الموسوعيين » وقد أمضى الشهور الاخيرة من حياته يكتب تاريخ التقدم الانساني ، رغم انتظاره الاعدام بالمقصلة .

(٣)

كان كوندورسيه صديقا لتيرجو وكاتبــا لسيرته . فلا عجب اذن اذا شرع في وضــع تصميم لتاريخ الحضارة على ضوء فكرة التقدم ، التي لم يزد ما كتبه تيرجو عنهــا عن لمحات نيرة . ولم يقم بتنفيــذ المخطط ، ولكنه أتم خلاصــة محكمة أوضــح فيها على خير وجه الأفكار الأساسية في المشروع . ومن المستطاع العثور على مبادئه بحذافيرها الا قليلا عند تيرجو ، ولكنها اكتسبت أهمية جديدة عند كوندورسيه . فلقد جعلها تحلق في أعنــة السماء بتوكيداته واستنباطاته . فاذا كان تيرجو قد كتب برصانة روح الباحث ، فان كوندورســيه قد تحدث بحماسة النبي وحميته . والمدهش أن يتم تأليف « صورة تاريخيــة لتقدم العقل الانســاني » بروحه المتفائلة ، عندما كان كوندورســيه مختبئا من روبسبير سنة ١٧٩٣(١) .

تغلغلت في أعماق كوندروسيه روح الموســوعيين ، وكان واحدا منهم ، وتشابه اتجاهه نحو المسيحية مع اتجاه فولتير وديدرو . فلقد نظر تيرجو الى الدين السائد باحترام ، واعترف بالعنــاية الالهيــة .

---

(١) نشر سنة ١٧٩٥ .

وبالرغم من انه جعل دور العناية الالهيــة فى تطور الحضــارة « دورة شرفية » ، فوجودها أو عدم وجودها سيان ، الا ان هناك اختــلافا فعليا بين نظراته ونظرات صديقه من « دور » المسـيحية وحضــارة القرون الوسطى .

وهناك اختلاف اهم بين المفكرين يرجع الى اختلاف الظروف التى كتبا فيهــا ، لأن تيرجو لم يكن يؤمن بضرورة التغيرات العنيفة ، واعتقد ان الاصلاحات المطـردة فى ظل النظام القائم قادرة على غسـل العجب العجاب لفرنســا . وأيد كوندورسيه الثورة قبل نشـوبها ، ولــكن حماسها اجتاحه فى طريقه ، وازداد تفاؤله الفطــرى ، وتأيد ايمــانه بعقيدة التقدم بعد انتصار الحرية فى أمريكا وانتشار الحركة المناهضة للعبودية . هذا السبب من بين الأســباب التى هزت مشــاعره هزا عميقا . وبهره الاعتقاد بأنه يحيا فى « ظل احدى الثورات العظيمة التى عرفهــا الجنس البشرى » . وعكف على تأليف كتاب مناسب للتحــول الذى صادفته البشرية « لأن صورة ثورات الماضى سوف تكون افضل مرشد لها » .

ولما شعر بالمصير الذى ينتظر شخصه ، عبر من قبيل العزاء عن لهفته لليوم الذى ستشرق فيه الشمس ، بغض النظر عما بعده « على أرض لا يوجد فيها سوى أحرار ، لا يخضعون لسيد غير العقل ، بعد أن يكون الطغاة والعبيد والكهنة وعملاؤهم الأغبيــاء والمنــافقون قد اختفوا جميعا » . ولم يقتصر كوندورسيه على التأكيد العام لحدوث تقدم غير محدود موثوق به فى التنور وفى المجتمع ، وعمد الى التفكير فى طبيعته واستبصار اتجاهه ، وتحديد هدفه ، وأصر على الكتــابة عن التوقعات المنتظرة فى المستقبل القصى ، وهو ما لم يفعله اسلافه .

(٤)

هدف مشروع كوندورسيه الطموح — تمشيا مع كلمــاته — الى بيان « التغيرات المتعاقبــة فى المجتمع الانسانى ، والتأثير الذى تحدثه كل لحظــة فى اللحظــة التــالية ، وبذلك يتحقق عن طــريق التغيرات المتعاقبة تقدم الجنس البشرى نحو الحقيقة أو السعادة » . ولو أخذنا هذا المشروع بمعناه الحرفى ، لبدا مستحيل التنفيذ . وعنــدما طرح كاقتراح عملى ظهر أشبه بحالة من يعلن عن نية كتابة يوميات دقيقــة لحياة يوليوس قيصر من مولده الى مماته . وعندما طرح كوندورســيه

اقتراحه على هذا الوجه ، كشف عن افتقاره الى الدراية بالحدود التي تحد معرفتنا بالماضي ، وحتى لو انه تصور برنامجا أكثر توافقا وأقرب الى التنفيذ العلمي ، لما كان في وسعه تنفيذه . ومع هذا فان طريقة صياغة المشروع تستحق الاشادة لأن المثل المسير البلوغ الذى عبر عنه هذا المشروع يذكرنا بأن هنـاك عهودا ومراحل في التجربة الانسانية ستبقى بالضرورة مغلقة في وجهنا .

قسم كوندورسيه الحضارة الى عشرة عصور ، عاشرها يقع في المستقبل ، ولكنه لم يبرر قسمته ، ولم يجعل عصوره متناسقة في الأهمية ، وان كان تنظيمه للماضي التاريخي يستدعي الانتباه كمحاولة لم تعتمد في قسمتها على الأحداث السياسية الكبرى ، ولكن على الخطوات الهامة في المعرفة . فكانت خاتمة العصور الثلاثة الأولى (التي تضمنت تكون المجتمعات البدائية ، ثم عصر الرعي الذى أعقبه ، ثم عصر الزراعة) اختراع الحروف الأبجدية في اليونان . ورابع العصور هو تاريخ الفكر اليوناني حتى التقسيم المحدد للعلوم على عهد أرسطو . وتقدمت المعرفة في العصر الخامس ، وشابها الغموض في ظل الرومان . أما سادس عصر فعصر مظلم استمر حتى عهد الصليبيين . وترجع أهمية العصر السابع الى قيامه باعداد العقل الانساني للثورة التي جاءت بعد اختراع الطباعة ، وبها استهل العصر الثامن . وتوسعت بعض الفصل صفحات الكتاب في الكلام عن النتائج الباهرة لهذا الاختراع . وبدأ عصر جديد بالثورة العلمية التي أحدثها ديكارت ، وانتهت في حياة كوندورسيه بخلق الجمهورية الفرنسية .

انبثقت عن فكرة تقدم المعرفة فكرة التقدم الاجتماعي ، وظلت اساسا لها ، ومن ثم كان من المنطقي والمحتوم أن يجعل كوندورسيه من التقدم في المعرفة مفتاحا لتقدم الجنس البشرى . فتاريخ الحضارة مرادف لتاريخ الثورة . وكان تيرجو قد برر هذه القاعدة بأن أثبت وجود تماسك بين أنواع النشاط الاجتماعي . أما كوندورسيه فقد ركز على تأكيد « الوحدة التي لاتنفصم » بين التقدم الفكرى والحرية والفضيلة ، واحترام الحقوق الطبيعية ، وتأثير العلم في القضاء على التزمت . وذكر ان كل أخطاء السياسة والأخلاق قد نبعت من المعتقدات الزائفة الوثيقة الاتصال بأخطاء الفزياء والجهل بقوانين الطبيعة ، ورأى في المذهب الجديد للتقدم أداة للتنوير « وضربة قاضية لصرح التزمت المتداعي » .

... ربما كان من غير المجدى تحليل عرض كوندورسيه او التركيز على اخطائه التى لم تعد تساير الزمان ، وأوجه نقص معرفته بالتاريخ . ويعكس استخفافه بالقرون الوسطى ، وهى النظرة التى عرفت عن كل فلاسفة القرن الثامن عشر ، فقد عجز عن اكتشاف اكثر من شىء واحد ساهم فى تغيير المجتمع (الغاء الرق) فى عصر دام قرابة الألف السنة .. وبذلك بدا عصر الرق كوقفة اعترضت طريق التقدم للأمام . ويكشف عجزه عن تقدير الدور التاريخى للامبراطورية الرومانية عن جهالة وتحامل أكثر اثارة للدهشة . على ان هذه النقائض المميزة قد رجعت الى حد كبير الى خطأ أساسى تخلل كتابه كله ، ولازم تأملات الموسوعيين للمجتمع . فلقد تجاهل كوندورسيه ككل المحيطين به الدور العظيم الاثر الذى قامت به الأنظمة فى تقدم المجتمع . فلم ير فيها فى حالات اعترافه بوجودها أكثر من عوائق لانطلاق العقل الانسانى ، أى لم تبد له تعبيرا تلقائيا عن المجتمع يتجاوب مع حاجاته ، أو يجسم مثله ، ولكنه رأى فيها بالأحرى اداة مصنوعة عن عمد لقمع جموع الناس وتقييدهم بالأصفاد . فلم ير ان هذا التقدم الذى يؤمن به - لو صحت حقيقته يمكن أن يعتمد على الأنظمة والتقاليد التى تمنح المجتمعات استقرارها . وفى الجيل التالى ، سوف يشار الى أنه قد وقع فى تناقض صارخ عندما أثنى على الكمال النسبى الذى اهتدى اليه فى بعض البلدان الاوربية فى القرن الثامن عشر ، واستنكر فى نفس الوقت كل المذاهب والانظمة التى سبق لها اتخاذ الصدارة باعتبارها رجعية بصورة ملحوظة . ويتصل هذا الخطأ اتصالا وثيقا بخطأ آخر ، سبقت ملاحظته ، عن تصور الانسان مجردا من بيئته الاجتماعية ، ويمارس نشاطه فى فراغ .

(٥)

اعتقد كوندورسيه ان لدراسة تاريخ الحضارة فائدتين . فهى تيسر لنا تدعيم حقيقة التقدم ، وتعيننا على تحديد اتجاهه فى المستقبل ، وبذلك يزداد معدل التقدم .

ومضى يثبت اعتمادا على وقائع التاريخ والبراهين التى توحى بها أن الطبيعة لا تتقيد فى عملية ارتقاء الملكات الانسانية بأية شروط . والحد الوحيد أمام بلوغ الكمال هو مدى بقاء الأرض . وربما تفاوتت الحركة

(١) كونت Cours de Philosophie positive ص ٢٥٨ الفصل الرابع .

فى سرعتها ، ولكنها لن تعود للوراء قط ما دامت الأرض تشغل مكانتها الحالية ، فى نظام الكون ، ومادامت القوانين العامة لهذا النظام لم تتعرض لأية نكبة أو تغير قد يحرم الجنس البشرى من الملكات والموارد التى امتلكها حتى الآن . فلن يحدث أى نكوص الى الهمجية ، وما يضمن عدم حدوث هذا الخطر هو اكتشاف الطرق الصحيحة فى علوم الفزياء وتسخيرها لحاجات بنى البشر ، ثم طرق الاتصال التى اقيمت للربط بينهم ، ثم العدد الكبير من أولئك الذى يدرسون هذه العلوم ، وأخيرا فن الطباعة . فاذا كنا قد تيقنا من حدوث تقدم مستمر فى التنور ، فان علينا أن نتيقن من حدوث ارتقاء مستمر فى أحوال المجتمع .

والتنبؤ بالأحداث أمر ميسور ، لو عرفت القوانين العامة للظواهر الاجتماعية . ويمكن استدلال هذه القوانين من تاريخ الماضى ، واستند كوندورسيه الى هذا الحكم فى محاولته الجريئة لتصوير العصر العاشر من التاريخ الانسانى الذى يقع فى المستقبل . ونادى بالفكرة التى انتفع بها كونت فى الجيل التالى ، ولكن يتعذر القول بانه قد استنبط بذاته أى قانون لتقدم المجتمع . فلقد اعتمد تنبؤه للمستقبل على معتقدات عصره وميوله .

وضمن كوندورسيه فى رؤياه ونبؤاته بالاضافة الى الكشوف العلمية والانتشار العام لمعرفة قوانين الطبيعة التى اعتمد عليها الرقى الأخلاقى — انقطاع الحرب وتحقيق فكرة مساواة الجنسين ، وكانت قليلة الشيوع حينئذ . ولو انه كان حيا الآن لكان بوسعه الاشارة متباهيا الى ان أحد هذين المشروعين البعيدى المنال قد تم تحققه فى بعض البلدان البعيدة التقدم . وينظر الى المشروع الآخر كهدف قابل للتحقق بعض رجال الحكم من غير أصحاب الرؤى .. والواقع ان المساواة بين الجنسين لم تزد عن استدلال منطقى من المذهب العام للمساواة الذى ترد اليه نظرية كوندورسيه فى المجتمع . فالهدف من التقدم السياسى عنده هو المساواة ، التى تعد الغاية التى يصبو اليها المجتمع . وهى المثل الأعلى للثورة .

ان اغلبية البشر هى التى يجب ان يعمل لها كل حساب ، أى حشود العمال ، لا الأقلية التى تحيا على جهد الاغلبية .. ولقد أهملها حتى الآن المؤرخون ورجال الحكم على السواء ، على ان التاريخ الصحيح للبشرية ليس بتاريخ فئة من الناس ، لأن الجنس البشرى

يتألف من جموع العائلات التي تكاد تقتات من ثمار عملها وحده - ويدور موضوع التاريخ حول هذه الجموع وحدها ، لا حول عظماء الرجال .

وربما أمكن الاعتماد على القوانين والأنظمة في اقامة مساواة اجتماعية ، وان كانت المساواة التي تيسر التمتع بها بالفعل قد اتسمت بشدة نقصها • واعترف كوندورسيه بهذه الحقيقة ونسبها الى أسباب ثلاثة : التفاوت في الدخل والتفاوت في المرتبة بين من يطمئنون الى سبل عيشهم ويقدرون على نقل هذا الاطمئنان الى ذريتهم ، وبين من تعتمد سبل عيشهم على عملهم الذى ينتهى بانتهاء حياتهم(١) ، والتفاوت في التعلم . ولم يقترح أية حلول جذرية لمعالجة هذه العيوب ، التى اعتقد أنها ستخف بمضى الزمن ، دون أن تختفي نهائيا . اذ كان كوندورسيه عميق التشبع بنظرات الاقتصاديين مما حال دون تأثره بنظريات روسو ومابلي وبابيف وغيرهم ، ممن دعوا الى المشاعية أو الغاء الملكية الخاصة •

وتأمل كوندورسيه الى جانب المساواة بين الأفراد الذين يتألف منهم المجتمع المتحضر المساواة بين شعوب الأرض قاطبة ، وفكرة الحضارة الواحدة في جميع ربوع الأرض ، ومحو الفروق بين الشعوب المتقدمة والمتخلفة ، وتنبأ بنهوض الشعوب المتخلفة مستقبلا الى مكانة مساوية لفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية • فلم يكتب على أى شعب أن يظل عاجزا عن استعمال عقله الى الأبد . فلو سلمنا بالرأى المسلم به القائل بامكان بلوغ الطبيعة البشرية للكمال ، دون أى شرط أو قيد لكان هذا استدلالا منطقيا . ولقد سبق أن رأينا كيف كانت هذه الفكرة من بين المعتقدات السائدة بين الفلاسفة •

لم يتردد كوندورسيه في اضافة تخمينات جريئة الى الصورة التي رسمها عن تحسن صحة الانسان وبيئته واطالة الحياة بدرجة ملحوظة بتأثير التقدم في علم الطب . ويكفيني هنا مجرد الاشارة . واطرف من هذا ازدياد مدى دقة ملكات الذهن الانساني ، وسرعتها نتيجة لاختراع آلات وسبل جديدة ، حتى اذا ظل تكوين المخ الانساني بلا تغير .

لم تكن كتابة تاريخ الحضارة الانسانية قد بلغت النضج بعد ،

---

(١) نادى كوندورسيه بالتأمين على الحياة كوسيلة لتخفيف هذا التفاوت . وكان هذا الرأى قد بدأ يجتذب الصدارة •

ولعل الامر فى كتابة تاريخ صفحة مثل هذا كان يتطلب مؤرخا له مؤهلات جيبون واستعداداته . ولم يتشابه كوندورسيه حتى مع فولتير فى حسن الاعداد (١) ، وترجع أهمية المشروع الذى عرض الى ما احدثه من اثر عندما كانت الحركة الفكرية وشيكة الانتهاء . فلقد ساعد على تركيز الانتباه على أهم أفكار هذه الحركة ، وان لم تكن ابرزها حتى آنئذ ، والى تأكيد الدور الريادى لفكرة التقدم بين المشكلات التى تستحق اهتمام البشر بعد الثورة ، والكشف عنها من وجهات نظر مختلفة . ومع هذا فبالرغم من تشبع عقل كوندورسيه بالنظرات غير المقبولة عن الحياة الانسانية ، والتى شاعت فى عصره ومن حوله ، الا انه لم يشارك ميل اساطين الفلسفة فى النظر الى التاريخ كسجل عديم الجدوى للحماقة والجرائم ، قد يحسن محوه او نسيانه . فلقد أدرك المعرفة التاريخية مفتاحا للتقدم الانسانى ، وسيطر هذا المبدأ على أفكار التقدم اللاحقة فى فرنسا .

(٦)

لم يكن كابانيس الذى حاول التطبيق الحرفى لمعتقدات كوندورسيه اقل ايمانا وتحمسا لامكان بلوغ البشرية للكمال . فبعد أن نظر للحياة والانسان من وجهة نظره الخاصة ، رأى فى دراسة التركيب العضوى مفتاحا لارتقاء البشر فكريا واخلاقيا . فاذا اعتمد الانسان على معرفة العلاقات بين الاحوال المادية والاخلاقية امكنه بلوغ السعادة بفضل ما سيحدث من اتساع فى ملكاته ومضاعفة للمتع . ويمكنك القول بانه سيكون قادرا على ادراك اللامتناهى فى وجوده القصير على الأرض ، اذا استطاع التحقق من يقين التقدم بغير حد . ومذهبه امتداد منطقى لنظريات لوك وكونديالك . فاذا كانت معرفتنا مستمدة بحذافيرها من المحسوسات ، فان محسوساتنا مستمدة من أعضائنا الحسية وبذلك يصبح التعقل وظيفة من وظائف الجهاز العصبى .

وذهب الى ما ذهب اليه كوندورسيه من ان الثورة لم تفلح فى اخماد أكثر من قدر قليل من حماسه حين وثق بانها فاتحة عصر جديد من العلم والفن والتقدم التام للانسان ، تبعا لذلك : « العصر الحاضر واحد من تلك العصور العظيمة التى كثيرا ما سيرجع اليها

---

(١) ولكن بالنظر الى أن كوندورسيه لم يعتمد على الكتب فى نشر آرائه ، لذا يعد « الاسكتش » مثلا مدهشا (للماونة) الفكرية

حلفاؤنا على ظهر الأرض » ، ويذكرونها بالخير (١) • وفى ١٨ من برومير* سنة ١٧٩٩ شارك كابانيس بدور فعال فى الحركة الجريئة التى ساعدت على ظهور نابليون واستبداده . وظن أنها ستساعد على انهاء الطغيان، وتحمس لها حماسا مماثلا لتحمسه هو وكندورسيه للثورة قبل ذلك بعشر سنوات ، وكتب(٢): « يا معشر الفلاسفة ممن ترمى دراستهم الى الارتقاء بالجنس البشرى وسعادته ،، ان ما تؤمنون به الآن ليس مجرد أشباح فارغة • فبعد أن شاهدتم المشهد العظيم لثورتنا ، وتأرجحتم بين الأمل واليأس ، فانكم تشهدون الآن نهاية فصلها الأخير وأنتم مغتبطون • سترون بالبشاشة هذا العصر الجديد الذى وعد به الشعب الفرنسى منذ أمد بعيد وهو يشرق فى النهاية وتستغل فيه كل خيرات الأرض وعبقريات الخليقة وثمار العصر والجهد والخبرة : عصر مجسد ورخاء تنتهى عنده أحلام حماسكم الخير بصدد تحققها » ..

كانت هذه تحية بعيدة الحماس موجهة من القرن الثامن عشر الى القرن التاسع عشر ، واحتوت على كل ملامحه . كان كابانيس واحدا من أولئك المفكرين الذين حرصوا عندما عاشوا فى العصر الجديد على ان يشمر جيلهم رد الفعل وارتفاع فيضه •

---

(١) بيكافيه : Les Ideologues ص ٢٠٣ • ولد كابانيس فى سنة ١٧٥٧ ومات سنة ١٨٠٨ •

(٢) ص ٢٢٤ من نفس الكتاب •

★ الشهر الثانى فى التقويم الذى اخترعته الثورة الفرنسية ويقع بين ٢٢ أكتوبر و ٢٠ نوفمبر •

الفصل الثاني عشر

نظرية التقدم في انجلترا

(١)

ما كان من الميسور لفكرة التقدم الا تعبر المانش وننتقل من فرنسا الى انجلترا ، في أولى سنوات القرن الثامن عشر ، كانت هناك حرب دائرة بين فرنسا وانجلترا، وفي آخر سنوات القرن ، اشتبكا في حرب أخرى • وكان الصراع بينهما من أجل السيادة هو أبرز أحداث القرن برمته • على انه لم يظهر عصر آخر فاق هذا القرن فيما حدث فيه من توثق للصلة المتبادلة واستمرارها بين البلدين • ولا جديد في القول بأن باريس ولندن كانتا مركزي اشعاع الحضارة ، ولم ينقطع الاتصال بينهما على الاطلاق في مجال الفكر • اذ كان الكثير من مؤلفات الأدب الأساسية التي تظهر في كلا البلدين تترجم على الفور ، كما طبعت في لندن بعض الكتب الفرنسية التي رأتها الرقابة خطرة في باريس •

لا جدال انه لم يكن من المتوقع أن تحظى نظرية التقدم بنفس النوع من النجاح ، ولا أن تحدث في انجلترا نفس النوع من التأثير الذي احدثته في فرنسا لأن انجلترا كانت قد انتهت من ثورتها ، أما فرنسا فكانت تتطلع الى هذه الثورة • وكانت انجلترا تتمتع آنئذ بما كان يعد حريات سياسية واسعة ، موضع حسد سائر البلدان • أما فرنسا فكانت تئن وتتوجع من استبداد السفهاء من حكامها • وكانت الامة الانجليزية قانعة بدستورها ، ولم يكن الانجليز يضيقون بالانتهاكات الخطيرة التي قد تلوح لنا ، ولم تكن هذه كافية لايقاظ أية رغبة جامحة في احداث الاصلاح، وساد الميل في الفكر الانجليزي للبحث عن الخلاص عن طريق استقرار الاوضاع القائمة ، والنظر الى التغير نظرة ريب •• والرغبة الحارة في الاصلاح هي القوة الدافعة التي نشرت فكرة التقدم في فرنسا ، وكشفت هذه الفكرة عن فتور خطرها عندما نقلت من جو المشاحنات الذي نمت فيه على أيدي الادباء الفرنسيين الى انجلترا وهدوء جوها ••

وفضلا عن ذلك ، ذهب المفكرون الانجليز بوجه عام الى مسايرة لوك في الاعتقاد بأن المهمة الصحيحة للحكومات سالبة أساسا : المحافظة على النظام والدفاع عن الحياة والملكية . فهي لا ترمي بصورة مباشرة الى الارتقاء بالمجتمع ، بل لتأمين الأحوال التي يسعى فيها الناس لتحقيق أهدافهم المشروعة . وفي الوقت نفسه ، آمن أغلب أصحاب النظريات الفرنسيين بامكان الاعتماد على العمل السياسي في تشكيل المجتمع ، وركزوا آمالهم في المستقبل على منجزات العلم ، وعلى النشاط المتنور للحكومات . وساعد هذا الاختلاف في النظرة على أن جعل مذهب التقدم في فرنسا يتخذ صبغة عملية أكثر من انجلترا .

أما فيما عدا هذا ، فقد كشفت التربة الانجليزية عن استعدادها للترحيب بالفكرة : وظهر نفس الميل التفاؤل بين أبناء الطبقة المنعمة في كلا البلدين : ففي مستهل القرن ، ردد شافتسبري المؤمن بالمذهب التأليهي هذه النغمة ، بنظريته الرصينة التي عبرت عنها عبارة بوب المألوفة : « كل ما هو كائن حق » وحولها هاتشيسون الى نسق فلسفي . وتغلغل هذا التفاؤل في الدوائر الدينية ، فحول اللاهوتي الاسكتلندي تيرنبول فكرة التقدم لصالح المسيحية ، بعد أن بدت له متوافقة مع المسيحية ، بعيدة كل البعد عن التعارض مع فكرة النعمة الالهية (١) .

(٢)

قابل هيوم نظرية التقدم غير المحدود للحضارة بفتور ، وقال ان الزعم بأن العالم « أبدي » أو غير قابل للفساد لا يرتكن على أساس وطيد . فهو فان في أغلب الظن ، ومن ثم ينبغي أن يمر مع كل محتوياته بمراحل طفولة وفتوة وكهولة وشيخوخة .. ويشارك الانسان في كل هذه الأطوار . وعلى هذا فعلينا أن نتوقع الا ممدى من أن يتصف العالم في فترة شبابه بقدرة جسمانية وذهنية أعظم ، وبحياة أطول ، وبميل أقوى وأقدر على الخلق . غير انه من المستحيل أن نحدد متى يتم الوصول الى هذه المرحلة . لأن الثورات التدريجية شديدة البطء بحيث يتعذر لمحها في العهد القصير الذي نحياه من التاريخ . ولقد تماثل الناس الى حد كبير في البيئة والقدرات الذهنية في كل العصور المعروفة . وتعود الفنون والعلوم الى الازدهار من حين لآخر ثم تتعرض

---

(١) مبادىء الفلسفة الحديثة سنة ١٧٤٠

مرة أخرى للذبول ، ولكنهـــا عندما تصـــل الى اسمى كمال عند احد الشعوب ، ربما يحدث ذلك دون أن تكون الشعوب المجاورة على علم به . ومن ثم فاننا غير متيقنين هل تقدم الانسان في العصر الحاضر تجاه نقطة كماله ، أم أنه في طريقه الى الانحدار بعد أن بلغها (١) .

تبدو هذه الحجج مثيرة للدهشة نوعا بالنسبة لمفكر من أبناء القرن الثامن عشر كهيوم ، وان كانت لم تحل دون اعترافه بتفوق الحضـارة الحديثة على القديمة .. ويمثل هذا التفوق في الحق « المقدمة المنطقية الصغرى » في الحكم العام الذى دحض فيه المعتقدات التي تلقى ترحابا عاما عن ازدحام الســكان عند الأمم القديمة . وأصر هيـوم على القول بحدوث ارتقاء في الفن والصناعة وأشاد بما يتمتع به الانسان الحديث من حرية وأمان ، ولاحظ : « ستبدو الطبيعة الانســـانية لمن ينظر للموضـــوع نظرة هادئة قد استمتعت بوجه عام عند أبعد الحكومات تعسفا بحـرية أعظم من الحـرية التي تمتعت بهـا ابان أرقى عصـور العصر القديم » (٢) .

وناقش هيوم الكثير من مشكلات الحضارة ، وبخاصة الاحوال التي ازدهرت فيها الفنون والعلوم (٣) : واستخلص من ذلك بعض نتائج هامة ، ولكنه كان بعيد التشكك بحيث لم يفترض امكان الوصول الى اية نظرة تركيبية عامة للتاريخ ، أو يتوقع احتمال حـدوث قدر ملحوظ من التحسن في أحوال البشر (٤) .

وأعظم كتاب في تناول المشكلات الاجتماعية أصدرته بريطانيا في القرن الثامن عشر هو كتاب « ثروة الأمم » لآدم سميث . وتعد عروضه النيرة عن آثار تقسيم العمـل من أهم ما جاء به المفكرون الانجليز في العصر في دراسة التقدم البشرى . فهو ليس مجـرد بحث في مبادىء الاقتصاد ، لأنه يحتوى على تاريخ لتدرج التقدم الاقتصـادى للمجتمع البشرى . وفيـه ايحـاء بتوقع ازدياد الثروة والرخاء بلا حد . واتفق آدم سميث مع الاقتصاديين الفرنسيين اتفاقا كاملا حـول قيمة الثراء لحضارة البشرية وسعادتها . وان كان كتابه قد أحدث أعظم تأثير ـ لعله كان غير مباشر ـ على مذهب تقدم البشرية في مجموعها . فما قاله

---

(١) Essays on the populousness of Ancient Nations.

(٢) كان الغاء الرق مبررا لهذا الحكم .

(٣) Essay on the Rise of Arts and Sciences.

(٤) Essay on the Idea of a Perfect Commonwealth.

عما سيعود من نفع عظيم على كل أمة نتيجة للتبادل التجارى الحر بين شعوب الأرض قاطبة كان بمثابة مثل أعلى « للتضامن » الاجتماعى للجنس البشرى الذى يعد من بين عناصر المثل الأعلى للتقدم . وسرعان ما بدأ هذا المبدأ يترك أثره على الناحية العملية . واستوعبه « وليم بيت » فى شبابه . ومن بين الميزات التى تذكر عن فترة رئاسته للوزارة ، محاولته تطبيق مذهب استاذه بقدر ما سمحت به الأهواء السائدة .

(٣)

ودرس فئة من الكتاب من ذوى المكانة والشهرة الأقل من هيوم وسميث التاريخ صراحة على ضوء فكرة التقدم . ولن يعود علينا بالنفع تحليل مؤلفات فيرجوسن ودنيبار وبريستلى ، ولكننى سأستشهد بفقرة واحدة من بريستلى ابرز الثلاثة ، وأشدهم حماسة لتقدم الانسان . فلقد توقع اعتمادا على ما سيحدث من ارتقاء لمبدأ تقسيم العمل — أهم مبدأ فى المجتمع المنظم — ما يلى :

« ستزداد موارد الطبيعة وقوانينها خضوعا لسيطرتنا ، وسيتحقق للناس زيادة الشعور باليسر والاطمئنان فى العالم ، أكثر مما هم عليه الآن . ولا يستبعد اطالتهم لبقائهم فيه وحصولهم على سعادة أوفر يوما بعد آخر ... وهكذا فأيا كانت بداية هذا العالم ، فان النهاية ستكون مجيدة ، أقرب للنعيم ، وتفوق كل ما يستطيع خيالنا الآن تصوره . قد يزعم البعض أن هذه الخواطر مغالى فيها ، وان كنت أستطيع أن أبين لهم انها مستوحاة من نظرة حقة الى الطبيعة البشرية ومنبعثة من الاتجاه الطبيعى لأحوال البشر » .

ونوه بريستلى فى محاضراته للتاريخ وفى معرض كلامه عن العصور المظلمة التى يتحتم على أى مدافع عن التقدم التعرض لها بمقدار ما شاركت به فى التقدم اللاحق للمعرفة عندما « زعزعت كيان السلطة » (١) . لم يكن هذا من قبيل الدفاع عن تلك العصور التى سادتها فكرة العناية الالهية ، بعد ان تمت بالفعل قبل ظهور محاضراته ، كتابة التاريخ العظيم للعصور الوسطى * — التى مثلت « انتصار البربرية على

---

(١) لا شك ان ما اوحى له بذلك هو بعض ملاحظات لهيوم فى مقال بعنوان : « نهوض الفنون والعلوم » .

★ يقصد الكاتب كتاب جيبون الشهير ، كما سيتبين من السياق .

الدين » على حد قول بريستلي · على أن كتابه لم يلتفت اليه ــ وهي بادرة جديرة بالملاحظة ــ بالرغم من كونه من الأعمال التي يجب أن ترجع اليها أية نظرية للتقدم ·

بيد أن المؤرخ الشاك صاحب « تدهور الامبراطورية الرومانية وسقوطها » ــ وكان يعرف الأدب الفرنسي معرفة فاقت أقرانه ــ لم يكن معارضا لنظرية التقدم ، بل لقد طرحها في صورة معتدلة · فبعد أن برر اعتقاده ، بأنه من غير المحتمل أن يتعرض المجتمع المتحضر ثانية للتهديد من أية اغارة من البرابرة كتلك التي أنهكت روما وأسلحتها ونظمها، سمح لنا بأن نستخلص النتيجة السارة القائلة « بأن جميع العصور قد استطاعت زيادة الثروة الفعلية للجنس البشري وسعادته ومعرفته وربما فضائله ، وانها مازالت سائرة في هذا الطريق » ·

« يتبين من كشوف الملاحين من قدامى ومحدثين ومن التاريخ الداخلي للأمم الأكثر تنورا كيف عاش (الانسان في حالته الهمجية) ، مجردا من الملبس والمقل ، محروما من القوانين والفنون والمعتقدات ، بل ومن اللغة · ومن هذه الحالة المنحطة ــ ولعلها تمثل الحالة البدائية العامة للانسان ــ ارتفع بالتدريج ، وسخر الحيوانات لخدمته ، وخصب الأرض وعبر المحيطات ، وعرف أبعاد السماء ، ولم يتبع تقدمه في الارتقاء بملكاته العقلية وقدرات جسمه وممارستها ، نظاما واحدا ، بل تنوعت صوره · وبدأ هذا التقدم بطيئا بدرجة بعيدة في البداية ، ثم ازداد تدريجيا بسرعة مضاعفة ، واعقب اجهاد عصور الارتفاع لحظات من السقطات السريعة ، وشعرت الأجواء المتعددة للأرض بتقلبات النور والظلمة · على أن تجارب الأربعة الآلاف السنة لا بد أن تزيد آمالنا وتهدىء مخاوفنا · ولن نستطيع أن نقرر الى أى مدى تستطيع الأجناس البشرية التطلع ، في تقدمها نحو الكمال ، وان كان من الميسور أن نزعم في اطمئنان أن أى شعب لن يرجع على أعقابه ، الى حالة البربرية الأولى ، الا اذا تغير وجه الأرض » (١) ·

على أن جيبون قد عالج الموضوع بأسره بطريقة الخواطر ، وتناوله دون أية اشارة الى أى مبدأ من المبادىء العامة التي ارتكن اليها المفكرون الفرنسيون في نظريتهم · واعترف جيبون بأنه ربما بدا هناك شيء من الزيف في الاعتقاد بسلامة الحضارة من أى خطر يهددها · وتضمنت

---

(١) الفصل الثامن والثلاثون من كتاب جيبون « تدهور الامبراطورية الرومانية وسقوطها » ·

تأملاته أيضا توقعات محتملة عما سيحدثه الزمان من تآكل فى نسيج العلوم والفنون والتجارة والصناعة والقانون والسياسة ، ولو حدث هـذا سَيتحتم نهوض الحضـارة من جديد ، غير أن هـذا لن يبـدأ من نقطـة البدء الأولى لأن « الفنون الأكثر نفعا ، أو الأكثر ضرورة فى أقل تقدير » التى لا تحتـاج الى تفوق فى المواهب ، أو الى الانطواء تحت لواء أمة معينة لممارسـتها ، والتى نشرتها الحرب والتجارة والحماس الدينى بين الهمج فى العالم ، ستستمر فى البقاء بكل تأكيد .

لم تزد هذه الملاحظـات عن ملاحظات عابرة ، غير أنهـا تبين كيف تأثر بمذهب التقدم حتى أولئك الذين كانوا بحكم مزاجهم أقل الناس احتمالا للخضوع للنظريات المتطرفة .

(٤)

أثار اندلاع الثورة الفرنسية حركة تعاطف بين المفكرين التقدميين الانجليز ، أفزعت الحكومة بقدر غير قليل . فألقى القس المنشـق الدكتور ريشارد برايس ــ الذى لاقى نجاحا بعيدا كتابه « ملاحظات عن حرية المواطنين » ١٧٧٦ ، ودافع فيه عما حدث في المستعمرات الامريكية ــ الدفاع الذي دفع بيرك الى كتـابة « تأملات فى الثورة الفرنسـية » ، وقد قام بالرد عليه بريستلى ولم يكن أقل تحمسا فى ترحابه بالثورة . ولجأت الحكومة الى اجراءات تعسفية ، فنفى الى بوتانى باى (وكان معسكر اعتقال فى ويلز الجنوبية الجديدة فى القرن الثـامن عشر) الشبان الذين شعروا بالعطف على الثـورة الفرنسـية ، وطالبوا باجراء اصلاحات فى انجلترا . واضطهد توماس بين بعد ظهور كتابه « حقوق الانسان » الذى دعا صراحة للثورة . أما أهم مؤلف نظرى فى العصر : « العدالة السياسية » لوليم جودوين فقد غفلت عنه الرقابة لارتفاع سعره عن أثمان الكتب الشعبية (١) .

فى سنة ١٧٩٣ ، ظهر كتاب « بحث عن العدالة الانسانية » الذى بدأت كتابته سنة ١٧٩١ . ويتبين من الطبعة الثانية التى نشرت بعد ذلك بثلاثسنوات تأثير كتاب « الاسكتش » لكوندورسـيه ، وكان قد

---

(١) فى سنة ١٧٩١ ، ساعد جودوين على نشر كتاب « بين » ، وكانت صلته وثيقة بجماعة أصحاب الأرواح الثورية الذين اضطهدتهم الحكومة . ومن المستطاع الاهتداء الى معلومات قيمة عن هذا الحادث فى كتاب بربلسفورد « شيللى وجودوين والمحيطون بهم » Shelley· Gordwin and their circle.

ظهر فى نفس هذا الوقت • وقال جودوين أن غايته الأصيلة من اخراج كتاب عن علم السياسة يحل محل كتاب مونتسكيو • واذا كانت فلسفة مونتسكيو السياسية قد هدفت الى الحث على احترام الأنظمة الاجتماعية ، فان جودوين قد رأى وجود ضرر بالغ فى هذه الانظمة الاجتماعية • فهى تثبت الأهواء الضارة وتكاد تعد عائقا منيعا يعترض التقدم • ومع أنه قد ركز استنكاره على الحكومة الملكية ، الا أن الحكومات كافة قد بدت له شريرة ، وذهب الى أن التقدم الاجتماعى يعتمد على القضاء على الحكومة لا على اصلاحها • واعترف بأن الانسان قد تقدم فى الماضى ، وان كان قد رأى التاريخ أساسا لسلسلة من الأهوال ، وعجز عن النظر الى معالم الحضارة نظرة رصينة هادئة ، ولم ير فى الأنظمة الانجليزية شيئا لايسىء الى مبادىء العدالة والخير ، فلقد بلغت البشرية القدر المتوقع لها من السوء •

ومن اليسير ان ندرك مدى عمق تأثر جودوين بتعاليم روسو • فلقد اتبعه فى فرط استنكار الأوضاع القائمة ، بغير قبول لنظرية « الأركاديا » (أو النعيم على الأرض) ويعد روسو وجودوين أعظم نصيرين للكادحين فى القرن الثامن عشر • ولكن جودوين قد استطاع أن يستخلص من مقدمات روسو النتائج المنطقية التى تردد فى استنتاجها بنفسه • فمع ان المفكر الفرنسى قد امتدح حالة الفوضى فى المجتمع غير المتحضر ، ونبذ الحكومة بوصفها من أسباب فساد المجتمع ، الا أنه رأى أن علاج هذه الحالة يتطلب استحداث أنظمة اجتماعية وسياسية جديدة• أما جودوين فقال فى جرأة : الحكومة شر ، وينبغى الخلاص منها • فلن تعرف البشرية السعادة على الاطلاق الا اذا اختفت كل سلطة سياسية ، وكل نظام اجتماعى •

من هذا يتضح ان ميزة موقف جودوين كصاحب مذهب فى التقدم انما ترجع الى اتباع نفس النظرة المتشائمة الى بعض جوانب هامة من الحضارة ، كما فعل روسو ، وان كان قد اتبع فى الوقت نفسه نظريات خصوم روسو كهلفسيوس خاصة • اذ تبدو نظرته لأحوال البشر وكأنها قد اتجهت اتجاها محتوما الى التشاؤم ثم انقلبت رأسا على عقب فنادت بمذهب امكان بلوغ الكمال •

ويعيدنا تفسير هذا الرأى الى النظرية السيكلوجية لهلفسيوس الذى اعتقد ـ كما رأينا ـ فى خضوع طبائع الناس ، وخلقهم ، خضوعا كاملا لبيئاتهم ، وقام جودوين بطريقته الخاصة بالتوسع فى هذه النظرة•

ولم يقصد بذلك البيئة المادية ، ولكنه قصد البيئة الفكرية والسلوكية التي يستطاع تعديلها الى غير حد : فالانسان يولد في العالم بغير ميول فطرية ، ويعتمد سلوكه على معتقداته • ويساعد تغيير معتقدات الناس على تغيير سلوكهم •• ولو تغيرت معتقداتهم بحيث تتوافق مع العدالة والخير ، سيتحقق مجتمع العدل والخير • فالفضيلة بكل بساطة ــ كما قال سقراط ــ مسألة معرفة • وعلى هــذا فان الوقف لا يدعو الى اليأس لأنه لا يرجع الى الطبيعة الجذرية للانسان ، ولكنه يرجع الى جهل الحكومات والأنظمة والملوك والكهنة ، والى تزمتهم : غيروا معتقدات الناس سيتغير المجتمع • واعتقد الفيلسوف الفرنسي أن اصلاح نظام تعليم الأطفال سيكون من بين أقوى سبل النهوض بالتقدم وتحقيق سيطرة العقل • وكان كوندورسيه قد وضع مشروعا لنظام تعليمي شامل ترعاه الدولة • وتعارض هذا الرأي تعارضا كاملا مع مبادىء جودوين الذي رأى أن مدارس الدولة لن تكون أكثر من أداة سيطرة اخرى في يد الحكومة أسوأ حتى من الكنيسة الرسمية ، لأنها قد تزيد من التأثير السام للملوك ورجال الحكم ، وتوطد أقدام التزمت بدلا من القضاء عليه • والظاهر ان جودوين قد اعتمد كل الاعتماد على المحاولات الخاصة للمفكرين المتنورين في احداث تحول تدريجي في الرأي العام ••

وكشف جودوين في دراسته لامكان بلوغ الانسان الكمال ، وتوقع شيوع العدالة والخير مستقبلا ، عن تفوقه في القدرة على الرؤية على كوندورسيه ذاته ، كما كان أشد تطرفا من الثوريين في نظرته السياسية • فعلينا الا ننسى أن كوندورسيه عندما تصور المستقبل قد اتجه الى الربط بينه وبين البحث القائم على الاستدلال للماضي ، كما سعى للحصول على روابط تربطه بتسلسله • أما ما قاله جودوين عن الكمال فمعلق في الهواء ، لا تستنده الا نظرية مجردة عن طبيعة الانسان •

يتعذر القول بأن جودوين قد شارك بكتابته بأي شيء جديد في المشكلة النظرية للحضارة • وترجع أهميته الى أنه نادى في الوقت المناسب في انجلترا بعقيدة التقدم التي دعا اليها الفلاسفة الفرنسيون ، وبطريقة أكثر تأثيرا وادهاشا من أسلوب داعية رصين كبريستلي ، وان كانت هذه الدعــوى قد تحورت بدرجة ملحوظة بفعل معتقداته الفوضوية •

واجهت « الكمالية » ، كما شرحها كل من كوندورسيه وجودوين نقدا عنيفا من مالتس الذى ظهر كتابه « مبادىء السكان » فى أول صورة له بتوقيع مجهول سنة ١٧٩٨ • ولقد سبق لكوندورسيه ان توقع اعتراضا ربما يثار ، وجاء قاضيا على تحقق دولته مستقبلا : الا يساعد تقدم الصناعة والسعادة على احداث ازدياد مطرد فى السكان ، وأن يجىء وقت يتجاوز فيه عدد سكان الأرض موارد تعيشهم • لم يتعمق كوندورسيه هذه المسألة ، وقنع بالقول بأن مثل هذا العهد لابد أن يكون بعيدا للغاية : « سيكون الجنس البشرى قد حقق حينئذ رقيا يتعذر علينا تكوين أية فكرة عنه » • ولاحظ جودوين بالمثل فى الصورة الوهمية التى رسمها للسعادة المستقبلة للجنس البشرى صعوبة المسألة ، واحجم عن الخوض فيها : « ان ثلاثة أرباع أرض العالم الآهل بالسكان الآن غير مزروعة ويتقبل ما يزرع منها الآن تحسينات لا تقف عند حد • وربما مرت قرون لا حصر لها يستمر فيها ازدياد السكان ، وتظل الأرض كافية لاعاشة سكانها » •

ورد مالتوس بالقول بأن هؤلاء الكتاب غارقون فى الوهم عن العلاقة الفعلية بين السكان وموارد العيش • وفى الظروف الحاضرة هناك عوامل مساعدة تحول دون ازدياد الجنس البشرى الى ما هو أكثر من موارد العيش كالرذيلة والبؤس ، والخوف من التعرض له (١) • وفى الحالات التى تخيلها كوندورسيه وجودوين ، والتى سيتم فيها الخلاص من هذه الحوائل المتحكمة سيزداد بالتبعية عدد السكان بسرعة فائقة فيتضاعف هذا العدد فى غضون خمس وعشرين سنة على أقل تقدير ، فاذا راعينا أن خيرات الأرض لا تزيد الا وفقا لتوالية حسابية ، فعلى هذا ستكون موارد الغذاء أقل بكثير من الطلب • وبذلك تظهر للوجود علاقة قلقة بين الاعداد وموارد الغذاء ، وينتهى عهد رفاهية الجنس البشرى •

وربما أجاب جودوين وانصاره على هذا بأن من بين سبل التحكم فى زيادة عدد السكان وضع قيود لذلك ــ كما ادرك مالتوس ذاته

---

(١) سبق لروبرت ولاس ذكر هذه الملاحظة (كما اشار هازليت) • انظر الى ص ١٣ من كتاب Dissertation on the Numbers of Mankind. (١٧٥٣) • واوحى لجودوين كتاب آخر لولاس بهذه الصعوبة •

بحصافة — ستزداد انتشارا بتقدم التنوير ، الذى زعمته نظرياتهم (١)، ولكن انتقادات مالتوس وجهت ضربة قاضية للمذهب القائل بأن العقل الانساني يتمتع بفضل القوانين والحكومات بسلطان غير محدود لتغيير أحوال المجتمع • وقدر للصعوبة التى طرحها فى مثل هذه الصورة الحية القاطعة أن تتسبب فى بخس قيمة الفكرة ، وان تفسر على أنها تعنى امكان النهوض بالمجتمع وتحويره بالاعتماد على المحـــاولات الواعية للناس ، ولكن فى نطاق حدود معينة (٢) •

(٦)

وفيما بعد أصبح كتاب مالتوس واحدا من الكتب المقدسة عند أنصار المذهب النفعي • ومن الطريف ان نذكر ما أعتقده بنتام ذاته عن امكان بلوغ الكمال • فلقد لاحظ فى معرض اشـارته للنظريات المتفائلة لشاستيلو وبريستلى عن الرقي والتقدم : « ان أمثال هذه التوقعات المجيدة تذكرنا بما يقال عن وجود عصر ذهبي للشعــــر • فالكلام عن السعادة الكاملة ينتمي الى العوالم المتخيلة للفلسفة ، وينبغي وضعه جانبا الى جنب بجوار اكسير الحيـــاة وحجر الفلاسفة » • ثم سيستمر على الدوام وجود مواضع للغيرة بسبب التفاوت بين هبات الطبيعة وأنصبة الافراد ، ولن تكف المصالح عن التصادم ، وما يتبعهـــا من كراهية : « سيكون الكفاح المرير والخنوع الدائم — وهما من مستلزمات الفاقة — على ما يبدو — من نصيب الاعداد الوفيرة » ولا يستبعد أن تستنفد كل

(١) الفر هازليت هذه النقطة عند نقده لمالتس فى كتاب روح العصر :
Spirit of the Age

(٢) للنتائج الحديثة التى اهتدى اليها مستر كنيبس عالم الاحصاء فى استراليا فى الجزء الأول من الملحق الذى ذيل به احصاء الكومنولث أهمية خاصة فى هذا المضمار وما اقتبسه له ذكر فى مقال من جريدة التايمز بتاريخ ٥ أغسطس سنة ١٩١٨ : « تنبأ عالم جغرافى نابه : المرحوم المستر رافنستاين منذ بضع سنوات (عندما قدر عدد سكان الأرض بألف وخمسمائة مليون نسمة) بأن عدد السكان سيصل حوالى منتصف هذا القرن الى حد تصبح بعده ايه زيادة مهلكة • والمستر كنيبس ليس من غلاة المتشائمين » ويتميز بشدة الدقة ، ورغم أنه قد أجل ميعاد نقطة التصاعد التى يتحقق بعدها الهلاك ، الا إنه لم يشك إطلاقا فى حتمية حدوثها ، وأكد لنا أن الحد الأقصى لزيادة البشرية أقرب مما يتخيل عامة الناس • فسرعان ما ستتفاقم الصعاب التى تحول دون موارد الغذاء ، الطاقة الضرورية لأى ازدياد ملحوظ فى السكان أو تقدم فى مستوى المعيشة ، أو الاثنين معا • ولن يستطاع استمرار المعدل الحالى لزيادة سكان العالم زهاء الأربعة القرون القادمة •

موارد الأصالة في الفن والشعر • ولكن بنتام كان أبعد ما يكون عن الاتصاف بالتشاؤم • فرغم اعتقاده بأننا « لن نستطيع قط جعل العالم مأوى للسعادة الا أنه قد ذكر أنه من المستطاع جعله أمتع روضة بالمقارنة بالغابات الوحشية التي هام فيها الناس طويلا على وجوههم » (١) •

(٧)

لاقى كتاب مالتوس الترحيب حين ذاك من كل من افزعتهم الثورة الفرنسية غاية الافزاع ، ورأوا في « الفلسفة الحديثة » كما كانت تدعى تهديدا خطيرا للمجتمع (٢) • فالشر والبؤس و « القوانين المعصومة للسكان » من النعم التي أرسلتها العناية الالهية لانقاذ الدولة من « مرض السعي وراء الكمال » • وبوسعنا أن ندرك الفزع الذي تعرض له المؤمنون بالأوضاع القائمة • ففي ذلك الحين ، أحدث كتاب جودوين — الذي نسي الآن بالفعل ، بينما مازال مالتوس يرجع اليه كمكتشف لعلم الاجتماع — تأثيرا عارما على العقول القابلة للايمان • وهلل لجودوين كأحد أصحاب البشرى كل من أعلوا من قدر الحرية وشعروا بالحدب على المظلومين ، وتوافرت لهم القدرة على عشق المثل الاجتماعية• فقال أحد المعاصرين : « لم يماثله أحد في كثرة الحديث عنه ، وفي التطلع والسعي اليه • وحيثما دار الكلام عن الحرية والحقيقة والعدالة كان اسمه قريبا الى الشفاه » • وترك صغار الخريجين الجامعات وألقوا بأنفسهم تحت أقدام « الرب » الجديد وأهمل طلاب الثانوية والطب دراساتهم التي يتعيشون منها وعكفوا على الحلم « بخلق مجتمع جديد وبتقدم العقل » • ولقد تمثل عند جودوين • « كل ما في هذا العهد من فرط حرارة الحماس ، وجرأة في الفهم » (٣) •

وأشهر اتباعه هم الشعراء : وردزورث وكولريدج وسوذى ، ثم شيلي فيما بعد • وكان وردزورث قد شعر بتعاطف حار على الثورة

---

(١) انظر الى مجموعة مؤلفاته • الكتاب الأول ص ١٩٣ وما بعدها •

(٢) اعتقد هازلت وشيلي أن مالتوس قد تملق عواطفنا بسلسلته « التي ترمى الى الدخال الطمأنينة في قلوب مضطهدى البشرية » (مقدمة كتاب شيلي ثورة الاسلام) واشار بنتام في كتاب المغالطات الى علم شمبية معتقدات بريستلى وجودوين وكوندورسيه « المعتقد الشبح أن السعي وراء الكمال دليل على الحماقة الصرفة أو الخبث » •

(٣) مقال لهازليت عن جودوين في كتاب « روح العصر » (كتب سنة ١٨١٤)

الفرنسية . وفي الايام الباكرة للثورة ، زار باريس وقال عنهـــا انها مثلت :

ميدانا احتدم فيه الجدل

حول ألمع التوقعات

ففي كل يوم كان يتم شحنها بعالم جديد من الأمل

وفي سنة ١٧٩٥ ، اتجه الى اتباع جودوين بعد أن قضى «الارهاب» على ايمانه بفرنســا الثائرة . أما سوذى الذى كان واقعا تحت تأثير روسو فقد تعرف على نظريات جودوين عن طريق كولريدج ، واندفع الاثنان بتأثير التحمس للمدن الفاضلة الى وضع مخطط لمستعمرة في أمريكا تختفي فيها الفروق لاثبات كيف يستطاع تحقيق السعادة في مجتمع يتوافق فيه الواجب مع الصالح الخاص ، ذلك اذا تحلى الجميع بالفضيلة . وكان هذا المشروع من بشائر التجربة التى أجراها كل من أوين وكابيت ، غير أن كولريدج وســوذى لم يتعرضا لخيبة الأمل التى تعرض لها الاشتراكيان (أوين وكابيت) لان التجربة لم تنفذ قط . وسرعان ما تخلى كل من كولريدج وســوذى ، وكذلك وردزورث عن اتباع جودوين (١) ــ بعد أن ضلا الطريق في مدينتهم الفاضلة ــ على حد قول هازليت ، وتخليا عن النظرة المجردة الآلية للمجتمع التى دعت لها الفلسفة الفرنسية في القرن الثامن عشر ، واستعاضا بها نظرة عضوية فيها مكان مناسب للاحساس التاريخي ، وحكمة جدودنا ، وبذلك تسنى لوردزورث تذكر المرحـــلة التى آمن فيها بجودوين وانتقـــادها باعتبارها :

دالة على مغالاة في التشامخ والثقة

بالحكمة المتعالية للعصر

والقدرة على اللمح (٢)

---

(١) اعترض كولريدج في رسائله التى ترجع الى سنتي ١٧٩٧ و ١٧٩٨ على اعتقاد الفرنسيين في التقدم وعلى فلسفة جودوين ــ راجع ص ٣٨٩ و ٤١٤ من كتاب سستر Cestre : الثورة الفرنسية والشعراء الانجليز (١٧٨٩ ــ ١٨٠٩) .

(٢) أنظر الى كتـــاب ورد زورث : Colloquies. ولقد كتب شيلي سنة ١٨١١ يقول ان سوذى يتطلع الى دولة يبلغ فيها الجميع الكمال ، وتخضع فيهـــا المادة لقدرة العقل النادر على كل شيء (دودين : حياة شيلي ص ٢١٢) . قارن هذا الكلام بما سيأتي فيما بعد .

وتحول وردزورث وسوذى الى دعامتين محافظتين للدولة ، وان كان سوذى رغم رجعيته السياسية لم ينقطع عن الايمان بالتقدم الاجتماعي ، ولم يتشكك فى امكان احداث التغيير عن طريق الاصلاحات الوئيدة الحذرة ، مع الاعتماد على عون الكنيسة ، كما استمرت انحرافات افكار شبابه تؤثر فى معتقداته ٠

عندما كان هؤلاء الشعراء يرتمون عند أقدام جودوين ، كان شيللى مازال طفلا ، ولكنه صادف فى مكتبة جامعة إيتون كتاب « العدالة الاجتماعية » ٠ وفى أواخر حياته ، كان يعيد قراءته كل سنة تقريبا ٠ وعندما تزوج ابنة جودوين ، فاق جودوين ذاته فى شدة التمسك بالجودونية ، وفى سنة ١٨١٤ ، كتب هازليت يقول : « لقد اختفى صيت جودوين ، واحتجب وراء الافق » ٠ ولكن شيللى لم ينقطع قط عن الايمان بنظريته بالرغم من أنه أدرك فى البداية أكثر مما تخيل أن عملية بعث الانسان ينتظر أن تتحقق بعد أمد بعيد ٠ وفى قصيدة الملكة معاب التى نظمها فى حداثته ، كانت فلسفة جودوين كامنة وراء حديثه عن المستقبل ، كما كانت كامنة أيضا وراء قصائده الاطول والاكثر طموحا فى سنوات نضجه ٠ وتمثل مدينة الذهب فى قصيدة شيللى « ثورة الاسلام » نفس ما تخيله جودوين عن مستقبل المجتمع ، ووصف هذه القصيدة بأنها « تجربة لازدياد السعادة فى المجتمع فى جانبيه السياسى والاخلاقى ، بين المتنورين ونخبة القوم ، والعواصف التى هزت العصر الذى نحيا فيه » ٠ أما فيما يتعلق ببرومثيوس الطليق من القيد « فقد كتب عنها دودين كاتب سيرة شيللى يقول :

« فى آثاره المجيدة التى لم يقدر لها الخلود Caput mortuum التى كتبت عندما حول (شيللى) الناقد شمر « برومثيوس » الى سلسلة من الاحكام المتقائدية ، نرى كل المغالطات البراقة للعدالة الاجتماعية (التى وضعها جودوين) بعد أن شوهها بما فيه الكفاية ، بالاضافة الى كل حماقتها المشجعة والمثيرة » ٠

والهم نفس الحلم الكورس الأخير من قصيدة هيلاس ٠ وهكذا يتضح ان شيللى كان من الشعراء المؤمنين بامكان بلوغ الكمال ٠

(٨)

لم تعد جاذبية فكرة الكمال مقصورة على صفوف الأدباء ، فلقد تخطتها ، وصادفت عند روبرت أوين المفكر الخير صاحب مغازل القطن

بلانارك بمانشستر رسولا بنى عليها نظرية بعيدة الاختلاف عن نظرية العدالة السياسية لجودوين ، وبذلك أصبح من بين مؤسسى الاشتراكية الحديثة ٠

وارتفع نجم فكرة التقدم بعد الربط بينها وبين الاشتراكية (١) ٠ وكان قد ابتدع الاشتراكية فى أول صورها — أى ما سمى بصورتها العاطفية — سان سيمون فى فرنسا وأوين فى انجلترا فى نفس هذا الوقت تقريبا ٠ وجاء ماركس فهبط بها من السحب وجعلها ذات أثر فى السياسة العملية ٠ وعلينا أن نراعى أن المذاهب الاقتصادية فى صورتها الباكرة والمتأخرة على السواء قد ارتكنت على النظرية الاجتماعية المعتمدة على الزعم — مهما كان مقنعا — بأن نظم المجتمع وحدها مسئولة عن الرذيلة والشقاء السائدين ، وأنه من الميسور احداث تغيير فى الانظمة والقوانين يساعد على القضاء على الشقاء والرذيلة ٠ ويمثل هذا الرأى صميم معتقدات القرن الثامن عشر ٠ وانتقل من أصحاب المذاهب الثورية فى هذا العهد الى الاشتراكيين البنائين فى القرن التاسع عشر ٠

لا يستبعد أن يكون أوين قد تعلم هذا الرأى من جودوين ٠ ولم يخف هذا الأمر الذى فرضه فى أعماله العديدة بصورة مثيرة للتقزز ٠ وبدأ ترويج دعواه بكتابة « نظرة جديدة للمجتمع أو مقالات فى تكوين السلوك الانسانى ، تمهد لمخطط موضوع للارتقاء التدريجى بأحوال البشر » وأهدى هذا الكتاب الى الوصى على العرش (٢) ٠ وفيه ذكر أنه بالامكان دفع أى مجتمع — بل والعالم على سعته الى التحلى بسلوك ما ، ابتداء من الأفضل الى الاسوأ ، باتباع السبيل المناسب ، الخاضع لدرجة كبيرة لسيطرة أصحاب التأثير فى أحوال الناس وتوجيههم (٣) ٠

---

(١) اخترعت الكلمة فى كل من انجلترا وفرنسا ٠ وظهرت فى كل منهما مستقلة عن الاخرى ٠ فلقد حمل مقال فى مجلة Poor Man's Guardian وكان يشرف على تحريرها هيزرنجتون ثم برونتيير اوبراين بسه) فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨٣٣ توقيع « اشتراكى » ٠ وفى سنة ١٨٣٤ وفى فرنسا استعمل ليرو كلمة اشتراكية كصفة معارضة للفردية فى مقال نشر بمجلة Revue Encyclopédique وظلت الكلمة فى New Moral World تطلق ابتداء من سنة ١٨٣٤ على أنصار أوين ٠ انظر كتاب دوليسان (روبرت أوين ١٩٠٧) ص ٢٠٥ ٠

(٢) الطبعة الثالثة ١٨١٧ ظهرت المقالات مستقلة ١٨١٣ — ١٨١٤ ٠

(٣) ص ١٩ ٠

وأكثر من ترديد النغمة القائلة بأن أعظم خطأ تقع فيه الحكومات هو زعم مسئولية الناس عن رذائلهم وفضائلهم ، وأفعالهم وتصرفاتهم بالتبعية. فهذه الصفات نتيجة للتعليم والأنظمة ، ويستطاع تغييرها تلقائيا في حالة احداث تغيير في هذه المؤثرات والعوامل ، وأنشأ أوين لنشر النظريات عدة مجلات لم يقدر لها طويل البقاء • وبشر العدد الأول من المجلة (١) (١٨٣٤ ــ ١٨٣٦) باقتراب المجتمع المثالي الذى سيختفي منه الجهل والفقر والاحسان ، ويجيء نظام « يضمن السعادة للبشر طوال العصور القادمة ، يحل محل النظام الذى يتحتم أن يسفر عن شقاء الجميع ما دام مستمرا في وجوده » وأثبتت محاولته التجريبية لانشاء مثل هذا المجتمع على نطاق صغير في أمريكا فشلا ذريعا مثيرا للسخرية •

يلاحظ أن فكرة التقدم كشيء لا يقف عند حد ، قد بدأت تختفي في هذه النظريات الاشتراكية ، أو بدأت تفقد أهميتها • فلو أمكن تحقيق الجنة على الأرض بضربة معلم اعتمادا على أى تنظيم معين للمجتمع ، سيتحقق حينئذ هدف التقدم ، لأننا سنكون قد بلغنا النهاية ، ولن يبقى لنا الا العيش والاستمتاع بالدولة المثالية حيث سيحيا بنو البشر في جنة شبيهة بحديقة للوحوش السعداء • وسوف يكون هناك مكان لتقدم أبعد ــ ربما بلا حد ــ في المعرفة ، ولكن الحضارة في مظهرها الاجتماعي ستنزع الى السكون والجمود • فعندما يتحقق اشباع رغبات الانسان على نحو كامل في أية بيئة متوافقة لن يكون هناك حوافز لاحداث تغيرات أبعد ، وبذلك يختفي الطابع الدينامي (الحركي) للتاريخ •

وهكذا تنوعت نظريات التقدم وانقسمت الى نوعين مميزين يناظران نظرتين متعارضتين أشد تعارض تتجاوبان مع مزاجين متضادين• النوع الأول ــ يضم المثاليين والاشتراكيين البنائين الذين يعرفون بالاسم كل ما تخيلوا من شوارع « مدينة الذهب » وأبراجها ويعرفون معرفة وثيقة مكانها حول « الأكمة البحرية » • في هذه النظم المثالية ، يتقدم الانسان في نظام مغلق ، نهايته معروفة وفي متناول يديه • ويتبع النوع

---

(١) The New Moral World لم تكن مجلة بالمعنى الصحيح ، ولكنها سلسلة من النشرات التي ظهرت من سنة ١٨٣٦ ــ ١٨٤٤ • ومن بين كتب اوين الاخرى Outline of the Rational System. (الطبعة السادسة ليدز ١٨٤٠) و
The Revolution in the Mind and Practice of the Human Race. (١٨٤٩) و
The Future of the Human Race. (١٨٥٣) و
The New Existence of Man upon Earth. (الأجزاء من ١ ــ ٨) ١٨٥٤ ــ ١٨٥٥ •

الثاني أولئك الذين تعرضوا النهوض التدريجي للانسان ، وانتهوا الى الاعتقاد بأن الانسان سيتجه حثيثا نحو حالة ازدياد في التوافق والسعادة بالاعتماد على نفس القوى المتفاعلة التي ارتفع بها ، وبفضل ما ستحققه له من تقدم الحرية التي حارب من أجلها . هنا لا يقف التقدم عند حد . فنهايته غير معروفة ، لأنها تقع في المستقبل القصي . والدافع اليه هو الحرية الفردية ، وما يناظره من نظريات هو « النظرية الليبرالية » . أما المذهب الأول فيتجه بطبيعة الحال الى نظام متناسق رتيب يغلب عليه سلطان الدولة . ولا تزيد قيمة الفرد فيه الا قليلا عن ترس في عجلة حسنة التزييت . فمكانه محدد ، وليس من حقه العيش وفقا لمشيئته . والمثل الأساسي لهذا النوع ، في حالة عدم اتصافه بالاشتراكية هو فلسفة كونت ، كما سنرى .

الفصل الثالث عشر

نظرة الألمان إلى التقدم

(١)

أبان العهد الذي عاشت فيه سيكلوجية لوك في فرنسا ، وقبل أن تستهل عبقرية كانط عهدا جديدا ، اعتمدت النظرات الفلسفية السائدة في ألمانيا على مذهب لا يبنتز . ومن هنا نستطيع أن نتوقع العثور على نظرية ناهضة في التقدم مساوية في ارتقائها للنظريات الفرنسية ، رغم اعتمادها على مبادىء مختلفة . فكما رأينا ، قدم لايبنتز في نظريته المتفائلة للكون أساسا لمذهب التقدم الانساني ، وجاءت اشارته اليه عابرة . ومع هذا فلم تنهض هذه الفكرة الا متأخرا ، أى لم تتخذ الصدارة الا قرابة نهاية العصر الذى يعرف عادة باســـم عصر التنوير ، ومن المثير للاهتمام ادراك سر ذلك .

تزعم فولف خلفاء لايبنتز وشارحيه . وضغط بتعسف معتقدات المفكر العظيم في نسق منطقى محكم اجتاح ألمانيا حتى جاء كانط فأزاله من الطريق . وما يحدث عادة في مثل هذه الأحوال ، هو تشديد الإفصاح عن بعض معتقدات المفكر المثيرة للانتباه ، واتجاهاته ، وفرضها ، مع تعرض المعتقدات الأخرى للاغفال . وكان هذا ما حدث هنا . ففى مذهب فولف ، تعرضت نظرة لايبنتز للتقدم الى التوارى ، وبذلك اختفى العنصر الحركى (الدينامى) الذى أنعش نظراته . فلقد أبرز فولف القول بثبات جملة القوى الدائمة المحركة للعالم الفزيائى . واتجه أنصاره الى استنباط جميع القواعد السلوكية في عالم الأخلاق . ولا يخفى استبعاد حدوث أى تحسن أخلاقى للبشرية فى مجموعها فى حالة اتباع مثل هذه العقيدة الجامدة . وهكذا رأينا مندلسون ــ الذى اضطلع بترويج فلسفة فولف ــ يصرح بأن « التقدم خاص بالفرد وحده ، أما الزعم بأن البشرية في جملتها قادرة

على التقدم وبلوغ الكمال بمرور السنين ، فلا أظنه من غايات العناية الالهية » .

واغرى نشر « المقالات الجديدة * » (١٧٦٥) بعض المفكرين على ترك عظائم أفكار فولف اليابسة ، والرجوع الى لايبنتز ذاته . وفي الوقت نفسه . كان الفكر الفرنسي قد بدأ يتغلغل . ونتيجة لهذه التأثيرات ، تميزت المرحلة الأخيرة من عصر « التنوير » في ألمانيا بظهور كتابين أو ثلاثة غلبت عليها فكرة التقدم .

ونحن نرى رد الفعل هذا ضد فولف ومذهبه الراكد في كتيب صغير نشره هردر بعنوان « فلسفة للتاريخ ، للارتقاء بالبشرية » . وفيه اعترف بأن التقدم مستمر ، وكل شعب يبني فوق ما بناه الشعب الآخر . وعلينا ألا نعتمد على الحاضر في حكمنا على العصور الغابرة ، لأن علينا أن ننظر نظرة نسبية للظروف الخاصة بهذه العصور . فما تحقق الآن لم يكن ميسورا على الاطلاق فيما مضى ، لأن كل ما ينجزه الانسان مشروط بالزمان والمناخ والأحوال .

وبعد ذلك بست سنوات ، ظهر كتيب «للسنج» بعنوان تربية الجنس الانساني مصنفا في صورة قواعد وأحكام ، تبدو في نظر القارىء الحديث مفتقرة الى قوة المحاجاة . ويدور الكتاب حول دور دراما التاريخ في تهذيب الانسان ، بالاعتماد على سلسلة متلاحقة من الأديان التي لم تكتمل بعد ، لأن المستقبل سيخرج أديانا جديدة موحى بها ترفع الانسان الى مكانة أسمى من المكانة التي رفعه المسيح اليها . واعترف هذا التفسير التاريخي بالتقدم ، وان كان قد افترض مثلا أعلى ، واعتمد على مقياس بعيد الاختلاف عن معايير الفلاسفة الفرنسيين ، فلم يكن هدفه السعادة المتبادلة بين الأفراد ، ولكنه الادراك الكامل لله . وبذلك أصبحت فلسفة الدين مفتاحا لفلسفة التاريخ . والكتاب مجرد تلميح لمذهب جديد ، بيد أنه قد ناسب المقام ، واتسم بطرافته .

في نفس الوقت ، استمر هردر في تأملاته . وفي سنة ١٧٨٤ ، قدم للعالم الجرماني ، استعراضا لحياة الانسان : « تأملات في فلسفة تاريخ البشرية » . وحاول هردر في هذا الكتاب المشهور — الذي نستطيع ان نلمح فيه ، وانما لغاية مختلفة ، تأثير المفكرين الفرنسيين ، مونتسكيو ، خاصة

---

* Nouveaux Essais.

وكذلك لايبنتز – تحقيق نفس المهمة التي رسمها تيرجو وكوندورسيه وضع تاريخ كلي للحضارة ٠

فالله صمم هذا العالم ، ولكنه لم يتدخل فعلا في أحـوالـه ، لا في مسائل الكون الطبيعي ، ولا في تاريخ البشر ٠ والتاريخ البشري ذاته والحضارة ظاهرة طبيعية صرفه ٠ وتتسلسل الأحداث في نظام وثيق ، لا انقطاع في اتصالها ٠ وما حدث في أي زمان معلوم ما كان ليحدث الا في هذه الآونه ، وما كان من المستطاع حدوث شيء اخر ، ولم تكتف جبريه هردر باستبعاد ما قاله فولتير عن المصادفه ، ولكنها صمت ايضا كل فعل عقلي حـــر تقوم به الارادة ٠ فالانسان غير قادر على توجيه مصـــيره ، لأن ما يسيطر على أفعاله ومصيره هـــو الطبيعة وتكوينه العضـــوى وبيئته الفيزيائية ٠ ولم يتنبه اطلاقا الى التناقض بين اتصاف الله بعدم الفاعلية ، والمظاهر القدرية لهذه الفلسفة ٠ وخفف من وطأة المذهب القول بأن العالم قد صنع من أجل الانسان والبشرية هي علته الغائية ٠

ويرجع تنوع مراحل الحضارة التي ظهرت على الأرض الى تعدد ممكنات مظاهر الطبيعة البشرية ، ووجوب تحققها جميعا ٠ وأحط الصور هي تلك التي تظهر فيها غير مكتملة أفضل ملكات طبيعتنا ، أي أكثرها اتصـــافا بالطابع الانساني ٠ أما الاسمى فلما تتحقق بعد : « سوف تزدهر يوما ما زهرة البشرية التي ما زالت حبيسة في بذرتها ٠ وتظهر الصورة الحقة للانسان التي يشع منها النور الالهي على نحو لن يستطيع واحد من أبناء الأرض تخيلها ، أو تخيل عظمتها او جلالها » ٠

ولا نسق فلسفي عند هردر ، ومؤلفاته في الحق حافلة بالنقائض ٠ فهو لم يوضح كيف انبعثت هذه المظاهر الكاملة من تجارب البشرية في العصور السالفة ، واعتقد ان الحياة معلمة البشرية (متأثرا بعبارة لسنج)٠ وأن الخير يتقدم باطراد ، كما ان سلطة العقل والعـــدالة في ازدياد ٠ هذا تصادف مذهب التقدم ، وان كان قد عارض بكل وضوح افتراض وجود الكمال في صورة فذة كغاية للتاريخ ، وهـــو ما يعني أن الأجيال الأولى قد وجدت من أجـــل المتأخرة ، وأنها قد عاشت من أجـــل الأحفاد الذين سيجيئون بعد عمر طويل ، وهي نظرة تسيء الى احساسه بالعدالة واللياقة٠ والأمر على عكس ذلك ، لأن مقدرة الانسان على ادراك السعادة قد تساوت في كل مرحلة من مراحل الحضارة ، وكل أشكال المجتمع متساوية في شرعيتها : ما اتسم بنقصه أو بكماله على السواء ، لأن كلا منها غاية في

ذاته ، وليس مجرد طور في الطريق الى شيء أفضل • ومن حق أي شعب يشعر بالسعادة في أي حالة من هذه الحالات المنحطة البقاء فيها •

وهكذا بدا التقدم الذي أدركه هردر ــ طبقا لتشبيهه الهندسي ــ تعاقبا لمنحنيات غير متساوية متقطعة تناظر الانتقال من «النهايات العظمى» الى « النهايات الصغرى » ، ولكل منحنى معادلة ، ويخضع تاريخ كل شعب لقوانين بيئته • ولكن ليس هنـــاك قانون عـــام يسرى على البشرية عن بكرة أبيها •

لم يتجاوز هردر في عرضـه التاريخي القرن السادس عشر ، وقيل (١) انه لو أحسن التعمق في رأيه لكان بوسعه أن يدرك أنه يمكن احداث تغيير بعيد في المجتمعات بالاعتماد على ذكاء الارادة الانسانية ، أي على قوة التاريخ ، التي لم تستوف حقهـا عنـده لأنه توهم تعارضها مع التعاقب العلى الدقيق ، على ما يبدو • ان قيمة كتابه لا ترجع الى المبادىء الفلسفية التي اعتمد عليها ، كما أن هذا الكتاب لم يكن من المنجزات التي أفادت التاريخ • ولقد قيل عنه ، كما سبق أن قيل عن بوســـويه : ان الحقائق كانت تنحنى تحت أقدامه كأنها أعشاب (٢) • ولكنها كانت محاولة مرموقة ، لها أثر في تفسير الظواهر الانسانية ماثلت ما قام به لايبنتز في « التيوديقا » عندما فسر أحداث الكون • فلقد أنارت الطريق للفلسفات العقلانيـــة للتاريخ والتي كانت الســـمة المميزة لتأملات القرن التالي •

(٢)

تناول مقال قصير لكانط سماه تسمية غير موفقة « بفكرة عن التاريخ العالمي تبعا لمخطط سياسي عالمي » المشكلات التي أثارها تاريخ الحضارة من وجهة نظر جديدة •

واستهل بالكلام عن مبدأ القانون الثابت ، وقال متمشيا مع أية نظرية في حرية الارادة : لا اختلاف بين خضوع أفعال الانسان خضوعا كامـــلا للقوانين الكلية للطبيعة ، وبين خضوع أية ظواهر طبيعية لها • ويظهر

---

(١) ص ٦٦ من جاناري : De l'idee de Progrès,

(٢) ص ٨١ بيوفروا : Mélanges,

هذا من الاحصاء · اذ تبين من سـجلات المواليد والوفيات والزيجـات انها لا تختلف عن تقلبات المناخ في توافقها مع قوانين الطبيعة ·

والأمر بالمثل فيما يتعلق بتسلسل الأحداث التاريخية · فلو نظر لكل منها على حدة وعلى انفراد ، فانها ستبدو مفككة لاتتبع اى قانون · أما اذا نظر اليها كاحداث متصلة صادرة عن الجنس البشرى ، وليس عن أفراد متفوقين ، فانها لن تخفق في الكشف عن تيار منتظم من الميول » · فالشعوب في فرديتها ، والأفراد كأفراد عند اتباعهم لغايتهم التي كثيرا ما تتناقض ــ تقوم بالنهوض لا شعوريا بمهمة لو أدركوها لبدت قليـلة الاستحقاق للعناية ·

فأبناء البشر كأفراد لا يطيعون قانونا · انهـم لا يطيعون قوانين الغريزة كالدواب ، كما انهم بوصفهم مواطنين عقـلاء في هذا العالم ، لا يطيعون قوانين أى عقد سبق التعاقد عليه · ولو تأملنا أية مرحلة في التاريخ ، فاننا سنصادف علامات عابرة مهوشة للحكمة · ولكن أفعال الناس في جملتها « نسيج من الحماقات والتوافه الصبيانية ، وغالبا ماتدل على الخسة والتفاهة واشتهاء احداث الدمار » ·

وتتلخص مشكلة الفيلسوف في اكتشاف معنى في هـذا التيار المعدوم الدلالة للأفعال الانسانية ، بحيث يسمح تاريخ الكائنات الذين لا يتبعون في مسائلهم الخاصة أى مخطط بالانطواء تحت صورة نسقية · ومفتاح هذه الصورة كامن في استعدادات الطبيعة البشرية ·

عرضت هذه المشكلة بنفس ألفاظ كانط على وجه التقريب ، وكما كان سيفعل لو أنه لم يقحم فكرة العلل الغائية · ومن أوجه نقص بحثه اللجوء الى مسلمة العلل الغائية بلا تبرير لها · فلقد ساوى بين ما أحسن تسميته بتيار الميول « والغاية الطبيعية » · ولم يحاول قط أن يبين تميز تتابع الأحداث بخاصة تحول دون امكان تفسيرها بغير اعتماد على مسلمةغاية · وخضع حله للمشكلة لتصور الغائية هذا ، وللزعم بلا دليل بأن الطبيعة لا تفعل شيئا عبثا ·

وذكر أن كل الميول الموجودة في اى كائن بحكم طبيعته لابد أن تنمو بحيث تحقق غايتها بصورة كاملة تتوافق وغايتها القصوى · ومن ثم فان استعدادات الانسان التي تعمل على خدمة عقله ، مهيأة ، لبـلوغ أسمى كمال · ومع هذا فمن غير المستطاع تحقيق هذه الغاية في الفرد ، فهى

لن تتحقق الا في الجنس البشرى ، لأن العقل يعمل في صورة محاولات تتجه الى التقدم والنكوص معا • وربما احتاج أى انسان الى مدى زمنى غير محدد لكى يستعمل استعداداته الطبيعية على أكمل وجه ، ولذا ولما كانت الحياة قصيرة فقد دعت الحاجة الى وجود سلاسل لا تقبل الحصر من الأجيال •

والسبل التى تعتمد عليها الطبيعة في النهوض بهذه الاستعدادات قائمة على التعارض ، الذى يتمثل في حالة الانسان الاجتماعية في التعارض بين ميوله الجماعية وميوله المضـــادة للجماعة • وتعبر الطبيعة المضـــادة للجماعة عن نفسها فى رغبة ارغام كل الاشياء على الاذعان لمشيئة فرد ما ، ومن هنا يتولد الطموح والتعلق بالشرف والجشع • وبدت هذه المؤثرات ضرورية لرفع الانسان من حالة الهمجية الى حالة التحضر • « ولولا هذه الميول المضادة للمجتمع لاتصف الناس بوداعة الحملان ، ولظهرت حياة اركادية كاملة التوافق فيها محبة متبادلة ، قادرة على خنق كل المواهب ووأدها ، وهى فى المهد » • فلقد أمرت الطبيعة بالتنافر لأنهـا تعرف أفضل من الانسان ما هو خير الجنس البشرى • وينبغى اسـداء الشكر لها ، لأنها أبقت التنافس والعداء والتعطش للسلطان والثراء • فلولا هذه الأشياء لظلت بلا تحقق الغاية النهائية لطبيعة الانسانية العقلانية • كان هذا رد كانط على روسو •

ولن يتيسر التحقق الكامل لطبيعة الانسان العقلانية الا فى « المجتمع العالمى المتحضر » المرتكن الى العدالة السياسية • واقامة مثل هذا المجتمع هو أكبر مشكلات الجنس البشرى • ووضع كانط كهدف سياسى انشاء اتحاد للدول يتحقق فيه أكبر قدر مستطاع من الحرية • الى جانب أحسم حدود للحرية •

فهل يعقل افتراض تحقق مجتمع عالمى ، أو سياسى دولى من هذا النوع • ولو صح ذلك ، فكيف يستطاع تحقيقه ؟ • ان التغيرات السياسية فى علاقة الدول تنتج عادة بفعل الحرب • والحروب محاولات عشوائية لخلق علاقات جديدة ، واقامة أنظمة سياسية جديدة • فهل يقدر لاتحادات الدول واتحادات الاتحادات الاستمرار حتى ينبعث منها بفعل المصادفة البحتة نظام عقلانى ، له دعائم من ذاته ؟ • أم أنه من المسـتطاع القول بعدم امكان تحقيق أية حالة من هذا النوع فى المجتمع ، وأن الأمر سينتهى بقهر التقدم بفعل الشرور وجحيمها • وأخيرا هل يمكن القول بأن الطبيعة

تتابع طريقها المعتاد في النهوض بالأجناس البشرية اعتمادا على محاولتها التلقائية ، وانها تنمي من خلال التعاقب الوحشي الظاهري للأحداث ، والميول المغروسة في الأصل في الانسان ؟

وقبل كانط الرأي الاخير بحجة أنه من غير المعقول الزعم بوجود غائية في العمليات الطبيعية الجزئية ، والزعم في نفس الوقت بعدم وجود غائية في الكل • وهكذا اعتمدت نظريته في التقدم على افتراض العلل الغائية •

ان ما يتبع هذا هو الاعتقاد بأن تتبع تاريخ البشرية يماثل كشف اللثام عن مخطط خفي للطبيعة يهدف الى تحقيق نظام حضاري كامل للمجتمع العالمي ، لأن المجتمع العالمي هو الحالة الوحيدة التي تستطيع ميول الطبيعة البشرية بلوغ الكمال فيها • ولن نستطيع تحديد اتجاه التقدم لأن المدى الزمني بعيد الامتداد ، ولا نعرف منه الا « لزرا يسيرا » ، وان كان في هذا الكفاية لتعريفنا بوجود اتجاه محدد •

واعتقد كانط ان كتابة « مثل هذا التاريخ السياسي العالمي » ــ كما سماه ــ أمر ميسور • ولو أمكن كتابته « فانه سيبعث الطمأنينة في قلوبنا بالنسبة للمستقبل الذي سيتحقق بعد مدى بعيد ، لأنه سيرينا البشرية بعد ارتقائها الى العلا بفضل ما بذلت من جهد بلا حد ، عندما تزدهر كل البذور التي غرستها الطبيعة وتبلغ غايتها على هذه الأرض » •

(٣)

غير أننا اذا أردنا أن ندرك المعنى الكامل لما ذهب اليه كانط لوجب علينا فهم صلته بأخلاقياته ، لأن نظريته الأخلاقية أساس تأملاته في التقدم ، وهي التي حثته على هذا التأمل ، والقصد من التقدم الذي ركز عليه هو النهوض بالأخلاق ، فكانت اشاراته الى التقدم العلمي أو المادي قليلة ، وبدت له الأخلاقيات الزاما مطلقا مرتكزا الى طبيعة العقل ، ويتطلب مثل هذا الالزام التسليم بغاية تبتغي وتتمثل في سيطرة العقل • وبمقتضى هذا الالزام ، يعامل كل انسان الانسان الآخر الخاضع للقانون الأخلاقي كغاية في ذاته • وينبغي أن ينظر لمثل هذه الحالة المثالية كشيء ممكن ، لأنها مسلمة ضرورية للعقل • وتبعا لهذه النظرة ، ربما أمكن النظر الى

تأملات كانط للتاريخ العالمي على أنها دارت حول احتمال حـدوث تحقق الحالة المثالية المطلوبة كمسلمة ذاتية لصالح الأخلاق ٠

على أن كانط قد تجنب الاستناد الى اضطرار عقلنـا الى افتراض امكان هذا الهدف في تبرير اتجاه الحضارة نحوه ، لأن هذا زيف يتعذر وقوعه فيه ٠ فالحضارة ظاهرة ، وكل ما نعرفه عنها لا يستطاع الاستدلال عليه الا من التجربة ٠ واعتمد برهانه على القول بوجود دلائل فعلية للتقدم في هذا الاتجاه المرغوب ، وأشار الى ما حدث في عصره من ازدياد لحرية المواطن وحرية التدين ٠ وهما شرطان للنهوض الأخلاقي ٠ وحتى الآن توافقت حججه الى حد بعيد من حيث المبدأ مع حجج أصحاب نظريات التقدم الفرنسيين ٠ ولكن كانط استطرد فطبق على هذه المعطيات تصورات موضع نزاع عن العلل الغائية ، واستنبط وجود غاية كامنة في تقدم البشرية ، وان كان قد حرص على طرح هذا الاستنباط في صورة فرض لا كعقيدة مسلم بها ٠

لعل ما عاق كانط عن ادارة دفة نظرية التقـدم بنفس الثقة التي ظهرت عند كوندورسيه هو ادراكه استحالة تقرير أي شيء بصورة حاسمة عن اتجاه الحضارة حتى تكتشف قوانين حركتها ، واعتقد ان هذه المسألة تتبع الاستقصاء العلمي ، وقال صراحة ان هذه القوانين لم تعرف بعد ، وأشار الى أنه قد يظهر عبقري يحقق لعالم الظواهر الاجتماعية ما سبق أن حققه كبلر ونيوتن بالنسـبة للأجرام السماوية ٠ وكما سنرى ، ان هذا بالضبط هو ما حاول القيام به بعض زعمـاء المفكرين الفرنسيين ، في الجيل التالي ٠

ولكن رغم ما التزمه كانط من حذر عند عرض هذا الافتراض ، الا انه كان يرى بكل وضوح ان التقدم أمر يمكن وجوده ٠ واعترف بأن الحرب ، والأعباء التي تفرضها ، عائق للتقدم الأخلاقي للانسان ٠. وفكر طويلا في وسائل الخلاص من الحرب ، ونشر مقالا فلسفيا بعنوان «السلام الدائم» وضع فيه بنـود معاهدة دولية لضمان اختفـاء الحرب ٠ واعتقد انه مع التسليم بأن الحكومة العالمية هي المثل الايجابي الأعلى ، الا أنه قد يكون علينا ــ أن نرضى بما سماه العوض « السلبي » ، أي اتحـاد للشعوب المرتبطة بعضها ببعض بتحالف للسلام يضمن استقلال كل منها ٠ ولكن من الضروري لضمـان بقاء هذا النظام ان يتوافر لكـل دولة دستور ديمقراطي ، لأن مثل هذا الدستور يستند الى الحرية الفردية والمساواة

المدنية . وينبغي أن تتحقق كل هذه التغيرات بالاعتماد على التشريعات الاصلاحية . فالثورات لا يمكن تبريرها (كتب هذا الكلام سنة ١٧٩٥ ، أى بعد اندلاع الثورة الفرنسية) .

نلمح هنا تأثير كتاب العقد الاجتماعي لروسو ، وما قاله سان بيير ، وكان كانط على علم بمؤلفاتهما . ولا شك ان تأثير الفكر الفرنسي — وكان قويا فى المانيا على هذا العهد — هو الذى وجه عقل كانط تجاه هذه التأملات التى تنتمى الى الحقبة الأخيرة من حياته ، وبدت أشبه بحاشية لمذهبه الفلسفى . وفحص كانط أمثال نظريات التقدم وفكرة الاصلاح العالمى ومذهب المساواة السياسية ، وسخرها لصالح نظريته فى الأخلاق البعيدة الاعتماد على الميتافزيقا . وبعد أن حدث هذا الترابط اختلفت روح هذه النظريات .

ففى فرنسا ، كما رأينا ، ارتبطت نظرية التقدم بوجه عام بالنظرات الأخلاقية التى استطاعت الاهتداء الى أساس ميتافزيقى لها فى نزعة لوك الحسية . وعكف هلفسيوس على وضع مذهب أخلاقى يرتكن على الحس ، أى على الوقائع المستمدة من أدنى درجات الفكر . أما المبدأ القائل بوجوب اتباع القانون الأعلى للسلوك للطبيعة فقد انحدر كفلسفة عملية من رابلييه ومونتانى ، وانتقل منهما الى القرن الثامن عشر من خلال موليير . وعززته النظرية القائلة بأن الانسان خير بطبيعته . وحاربت اليانسنية هذه الفكرة ، ومنيت بالهزيمة . وبعد اللاهوت جاء دور الميتافزيقا . وتعد فكرة الالزام الأخلاقى لكانط المرحلة التالية فى صراع الاتجاهين المتعارضين الباحثين عن دعامتين للأخلاق فى الطبيعة وما وراء الطبيعة .

وهكذا اختلف مغزى فكرة التقدم عند كانط عن مغزاها عند شراحها من الفرنسيين بالرغم من تشابه نظرته الجزئية للمستقبل المتوقع للبشرية فى بعض نقاط أساسية مع نظراتهم . ولكن نظرته فى الحياة قد أحاطت الفكرة بجو مختلف . ففى فرنسا كانت النظرة « أوديمية » بكل تأكيد ، لأن السعادة هى الهدف . أما كانط فقد عارض معارضة قاطعة فكرة السعادة كغاية للحياة وقال : « لو جعلنا المقياس المتعة أو السعادة سيسهل تقويم الحياة ، لأن قيمتها لن تزيد عن لا شيء . فمنذا الذى سيرضى تكرار حياته مرة أخرى بنفس الشروط أو حتى وفقا لشروط طبيعية جديدة — لو كان من حق المرء اختيارها بنفسه — اذا اعتبرت المتعة الغاية الوحيدة ؟ » .

الواقع ان هناك اتجاها شديد الوضوح من التشاؤم عند كانط · وجدت النزعة التشاؤمية الفلسفية التي اختلفت الى أبعد حد عن التشاؤم العاطفي عند روسو من انشاء واحد من أقدر شباب الجيل الذى شب على مذهبه ، وقدر لهذه النزعة القيام بدور ملحوظ فى الفكر الألمانى فى القرن التاسع عشر · اذ كانت النتيجة الكئيبة التى اهتدى اليها شوبنهاور وقال فيها ان هذا العالم هو أسوأ عالم فى كل العوالم التى يستطاع تصورها ، من بين التأملات التى يعتقد في آخر الأمر ان كانط كان مسئولا عنها ·

(٤)

تأملات كانط للتطور التاريخى بمثابة حاشية لفلسفته · فهى ليست جزءا ضروريا في سياق مذهبه · واختلف الأمر عن ذلك عند خلفائه المثاليين الذين ارتكنوا على مذهبه كنقطة بدء على الرغم من رفضهم لخاصته الأساسية التى وضعت حدودا للفكر الانسانى · فجاءت فكرة الارتقاء والتقدم نتيجة مستنبطة على نحو مباشر من مبادىء كل من فيشته وهيجل · واذا سلمنا بعدم تمتع تفسيراتهما الخاصة بالتاريخ بأية قيمة دائمة ، فان تصورهما للتاريخ فى محاولتهما الطموحة لتفسير العالم « قبليا » كاتجاه تقدمى ، تثير الانتباه · وقامت فلسفتهما بالكثير لتوطيد نظرة كانت قد بدأت تشق طريقها الى العالم مرتكنة على مبادىء بعيدة الاختلاف · بيد أن التقدم الذى جاء متضمنا فى مذهبيهما لم يعن بتأكيد ارتباط هذا التقدم بالسعادة الانسانية ، ولكنه ظهر كحقيقة مستمدة من طبيعة الفكر ــ سواء أكانت مستحبة أم غير مستحبة ·

اعتقد فيشته (١) أن العالم سائر نحو التحقق الكامل « للحرية » · فهى غايته وهدفه ، ولكنه هدف دائم التباعد · فمن غير الميسور بلوغه ، لأن اكتمال الوصول اليه يعنى القمع الكامل « للطبيعة » · وعلى هذا يستطاع القول بأن العالم يقترب فى طريق غير محدود تجاه مثل أعلى لا يمكن بلوغه · وثمة تزايد مستمر فى تحقيق الحرية · وبازدياد ارتفاع العالم فى هذا الاتجاه يتزايد اتباعه للعقل ·

---

(١) من المصطلح المذكور عن فلسفة فيشته للتاريخ فى
Die Grunding des gegenwaertigen Zeitalters
(١٨٠٦) وتتضمن المحاضرات التى ألقاها فى برلين ١٨٠٤ ــ ١٨٠٥ ·

من الميسور أن تدرك أفضل تفسير لما يعنيه فيشته بالحرية ، اذا نظر اليها كمقابل للغريزة • فعندما يتصرف الانسان بحكم الغريزة ربما جاء تصرفه متوافقا مع العقل ، بحيث يستطيع أى انسان على وعى كامل بكل عواقب فعله ومتضمناته أن يحكم على عمله بأنه معقول • غير انه لكى يقال بأن أفعاله حرة ينبغى أن يكون هو ذاته على وعى كامل بكل هذه المتضمنات والعواقب •

وما يتبع ذلك هو أن غاية البشر على الارض هى بلوغ حالة تترتب فيها كل علاقات الحياة وفقا لعقل ، لا تبعا للغريزة ، وانما بوعى كامل وتبعا لهدف مقصود • وينبغى أن تسيطر هـذه الغاية على القواعد الأخلاقية للسلوك • فهى التى تتحكم فى المراحل الضرورية للتاريخ •

ويستطاع على الفور باتباع هذه الغاية القول بانقسام التاريخ الى مرحلتين أساسيتين : مرحلة أبكر وأخرى أحدث • فى الأولى كان الناس يتصرفون تصرفا معقولا باتباع الغريزة • وفى الأخـرى كانوا على وعى بالعقل ، وحاولوا اتباعه اتباعا كاملا • ولكن قبل بلوغهم هذه المرحلة لابد من اجتيازهم حقبة يعى فيها العقل نفسه بغير أن يكون الزمام بيديه • ولبلوغ هذه المرحلة ، ينبغى أن يكونوا قد تحرروا من الغريزة • ويسمى تحقيق هذا التحرر المرور فى عهد رابع • ولكنهم ما كانوا ليبتغون التحرر ما لم يكونوا شعروا بأن الغريزة عبودية مفروضة عليهم بفعل سلطان خارجى • وعلى هذا فعلينا أن نتعرف الى حقبة أخرى يتجسم فيها العقل فى صورة أنظمة متسلطة يخضـع لها الناس خضوعا أعمى • وهكـذا استخلص فيشته وجود خمس حقب تاريخية : اثنتان يحدث فيهما التقدم بلا تبصر ، واثنتان يتصف فيهما التقدم بحريته ، ومرحلة وسطى يكافح فيها من أجل الوعى (١) • على أن هذه العصور ليست منفصلة بعضها عن بعض ببوابات مغلقة • فهى متداخلة متمازجـة • وقد يتوافر لأى منهـا خصائص الأخرى • وفى كل هناك مقدمة تمهد الطريق ، ومؤخرة متمهلة فى الوراء •

ونحن الآن (١٨٠٤) فى العهد الثالث • فقد انقطعنا عن الخضوع

---

(١) العهد الاول ــ عهد العقل الخاضع للغريزة ــ عهد البراءة •
العهد الثانى ــ عهد العقل المتسلط •
العهد الثالث ــ عهد التحرر ــ عهد الشك والحرية بلا قيد او شرط •
العهد الرابع ــ العقل الواعى المتمثل فى صورة العلم •
العهد الخامس ــ سيادة العقل وتمثله فى صورة الفن •

للسلطان الخارجي ، وان كنـا لم نمتلك بعد معرفة واضحة منظمة للعقل (١) •

استنبط فيشته هذا النسق قبليا استنباطا خالصا دون رجوع لأية تجربة فعلية ، وقال « يتبع الفيلسوف الخيط القبلي لمخطط العالم ، الذي يمكن أن يتبين له بلا اعتماد على التاريخ • وعندما يلجأ للتاريخ ، فليس بقصد اثبات أى شيء . لأن موضوعاته قد ثبتت له بالعقل بغير اعتماد على أى تاريخ » •

وهكذا عرض الانجاه التاريخي كتقدم ضروري تجاه هدف معروف، وان كان من غير المستطاع بلوغه • وهذه الحقيقة المتعلقة بمصير الجنس البشرى هى أساس الأخلاق التى تحث فى قاعدتها الأساسية على العمل على نحو يساعد على التحقق الحر للعقل على الأرض • وادعى ناقد حديث أن فيشته هو أول فيلسوف حديث صبغ الأخلاق بصبغة انسانية • فلقد رفض النظرات الفردية الكامنة وراء كل من الأخلاقيات الكانطية والمسيحية • وأعلن أن الحافز الحقيقى للأخلاق ليس خلاص الفرد بل تقدم البشرية ، والواقع أن التقدم عند فيشته أساس الأخلاق • أما القول بعدم وجود أية قيمة أخلاقية فى المثل الأعلى للمسيحية المتمثل فى القداسة وعزلة الرهبنة وابتعادها عن المجتمع فنتيجة واضحة مستخلصة من فكرة التقدم الدنيوى •

تستحق الانتباه نقطة أخرى فى عرض فيشته للتاريخ : دور العلامة فى المجتمع • فمهمته هى اكتشاف الحقائق التى تعد شرطا للتقدم الأخلاقى • ويستطاع القول بأنه يجسد العقل فى العالم • وسوف نرى الدور البارز الذى قامت به هذه الفكرة فى المشروعين الاجتماعيين لسان سيمون وكونت •

(٥)

فلسفة هيجل للتاريخ معروفة أفضل من فلسفة فيشته للتاريخ • فلقد استنبط مثل فيشته المراحل « قبليا » من مبادئه الميتافيزيقية ،

---

(١) ومع هذا فقد ذكر فيشته بعد ذلك بثلاث سنوات اى « أحاديثه الوطنية الى الأمة الألمانية » ١٨٠٧) • « بأن البشرية قد اجتازت حافة العهد الرابع » ، وقال ان « تقدم الحضارة والعلم سيعتمد من الآن فصاعدا على الألمان بوجه خاص » •

ولكنه استعرض ببعض التفصيل الظواهر الفعلية من قبيل التباسط • وبدت له العلة القصوى للعالم وعي الروح بحريتها • والواقع انه قد نظر للكلمة المبهمة « حرية » كمرادف للوعي الذاتي • وعرف هيجل التاريخ العالمي بانه بيان للعملية التي تعتمد عليها الروح أو الله في الوعي بمعناه • هذه الحرية لا تعني أن الروح قادرة على التقدم في أية لحظة على نحو مختلف ، لأن تقدمها الفعلي خاضع للضرورة ، ويعد بمثابة تجسيم للعقل • وتعني الحرية الادراك الكامل لهذه الحقيقة •

وأول الملامح المميزة في عرض هيجل هي مساواته « التاريخ » بالتاريخ السياسي ونهوض الدولة • اذ ينتمي الفن والدين والفلسفة ومبدعات الانسان ككائن اجتماعي الى مرحلة أسمى مختلفة لكشف الروح عن ذاتها (١) • ثانيا ــ تجاهل هيجل عصور ما قبل التاريخ البدائية • وجعل بداية تاريخه في حضارة الصين المكتملة النمو • وتصور الروح دائمة التحرك من شعب لآخر حتى تستطيع تحقيق الأطوار المتعاقبة لوعيها الذاتي ، فانتقلت من الصين الى الهند ومن الهند الى ممالك آسيا الغربية، ثم بعد ذلك انتقلت من الشرق الى اليونان ثم الى روما ، وانتهى بها المطاف في العالم الجرماني • وفي الشرق ، عرف الناس أن الحرية مقصورة على فرد واحد ، واتسم الطابع السياسي بالاستبداد ، وعرفوا في اليونان وروما أن الحرية من حق البعض ، وكانت صور الحكم أرستقراطية وديموقراطية • وعرفوا في العالم الحديث أن الكل حر في ظل النظام الملكي • وشبه هيجل العهد الأول بالطفولة ، والثاني بالشباب (اليونان) والكهولة (روما) والثالث بالشيخوخة ، انما بغير وهنها • وجعل هيجل العهد الثالث الذي يضم التاريخ الوسيط والحديث لأوربا خاصا بالعالم الجرماني ، لان الروح الجرمانية هي روح العالم الحديث • كما أنه العهد الأخير للتاريخ ، لأن الله قد حقق حريته كاملة ، مثلما حققها في فلسفة هيجل المطلقة ، التي تعد الكلمة الأخيرة بعد أن أدرك الله تمام الادراك طبيعته •

وهنا أهم اختلاف مثير بين نظريتي فيشته وهيجل • فلقد أدرك الاثنان هدف التقدم الانساني كتحقق « للحرية » ، ولكن بينما لا ينتهي

---

(١) الأطوار الثلاثة للروح هي :

١ ــ ذاتية   ٢ ــ موضوعية   ٣ ــ مطلقة

وعلم النفس متضمن في الطور الأول والقانون والتاريخ متضمنان في الطور الثاني والدين في الطور الثالث •

التقدم اطلاقا عند فيشته لأن الهدف بعيد المنال ، فاننا نرى التقدم مكتملا بالفعل عند هيجل • فليس الهدف في متناولنا فحسب ، ولكنه بين أيدينا الآن • وهكذا يكون مذهب هيجل مذهبا مغلقا ، كما نستطيع تسميته • فالتاريخ قد اتصف بتقدميته ، ولكن الطريق لم يعد مفتوحا لأى تقدم أبعد ، ورضى هيجل في تاملاته عن هذه النتيجة الخاصة بالتقدم تمام الرضاء • وسيتراءى — على ما يبدو — لأغلب العقول التي لم تخدرها فكرة « المطلق » الهيجلية انه لو صح القول بان الحاضر هو الكلمة الأخيرة في الطريق التي انساقت اليه الروح في تطورها فان النتيجة لا تعد كافية البتة بالنسبة للتيار العاتي للروح • ولكن مذهب هيجل غير « انساني » الى درجة مهولة • فليست سعادة الأفراد أو شقاؤهم من الموضوعات التي يكترث لها « المطلق » الذى يضحى بلا شفقة بالكائنات الحية في سبيل تحقيق نفسه في الزمان •

وهكذا تبــدو روح فلسفة هيجل في اتجاهها الخاص بالحيـاة الاجتماعية معادية للتقدم كمذهب عملي • نعم هنـاك تقدم ، ولكنه قد انتهى من أداء عمله لأن الدولة الملكية البروسية هى الكلمة الأخيرة في التاريخ • فلقد استبعد جانبا مخطط كانط العالمي ، وما كمن فيه من ميل الى الحرية ، وتاكيد للفردية ، ووصف بأنه اساءة تصور • فبمجرد اشباع حاجات الروح المطلقة ، أى عندما تبلغ أكمل قواها وعظمتها التي كشفت عنها الفلسفة الهيجلية يـكون العالم قد بلغ منتهى ما يطمح اليـه • ولا قيمة بعد ذلك للارتقاء الاجتماعي أو التقدم الأخلاقى لبنى البشر ، أو لزيادة سيطرتهم على قوى الطبيعة •

(٦)

وبدا التاريخ في نظر الممثل العظيم الآخر للمثالية — الذى جعل كانط نقطة انطلاقه أيضـا — كشفا تقدميا للعقل الالهى • وان كانت أفضل مواهب شلنج قد استنفدت في بحث ما يجرى في الطبيعة ، وليس في استقصاء دور البشرية • وابرز ملامح نظراته هى الفكرة الفلسفية المحكمة التي وضعها عن التطور العضوى • وأساسا يرجع تاثيره الذى امتد الى نطاق واسع فتاثر به علماء علم الحياة — الى نشر هذه الفكرة ، وبذلك شارك في وضع نظرية قدر لها فيما بعد أن تزيد من هيبة فكرة التقــدم •

وتأثر بشلنيج ضمن آخرين معاصره « كراوسة » الأقل شهرة ، « الذى ألف فلسفة للتاريخ احتلت فيها هذه الفكرة الصدارة · فلقد تمثل كراوسة التاريخ الذى يعد تعبيرا عن المطلق كاتساع للحياة . والمجتمع ككائن عضوى ، والنمو الاجتماعي كتيار يستطاع استنباطه من «مادىء بيولوجية ·

اشتركت كل هذه النظرات المتعالية عن التجربة الانسانية في ادعائها اكتشاف الاتجاه الضرورى للتاريخ الانساني ، باتباع مبادىء ميتافيزيقية مستقلة عن التجربة ، وان كان قد ثار الشك بحق في صحة هذا الاستقلال المزعوم · وربما تشككنا في امكان اهتداء هذه النظرات الى نفس التسلسل للعصور التاريخية حتى لو لم تطلع على وقائع التاريخ الفعلية · حقا اننا نستطيع القول بكل تأكيد بأنها قد استرشدت بالتجربة لاشعوريا وبطريقة خفية رغم توهمها أن المبادىء المجردة كانت وحدها المسئولة عما اهتدت اليه من نتائج · وهذا يرادف القول بأن معتقداتهم الخاصة بالحركة التقدمية كانت مستمدة في الواقع من هذه الفكرة الخاصة بالتقدم التى حاول المفكرون الفرنسيون فى القرن الثامن عشر جعلها تستند الى التجربة ·

وامتد التأثير المباشر وغير المباشر لهؤلاء الفلاسفة الألمان الى ما هو أبعد من الدائرة الضيقة للمثاليين المعربدين أو حتى لأصحاب الصولجان منهم (يقصد هيجل) : فلقد فعلوا الكثير لتوطيد فكرة « الارتقاء التقدمى » كمقولة للفكر باعتبارها فكرة لا تقل ألفة وضرورة عن فكرة العلة والمعلول ، وساعدوا على نشر فكرة « الغاية المتزايدة » فى التاريخ ولا جدال أن أغسطين أو بوسويه قد استطاعا اكتشاف هذه الغاية المتزايدة ، غير أنها قد بدت ثانوية في نظراتهم بالنسبة للحياة الأخرة · أما غاية المثاليين الألمان فيستطاع تحقيقها فى الحياة الدنيا · فهى ليست بحاجة الى نظرية تدعو الى خلود الشخصية ·

وتأثر بجو الفكر حتى الرجعيون الأذكياء الذين كتبوا لصالح المسيحية المحافظة والكنيسة الكاثوليكية · فلقد احتل التطور التقدمى مكانا فى محاضرات فردريش فون شليجل (١) عن فلسفة التاريخ · واستنكر شليجل ما قاله كوندورسيه فوضع فكرة قابلية طبيعة الانسان للفساد فى مقابل القول بقابليته لبلوغ الكمال · ولكنه قال انه

---

(١) ترجم للانجليزية فى مجلدين ١٨٣٥ ·

من المستطاع الاهتـــداء الى فلسفته للتـــاريخ فى مبادىء التقـــدم الاجتماعى (١) • وهذه المبادىء ثلاثة : السبل الخفية للعناية الالهية التى ستحرر البشر ، وحرية ارادة الانسان ، والسلطان الذى يسمح به الله لعوامل الشر ــ وهى مبادىء ربما أيدها بوسويه • ولكن الجديد فيها هو تصنيفها كمؤثرات على التقدم • والواقع ان النقطة الأساسية فى كتاب فون شليجل المصطنع المضـاد للتنور هو ما تضـمنه من رد لاعتبـار المسيحية يجعلها مفتاحا لهذه النظرة الجديدة للحياة التى تحددت معالمها عند أعداء الكنيسة •

(٧)

كان التطور البيولوجى من بين المسائل التى شغلت ذهن جوته على الدوام ، وساعدت نظـراته فى « التحول » و « الأنماط » على تمهيـد الطريق لفرض التطور ، وعلى هذا فلا عجب اذا رأيناه يهتم بنظريات التقدم الاجتماعى التى صادفت فيها نظريات التطور البيولوجى امتدادا منطقيا • ولكن خيـاله لم يتأثر بخواطر الفرنسـيين عن التقدم • فلقد قابلها بفتور وارتياب • وقرابة نهاية حياته ، ذكر فى أحاديثه مع اكرمان بعض ملاحظات تبين اتجاهه (٢) •

« لن يصل العالم الى هدفه بنفس السرعة التى نتوهمها ونرغبها • فالعقبات الشيطانية موجودة دائما ، تتدخل فى كل آن وتعترض كل موضع • وعلى ذلك فرغم وجود تقدم فى الجملة الا أنه بطىء للغـاية ، ولو عشت زمانا أطول سترى اننى على صواب » •

وقال آكرمان : « يبدو أن تقدم البشرية لن يحتـاج الى أكثر من الف عـام » •

فرد جـوته على ذلك بالقول : « مَن يدرى ؟ ربمـا تطلب ملايين السـنين ، ولكن حتى اذا استطاعت البشرية البقاء أطـول مدة تريد ، ستظل هناك عوائق تعترضها ، بالاضافة الى ضروب من المحن التى تحول دون تنمية قدراتها • نعم سيزداد الناس فطنة وادراكا ، ولكنهم على اية

---

(١) نفس المصدر الجزء الثانى ص ١٩٤ وما بعدها •

(٢) أحاديث مع جوته .Gespraeche mit Goethe فى ٢٣ اكتوبر سنة ١٨٢٨ •

حال لن يتفوقوا ، أو يشعروا بسعادة وحيـوية أكثر ، الا فى فترات محدودة ، واننى أرى اقتراب الوقت الذى سيتوقف فيه رضاء الله عن الجنس البشرى فيضطر مرة أخرى الى الاتجاه لخلق مخلوقات جديدة . وأنا على يقين بأن هذا سيحدث ، وان هناك ميعادا قد تحدد بالفعل فى المستقبل البعيد لبدء هذا العهد الذى سيتحقق فيه اعادة الخلق . ولكن هذا التاريخ بعيد للغاية بكل تأكيد ، وما زلنا قادرين لآلاف وآلاف من السنين على الاستمتاع بأنفسنا ، والرتع فى هذا المرعى الخصيب ، كما هو الحال الآن » .

يجمع هذا الرأى بين الرفض الصريح لامكان بلوغ الكمال ، ونفى تصور التقدم الفكرى طريقا ملكيا ينتهى بأبواب مدينة ذهبية .

الفصل الرابع عشر

تيارات الفكر في فرنسا بعد الثورة

(١)

تبع فشل الثورة في تحقيق الرؤى والأماني التي بهرت فرنسا لعهد وجيز ـ الفشل الذي ازداد بتأثير الأهوال التي لازمت هذه الثورة ـ رد فعل ضد المذاهب والميول الفلسفية التي ألهمت زعماء هذه الثورة . وبزغت في صورة جديدة القوى التي استخف بها القرن الثامن عشر أو حاول قمعها . وبدا هنيهة وكأن القرن الجديد ينوى ادارة ظهره في وجه القرن السالف . وظهرت محاولة فكرية لرد اعتبار الكاثوليكية ، ستظل مقترنة دائما باسماء أربعة من أفذاذ المفكرين : شاتوبريان ، ودى مايستر، وبونال ، ولامينيه .

غير أنه لا ينبغي ألا تضللنا الشهرة الأخاذة لهؤلاء المرتدين العظام ، وتدفعنا الى المغالاة في تقدير مدى ما كانت تصبو اليه هذه الرؤى . فلقد ظلت روح القرن المنصرم وميوله سائدة في الدوائر التي تمتعت دائما بالنفوذ . ونشط في ظل الامبراطورية كثير من أهل العلم البارزين ممن تشبعوا بمعتقدات كوندياك وهلفسيوس ، وشاركوا في الثورة وعاشوا بعدها ، وحرصوا على الاخلاص لروح أساتذتهم ، وأحدثوا تأثيرا بفضل قيمة منجزاتهم العلمية . وساعدتنا الأبحاث المضنية التي قام بها المسيو بيكافييه للتعرف على نشاط هذه المدرسة من المفكرين في ادراك كيف تمت النقلة من عصر كوندورسيه الى عصر كونت . وكانت أهم شخصيتين في هذا المضمار هما كابانيس صديق كوندورسيه ودستوت دى تراسى . والتف المسيو بيكافييه حولهما ، الى جانب كثيرين من أصحاب الأسماء المغمورة من عظماء رجال العلم في

(١) سبق أن استرعى انتباهنا في ص ١٨٦ .

العصر مثل لابلاس وبيشا ولامارك ، بوصفهم جميعا يمثلون اتجاها مباشرا منحدرا من فكر القرن الثامن عشر ، وسماهم بيكافييه (١) « بالايديولوجيين » . وكلمة الايديولوجي وتعني علم الأيديا أو « المثل » من اختراع دي تراسي وقصد بها التفرقة بين أبحاث الفكر باتباع منهج لوك وكوندياك ، والبحث الفكري على الطريقة الميتافيزيقية غير المسايرة للزمان . والفكرة الرائدة عند « الايديولوجيين » هي تطبيق العقل على الوقائع المشاهدة ، واستبعاد الاستنباطات القبلية . واعتمد مفكرو هذه المدرسة في تأثيرهم على مجلة « الديكادفيلوسوفيك » التي كان الاقتصادي « جان باتيست سيه » من بين مؤسسيها سنة ١٧٩٤ ، وازدحم المعهد الذي أنشأه المؤتمر القومي بالايديولوجيين ، وربما أمكن القول بأنه واصل عمل « الانسكلوبيديا » (٢) . وآمن هؤلاء الرجال ايمانا راسخا بالتقدم المحدد للمعرفة والتنور العام « والعقل الاجتماعي » .

(٢)

وهكذا عاشت في عالم الفكر معتقدات « سفسطائيي » عصر فولتير، رغم رد الفعل السياسي والديني والفلسفي ، وان كان قد حدث تجاوز لقصور هذه المعتقدات . كما ظهرت عناية بالحقائق والجوانب التي تجاهلتها فلسفتهم ، أو قللت من أهميتها . وترجع قيمة حركة «الارتداد» الى تأكيدها الانتباه الى هذه الوقائع والجوانب ، واعادتها لفتح أبواب مجالات الروح الانسانية ، التي سبق أن أغلقها عصر فولتير ، وأوصد أبوابها .

وعنيت فكرة التقدم بصفة خاصة بما حدث من تغير فكري وعاطفي في النظرة الى العصور الوسطى . وجاء تجدد الاهتمام بالعصر العظيم للكنيسة كجانب طبيعي من حركة الاحياء الديني ، لكنه امتد الى ما هو أبعد من دوائر الكاثوليك المتحمسين ، فكانت هذه الظاهرة من الملامح المميزة للحركة الرومانتيكية ، كما هو معروف . ولم يتأثر بها الأدب

---

(١) أحيانا تستعمل كلمة ايديولوجي الآن في مجال النقد كالمقارنة بين منهجي لامارك وداروين على سبيل المثال .

(٢) بيكافييه — نفس المرجع ص ٦٩ ، غلبت على أعضاء الشعبة الثانية في المعهد (العلوم الأخلاقية والسياسية) الميول الأيديولوجية مما أثار ارتياب نابليون ، الذي أمر بالغائها سنة ١٨٠٣ ، ووزع أعضاءها بين الشعب الأخرى .

الخلاق وحده ، ولكنها شغلت عقول المفكرين والمؤرخين الملهمين • وبذلك بدا للعصور الوسطى فى نظر جيزو وميشليه وأوجست كونت وشاتوبريان وفيكتور هوجو أهمية ما كان ليدركها فرنسيو العصر السالف •

سبق أن رأينا كيف أزعجت هذه العصور الرواد الأوائل الذين حاولوا تتبع سير الحضارة كحركة تقدمية ، وكيف مروا عليها مر الكرام، واستبعدوها جانبا نتيجة عدم اقتناعهم بها • وفى بداية القرن التاسع عشر ، طرحت مسالة العصور الوسيطة على نحو دفع أى باحث من الساعين للنهوض بفكرة التقدم الى الكشف عنها بجدية أعظم • وأدركت مدام دى ستال هذه الحقيقة عندما ألفت كتابها عن « الأدب وعلاقته بالنظم الاجتماعية » (١٨٠١) • وكانت حينئذ واقعة تحت تأثير كوندورسيه ومن المؤمنات المتحمسات بامكان بلوغ الكمال • والكتاب محاولة للتوسع فى هذه النظرة ـ التى شهدت المؤلفة بأنها لم تعد تحظى بالتقدير المناسب ـ بتطبيقها على عالم الأدب • وقالت مدام دى ستال أنه لو صح أن الانسان خلال عشرة قرون قد ارتد الى الوراء بدلا من أن يتقدم ، لكان معنى هذا التنازل الخطر عن فكرة التقدم • وسعت لاثبات مشاركة القرون الوسطى فى تقدم الملكات الفكرية واتساع الحضارة ، وبينت أن الدين المسيحي قد قام بدور فعال لا غناء عنه • ويعد القول بعدم انقطاع التقدم خطوة متقدمة على ما قاله كوندورسيه ، وفيه تباشير لما سيجىء عند سان سيمون وكونت •

فى القرن التالى ، ارتفع من بين صفوف أنصار حركة الارتداد صوت أفصح وأكثر اقناعا • ففى سنة ١٨٠٢ ظهر كتاب « عبقرية المسيحية » لشاتوبريان من بين « أنقاض معابدنا » ـ كما قال المؤلف فيما بعد ـ عندما خرجت فرنسا من فوضى ثورتها • والكتاب بمثابة اعلان حرب ضد روح القرن الثامن عشر التى نظرت الى المسيحية كمذهب بربرى يتحتم المناداة بسقوطه باسم التقدم ، ولكن الكتاب لم يقف عند حد المجادلة • فلقد قدم شاتوبريان أسانيد مؤيدة للعقائد التقليدية كالخطيئة الأزلية والتدهور البدائى وغير ذلك • ولكن جاذبية الكتاب لا ترجع الى منطقه ، وانما الى ما فيه من تقدير للمسيحية من وجهة نظر جديدة • فلقد تناولها بروح الفنان كواحد من المؤمنين ، لا كفيلسوف • واذا كان قد استطاع أن يثبت شيئا ، فهو أن قيمة المسيحية انما ترجع الى جمالها لا الى صحتها • وسعى الى بيان قدرتها على التفوق فى « أسر الروح على

آلهة فيرجيل وهوميروس » (*) • وكان بوسعه الاعتماد فى عرض نظرته على عون آباء الكنيسة ، ولكنه آثر الاعتماد في الدفاع عن قضيته على كل من دانتي وميلتون وراسين : فالكتاب عبارة عن دفاع من وجهة النظر الجمالية للمدرسة الرومانتيكية : « ان الله لا يمانع فى اتباع السبل الزاهرة ما دامت تساعد على الارتداد اليه » (*) •

لا غرو اذا رفض المدافع عن فكرة الخطيئة الأزلية مذهب امكان بلوغ الكمال ، واقتدى شاتوبريان بروسو فقال : « عندما يصل الانسان الى أعلى قمة فى الحضـــارة ، فانه يكون فى أدنى درجـة من درجات الأخلاق • فتحرره يعنى زيادة وقاحته ، والتحضر يعنى تقييده لنفسه بالأصفاد لأن قلبه يستفيد على حساب رأسه ، ورأسه على حساب قلبه » وإذا تجاوزنا عن الأمور المتعلقة بالمذهب المسيحى ، فان مســألة التقدم كانت ذات أهمية ضئيلة بالنسبة للمدرسة الرومانتيكية • وأحيا فيكتور هوجو فى مقدمته الشهيرة لكتاب كروموبل (١٨٠٧) ــ التى تفوق فيها على شاتوبريان فى تعمقه الكلام عن التباين بين الفنين القديم والحديث ــ التشبيه الأولى للبشرية بالفرد ، وأعلن ان العصر الكلاسيكى كان بمثابة عصر عنفوان البشرية ، وأننا نشهد الآن مهابة شيخوختها •

وعاد بعض أصحاب العقول الراجحة الى الكلام عن العصور الوسطى من وجهات نظر أخرى ، عمدوا فيها الى التشهير بكل تقدم للمجتمع منذ عهد البروتستانتية ، مثلما سعى الفلاسفة الموسوعيون الى تشويه العصور الوسطى • واعتقد بونال دى مايستر ولامنيه أن المثل الأعلى يتطلب انشاء حكومة دينية مقدسة للعالم • ولم يبد الدستور الانجليزى فى نظرهم أقل قبحا من الثورة (الثورة الفرنسية) التى استنكرها دى مايستر ، ووصفها بانها « من صنع الشيطان » • ورغم دفاعهم عن المذهب الثيوقراطى المحتضر ، الا أنهم شاركوا مع كل هذا فى تقدم الفكر لا بالاعتماد على ارغام العالم على التشبه الى الأنظمة الوسيطة فحسب ، وانما أيضا بادراكهم النظرة الآلية التى نظر بها الى المجتمع ابان القرن الثامن عشر • وادراكهم كيف ستبدو مضللة تصورات الأفراد فى حالة تجريدها من الحياة فى المجتمع • وطرحوا هذا المعنى فى صورة

★ Enchanter l'âme aussi divinement que les dieux de Virgile et d'Homère.

(★) Dieu ne defend pas les routes fleuries quand elles servent à revenir à lui.

مغالى فيها غير مقبولة . غير أن انتقاداتهم قد تضمنت قدرا كبيرا من الحقيقة ، ساعدت — من ناحية — القرن التاسع عشر على مراجعة النتائج التى اهتدى اليها فكر القرن الثامن عشر ، وعلى تجاوزها .

نستطيع أن نلمح فى هذا الأدب المناصر للارتداد صراع مذهب النعمة الالهية وانحنائه أمام مذهب التقدم ، ثم اتخاذه الصدارة مرة أخرى . فلقد آمن شاتوبريان وبونال دى مايستر ايمانا راسخا بفكرة وجود عصر ذهبى أصيل ، وانحطاط الانسان ، واستنكروا اتجاه الفكر التقدمى بأسره من « بيكون الى كوندورسيه » وان كان هؤلاء الفلاسفة قد ساعدوا دون أن يدروا على ظهور مذهب كوندورسيه بمظهر جديد أقل اثارة للشك .

(٣)

الى جانب اكتشاف العصور الوسطى ، جاء اكتشاف الأدب الألمانى . ففى خلال عصر فردريك الأكبر ، اقتصر دور ألمانيا فى التبادل الفكرى بين فرنسا وألمانيا على الأخذ . ودور فرنسا على العطاء . ويرجع الى مدام دى ستايل بوجه خاص ، اتجاه التيار اتجاها عكسيا ، ويصح اعتبار مدام دى ستايل من بين أوائل من تمتعوا بالموهبة النقدية واتساع الفكر من بين أدباء عصر نابليون . وكشفت دراستها للثورة عن تفوقها على أحكام معاصريها فى التنزه عن الهوى عند حكمها على هذه الانتفاضة ، أما أهم كتبها فكان دراستها للألمان فى كتاب « عن الألمان » (١) ، الذى كشف عن وجود عالم من الفن والفكر لم يخطر على بال جمهور فرنسا . وفى غضون العشرين السنة التالية ، تأثرت باريس بهردر ولسنج وكانط وهيجل . وقامت مدام دى ستايل فى فرنسا بنفس الدور الذى قام به كولريدج فى انجلترا فى سبيل نشر معرفة الفكر الألمانى .

أثارت مدام دى ستايل من جديد المسألة التى سبق اثارتها فى القرن السابع عشر ، وأجاب عنها فولتير بالنفى : هل هناك تقدم فى جماليات الأدب ؟ وطرح كتابها الباكر عن « الأدب » المسألة بكل وضوح . ولم تؤيد مدام دى ستايل الفكرة القائلة بحدوث أى تقدم فى الشكل الفنى (كما ادعى بعض المحدثين فى المشاحنة المشهورة) . فلقد

---

(١) De l'Allemagne. (١٨١٣)

حقق القدامى فى نطاق حدود فكرهم وتجاربهم العاطفية الكمال فى التعبير ، والكمال لا يمكن أن يضارع • ولكن عندما يتقدم الفكر ويزداد رصيده ، ويتغير المجتمع ، يتزود الفن بمادة جديدة ، فيحدث « تقدم جديد فى الاحساس » ييسر للفنانين الأدباء الاحاطة بأنواع جديدة من السحر ، واحتوى كتاب « عبقرية المسيحية » على تعقيب على آراء مدام دى ستايل ، بدا أبعد اثارة من كل ما استطاعت الاتيان به • هنا تحالف نصير الارتداد مع نصير كوندورسيه لاثبات حدوث تقدم فى عالم الفن • وجاء كتاب « عن الألمان » آية مدام دى ستايل بمثل أخاذ آخر فى اثبات الدعوى القائلة بأن أدب الشعوب الأوربية الحديثة يمثل تقدما على الأدب الكلاسيكى ، بمعنى أنه قد جاء بأنغام لم يسمعها جهابذة اليونان والرومان ، ونفذ الى أعماق لم تخطر ببالهم ، وفتح مجاهل كانت مغلقة بالنسبة لهم نتيجة للتجارب التقدمية للروح الانسانية (١) •

اعتمد هذا الرأى على القول السائد بوجود تماسك بين كل ظواهر المجتمع ، وان الأدب ظاهرة اجتماعية • ويتبع هذا أنه لو كانت هناك حركة تقدمية فى المجتمع بوجه عام ، سيكون هناك حركة تقدمية فى الأدب • وتجاوبت كتب مدام دى ستايل تجاوبا صادقا مع هذه النظرية• ففيها يشاهد لطريقة النقد الحديث التى تدرس الأدب بالاضافة الى الخلفية الاجتماعية للعصر •

(٤)

اتجهت فرنسا ــ وكانت تحيا آنئذ فى ظل حكم البوربون بعد عودتهم ثانية ــ الى البحث عن نور جديد من خلال ظلمات أغوار النظرات الجرمانية ، التى هللت لها مدام دى ستايل • فترجم ادجار كينيت كتاب « الأفكار » لهردر ، كما ترجم أوجين رودريج كتاب التربية للسنج ، وارتمى كوزان تحت أقدام هيجل • وفى الوقت نفسه ، اكتشف فى

(١) نستطيع أن نلمح أثر مذهبها فى ملاحظات جيزو فى
Histoire de la civilization en Europe.
(الدرس الثانى) • حيث ذكر عن الآداب الحديثة انها « مثلت قمة العواطف والأفكار فى أقوى وأخصب (مما جاء عند القدماء) ونستطيع أن ندرك فيها كيف نفذت الروح الانسانية فى عدد كبير من النقاط الى أعماق أغور » • وارجع جيزو الى هذه الحقيقية مابدا فى هذه الآداب الحديثة من نقص نسبى فى الشكل •

ايطاليا علم جديد خصيب الايحاء يهم المعنيين بفلسفة التاريخ ، بعد أن ترجم ميشليه كتاب « العلم الجديد » لفيكو .

وكان قد مر آنئذ على تأليف كتاب فيكو مائة عام . ولقد تعمدت عدم ذكر اسمه فى ترتيبه الزمنى ، لأنه لم يحدث أى تأثير مباشر على العالم . ففى القرن الثامن عشر ، بدا فكره غريبا عن زمانه ، ولكنه استهوى القرن التاسع عشر . ولم يعلن فيكو أو يتخيل أية نظرية للتقدم ، وان كانت خواطره قد احتوت رغم كفاية تهوشها واضطرابها على مبادىء بدت وكأنها مسيرة لتكون أساسا لمثل هذا الاعتقاد فى التقدم ، كانت غايته مماثلة لغاية كابانيس والايديولوجيين : جعل دراسة المجتمع تعتمد على نفس القاعدة الموثوق منها التى حققت الاستقرار فى دراسة الطبيعة بفضل ما قام به ديكارت ونيوتن .

واعتمدت فكرته الأساسية على القول بامكان استنباط تاريخ المجتمعات مما يجرى داخل العقل الانسانى . فالشعور بالعالم أسبق من تصوره فكريا . وهذه حالة الهمج والفطرة عند من لا يعيشون فى ظل نظام سياسى . والمرحلة الذهنية الثانية هى المعرفة الخيالية ، وسماها فيكو مرحلة « الحكمة الشاعرية » ، وتناظرها ذروة البربرية فى العصر البطولى . وأخيرا تجىء المعرفة القائمة على المعانى المجردة ، وتصحب عصر الحضارة . هذه هى الأطوار الثلاثة التى يمر بها أى مجتمع ، ويؤثر كل نوع من الانواع فى قوانين البشر ونظمه ولغته وأدبه وسلوكه .

كانت غاية أبحاث فيكو عند دراسته لهوميروس وبواكير تاريخ الرومان معرفة أحوال العصر البطولى . وأصر على القول بعدم امكان فهم هذا العصر ما لم نستطع تخطى طريقتنا المجردة فى التفكير ، وما لم ننظر الى العالم بعين البدائى اعتمادا على جهد كبير من الخيال . واعتقد فيكو أن سر فساد علم التاريخ هو اعتياد تجاهل الفروق السيكلوجية نتيجة للعجز عن ادراك طريقة نظر القدامى . وهنا أحرز فيكو قدرا بعيدا من التقدم على عصره .

وبعد أن ركز فيكو انتباهه بوجه خاص على العصر الرومانى القديم ، اعتمد على ثورات التاريخ الرومانى فى وضع قاعدة عامة للتقدم الاجتماعى ، ولكن هذا لم يعد بأية فائدة على الاطلاق على مذهبه . ورأى أن الحكومات السياسية تتعاقب بالضرورة على النحو الآتى :

١ ـ الأرستقراطية (باعتبار الملكية الباكرة لروما والملكيات الهوميروسية مجرد صور من الأرستقراطية) ٠

٢ ـ الديموقراطية ٠

٣ ـ الملكية ٠

وتناظر الملكية (الامبراطورية الرومانية) أسمى صور الحضارة ٠ فما الذى يحدث بعد الاهتداء الى هذه الصورة ؟ يتدهور المجتمع الى حالة فطرية من الفوضى تنتقل منها مرة أخرى الى عصر أسمى من البربرية أو العصر البطولى ، ثم تعاود الحضارة الظهور ، وهكذا دواليك ٠ وهكذا جاء فى أعقاب انحلال الامبراطورية الرومانية والغزو البربرى العصر الوسيط الذى قام فيه دانتى بدور هوميروس ، ثم جاء العصر الحديث ويناظر بأنظمته الملكية القوية الامبراطورية الرومانية ٠ هذا هو مبدأ «الرجعى» عند فيكو ٠ ولو صحت هذه النظرية لكان معناها وجوب تدهور حضارة أيامه الى البربرية ، وتكرار الدورة مرة أخرى ٠ ولم يطرح فيكو هذه النتيجة صراحة ، كما انه لم يخاطر بذكر اية نبوءة ٠

لا تخفى صلاحية مذهبه للتكيف والتحول الى فكرة تقدم يتخذ شكلا حلزونيا ٠ وليس من شك فى أن العصور المناظرة فى دوراته لم تكن مماثلة أو متجانسة بالفعل ٠ فحتى لو أمكن العثور على أوجه تشابه بين اليونان أو الرومان فى بواكيرها ، وبين المجتمعات الوسيطة ، فان أوجه الاختلاف أوضح وأوفر عددا ، لأن الحضارة الحديثة مختلفة عن حضارة اليونان والرومان فى أنحاء أساسية بعيدة الأثر ٠ ومن الحمق الادعاء بأن الحركة العامة للتاريخ ستعيد الانسان المرة تلو الأخرى الى النقطة التى بدأ منها ، ومن ثم فلو صح ان لنظرية الرجعى عند فيكو أية قيمة ، فانها لن تتوافر الا فى حالة النظر لحركة المجتمع كحركة حلزونية صاعدة ، تناظر كل حركة فى التقدم الصاعد ـ فى بعض نواحى عامة ـ مرحلة قد سبق اجتيازها ، باعتبار أصل هذا التوافق الطبيعة النفسية للانسان ٠

لم يكن من المستطاع تقدير أية نظرة من هذا النوع فى عصر فيكو أو فى الجيل التالى له ٠ وكتاب « العلم الجديد » موجود فى مكتبة مونتسكيو ، وان كان لم ينتفع به ٠ على انه من الطبيعى أن يثير هذا الكتاب الاهتمام فى فرنسا فى العصر الذى اجتذبت فيه الفلسفات المثالية فى ألمانيا انتباه أهل الفكر فيها ، عندما كان الفرنسيون من أبناء

المدرسة الايديولوجية يبحثون مثل فيكو نفسه عن نظرية لتفسير الظواهر الاجتماعية • وعلى الرغم من اختلاف فيكو في أساس نظريته وكذلك في منهجه عن المثاليين الألمان ، الا أن نظراته قد اشتركت مع نظرتهم في جوانب • فلقد اتفق الاثنان على تفسير التاريخ بالاعتماد على طبيعة العقل الذى يحدد بالضرورة أطوار التغير التاريخي • وتشابه فيكو مع فيشته وهيجل في عدم جعل التفسير التاريخي يرتكن الى (الايدومية) أى مبدأ السعادة ، الا في نواحي قليلة • ويرجع الاختلاف الى أن المفكرين الجرمان قد بحثوا عن مبادئهم في المنطق وطبقوها « قبليا » ، وبذلوا جهدا كبيرا في اثباتها « بعديا » بعد الرجوع الى الوقائع الفعلية للتاريخ • ولكن نظرات الطرفين توحي بوجود تطابق بين اتجاه التقدم الانساني وما يجرى داخل العقل ، وبعدم انحراف هذا الاتجاه نتيجة لأى تدخل من العناية الالهية أو الأفعال الحرة للارادة الانسانية •

(٥)

اشتركت هذه المؤثرات الاجنبية في تحديد اتجاهات التأملات الفرنسية في عهد عودة الملكية ، وبذلك توطدت فكرة التقدم على أسس جديدة ، واحتلت الصدارة في « أديان جديدة » • وقبل أن نتناول الكلام عن مؤسسي هذه النحل الجديدة ، علينا أن نلقى نظرة سريعة على آراء بعض البارزين من أهل العلم ، ممن حظوا بالانتباه قبل ثورة يوليو : جوفروا وكوزان وجيزو •

استوحى كوزان ــ أهم مصادر النور في مجال الفلسفة البحتة في النصف الأول من القرن التاسع عشر ــ الهامه من المانيا • وتظهر فلسفته بمظهر الفلسفة التلفيقية ، وان كانت هيجلية في صميمها، ومع ان كوزان قد نسب الوعى والشعور الى الله ، وتحدث عن النعمة الالهية الا انه تصور ما يدور في العالم كتطور ضرورى للفكر ، ورأى في الفلسفة ــ لا في الدين ــ المعبر الاسمى عن الحضارة • وفى سنة ١٨٢٨ ألقى مجموعة من المحاضرات عن فلسفة التاريخ ، وقسم التاريخ الى عصور ثلاثة يتحكم في كل منها فكرة رئيسية • فالعصر الأول (في الشرق) خاضع للامتناهي ، بينما يسيطر المتناهي على العصر الثاني (العصر الكلاسيكي القديم) والعلاقة بين المتناهي واللامتناهي هي السائدة في العصر الثالث (الحديث) • واقتدى بهيجل فأغفل الكلام

عن المستقبل ، واقتصر على جعل التقدم يدور فى نظام مغلق بعد ان تم بلوغ اسمى حلقة بالفعل .

استهوى كوزان ، بوصفه خصما للايديولوجيين والفلسفة الحسية ، رجال الدين ، وكل من بدت لهم الفولتيرية جديرة باللعنة . وأحدث تأثيرا ملحوظا زهاء الجيل من الزمان · غير ان ماقام به — وهذه أهم نقطة لدينا — قد ساعد على نشر الفكرة التى عمل الأيديولوجيون على نشرها وفقا لاتجاهات مختلفة : فكرة التاريخ الانسانى كتطور تقدمى .

وركز جوفروا ايضا على التطور والتقدم ، فى تمهيده « لفلسفة التاريخ »(١) ١٨٢٥ الحافل بالايحاء رغم تفاهته . وفيه طرح نفس المشكلة ، التى حاول حلها فى نفس الوقت سان سيمون وكونت ، كما سنرى · ولم تبهره المثالية الألمانية ، وتقاربت نتائجه مع نتائج فيكو اكثر من اقترابها من نتائج هيجل .

وبدأ ببعض اعتبارات بسيطة انتهت الى نتيجة مشكوك فيها وهى ارجاع كل التغيرات التاريخية فى أحوال الانسان الى ذكائه . ويتلخص واجب المؤرخ فى تتبع تعاقب التغييرات الفعلية ودراسة التناظر بين تطور الاحداث وارتقاء العقل .. وهذه هى الفلسفة الحقة للتاريخ . « ويرجع مجد عصرنا الى قدرته على ادراكها » ·

وقال : من المعترف به الآن اتباع الذكاء الانسانى لقوانين ثابتة ، وبذلك بقيت مشكلة تستحق البحث · فلابد من استنباط التعاقب العقلى للافكار من هذه القوانين الضرورية . وعندما يتحقق هذا الاستنباط — بعد عمر طويل — سيختفى التاريخ ، ويمتزج بالعلم .

ثم قدم جوفروا للعالم ما سماه « بقدرية التقدم الفكرى » ، ورأى احلال هذه الفكرة محل « النعمة الالهية » أو المصير . وحرص على ايضاح معنى هذه القدرية · فقال انها بعيدة كل البعد عن الاتصاف بالاستسلام أو الاذعان لأنها تسلم بالحرية الفردية . فهى ليست شبيهة بقدرية الحافز الحسى التى تسوق الدواب من الكائنات . ان ما تدل عليه هو الآتى : لو توافرت لألف انسان نفس الفكرة عما هو

(١) تأملات فى فلسفة التاريخ Reflexions sur la philosophie de l'histoire. ضمن Mélange philosophique. (مختارات فلسفية) الطبعة الثانية ١٨٣٨ ·

خير ، فان هذه الفكرة ستتحكم في سلوكهم بوصفهم أحرارا عقلاء بالرغم من مشاعرهم ، لأنهم لن يخضعوا خضوعا أعمى للهوى ، ولكنهم سيقدرون على التروى والاختيار .

يختلف هذا التفسير للتاريخ كتطور ضرورى للمجتمع يناظر تعاقبا ضروريا للأفكار عن تفسيرى هيجل وكوزان فى نقطتين هامتين . فهو لم يتصور تعاقب الأفكار كمنطق صادر عن أصل علوى . ولكنه تصوره خاضعا لقوانين العقل الانسانى منتميا الى عالم النفس . هنا التقى جوفروا وفيكو فى الرأى . ثانيا : لا يتبع تعاقب الأفكار أى نظام مغلق بعد ترك المجال لحدوث تقدم غير محدود فى المستقبل ..

(٦)

عندما كان كوزان يلقى محاضراته عن الفلسفة فى باريس فى عهد آخر ملك للبوربون كان جيزو يجتذب الجموع الخاشعة بمحاضراته عن تاريخ الحضارة الاوربية . والتقدم هو مفتاح هذه المحاضرات . وتناول جيزو التاريخ بعقل متفتح جديد لم تفسده أية نظرية فلسفية ترعى افكاره أو تساعد على ازدهارها .

قال جيزو : الحضارة هى أسمى حقيقة بالنسبة للانسان ، انها الحقيقة بمعنى الكلمة . الحقيقة المحددة التى تمتزج بها كل الحقائق الاخرى . و « الحضارة » تعنى التقدم أو الارتقاء . و « توحى لنا هذه الكلمة عند الجهربابفكرة شعب يتحرك . ولا يقصد بالحركة التغير فى المكان ، وانما الحركة التى تغير من أحوال أى شعب كالارتقاء واتساع نطاقه ، وتبدو لى فكرة التقدم والنمو الفكرة الأساسية المحتواة فى كلمة حضارة » .

هنا تصادف أهم فكرة موجبة فى نظرات القرن الثامن عشر . وهى واقفة على قدميها متحررة مستقلة ، بعد أن غدت غير مقيدة بأى نسق فلسفى . فقبل ذلك بخمسين عاما ما كان أحد ليحلم بالاتيان بمثل هذا التعريف للحضارة ، أو ينتظر أن يلقى هذا التعريف أى ترحاب مباشر من مستمعيه .

ولكن التقدم يحتاج الى تعريف .. فهو لا يعنى فقط ارتقاء علاقات المجتمع ، ورفاهية أبنائه . فلقد كانت فرنسا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر متخلفة عن هولاندة وانجلترا فى ناحية الرفاهية ونصيب

الأفراد منها ، وطريقة توزيعهـا ، وان كانت قد استطاعت الزعم بأنها أعظم البلدان « تحضرا » في هذه العصور ، والسبب هو أن الحضـارة تعنى أيضا ارتقاء حياة الفرد ، والملكات الشخصية للانسان والعواطف والمعتقدات • وعلى هذا فان القول بتقدم الانسان يعنى حدوث تقدم في شتى هذه الجوانب المترابطـة برباط وثيق • فنحن نستطيع أن نلحظ كيف لجأ المصلحون الاجتماعيون بوجه عام عند تزكية مقترحاتهم الى الوعد بالرقي الاجتماعي كثمرة ، وكيف اعتقـد السـياسيون التقدميون أن التقدم في المجتمع يستحث بالضرورة حدوث تحسن اخلاقي • وربما لا يظهر الارتباط دائما واضحا ، كما يسود نوع أو آخر من التقـدم في بعض الأحيان ، وان كان الواحد منهما يعقب الآخر في نهـاية الأمر ، حتى لو حدث هذا بعد أمد طويل لأن النعمة الالهية تتصرف في الزمان، كمـا يحـلو لها » (*) • وكان بزوغ المسـيحية من بين نقـاط التحول في الحضـــارة ، بيد أنهـــا لم تهدف في مراحلها الباكرة الى احداث أي تحسن في أحوال المجتمع • فهي لم تهاجم المظالم البشعة المنتشرة في العالم ، وتسببت في احداث تحـول كبير ، بعـد ان أحدثت تغيرا في معتقدات الأفراد وعواطفهم • أما الآثار الاجتماعية فجاءت فيما بعد •

ولقد نمت حضارة أوربا الحديثة خـلال خمســة عشر قرنا ، ومازالت مستمرة في نموها • وكان معدل تقدمها أبطأ من معدل تقـدم الحضـارة اليونانية ، ولكنها اتسمت ــ من جانب آخر ــ بالاتصال وعدم التقطع • وبذلك أصبح بوسـعنا الإطلاع على « مشـهد حافل من المنجزات الباهرة » •

أما مازاد من تأثير مذهب جيزو في ترويـج فكرة التقـدم ، فكان تحرره من أية نظرة فلسفية • فهو لم يلمس مشكلات محيرة كالقدرية أو يتناول المخطط العام للعالم ، ولم يحـاول الارتفـاع عن مســتوى البداهة ، أو يضع أي مشروع ســـابق للأوان عن التـــاريخ العـالمي للانســان • وأظهرت أســتاذيته في عرض التاريخ الاجتماعي لأوربا الحركة التقدمية كحقيقة واقعة في عصر كادت تبدو فيه في نظر مفكري القـرن الثامن عشر كشيء غيبي • بطبيعة الحـال ، ان هذا بعيـد كل البعد عن اثبات ان التقدم هو مفتاح تاريخ العالم ومصير الانســان ، لأن الاعتقاد بمرادفة الحضارة للتقدم قد ظل مجرد افتراض • فهناك سؤال يبزغ على الفور : هل يمكن للحضــارة أن تصـل الى حالة من التوازن يصبح بعدها أي تقدم مستحيلا ؟ فهل تعد تسميته الحضـارة

---

* La Providence a, ses aises dans le temps,

الصينية مثلا بالحضارة اساءة تسمية ، أم ان هناك حركة تقدميه حدثت فى شتى العصور بغض النظر عن تمهلها ؟ لم يثر جيزو مثل هذه الاسئلة ، ولكن رايه كان بعيد الأثر فى المساعدة على توطد ارتباط فكرتى الحضارة والتقدم الذى يسلم به هذه الأيام كحقيقة واقعة ..

(٧)

يتبين من اراء هؤلاء المفكرين اللامعين : كوزان وجوفروا وجيزو وجود اتجاه عام فى الفكر الفرنسى على عهد عودة الملكية لتصور التاريخ كحركة تقدمية . واشترك معهم فى هذا الرأى أيضا الوضعيون من امثال سان سيمون وكونت اللذين سنتناول الكلام عنهما فيما بعد . ولعله لا وجود لمثل أفضل للتدليل على مدى انتشار هذه الفكرة من كتاب « دراسات تاريخية » الذى نشره شاتوبريان على العالم سنة ١٨٣١ ، بعد أن تعلم الكثير ، من الاطلاع ومن السياسة على السواء . منذ ألف كتابه « عبقرية المسيحية » . فلقد اكتسب بعض الالمام بالفلسفة الالمانية وبفيكو .. وفى هذا الكتاب الذى نشره فى خريف العمر قبل فكرة التقدم بأقصى قدر ينتظر من احد الأبرار من أبناء الكنيسة ؛ واعتقد أن تقدم المعرفة سيؤدى الى تقدم المجتمع ، وان المجتمع دائم السير بالفعل نحو الأمام رغم نكساته الظاهرية . وأصبح الآن قادرا على اتهام بوسويه ــ الذى سبق أن بدا له معصوما منذ ثلاثين عاما ــ « بالوقوع فى خطأ جسيم » وكتب « لقد حبس هذا الرجل العظيم احداث التاريخ فى حلقة متزمتة كعبقريته . نعم لقد سجنها فى المسيحية الجامدة ، أى فى حلقة مفرغة تدور فى رحاها البشرية الى مالا نهاية دون تقدم او تغير » . وصدور هذا الاعتراف من مثل هذا المفكر لأبلغ دليل عما طرأ من تغير .

فى نفس الوقت ، ظهر نهوض مستقل بفكرتى « التقدم » و « الاتصال » اللتين قدر لهما التحكم فى شتى فروع الدراسة التاريخية فى أواخر القرن التاسع عشر على يد المدرسة التاريخية الفتية فى ألمانيا التى يرتبط اسمها بأسماء « ايشهورن » و « سافينى » « ونيبور » . وتمثل نظرتهم التائلة بقابلية القوانين والأنظمة للنمو الطبيعى ، أو انها تعبير عن عقلية الشعب ، ابتعادا آخر عن معتقدات القرن الثامن عشر . ففيها رفض « للعقل العالمى » الذى سبق ابتغاؤه لاصلاح العالم ، وشعوبه ، بلا تفرقة ، دون اية مراعاة لقومياته وتاريخها .

الفصل الخامس عشر

البحث عن قانون للتقدم

١- سان سيمون

مرت فكرة التقدم في طور جديد من حياتها وسط الحركات الفكرية السابق شرحها في الفصل الاخير • فحتى الآن ، كانت مذهبا متفائلا غامضا ، اقتصر دوره على تشجيع المصلحين والثوريين ، ولكنه عجز عن القيام بدور التوجيه ، فعاش تابعا لمجردات الطبيعة والعقل • فلم تكن فكرة التقدم قد اكتسبت كيانا قائما بذاته بعد • وحان الآن الوقت كي تقوم المحاولات المنهجية بسبر غور معنى هذه الفكرة ، والاثبات المحدد للاتجاه الذي تتحرك اليه البشرية • ولقد سبق لكانط ان أثبت الحاجة الى أمثال كبلر أو نيوتن للاهتداء الى قانون لحركة الحضارة • وتعهد فرنسيون عديدون بحل المشكلة ، ولكنها لم تحل ، وانما تم انشاء علم جديد للاجتماع ، وأصبحت فكرة التقدم التي كانت كامنة فيه منذ مولدها المشكلة الاساسية منذ ذلك الحين •

(١)

تصور أيضا المفكرون الثلاثة الذين أدعوا اكتشاف حركة تقدم المجتمع ، الغاية العملية من اعادة تشكيل المجتمع وفقا لأسس علمية ، واتجهوا الى انشاء طوائف للدعوة لذلك : هؤلاء المفكرون هم فورييه وسان سيمون وكونت • وأعلنوا جميعا عن بدء عصر مزدهر كثمرة ضرورية للماضي ، وكمرحلة محتومة مرغوبة في خط سير البشرية • وقاموا بتحديد ملامحه •

خلف كونت سان سيمون مثلما خلف الاخير كوندورسيه • أما فورييه ؛ فله وضع خاص • فقد أدعى انه اكتشف أرضا جديدة كلية ، ولم يعترف بأي أستاذ له ، واعتبر نفسه نيوتن ، ولكن بلا كبلر ولا جاليليو كممهدين له • وأهم وأعقل ما أنجز هو المشروع الذي وضعه لتنظيم

المجتمع تبعا لمبدأ جديد مستمد من التعاون العالمي • أما النظرية العامة الى الكون ومصير الانسان الكامنة وراء مخططاته العملية فموغلة في الوهم ، وبدت كحلم أحد المجاذيب ، وان كان كثيرون قد قبلوها كبشارة أحد القديسين •

تأثر فورييه بالآثار البعيدة لكشوف نيوتن ، فاندفع يبحث عن قانون قادر على تنسيق وقائع العالم السلوكي ، على غرار مبدأ الجاذبية ، وما قام به من تنسيق للوقائع في عالم الفزياء • وفي سنة ١٨٠٨ ، زعم اكتشاف سر ما سماه بقانون « تجاذب المشاعر » (١) • فحتى ذلك الحين ، كانت المشاعر مصدر شقاء وتعاسة ، وتتركز مشكلة الانسان في محاولة جعل هذه المشاعر مصدرا للسعادة • ولو أمكننا معرفة القانون المسيطر عليها ، سيكون بوسعنا أن نجري تغييرات في بيئتنا حتى لا تحتاج أي من مشاعرنا الى لجام ، وبحيث لا يتسبب الانغماس الطليق في أي منها في عوق باقي المشاعر ، أو اثباطها •

لسنا بحاجة الى التمعن في قانونه الفارغ الرامي الى التوفيق بين المشاعر دون كبحها • واعتمد بناء المجتمع الذي اقترحه لتحقيق ما في كشفه من خير على التعاون ، ولكنه لم ينزع الى الاشتراكية • وفيه تحل محل الاسرة كوحدة اجتماعية وحدة أعظم : « الفالانج » ، فيهما اكتفاء اقتصادي ذاتي ، وتتألف من حوالي ١٨٠٠ شخص يعيشون سويا في بناء رحيب (الفالانستير) وسط ضيعة تكفي لانتاج كل ما يحتاجون اليه • والملكية الفردية باقية ، فهناك أغنياء وفقراء ، ويوزع نتاج العمل تبعا لأسهم يتناسب عددها مع جهد الافراد ومواهبهم ورأسمال كل منهم ، ولكن بعد تحديد حد أدنى لكل فرد • وجرب المشروع بالفعل على نطاق ضيق بالقرب من غابة رامبوييه سنة ١٨٣٢ •

وقيل أن تحول المجتمع ــ وما سيترتب عليه من أحداث للتوافق بين المشاعر ــ فاتحة عصر جديد • ويقدر مدى بقاء الانسان على الارض بـ ٨١٠٠٠ سنة ، انقضى منها خمسة آلاف • وسيدخل الانسان الآن عصرا طويلا من التوافق المتزايد يعقبه عصر مماثل من التدهور ،

---

(١) انظر الى كتاب
Theorie de quatre mouvement et des destinées generales.
من المستطاع العثور على بيان عام لنظرياته في كتاب تلميذه الدكتور شارل بيلبران : « شارل فورييه ــ حياته ونظرياته » الطبعة الثانية ١٨٤٣ • وفي كتاب روبرت فلينت History of Philosophy of History in France. ص ٤٠٨ وما بعدها •

أشبه بالموجات الصاعدة والهابطة في فلسفة هيراقليطس • وقد اتسم ماضي الانسان القصير في عصر طفولته بما حدث فيه من تدهور في السعادة انتهى بالعصر الحديث « وحضارته » ، وبسيئاتها المطلقة • هنا نصادف تأثير روسو • والمخرج منه هو كشف فورييه ، أو المفتاح الذي سيهدى البشرية الى عصر يبدأ فيه التوافق في البزوغ ، ولكن ينبغي أن ينظر لمن عاشوا في العصور السيئة بعين الشفقة ، ولا ينبغي أن يشعر من يحيون الآن بأي تشاؤم ، لأن فورييه يؤمن بتناسخ الأرواح، ويستطيع أن يخبرك — كأي سكرتير خاص لله — بعد تقدير حسابي لمخطط الكون ، مقدار السعادة المفرطة ، والسعادة المعتدلة والتعاسة لكل روح خلال الـ ٨١٠٠٠ سنة بأكملها • كما ان مشروعه لم يقف عند الحياة على الأرض ، لأن روح الأرض وأرواح البشر ستعاود الحياة مرة أخرى في الشهب والكواكب والشموس ، ويعرف فورييه كل هذه التفاصيل (١) •

ما كانت هذه الخواطر الحمقاء لتستحق حتى أوهى تنويه بدلالتها، لولا قيام فورييه بانشاء زمرة كانت تضم عددا كبيرا من الاتباع المتحمسين • فلقد هلل برانجييه لكشفه ونظم أبياتا قال فيها :

يقول لنا فورييه اتركوا الأوحال

أيها المتوحشون الغارقون في الخداع

واعملوا متجمعين في « الفالانج »

في جو يجتذب أفئدتكم

حيث تتزاوج بالسماء

الارض بعد أن تخف مصائبها

وحيث ينشر السلام أبناء البشر

عندما يحيون في ظل القانون الذي يتحكم في النجوم* •

---

(١) يستطاع العثور على تفاصيل المشروع Theorie de l'unite Universelle, (١٨٢٢) • الذي نشر في الأصل تحت عنوان Association domestique agricole.

★ Fourier nous dit : Sors de la fange Peuple en proie aux decéptions, Travaille, groupé par phalange Dans un cercle d'attractions, La terre, après tant de désastres Forme avec le ciel un hymen, Et la loi qui régit les astres, Donne la paix au genre humain.

وذكر لنا كاتب انجليزى بعد عشر سنوات من وفاة فورييه (١٨٣٧) : « تجتذب النظرية الاجتماعية لفورييه فى الوقت الحاضر الانتباه ، وتثير اهتمام المفكرين ، لا فى فرنسا وحدها ولكن فى كل بلد فى أوربا على وجه التقريب » • فرغم غرابة الأساس النظرى لمعتقداته، الا أنه ساعد على تعريف العالم بفكرة التقدم الذى لا يقف عند حد •

(٢)

« وضع خيال الشعراء العصر الذهبى فى مهد الجنس البشرى ، وكان من واجبهم نفى العصر الحديدى الى مثل هذا المهد ، لان العصر الذهبى ليس خلفنا ولكنه أمامنا • فهو يمثل كمال النظام الاجتماعى ، الذى لم يشهده آباؤنا ، وسوف يبلغه أبناؤنا يوما ما • وعلينا أن نمهد الطريق لهم » •

والكونت سان سيمون الذى كتب هذه الكلمات سنة ١٨١٤ من بين النبلاء المتحررين الذين تشبعوا بأفكار العصر الفيكتورى وعطفوا على روح الثورة الفرنسية • ومر خلال حياته الأدبية التى بدأها سنة ١٨٠٣ حتى وفاته سنة ١٨٢٥ ، خلال أطوار متعددة من الفكر (١) ، وان كان أساتذته الأساسيون ظلوا دائما كوندورسيه والفسيولوجيين الذين استمد منهم فكرتيه اللتين أنارتا له الطريق : اعتماد الأخلاقيات ، والسياسة بالتبعية ، على الفزياء ، والاعتقاد بوجود هوية بين التاريخ والتقدم •

وكان كوندورسيه قد فسر التاريخ بالرجوع الى الحركة النقدية فى المعرفة • وقال سان سيمون ان هذا المبدأ هو أصح مبدأ ، وان كان كوندورسيه قد طبقه تطبيقا ضيقا ، وارتكب خطأين ، فهو لم يدرك المدلول الاجتماعى للدين ، وصور العصور الوسطى كعهد معوق عديم الجدوى فى حركة التقدم للامام • هذا تعلم سان سيمون من حركة رد الفعل الدينى ، فادرك وجود دور اجتماعى طبيعى مشروع للدين ، ومن غير المستطاع اغفاله بحجة انحرافه • واتضح له معنى تماسك كل الظواهر الاجتماعية • وذكر أن هناك تناظرا بين أى مذهب دينى ومرحلة العلم التى بلغها المجتمع موضع البحث • والواقع أن الدين بمثابة علم محافظ

---

(١) يمكن تتبع هذه الأطوار فى دراسة فيل القيمة : سان سيمون ومنجزاته ١٨٩٤ •

بصورة تناسب الحاجات العاطفية التي يشبعها · ويعتمد بوصفه نظاما دينيا على المرحلة المعاصرة في التقدم العلمي · وعلى هذا يكون هناك تناظر بين النظام السياسي في أي عصر وبين النظام الديني ، وارتباط بين الجانبين · ولا تمثل أوربا في العصر الوسيط أي انتصار مؤقت للغيبيات العديمة الجدوى المثيرة للأسف ، ولكنها مرحلة قيمة ضرورية في تقدم البشر · فهي عهد تحقق فيه مبدأ هام في التنظيم الاجتماعي : العلاقة الصحيحة بين القوى الزمنية والروحانية ·

لا يخفى كيف حولت هذه النظرات نظرية كوندورسيه الى صورة اقرب للقبول · فلو صح أن العهد الوسيط كان عهدا متخلفا لم يشارك بشيء في الحركة التقدمية ، ولكنه عاق تقدمها ، فان القول بالتقدم سيكون حينئذ معرضا للنقد القائل بانه فكرة مصطنعة تعسفية لا تؤيدها الوقائع التاريخية الا جزئيا ، ولا يستطاع تأكيد حدوثه مستقبلا · وما دام العقلانيون من أبناء المدرسة الموسوعية يرون في الدين نتاجا سقيما من الجهالة والخداع سيحكم على الفلسفة الاجتماعية الكامنة وراء نظرية التقدم بأنها غير علمية ، لأنها في تحديها للترابط الوثيق للظواهر الاجتماعية قد رفضت الاعتراف بأن الدين بوصفه أحد هذه الظواهر الزمنية ينبغي أن يشارك في التقدم ، وأن يمد له يد العون ·

ولقد سبق لكوندورسيه أن أوحى بأن قيمة التاريخ انما ترجع الى ما يزود به من معلومات تساعد على التنبؤ بالمستقبل · ورفع سان سيمون هذا الايحاء الى درجة العقيدة المقدسة ، ولكن التكهن باتباع منهج كوندورسيه غير العلمي كان مستحيلا · فكي يستطاع التنبؤ بالمستقبل ينبغي اكتشاف قانون للحركة التاريخية ، ولكن كوندورسيه لم يكتشف أي قانون ، بل ولم يسع لمثل هذا الاكتشاف · فلقد ترك مفكرو القرن الثامن عشر « التقدم » مجرد فرض معتمد على استقراءات غير وافية البتة · وحاول خلفاؤهم الارتقاء بها الى مرتبة الفرض العلمي باكتشاف قانون للمجتمع ، لا يقل صحة عن القانون الفزيائي للجاذبية · وتركزت غاية كل من سان سيمون وكونت على هذه المهمة ·

كان « القانون » الذي استخلصه سان سيمون من التاريخ هو القول بتناوب عهود التنظيم أو البناء متعاقبة مع عهود النقد أو الثورة · فكان العصر الوسيط عصر تنظيم ، وجاء في أعقابه عصر نقدي ثوري انتهى عهده الآن ، وينبغي أن يخلفه عصر جديد من عصور التنظيم · وبعد أن اكتشف سان سيمون مفتاح الطريق أصبح قادرا على التنبؤ ·

فلما كانت معرفتنا بالعالم قد بلغت مرحلة لم تعد تعتمد على التخمين ولكنها « وضعية » في كل المجالات ، أو في طريقها الى بلوغ هذه المرحلة، فقد أصبح بالامكان احداث تغير في المجتمع يتبع هذا الطريق • وهكذا سيحل دين على غرار الفزياء محل المسيحية والتاليهية • وسوف يتولى رجال العلم مهمة التنظيم التي سبق للكهنة القيام بها في العصور الوسطى •

لما كانت غاية التقدم هي سعادة المجتمع ، ولما كانت الطبقات العاملة هي الأغلبية ، فان الخطوة الأولى تجاه الهدف تتطلب الارتقاء بأحوال الطبقات العاملة ، وستكون هذه هي المشكلة الاساسية للحكومة عند اعادة تنظيم المجتمع • واعتمد حل سان سيمون للمشكلة على الاشتراكية ، ورفض شعار الليبرالية ـ الديموقراطية والحرية ، والمساواة ـ بازدراء لم يقل عنفا عن الازدراء الذى وجهه لهذا الشعار كل من دى مايستر وانصار حركة الارتداد •

جاء الاعلان عن العصر الذهبي الذى سيتحقق مستقبلا ، والذى سبق أن استشهدت به ، في نشرة أصدرها سان سيمون بعد سقوط نابليون (١) بالاشتراك مع سكرتيره المؤرخ اغسطين تيرى ، وفيها احياء لفكرة الأب سان بيير عن الخلاص من الحرب ، واقتراح لنظام جديد لأوربا أشد طموحا وابتعادا عن الواقع من اقتراح عصبة الأمم عند الأب سان بيير • ورأى سان سيمون آنئذ في الحكومة البرلمانية التي اقامتها حكومة عودة البوربون في فرنسا علاجا حاسما للفوضى السياسية ، وظن أنه لو أمكن ادخال هذا النظام السياسى في كل دول أوربا فان خطوة كبرى سيكون قد تم خطوها نحو تحقيق سلام دائم • فلو استطاع العدوان القديمان فرنسا وانجلترا تحقيق تحالف وثيق سيصبح من غير العسير في نهاية المطاف خلق دولة أوربية على غرار حكومة الولايات المتحدة الامريكية ، لها حكومة برلمانية عليا فوق حكومتي الدولتين • هذه جرثومة فكرة « برلمان الانسان » (*) •

(٣)

ومع هذا فلم ينشىء سان سيمون مذهبا محددا لطريقة الاهتداء الى كمال المجتمع ، وترك ذلك للحواريين للنهوض بالفكرة التي رسمها •

---

(١) ص ١١١ من كتاب De la réorganization de la societé europeane. (١٨١٤) •

(*) Parliment of man.

وفي السنة التي مات فيها (١٨٢٥) ، انشأ أولينه رودريج والفانتان مجلة * لتعريف البشرية بمذهب عام جـديد ، أي بالشيء الذي كانت البشرية حينئذ في أمس حاجة اليه ، كما اعتقد استاذهما .

لقد بين التاريخ تحرك الشعوب من الانعـزال الى الوحدة ، ومن الحرب الى السـلام ، ومن العدوان الى التعاون . وما يتوقع حدوثه مستقبلا هو اقامة ترابط دعامته النظام العلمي . ولقد سبق للكنيسـة الكاثوليكية في العصور الوسطى أن عرضت مثـلا لنظام اجتماعي كبير مستند الى عقيدة عامة . ولا بد أن يتبع مجتمع العالم الحديث أيضا نظاما ما يعتمد على العلم لا على الدين . فيجب الا تكمن القوة الروحانية في القسس بل في أهل العلم ، الذين سـيقودون تقدم العلم وينشرون المعرفة . وسوف يخصص لكل واحد من أبناء المجتمع مكانه وواجباته . ويتألف المجتمع من طبقات ثلاث من العاملين : الصـناع ورجال العلم والفنانون ، ويكلف نفر من العاملين البارزين في كل طبقـة بتحديد موضع كل فرد تبعا لقدراته . والمساواة الكاملة هراء ، أما التفـاوت المبني على اختلاف المميزات فمعقول وضروري . ومن الأخطاء الحديثة اساءة الظن في سلطان الدولة ، لأن الحاجة ماسة الى وجود سلطة قادرة على توحيد القـوى القومية ، ولاقتراح الافـكار العظيمة ، ولخلق المستحدثات الضرورية للتقدم . ان مثل هذا النظام سينهض بالتقدم في كل الميادين : في العلم اعتمادا على التعاون ، وفي الصناعة اعتمادا على الائتمان ، وفي الفن أيضا ، بعد ان يتعلم الفنـانون التعبير عن أفكار عصرهم وعواطفه .. وثمة دلائل موجودة بالفعل للميل الى اتباع اتجاه من هـذا القبيل ينبغي أن يتحقق لا بوساطة الثـورة ، وانما بالتغير التدريجي .

في هذه الروح التسلطية المهيمنة التي يرغب رسل التقدم تسليم مصير الانسان اليها ، نستطيع ان نلمح تاثير الثيوقراطي عدو التقدم : جوزيف دي مايستر . فلقد علمهم ضرورة وجود سلطة مركزية ، كما علمهم ما في الحرية من أخطار .

أما أوفى عرض للمذهب سان سيمون في التقدم فقد قدمه بعد ذلك بسنوات قليلة (١) « بازار » وهو من أبرز أنصاره . تصور بازار الجنس

★ Le Producteur.

(١) (جزءان) ١٨٣٠ ـ ١٨٣١
Exposition de la doctrine saint-simonienne

البشري كائنا جماعيا يكشف عن طبيعته خلال الأجيال المتعاقبة وفقا لقانون ـ قانون التقدم ـ الذي يصح تسميته بالقانون الفسيولوجي للجنس البشري ، والذي سبق لسان سيمون اكتشافه ؛ ويتألف من تناوب عهدين : « العهد العضوي » و « النقدي » .

وفي العهد العضوي ، يدرك ابناء البشر وجود غاية ما ، فيعملون على تنسيق كل جهودهم لبلوغها . أما في العهد النقدي ، فانهم لا يكونون على وعي بأي هدف ، ومن ثم فان جهودهم تتشتت وتتنافر . ولقد ظهر عصر عضوي في اليونان قبل عصر سقراط ، خلفه عصر نقدي استمر حتى جاء الغزو البربري . ثم جاء عصر عضوي في المجتمعات المتجانسة في أوربا ، ابتداء من عهد شرلمان حتى نهاية القرن الخامس عشر ، ثم استهل بلوثر عصر نقدي جديد ، مازال باقيا . والآن قد حان الوقت للتمهيد لظهور العصر العضوي الذي ينبغي ان يتبعه بالضرورة .

وأهم حقيقة بارزة يستطاع ملاحظتها في التاريخ استمرار امتداد مبدأ الترابط . فقد بدأ بالعائلة ، وتسلسل تقدمه من المدينة الى الأمة ، الى الكنيسة القومية العليا . وينبغي أن تكون الحلقة القادمة ترابطا أرحب يضم البشرية جمعاء .

لقد كان استغلال القوى للضعيف من السمات الأساسية في مجتمعات البشر نتيجة للنقص في الترابط ، وان كانت الصور المتتالية لهذا الترابط قد بينت حدوث تخفف تدريجي في هذه الظاهرة . فجاء الرق في أعقاب أكل لحوم البشر ، ثم أعقبته العبودية ، وأخيرا جاء الاستغلال الصناعي على يد الرأسماليين . وتعتمد هذه الصورة الاخيرة من اضطهاد الضعفاء على حق الملكية ، وعلاجها هو نقل حق ميراث الملكية عند الفرد من الاسرة الى الدولة . وهكذا يتضح وجوب اتباع مجتمع المستقبل للاشتراكية .

لا بد ان يتم نشر الدعوى الاجتماعية الجديدة بوساطة التعليم والقوانين ، كما ينبغي ان تدعم بدين جديد . فلن تصلح المسيحية لتحقيق هذه الغاية لاعتماد فلسفتها على ثنائية المادة والروح ، وعلى صب اللعنة على المادة . وينبغي أن يكون الدين الجديد وحدويا ، ومبادؤه باختصار : الله واحد ، والله كل ما هو كائن ، والكل هو الله . فالله محبة شاملة تكشف عن نفسها في صورة عقل ومادة ، ويناظر هذا الثالوث عوالم ثلاثة : الدين والعلم والصناعة .

أثبتت المدرسة السانسيمونية عندما ربطت بين نظريتها وبين دين فلسفي ولاءها لتعاليم استاذها ، بالاضافة الى فطنتها الفطرية · اذ كان من المستبعد ان يحظى مذهبهم في تحـــويل المجتمع المعتمد على حركة علمانية ، بنفس النجاح ، أو يثير حماسة مماثلة للدين · ولا يستبعد أن يكونوا قد تأثروا أيضا بالنشرة التي كتبها لسنج والتي نبهت اليها مدام ستايل ، وقام بترجمتها أحد أتباع سان سيمون ·

أما ما صادفته المدرسة والطائفة في فيلمونتان تحت زعامة انفانتان واحداث الاضطهاد والمروق والتشتت ، ومحاولة نشر الحركة في مصر ، والنشاط الفلسفي لانفانتان وليمولييه في ظل الامبراطورية الثـــانية فمسائل لا تسترعي انتباهنا · ورويت هذه القصص الغريبة في بحث ممتع لسيوفيل (١) · ولقــد انقرضت هــذه الطائفة الآن ، غــير انهـــا تركت أثرا بعيدا في أيامها ، اذ نشرت الايمان بالتقدم كمفتاح للتاريخ وقانون للحياة الجماعية (٢) ·

---

(١) اسم الكتاب l'Ecole saint-simonienne, son histoire, son influence jusqua nos jours (١٨٩٦) ·

(٢) انبثق من المدرســـة اثنان من ارباب المقدرة ممن انحرفوا عن اتباع معتقدات سان سيمون ، في مرحلة مبكرة · نتيجة لانحرافات انفانتـــان : اولهما بيرليرو الذي سنتعرض له مرة أخرى والثاني بوشيه 'B, Buchez الذي نشر سنة ١٩٣٣ مقدمة حافلة بالنظرات لعلم التاريخ بعنوان Introduction à la science de l'histoire فيها عرف :التاريخ بأنه علم غايته التنبؤ بمستقبل المجتمع البشرى في ظل نشاطه المتحرر (الجزء الأول ص ٦٠ ـ الطبعة الثانية ١٨٤٢) ·

الفصل السادس عشر

البحث عن قانون للتقدم

٢ - كونت

(١)

فاق أوجست كونت جميع المفكرين السابقين فيما قام به لتوطيد فكرة التقدم بوصفها مصدرا وضاء لن يسهل على النـاس أن يتجنبوا رؤياه • وربما أمكن استبعاد اللمحات اللامعة لسان سيمون وكتابات بازار وأنفانتان وشطحات فوربيه باعتبارها اقتراحات أقرب الى الغرابة منها الى الجدية • أما المذهب الجبار الذى جادت به عبقرية كونت فى تأملاته ـ كنظراته للمعرفة البشرية ككيان عضـوى ، وتحليله المحـكم للتاريخ ، وعلمه الجديد للاجتماع ـ فمن الحقـائق الشـامخة التى ارغم الفـكر الاوربى على الاعتراف بها • والتقدم هو روح مذهبه ، وأهم مشكلة اتجه لحلها هى تحديد قوانينه •

ولن يسىء الىٰ أصالته ، ما كان يدين به من فضل لسان سيمون ـ وكان أكثر مما اعترف به فيما بعد ، أو أكثر مما رضى أتباعه بالاعتراف به • فلقد تعاون معه لمدة سنوات ، واعترف حينئذ فى حماسة بتأثره فكريا بسان سيمون الذى يكبره فى العمر • ولكنه تقل عنه شيئا أكثر من دفعات فكره له فى اتجاه معين • فهو مدين له ببعض الأفكار المميزة كالمبدأ الكامن وراء مذهبه عن وجود صلة وثيقة وتطابق بين الظـاهرة الاجتماعية فى أى عصر معلوم والحالة الفكرية للمجتمع • والنظرة الى العصر القادم « كعصر تنظيم وتشبيهه بالعصور الوسـطى » ، وفكرة حكومة من أهـل العلم ، فكل هـذه الافكار من النظرات السـانسيمونية الصرفة • كما أن الفكرة الرئيسية فى فلسفته الوضعية قد سبق لسان سيمون ادراكها قبل ان يتعرف الى مساعده الشاب بأمد طويل •

ولكن كونت قد تمتع بعقلية علمية ومنهجية أفضل • واعتقد أن سان سيمون قد استنتج نتائج سابقة للأوان عن اصــلاح المجتمعات والصناعة ، قبل انشاء الفلسفة الوضعية • وفي سنة ١٨٢٢ نشر ـ وكان يناهز الثانية والعشرين من عمره آنئـذ ـ « مخططا لما يلزم عمليا لاعادة تنظيم المجتمع » • وقام سان سيمون بعد ذلك بســـنتين بنشر نفس الكتاب ، وانما تحت عنوان آخر ، وتشاجر الصديقان بســـبب هذه الواقعة • ويحتوى هذا الكتاب على مبادىء الفلسفة الوضعية التى قام بانشائها وتنميتها فى التو • كما تضمن بالفعل « قانون المراحل الثلاث » •

وفى سنة ١٨٣٠ ، ظهر الجزء الاول من كتاب « الفلســـــــفة الوضعية » ، واستغرق اثنى عشر عاما فى اكمال عرض مذهبه (١) •

(٢)

وقانون « المراحل الثلاث » مألوف عند الكثيرين ممن لم يقرأوا أى سطر من كتاباته على الاطلاق : فمن التعميمات التى سبق أن جاهر بها تيرجــو القــول بأن الناس قد حاولوا أولا ارجــاع الظواهر الطبيعية الى أفعال آلهة من صنع الخيال ، ثم سعوا بعد ذلك الى تفسيرها تجريديا، ثم انتهوا الى الاعتقاد بعدم امكان فهمها الا بالاعتماد على المناهج العلمية والمشاهدة والتجريب • واتبعه كونت فى هذه الفكرة التى بدت له قانونا سيكلوجيا رئيسيا ساد كل مجال فى النشــاط الذهنى ، قادرا على تفسير القصــة الكاملة للتقدم الانسانى • فكل معنى أساسى فى أذهاننا وكل فرع للمعرفة يمر بالتعاقب خلال ثلاث حالات سماها باللاهوتيــة والميتافزيقية والوضعية أو العلمية • فى المرحلة الاولى ، يعتمد العقل على الاختراع ، وفى الثانية على التجريد ، وفى الثالثة يخضـــع للوقائع الوضعية • ودليل بلوغ أى فرع من المعرفة للمرحلة الثالثة هو اكتشــاف قوانين طبيعية راسخة •

ولكننا اذا سلمنا بأن هذا الكلام قد يكون مفتاحا لتاريخ العلوم كالفزياء أو علم النبات مثلا ، فهل يصح الارتكان عليه فى تفسير تاريخ الانســـان ، وتسلسل الأحداث التاريخية الفعلية ؟ • ويجيب كونت بأن التاريخ خاضع للأفكار : « فكل ما يجرى فى المجتمع خاضع آخر الأمر

---

(١) كتاب Cours de philosophie positive ظهر الجزء الرابع سنة ١٨٤٢ •

لمعتقدات » • وهكذا يكون تاريخ الانسان بالضرورة تاريخـــا لمعتقداته الخاضعة للقانون السيكلوجي الرئيسي •

ومع هذا فينبغي أن يلاحظ أن كل فروع المعرفة لا تتبع نفس المرحلة في نفس الوقت الواحد • فقد يصل بعضها للمرحلة الميتافزيقية، بينما يكون البعض الآخر مازال متخلفا في المرحلة اللاهوتية • وقد يصل البعض الى المرحلة العلمية ، بينما لا يكون البعض الآخر قد اجتاز المرحلة الميتافزيقية • وهكذا استطاعت الظواهر الفزيائية بلوغ المرحلة الوضعية. أما دراسة الظواهر الاجتماعية فلم تبلغها بعد • وتركزت غاية كونت وانجازه العظيم ـــ في اعتقاده ـــ على رفع دراسة الظواهر الاجتماعية من المرحلة الثانية الى الثالثة •

وعندما ننتقل الى تطبيق قانون المراحل الثلاث على الاتجاه العام للتقدم التاريخي فاننا نصطدم من البداية بصعوبة عدم اتباع كل مجالات النشاط لنفس المرحلة • فاذا كان الفكر والمعتقدات في أى عصر معلوم يتبع من جانب ـــ المرحلة اللاهوتية ، والمرحلة الميتافزيقية ـــ من جانب ثان ، والعلم من جانب ثالث ، فكيف يستطاع تطبيق القانون على التقدم العام ؟ • ورأى كونت وجوب اختيار فئة من الأفكار كمعيار ، وينبغي أن تكون هذه الفئة فئة المعتقدات الاجتماعية والاخلاقية ، وذلك لسببين : فأولا ـــ يحتل علم الاجتماع أعلى مرتبـــة من مراتب العلوم التى ركز عليها اكبر اهتمام • وثانيا ـــ تلعب هذه المعتقدات الدور الأساسى عند أغلبية الناس • وأكثر الظواهر شيوعا أجدرها بالاهتمـــــام • وعندما يكون التقدم في الفئات الاخرى من الافكار في أى وقت أسرع ، فكل ما يعنيه ذلك هو قيامها بالتمهيد الذى لا غنى عنه لعصر تال •

ترجـــع حركة التاريخ الى غريزة ممتدة الجــذور ومعقدة معـا تدفع الانسان الى عدم الانقطاع عن الارتقاء بحاله ، والى اتباع كل سبيل للنهوض بجوانب حياته الفزيائية والأخلاقية والفـــكرية في جملتها • وثمة ارتباط وثيق بين كل ظواهر حياته الاجتماعية ، كما أشار سان سيمون • وبفضل هذا الارتباط الوثيق ، ليس هناك انفصال بين التقدم السياسى والأخلاقى والفكرى ، وبين التقدم المادى • وهكذا نرى وجود تطابق بين مراحل التقدم المادى والتغيرات الفكرية •

ولا تقل أهمية مبدأ « الاجماع » أو « التضامن » الذى يساعد على خلق التوافق والنظام في التقدم عن أهمية مبدأ المراحل الثلاث الذى يتحكم في حركة الاتجاه للامام • ومع هذا فان هذه الحركة لا تتبع خطا

مستقيما ، ولكنها تكشف عن مجموعات من التذبذبات غير المتساوية المتنوعة التي تدور حول حركة أساسية تنزع الى اتخاذ الصدارة . واعتقد كونت أن الأسباب العامة للتنوع هي العنصر والمناخ والفصل السياسي المقصود (كالسياسة الرجعية التي اتبعها كل من جوليان المرتد(*) أو نابليون) . ولكن مع الاعتراف بما تحدثه هذه العوامل من انحراف وتذبذب ، الا أن تأثيرها محدود . فهي قد تزيد من سرعة الحركة أو تمهلها ، ولكنها لن تستطيع قلب اتجاهها . وقد تؤثر في شدة الميول في موقف معين ، ولكنها لا تستطيع تغيير طابعها .

(٣)

اتبع كونت عند برهنته لقوانين الاتجاه الفعلي للحضارة ما سماه « بحيلة كوندورسيه البارعة » . وتناول الشعوب المتتابعة التي انتقلت الشعلة بينها ، وكأنها شعب واحد يجري في سباق . وهذه احدى « الخرافات العقلانية » ، لأن الخلفاء الحقيقيين لأي شعب هم الذين يقتفون أثره . وتشابه كونت مع بوسويه وكوندورسيه ، فقصر بحثه على الحضارة الاوربية ، ولم يعن بغير صفوة البشرية وطليعتها ، واستنكر اقحام الصين أو الهند على سبيل المثال ، ورأى في ذلك تعقيدا يثير الاضطراب ، وتجاهل دور البراهمة والبوذية والاسلام . وعلى هذا فلا يصح اعتبار التركيبة التي وضعها للتاريخ العالمي بأكثر من تركيبة لحركة التاريخ الأوربي .

وتمشيا مع قانون المراحل الثلاث ، يمر التقدم في ثلاثة عصور كبرى . أولها — أو العصر اللاهوتي — وانتهى حوالي سنة ١٤٠٠ م . واقترب الثاني أو الميتافزيقي الآن من نهايته ليفسح المجال أمام العصر الثالث أو الوضعي الذي قام كونت بتمهيد الطريق له .

وينقسم العصر اللاهوتي أو الثيولوجي الى مراحل ثلاث تعاقبت فيها سيطرة الفتيشية (التميمية) وتعدد الآلهة والتوحيد . وأهم خاصة اجتماعية في مرحلة تعدد الآلهة هي شيوع الرق والقول بتوافق القوى الروحية والزمنية أو « الخلط » بينهما . ومرت هذه المرحلة في طورين .

★ الامبراطور الروماني جوليان الذي حاول الخلاص من المسيحية والاستعاضة عنها بعبادة اله النور متأثرا عند الفرس — المترجم

الطور الثيوقراطي كما ظهر في مصر ، والطور الحربي الذي مثلته روما • وتقف اليونان موقفا وسـطا بين الطورين في حالة أقرب الى الاضطراب والقلق •

وجاءت مبادرة النقلة الى عصر التوحيـد من مملكة العبرانيين • وحاول كونت أن يبين امكان تحقق هذه النقلة على شير هذا النحو • وتحليله لهذا العصر أطرف جزء في عرضه • وأهم ملامح النظام السياسي المناظر للتوحيد هو الفصل بين السلطتين الروحية والزمنية ، باعتبار السلطة الروحية معنية بالتهذيب والدنيوية بالناحية العملية ، في أوسع معاني هاتين الكلمتين • وترجع أوجه نقص هذا الازدواج الى لاعقلانية اللاهوت ، وان كانت النظرية القائلة بعصمة البابا قد بدت خطوة عظمى في التقدم الفكري والاجتماعي لأنها قد جاءت بشريعة حاسـمة لولاها ما توقفت متاعب المجتمع الناجمة عن المشاحنات المنبعثة من غموض صيغ العقائد الدينية • هنا تأثر كونت بجوزيف دومايستر • ولكن يستحيل أن يكون هذا المفكر قد بدا له متدينا بالمعنى الصحيح بعد ان استطرد كونت فذكر ان الروح الدينية قد تدهورت بالفعل خلال النقلة من مرحلة تعدد الآلهة الى مرحلة التوحيد ، وان من بين فضائل الكاثوليكية زيادتها من مجال الحكمة الانسانية على حساب الالهام الالهي «١» • فاذا قيل ان النظام الكاثوليكي قد ضخم من سلطان الكهنة أكثر مما قام به لصالح الدين كان الرد على هـذا أن خيرا كبيرا قد عاد من ذلك ، لأنه وضع « التطبيق العملي للدين في يد سلطة زمنية وقدرة قادرة على التحكم في المعتقدات والأخلاق » •

ولكن التوحيد الكاثوليكي لم يستطع تجنب الانحـلال ، بعد أن بدأت الروح الميتافزيقية تؤثر تأثيرا شديدا على معتقدات الفلسـفة الأخلاقية بمجرد اكتمال التنظيم الكاثوليكي • فلما عجزت الكاثوليكية عن اسـتيعاب هذه الحركة الفكرية فقدت طابعها التقدمي وأصيبت بالركود •

وفي القرن الرابع عشر ، بدأ التدهور ، في التاريخ الذي حدده كونت كبداية للعصر الميتافزيقي • ويعد عهد ثورة وفوضى • واتسمت الحركة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر بتلقائيتها وافتقارها الى الوعي ، واتبعت من القرن السادس عشر حتى الآن روحا فلسفية سالبة

(١) ص ٣٥٤ ـ الفصل السادس من كتاب Cours de philosophie positive

غير بناءة ، لأن كل ما حققته هذه الفلسفة النقدية هو زيادتها لسرعة الانحلال الذى بدأ تلقائيا ، فباسترسال اللاهوت ازدادت متناقضاته وغثاثته · وأدى تضاؤل نصيب معانيه من اللاعقلانية الى تضاؤل شدة المشاعر القادر على اثارتها · وللفتيشية (التميمية) جذور أعمق من مرحلة تعدد الآلهة ، واستمرت مدة أطول · كما أن مرحلة تعدد الآلهة أشد عنفوانا وحيوية من مرحلة التوحيد ·

ومع هذا فقد كانت الفلسفة النقدية ضرورية لاثبات اشتداد الحاجة الى اعادة تنظيم راسخة ، واثبات عجز النظام المتدهور عن القيام بعد الآن بتوجيه العالم ، والفلسفة النقدية بالغة العجز من الناحية المنطقية ، ولكن نجاحها قد برر وجودها · واضطلع بمهمة الهدم فى القرن السابع عشر هوبز وسبينوزا ، وبايل بوجه خاص ، وكان هوبز أبلغهم تأثيرا · وفى القرن الثامن عشر ، شارك كل المفكرين البارزين فى تنمية هذه الحركة السالبة ، وزودها روســـــو بدافعها العملى الذى أنقذها من التدهور والتحول الى اثارة عديمة الجدوى · ثمة أهمية خاصـــة للقول الباطل الذى دعا اليه هلفسيوس عن تساوى العقل عند الجميع · اذ كان هذا الخطأ ضروريا ومطلوبا حتى يتم اكتمـــال المذهب النقدى · فلقد دعم عقائد سيادة الشعب والمساواة الاجتماعية ، وأيد مبدأ حق الاشخاص فى تكوين الأحكام ·

وبدت فى نظر كونت هذه المبادىء الثلاثة ـــ ســـيادة الشعب والمساواة وما سماه حق حرية الاستقصاء ـــ مرذولة وفوضوية (١) ، وان كانت الضرورة قد دعت الى ترويج هذه المبادىء لاستحالة النقلة المباشرة من نظام اجتماعى منظم الى آخر · اذ يلزم المرور بفترة انتقال من الفوضى والخواء ، وتتعارض سيادة الشعب مع النظم القائمة ، وتعنى ارغام كل أصحاب المكانة العالية على الاعتماد على الجموع الغفيرة ممن هم أقل قدرا منهم · أما المساواة فدعامتها نزعة فوضــــوية كما لا يخفى ، وبطلانها واضح (فلما كان الناس غير متساوين ، أو حتى متكافئين بعضهم مع بعض فانه يتعذر تماثلهم فى الحقوق) · ودعت اليها الضرورة بالمثل لتحطيم الأنظمة القديمة · ان كل ما يسعى اليه الادعاء الســـائد بحق الجميع فى حرية الرأى هو اظهار تقديس الحرية غير المحدودة فى فترة الخواء بين تدهور المرحلة اللاهوتية ، وبلوغ الفلسفة الوضعية · ولاحظ كونت بعد ذلك ما يســود العلاقات الدولية من فوضى نتيجة لسقوط

---

(١) نفس المصدر الفصل الرابع ــ ص ٣٦ ــ ٣٨ ·

السلطان الروحي ، ولو قدر للروح القومية التغلغل وزيادة سلطاتها فان حالة تفوق في اضمحلالها العصور الوسطى ستترتب على هذا ·

على ان كونت قد ذكر عن الروح الميتافزيقية في فرنسا أنها رغم كل رذائلها فانها كانت أكثر تحررا من تزمت النظام الثيولوجي القديم، واقرب الى الوضعية العقلانية الحقة من كل ما في نفس هذا العهد من مذاهب غيبية المانية أو مذاهب تجريبية انجليزية ·

كانت الثورة ضرورة لكشف الانحلال المزمن في المجتمع ، الذي أدى الى نشوبها ، بالاضافة الى تحرير العناصر الاجتماعية الحديثة من قبضة القوى القديمة · واثنى كونت على « المؤتمر القومي (*) » وقارنه « بالجمعية التشريعية » قبل الثورة الفرنسية وخرافاتها السياسية ونقائضها · وأشار الى كمون الشر الاكبر لميتافيزيقية التحول ، أي مبادىء الثوريين ، في توهم انقطاع صلة المجتمع بالماضي ، وتجاهل العصور الوسطى ، واستعارة المثل الرجعية المتناقضة من المجتمع اليوناني والروماني ·

واستعاد نابليون النظام ، غير أنه قد أساء الى البشرية اساءة أشد من أية شخصية تاريخية أخرى · فلقد تعارضت طبيعته الفكرية والخلقية مع الاتجاه الصحيح للتقدم الذي يحرص على الخلاص من نظم الماضي الخاضعة لرجال الدين والعسكريين على السواء · وهكذا كشف ما قام به عن انحراف عن اتجاه التقدم ، فكان اشبه في ذلك بجوليان المرتد · ثم جاء النظام البرلماني لدولة البوربون بعد استعادتهم للحكم ووصفه كونت بيوتوبيا سياسية خالية من المبادىء الاجتماعية ، ومحاولة حمقاء للجمع بين النكوص السياسي وحالة من السلام الدائم ·

(٤)

لقد أدى المذهب النقدي دوره التاريخي ، وحان الوقت لكي يدخل الانسان المرحلة الوضعية من تاريخه · ويلزم لتيسير خطوه هذه الخطوة التقدمية أن تصبح دراسة الظواهر الاجتماعية علما وضعيا · فلما كان علم الاجتماع أعلى العلوم مرتبة ، فانه لن يستطيع النهوض الا اذا اتخذ الشكل العلمي لكل من علم الاحياء والكيمياء ، أي فرعا المعرفة التاليان

(*) يقصد الـ Convention nationale وهي مؤتمرات قومية كانت تعقد خلال الثورة الفرنسية بدلا من الجمعية التشريعية الفرنسية · وفي أول اجتماع لها الغت الملكية (المترجم)

لعلم الاجتماع فى الدرجة . ولقد تحقق هذا حديثا ، وأصبح من الميسور الآن انشاء علم للاجتماع .

ولهذا العلم ، كما هو الحال فى الميكانيكا وعلم الاحياء صورتان : ستاتكية (ساكنة) وديناميه (متحركة) . وتدرس الأولى قوانين التعايش ، والثانية قوانين التعاقب . وتحتوى الأولى على نظرية النظام ، وتشتمل الثانية على نظرية التقدم . وقانون « الاجماع » أو « التماسك » هو المبدأ الاساسى للاستاتيكا الاجتماعية ، كما ان قانون المراحل الثلاث هو المبدأ الاساسى للديناميكا الاجتماعية . ويبين استعراض كونت للتاريخ ـ الذى سبق أن تحدثت عن طابعه العام باختصار ـ كيف طبقت هذه القوانين الاجتماعية .

وسوف يكون تنظيم المجتمع السمة الأساسية للعصر الثالث الذى نقترب منه الآن ، بالاعتماد على « الاجتماع كعلم » . وفى هذه الحالة سيخضع العالم لتوجيه نظرية عامة . وهذا يعنى وجوب انتقال زمامه الى أولئك الذين يدركون النظرية ، ويعرفون كيفية تطبيقها ، ومن ثم سوف يحى المجتمع المبدأ الذى تم ادراكه فى العهد العظيم للتوحيد : التفرقة بين النظام الروحى والنظام الدنيوى . ولكن النظام الروحى الجديد سوف يعتمد على علماء يوجهون الحياة الاجتماعية بالاعتماد على الحقائق الوضعية للعلم ، لا بالخرافات اللاهوتية . وسيتطلب ذلك وضع نظام للتعليم الشامل ، ورسم قيم للنهوض بالأخلاق ، وسيحالفهم توفيقا أعظم من الكنيسة فى حماية مصالح الطبقات الدنيا .

ارتكن اعتقاد كونت عن استعداد العالم لقبول هذا النوع من التحول على علامات تدهور الروحين اللاهوتية والعسكرية اللتين اعتبرهما العائقين الأساسين فى وجه سيادة العقل . وقال ان الكاثوليكية لا تزيد الآن عن « اطلال تاريخية مهيبة » . أما بالنسبة للنزعة العسكرية فقد آن الأوان لحدوث انقطاع نهائى للحرب ، بين شعوب الصفوة ، لأن آخر سبب عام للحرب هو التنافس على المستعمرات . ولكن السياسة الاستعمارية قد بدأت تخبو الآن (باستثناء مؤقت لانجلترا) ومن ثم فعلينا ألا نتوقع حدوث أى متاعب مستقبلة من هذا المصدر . ومن المستطاع استخلاص تقدير المجتمع الحديث للسلام حتى من السفسطة ذاتها الى تثار أحيانا لتبرير الحرب كالقول بأنها اداة للحضارة .

لسنا بحاجة الى الاسترسال فى متابعة تفاصيل توقعات كونت لما سيحدث فى العصر الوضعى . ويكفى أن نذكر أن الاتحاد السياسى

لم يخطر له على بال • فلقد آمن بتقدم الأمم الاوربية الكبرى كل تبعا لطريقها الخاص معتمدة على تنظيمها المستقل « الوقتي » ، ولكنه تصور حدوث تدخل من سلطة « روحية » مشتركة ، وبذلك تشارك كل الأمم في عمل متماثل « تحت توجيه فئة متجانسة من المفكرين بروح فعالة تؤمن بالوطن الاوربي الواحد ، لا بالروح العالمية الجدباء » •

وادعى كونت — مثل سان سيمون — قدرة وقائع التاريخ بعد تفسيرها العلمي على التزويد بسبيل للتنبؤ • ومن الطريف أن يلاحظ كيف اخفق هو ذاته كمتنبيء ، وكيف أساء ادراك الدور الحيوى للكاثوليكية ، وكيف كذبت الاحداث تكذيبا قاطعا نبوئته عن انقطاع الحروب ، فماشى ورأى حرب القرم (١) • نعم لقد فشل كمتنبيء فشلا ذريعا ، فشابه سان سيمون وفورييه • فلقد حلم بما سيراه القرن التاسع عشر من بداية لعصر انسجام وسعادة ، ولكن ما حدث كان الصراع المرير بين الرأسمالية والعمال ، والحرب الاهلية في أمريكا ، وحرب سنة ١٨٧٠ (بين المانية وفرنسا) ونظام الكومون في فرنسا ومذابح الأمنيين في روسيا ، وأخيرا كارثة الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ •.

(٥)

لعلنا لم نجن من ناحية الفهم التاريخي الا القليل من قوانين كونت الوضعية ، أو من مقولات هيجل الميتافزيقية سواء بسواء • فلقد درس المفكران وقائع التاريخ في صورة جزئية هينة فحسب ، فكان عملهما أقرب الى التراجع الخطير عن منهج العلم التاريخي الذى يسر لهما فرض انساقهما بسهولة ويسر • والصلة وثيقة بين منهج هيجل في التركيب « القبلي » ونظريته الفلسفية • أما عند كونت فاننا نصادف أيضا ميلا الى التناول « القبلي » • فلقد أشار صراحة الى امكان انشاء الملامح الاجتماعية في عصر التوحيد « قبليا » الى حد ما •

ولاقى قانون المراحل الثلاث استنكارا ، ولعلنا نستطيع أن نقر بأن التقدم العام يعتمد على تقدم الفكر وكذلك انحدار اللاهوت والميتافيزيقا والعلم من جذور واحدة ، وبذلك تتماثل في نهاية المطاف باعتبارها مجرد مراحل في حركة « الفهم » ولكننا لو أردنا مساءلة

---

(١) مات كونت سنة ١٨٥٧

قانون هذه الحركة كفرض علمي فلا بد من اســــتخلاصه استخلاصا صحيحا من العلل المعروفة ، ولا بد بعد ذلك من اثبـــاته بالرجوع الى الوقائع التاريخية • وظن كونت أنه قد حقق هذه المطالب ، وان كانت براهينه في كلا الناحيتين قد اتسمت بنقصها •

ولعل أشنع ضعف في عرضه التاريخي هو الافتراض العشوائي باتصاف معتقدات الانسانية في المراحل الاولى من وجوده بالاحيائية[١] ، والقول بأن المرحلة الاولى من تاريخها كانت خاضعة للفتيشية • فلا وجود لأى دليل صحيح يثبت ظهور الفتيشية في وقت متأخر نسبيا ، أو تمتع الناس بفضل مخترعاتهم الفنية واكتشاف النار ــ في آلاف السنين التي سبقت وثائقنا التاريخية الباكرة ، والتي تقرر فيها مستقبل البشرية ــ بأى معتقدات يمكن تسميتها بالدينية و اللاهوتية • ولن يستطاع الاعتماد على سيكلوجية الهمج المعاصرين في فهم عقــول الآدميين الذين صنعوا آلات من الحجر في عالم الماموت وغيره من الحيوانات المنقرضة • فلو صــح ان المرحلة الاولى من تقدم الانسان ــ التي كان لها مثــل هذه الأهمية البالغة لمصيره ــ كانت سابقة للاحيائية لدل هذا على اخفاق قانون كونت للتقدم ، لانه لن يصلح لتفسير كل الحالات •

ومن ناحية أخرى ، يمكن انتقاد مذهب كونت ــ لو نظر له كفلسفة للتاريخ ــ لعدم صلاحيته في تفسير كل الحالات • فقد زعم متبعا و حيلة كوندورسيه البارعة » ان الحضارة الاوربية المزدهرة هي التاريخ الوحيد الجدير بالنظر ، واستبعد نهائيا حضارتي الهند والصين على سبيل المثـــال • وهذا الزعم أكثر من مجــــرد « حيلة بارعة » ، ولم يبرزه علميــــا •

يلاحظ قارىء كتاب « الفلسفة الوضعية » أيضا عدم خوض كونت في مسالة أساسية ينبغي مواجهتها اذا أريد كشف النقاب عن النسيج التاريخي ، أو البحث عن قانون لأحــداث التاريخ • واعنى بذلك مســألة الوقائع الطــارئة • فينبغي أن يذكر أن الأحداث الطارئة لا تمس مذهب الجبرية على الاطلاق • فليس هناك أى تناقض بينها وبين مبدأ العلية في أدق تفسيراته • وربما أمكن الرجوع الى المثل الآتي من قبيل الاستشهاد •

قد يكون من المستغرب القول بأن الديكتاتورية العسكرية نتيجـــة محتومة للثورة الفرنسية • وقد لا يكون هذا القول صحيحا ، ولكن

---

[١] * Animism

فلنسلم به جدلا ، ونفترض كذلك أنه بعد ظهور نابليون كان من المحتم أن يصبح ، هذا الديكتاتور ، وان كان وجود نابليون يرجع الى سلسلة علل مستقلة لا صلة لها على الاطلاق باتجاه الأحداث السياسية • اذ كان من المستطاع ان يموت في صباه نتيجة الاصابة بمرض أو حادث • أما استمراره في البقاء فيرجع الى أسباب مستقلة بالمثل عن سلسلة العلل التى أدت بالضرورة الى ظهور عصر حكومة ملكية ، كما افترضنا • فوجود انسان له مثل عبقريته وشخصيته في هذه اللحظة المعلومة كان حادثا طارئا أثر في اتجاه التاريخ تأثيرا عميقا ، ولو أنه لم يظهر هناك لما كان من المستبعد ان يمسك ديكتاتور آخر بدفة السفينة ، غير أنه لا يخفى أنه ما كان ليقدم على القيام بما قام به نابليون •

واضح أن تاريخ الانسان برمته قد تعرض للتحوير في كل مرحلة بتأثير أمثال هذه الأحداث الطارئة التي يمكن تعريفها بأنها اصطدام لسلسلتين عليتين مستقلتين ، وادرك فولتير الصواب عندما أكد دور المصادفة في التاريخ ، ولكنه لم ينجح في تفسيرها • ان هذا العامل قد يفسر التذبذبات والانحرافات التي اعترف كونت بوجودها في حركة التقدم التاريخي ، ولكن قد يثار سؤال حول امكان قيامها المرة تلو الأخرى بتغيير اتجاه حركة التاريخ • فهل يصح اعتبار هذا العامل جديرا بالاهمال كما حدث عند كونت وأمثاله ممن عنوا بالابعاد الواسعة للتقدم الانساني ، ولم يكترثوا بتفاصيل أية حادثة ؟ ، أم ان رينوفييه كان مصيبا من حيث المبدأ عندما ذكر أنه من المحتمل أن تختلف طريقة نظرنا لتسلسل الاحداث من عهد الامبراطور نيرفا الى الامبراطور شرلمان اختلافا جذريا ؟ » (١) •

(٦)

لا يعنينا هنا ان نفحص نقائض نظرة كونت لاتجاه التاريخ الأوربي • ولكن ما يعنينا هو ادراك انغلاق النسق الذى وضعه للتقدم الانساني • وفي هذا يتشابه مع هيجل • فكما بدت لهيجل فلسفته المطلقة ذروة التقدم البشرى ، ونهايته • كذلك بدأ لكونت المجتمع الآتي

(١) صور رينوفييه هذا الرأى القيم في كتابه Uchronie (١٨٧٦) ، صورة مفصلة أعاد فيها بناء التاريخ الأوربى من سنة ١٠٠ م الى ٨٠٠ م • وأكد عدم وجود قانون محدد للتقدم • « والقانون الحق يدل على تساوى امكانات التقدم أو النكوص للمجتمعات والأفراد على السواء » •

الذى قام بتصوير ملامح نظامه كحالة نهائية للبشرية لن يحدث أي تحرك بعدها . وربما استغرق بعض الوقت حتى يبلغ النظام ما يرجى له من الكمال ، وربما شهد العصر ازديادا متواصلا في المسرقة ، وان كانت الخصائص الاساسية محددة بصورة قاطعة . ولم يخطر ببـال كونت احتواء المستقبل البعيد ـ لو قدر له ان يحيا ويراه ـ على آية مفاجآت . وهكذا اختلفت نظريته في التقدم عن نظرات القرن الثامن عشر التى فكرت بطريقة مبهمة في حدوث تقدم بلا حدود ، ولم تقدم على ادعاء أكثر من بعض الاتجاهات العامة . فلقد رفض كونت صراحة الاعتقـاد فى التقدم بلا حد ، وذكر ان كل ما تنبته البينات هو حدوث تقدم متصل والمعنى مختلف .

واختلف كونت في نظرته للتقدم عن فلاسفة القرن السالف من الفرنسيين فى نقطة ثانية . فلقد نظر كوندورسيه وأسلافه الى هـذا التقدم من وجهـة نظر « ايدومية » . اذ بدت غاية التقدم عندهم بلوغ السعادة الانسانية التى لم تهم كونت ، شأنه في ذلك شأن هيجل . وليس من شك في أن اقامة توافق آكمل بين الناس وبيئاتهم في المرحلة الثالثة سيحقق السعادة . غير أن هذا الاعتبار يخرج عن النظرية ، وكل ما يعنيه اقحام عناصر غير علمية في التحليل . ان ما يقرر اتجاه التقدم هو معتقدات الفكر التى تناولها كاشياء مسـتقلة لا تبالى بالدوافع « الايدومية » .

ثمة نقطة ثالثة ، لابد من ملاحظتها وهي الطابع التسـلطى لنظام المستقبل . فربما كانت دولة كونت المثالية أسوأ نظام يصلح لعيش التعساء من الحريصين على الحرية الشخصية . وفى هذا لا تختلف عن اى نظـام ثيوقراطى او اشـتراكى يوتوبى . فهو لم يختلف عن أفلاطون ولابوسـويه فى قلة تعاطفه على الحرية ، وكان اقـل شـعورا بهـا من فلاسفة القرن الثامن عشر . ومن جانب ، ترجع هذه الظاهرة التى اشترك فيها كونت وسان سيمون الى رد الفعل ضد الثورة ، وان كانت قد نتجت أيضا عن منطق رجل العلم . فلو توطدت القوانين الاجتماعية ، وشابهت قانون الجاذبية في توطدها ويقينها هل يبقى حينئذ أى مجال لآراء الافراد ، بعد تحديد السلوك الاجتماعى الصحيح تحديدا قاطعا ، وتخصيص الواجب الصحيح لكل فرد فى المجتمع بحيث لا يكون هناك اى موضـع للتصرف الشخصى . فى هـذه الحالة ، ستكون المطالبة بالحرية انحرافا غير مقبول . انه نفس البرهان الذى يلجأ اليه بعض ادعياء العلم

بالوراثة من المحدثين عند الدفاع عن حق الدولة في الإستبداد والتدخل في رفع مستوى النسل ٠

عندما كان يكتب كونت ، كانت الحركة التقدمية في أوربا متجهه نحو زيادة شعن صور الحرية من قومية ومدنية وسياسية واقتصادية ٠ فمن جهة ، كانت هناك حركة المطالبة بتحرر القوميات المضطهدة ٠ ومن جهة أخرى ـ نمت الحركة الليبرالية في انجلترا وفرنسا ٠ ونشدت الليبرالية آنئذ تقييد دور الحكومة ، وكشفت روحها عن عدم الثقة في وجود الدولة ٠ واتسمت هذه النظرية بضعفها سياسيا كما يعترف بذلك الليبراليون المحدثون ، ولكنها كانت تعبيرا هاما عن الشعور بأن أفضل ما يساعد على الارتقاء بمصالح المجتمع هو التضامن الحر لأفعال الأفراد وغاياتهم ٠ وهكذا تضمنت هذه النظرية بطريقة خفية ـ أو لمحت ـ الى نظرية للتقدم متعارضة تعارضا حادا مع نظرية كونت ٠ فلقد ذكرت ان تحقق أكبر قدر مستطاع من الحرية الفردية شرط لضمان الحصول على الحد الأعلى للطاقة والقدرة على تحسين بيئتنا ، وبلوغ السعادة بالتبعية ٠ ان هذه النظرية ـ صحت أم أخطأت ـ قد اعتمدت على حقائق أساسية عن طبيعة البشر تجاهلها كونت ٠

(٧)

أمضى كونت السنوات الاخيرة من حياته في تأليف كتاب ضخم آخر عن اعادة التنظيم الاجتماعي احتوى على دين جديد معبوده البشرية، وان كان هذا الكتاب لم يحتو على أية اضافة أخرى هامة الى النظريات التى قدمها فى صباه رغم زيادة توسعه فى عرضها ٠

لم يكن كتاب « الفلسفة الوضعية » من الكتب التى تثير عاصفة من الحماس لدى الجماهير ٠ ويذكر لنا أحد الدارسين النابهين للنظرات الاجتماعية فى فرنسا أن اسم كونت لم يكن معروفا الا بقدر ضئيل فى بلاده حتى حوالى سنة ١٨٥٥ ، عندما بدأت عظمته تلفت الأنظار وبدأ تأثيره يحدث فاعليته (١) ٠ وحتى ذلك الحين ، لم تلق كتبه اقبالا على نطاق واسع ، ولم تنتشر فى عالم الفكر مبادئه الأساسية المنتزعة من ملحمته الا بفضل أمثال ليتريه وتين ـ الذى تأثرت نظراته للتاريخ

---

(١) فيل ص ٢١ من كتاب تاريخ الحركة الاجتماعية ٠

بتعاليمه ــ وشخصيات مثل جون ستيوارت ميل الذى كان مصـــدرا لالهامه ، وكذلك بفضل الاتباع الذين نظروا للوضعية نظرة تقديس •

. ارسى كونت أسس علم الاجتماع ، فاقنع الكثير من العقول بخضوع تاريخ الحضارة للقوانين العامة ، أو بعبارة أخرى ، فانه أثبت امكان وجود علم للمجتمع • وكانت هذه الفكرة حديثة الشيوع فى انجلترا عندما ظهر كتاب « المنطق » لميل سنة ١٨٤٢ •

بعد نشر هذا الكتاب الذى حاول تحديد قوانين استقصاء الحقيقة فى شتى ميادين البحث والتزويد بمعايير لفروض العلم ، حدثا عظيم الاهميـة ، ســواء من ناحية قيمته واتســاع مداه ، أو من ناحية تأثيره الطويل على التعليم • وبعد أن تتبع ميل الفكر الفرنسى باتنبـاه ، وتأثر بوجه خاص بمذهب كونت ، أدرك ظهور طريقة جديدة فى بحث الظواهر الاجتماعية ، أدخلها على العلم المفكرون الذين اتجهوا الى اكتشـــاف « قانون » للتقدم الاجتماعى • وأيدها ميل ، ورحب بها كطريقة أسمى من الطرائق السابقة ، وان كان قد أشار فى نفس الوقت الى نواحى قصورها •

وذكر ان التعميمات ــ عن الانسان والمجتمع فى الخمسين السنة الماضية ــ قد وقعت فى خطأ عندما زعمت بطريقة مضمرة دوران الطبيعة الانســانية والمجتمع الانســانى الى الأبد فى نفس المدار ، وبأنها تكشف بالفعل عن نفس الظواهر • وما زالت هذه النظرة هى نفس النظرة التى يتبعها المتظاهرون باتباع البداهة فى بريطانيا ، بينما اتبع أصحاب العقول الاكثر رجاحة فى العصر الحاضر ــ بعد أن حللوا الوثائق التاريخية بدقة أوفر ــ الرأى القائل بأن الجنس البشرى يسير فى اتجاه تقدمى ضرورى • اذ يتحتم أن يتمخض التأثير المتبادل بين الظروف والطبيعة البشرية الذى ينتج الظواهر الاجتماعية اما عن دورات أو عن انطلاق الى الأمام • وبينما آمن فيكو بفكرة الدورات والمراحل ، اجمع خلفاؤه على اتباع فكرة الانطلاق أو التقدم ، وحاولوا اكتشاف قانون لها • • • • • •

ولكنهم قد جانبوا الصواب عندما تخيلوا امكان استدلال المستقبل من حدود الماضى فى التسلسل التاريخى ، أو حالفهم التوفيق فى الاهتداء الى قانون للاطراد فى تعاقب الاحداث ، لأن مثل هـذا القانون لن يكون الا « قانونا تجريبيا » ، فهو لن يكون قانونا عليا أو قانونا نهائيا • فمهما بدا من اطراد صارم ، فليس هنــاك أى ضمان لامكان تطبيقه على أية أحداث خارج تلك التى استمد منها • فلا بد أن يعتمد هو ذاته على

قوانين العقل أو الشخصية (قوانين النفس أو الخلق) • وعندما تعرف هـذه القوانين ويتم تفسير طبيعة التبعية ، أى تدرك العلل المحددة لكل التغيرات الكامنة وراء التفسير ، سيستطاع رفعه من مرتبة القـانون التجريبى الى مرتبـة القـانون العلمى ، حينئـذ فقط يصبح التنبؤ مستطاعا •

وهكذا أعلن ميل أنه اذا نجح رواد الفكر المعنيون بهـذا الموضوع فى اكتشاف أى قانون تجريبى من بينات التاريخ ، سيكون من الميسور تحويله الى قانون علمى بعد استنباطه « قبليا » من مبـادىء الطبيعة البشرية • وفى الوقت نفسـه ، رأى أن ما هو معـروف بالفعـل من هذه المبادىء يبرر النتيجة الهامة القائلة بأعتماد نظام التقدم العام للبشرية على النظام الذى اتبعه التقـدم فى المعتقدات الفـكرية للبشر •

واستعمل ميل كلمة تقدم خلال عرضـه استعمالا محايدا ، لأنهـا لم تحمل الاتجاه التقدمى مرادفا بالضرورة للتحسن أو الارتقاء • فما زال من واجب علم الاجتمـاع اثبات مرادفة معنى التغيرات التى احدثتها الطبيعة البشرية لمعنى الرقى • ولكنه عندما نبه قراءه الى ذلك أكد أنه شخصيا من المتفائلين • فهو يعتقد أن الاتجـاه العـام ــ باستثناء بعض أحداث وقتية ــ يسير نحو حالة أوفق وأسعد •

(٨)

بعد عشرين سنة أخرى (١) ، أصبح ميـل قادرا على القـول بأن فكرة خضوع التاريخ للقوانين العامة قد انتقلت الى ميدان الصحافة والمجلات السياسية المألوفة ، وساعد على ترويج الفكرة الى حد كبير كتاب باكل : « تاريخ الحضارة فى انجلترا » (٢) الذى لاقى نجاحا مباشرا • وفى هذا الكتاب الملهم ، سلم « باكل » بحقيقة التقدم ، وسعى الى البحث عن أسبابه • وبعد أن نظر فى الشرطين العامين اللذين تعتمد عليهما كل أحداث الطبيعة البشرية والطبيعة الخـارجية ، انتهى الى نتيجتين : الأولى فى المرحلة الباكرة للتاريخ ، العامل الأكثر حسما هو أثر البيئة الخارجية للانسان • ولكن بمضى الزمان ، ينقلب تدريجيا وضع

---

(١) فى طبعة متأخرة من كتاب المنطق •

(٢) ظهر الجزء الأول سنة ١٨٥٧ والجزء الثانى ١٨٦١ •

« الدورين » . فلقد أصبحت طبيعة الانساق الآن المسئولة الأساسية عن تقدمه . ثانيا ـ ما يتحكم في التقدم هو العقل (١) ، وليس الملكات العاطفية السلوكية ". فالملكات العاطفية والسلوكية ساكنة . ولهذا لم تتأثر الحركات الصاعدة للبشرية بالدين تأثرا حاسما . « أتعهد بأن ابين أن النشاط الفكرى هو مرجع كل تقدم احرزته أوربا من البربرية الى الحضارة ، فلا يمكن ارجاع أى تقدم نحس به الى ما يمكن تسميته بالأخلاقيات الفطرية والأولية للانسان » .

اعتقد باكل ان الظواهر الاجتماعية تكشف عن نفس الانتظام الذى تعرضه الظواهر الطبيعية بلا انحراف . وتأثر فى هذا الاعتقاد خاصة بأبحاث الاحصائى البلجيكى (١٨٣٥) ، وقال : « لقد ألقى الاحصاء ضوءا على دراسة الطبيعة البشرية يفوق كل ما فعلته العلوم مجتمعة » . واستنتج من انتظام وقوع نفس الجرائم فى نفس المجتمع ومن الكثير من متوسطات المعدلات الثابتة الأخرى أن كل أعمال الأفراد نتيجة مباشرة لحالة المجتمع الذى يعيشون فيه ، ووجود قوانين فعالة يندر أن تصادف أى تبدل ملموس ، وتتبين هذه الحقيقة اذا طبقناها على أعداد وفيرة كافية من الأفراد (٢) » وهكذا تدل وقائع الاحصاء على عدم اعتماد التقدم على أفعال الأفراد ، ولكنها تعتمد على القوانين العامة للفكر الذى يتحكم فى المراحل المتعاقبة التى يمر بها الرأى العام . ان الأفعال البشرية فى جملتها تعتمد فى أى لحظة معلومة على المعرفة فى جملتها ومدى انتشارها .

هنا نصادف نظرية خضوع التاريخ لقوانين عامة فى أكثر صورها ابتعادا عن التحفظ ، بعد ارتكانها على نظرة باطلة تدور حول أهمية الوقائع الاحصائية . وجاءت محاولة باكل لبيان أثر القوانين العامة على التاريخ الفعلى للانسان مخيبة للآمال . فعندما ذهب الى استعراض الوقائع المشخصة فى تيار التاريخ ، انكشفت مبادئه السياسية ، واتضحت للعيان . فلقد تركزت على نبذ الاتجاهات التى لا يرضى عنها أكثر من تركزها على انتزاع القوانين العامة من تعاقب الأحداث . وبدت تعقيباته عن الاضطهادات الدينية وجنوح الحكومات والكنائس الى إتباع الغيبيات

---

(١) كانت هذه هى نفس فكرة جوفروا وكوندت وميل ، وعمل على ترويجها .

(٢) لقد رجع كانط بالفعل الى الاحصاء فى مقام مماثل ـ راجع ص ٢٤٣ .

مفيــدة ومناسبة لعهدها ، ولكنها لم تســاعد بما فيه الكفاية على بيان مجموعة القوانين الصارمة المتحكمة فى التقدم البشرى ، وتفسير اتجاهه .

وقام أيضا بترويج فكرة خضوع التاريخ لقوانين صارمة فسيولوجي أمريكي يدعى دريبر ، الذى ظهر كتابه : تاريخ التقدم الفكرى فى أوربا (*) (١٨٦٤) وقرىء على نطاق واسع . ونقطة بدايته تشبيه سطحي للمجتمع بالفرد : « يتحكم القانون الطبيعي في التقــدم الانساني تحكما كامــلا لا يختلف عن تحكمه في نمو الجسم . فحياة الفرد صــورة مصغرة من حياة الأمة » . ولا اختلاف بين دور الجسيمات فى كيان الفــرد ، ودور الأشــخاص فى الكيان السياسى ، لأن كلا منهمــا يمر فى نفس الحقب : الرضاعة والطفولة والشباب والكهولة والشيخوخة . وعلى هــذا فقد كشف التقدم الأوربى عن مروره فى خمس مراحل : « التصديق » « والبحث » و « الايمان » و « العقل » و « التدهور » . واستنتج دريبر من ذلك اجتياز أوربا آنئذ للمرحلة الرابعة ، وانها فى طريقها مسرعة الى عهد تدهور طويل ولم تفزعه هذه النبوءة . فالتدهور ذروة التقدم ، ويعنى انتظام ظهور عقل قومى . ولقد سبق تحقيق ذلك فى الصين . واليه تدين براقميتها وطول بقائها . ولا مفر من ان تهرع أوربا لكى تؤول الى ما آلت اليه الصين . ففيها نرى الصورة التى ستصبح عليها عندما نبلغ الشيخوخة .

بالرجوع الى أى معيار يبدو كتاب دريبر أدنى منزلة من كتاب باكل . ولكن الكتابين رغم اختلافهما البين قد اشتركا فى نفس النظرة وطريقة التناول ، وأديا مهمة متماثلة . فلقد روج كلاهما بطريقته الخاصة الرأى الذى انبعث من فرنسا عن اتجاه الحضارة للتقدم ، وتشابهها مع الطبيعة فى الخضوع للقوانين العامة .

★ History of the Intellectual Development of Europe — J.W.

الفصل السابع عشر

« التقدم » في الحركة الثورية الفرنسية (١٨٣٠ – ١٨٥١)

(١)

في سنة ١٨٥٠ ، ظهر في باريس كتيب من تأليف جافاري بعنوان « فكرة التقــدم »* وترجع اهميته الى ما فيــه من اعتراف صريح بأن التقدم هو الفكرة المميزة للعصر ، التي استقبلها البعض بحرارة ، وتحمس آخرون لنبذها .

وقال الكاتب : « لو كانت هناك فكرة يصح القول بانتمائها لقرن بالذات ، من ناحية الأهمية التي تنسب اليها على أقل تقدير ، وألفتها لدى كل العقول ــ سواء قبلتها ام رفضتها ــ فانها فكرة التقدم ، بعد تصورها كقانون عام للتاريخ ولمستقبل البشرية » .

ولاحظ جافاري مانزع اليه البعض من اثر انبهارهم بمشهد الرقي المادي في الحضارة الحديثة ، وآثار العلم ، عندما تصوروا عدم وجود حد لقدرات الانسان وآماله . بينما قال آخرون ، لما عجزوا عن انكار الحقائق ، أن هذا التقدم لايخدم غير الجانب المنحط من الطبيعة البشرية ، ورفضوا ــ على حد قولهم ــ أن يعلنوا رضاهم عن حركة لا تدل على غير الانحطاط المستمر لأنبل أجزاء من هذه الطبيعة ، وكان الرد على ذلك أننا حتى اذا سلمنا بصحة التــدهور الأخلاقي ، فانه مجرد حالة عابرة ، ومرحلة ضرورية في اتجاه يرمي في نهاية المطاف الى التقدم الأخلاقي الذي سيتحقق عندما تختفي معتقدات الماضي وأفكاره وانظمته وتفسح الطريق أمام مبادىء أحدث وأفضل .

ونوه جافاري باتجاه سائد في فرنسا ينسب التقدم الى كل حركة

---

* De l'ideé du progrès par M.A. Javary.

معاصرة ، بينما يلجأ كل أصحاب المذاهب الاجتماعية الى تبرير آرائهم الشخصية عن الاصلاح بالتمسح فى قانون التقدم . وليس من شك فى أن كل التأملات الجادة عن المجتمع والتاريخ على وجه التقريب خلال عهد ملكية يوليو قد ارتبطت بهذه الفكرة ، فاشترك فى ترديدها ميشليه وكينيه اللذان رأيا فى سير الحضارة انتصارا تدريجيا للحرية ، وكذلك ليرو وكابيه اللذان دعوا الى الشيوعية الانسانية ، ولوى بلان وبرودون والبورجوازيون الذين رضوا عن نظام لويس فيليب ، وازدادوا ثراء بعد اتباعهم لمبدأ جيزو ، ولم يختلف عن ذلك العمال الذين حاولوا قلب هؤلاء البورجوازيين .. ومما له دلالة ان مجلة لوى بلان التى نشر فيها فصول كتابه عن تنظيم العمل (١٨٣٩) ، كانت تدعى مجلة التقدم (*) ونوقشت على ضوء هذه الفكرة ، المسألة السياسية عن الحدود المناسبة بين الحكومة والحرية الفردية ، وأيهما أقدر على تحقيق التقدم : الحرية الشخصية أم السلطة السياسية ؟ . وعاد الاهتمام بالقضية الميتافيزيقية الخاصة بالضرورة وحرية الاراده ، وهل التقدم أمر مقدر — بغض النظر عن الغايات الانسانية ، وخاضع لقوانين تاريخية عامة يتعذر اجتنابها . واعترض كينيه وميشليه اعتراضا عنيفا على نزعة كوزان المتفائلة ، الذى اعتقد مثل هيجل بأن التاريخ هو ما ينبغى أن يكون التاريخ ، ومن غير الميسور تنقيحه .

(٢)

من بين النظريات المتنافسة فى ذلك العهد ، والمتعارضة تعارضا حادا مع نظرية كونت ، الفكرة المستمدة من الثورة عن اتجاه العالم نحو المساواة الكلية ، ومحو الفروق الطبيعية ، وأن هذا هو الاتجاه الصحيح للتقدم .. واشتد تعزيز هذه النظرة التى مثلها زعماء الحركة الشعبية ضد البورجوازية الصاعدة بفضل واحد من ألمع المفكرين السياسيين فى عصره، فكان ظهور دراسة توكفيل الشهيرة للديموقراطية أهم أحداث سنة ١٨٣٤ . واعتقد توكفيل أنه قد اكتشف على الشاطىء الآخر للاطلسى الاجابة عن سؤال الى أين يتجه العالم . فلقد اكتشف ، فى المجتمع الامريكى أن مساواة الظروف هى الحقيقة الخلاقة التى ترتكن اليها كل حقيقة أخرى . واستخلص من ذلك أن المساواة هدف البشرية ، وأن العناية الالهية قد ارادته ذلك .

(*) Revue des progrès.

« يكشف معنى التقدم التدريجي للمساواة في الأحوال عن الخصائص المميزة لحقائق النعمة الالهية . فهو كلي وثابت يتجاوز القدرة الانسانية لأن كل الاحداث تنشد هذا التقدم ، كما ان كل الناس يتفوقه ... ولقد الف هذا الكتاب كله تحت تأثير شيء اشبه بالفزع الديني الذي احدثه في نفس الكاتب مشهد هذه الثورة العالية التي استطاعت خلال قرون تخطي كل الحواجز ، والتي يمكن أن نرى اليوم وهي تزحف وسط كل الأطلال التي تسببت في حدوثها .... ولو قدر لأهل هذه الأرض أن يعلموا أن الاتجاه التدريجي التقدمي للمساواة وراء ماضيهم ومستقبلهم معا ، فان هذا الاكتشاف الفذ سيضفي على هذا التقدم الطابع المقدس لارادة الرب القادر على كل شيء » .

هنا نصادف رأيا في اتجاه التقدم ومعنى التاريخ ، يزعم استناده الى دراسة الحقائق ، معبرا منه بأعظم قسط من الاقتناع ، ان وراءه النظرة القدرية القائلة بعدم امكان ايقاف هذه الحركة ، أو تحويل اتجاهها . فمن العبث الوقوف في وجهها . فمهما صنع الناس فانهم لن يقدروا على تحويل حركة عقارب الساعة التي وضعت نظامها قوة سماها توكفيل بالعناية الالهية ، وربما سماها قراؤه باسم آخر .

((٢))

قيل من قبيل الظن (١) ، ويبدو هذا القول محتملا بما فيه الكفاية ، ان كتاب دي توكفيل كان من بين المؤثرات التي تأثر بها عقل برودون ، وفي منتصف القرن ، اجتذب الانتباه العام تأملات هذا الرجل البارع ، الذي حاول مثل سان سيمون وكونت الاهتداء الى علم جديد للاجتماع . وخلقت عداوته للدين وقوله المأثور بأن الملكية سرقة، ودعوته الى الفوضى ، وعبارات التحدي المتهورة التي أحاط بها معتقداته ، انطباعا بأنه من الثوار الخطرين المناهضين للمجتمع . ولكن معتقداته عندما تدرس في سياقها ، وتترجم الى لغة رصينة لن تبدو في مثل هذه الصورة غير المعقولة . فلقد كان من اشد المؤمنين بالفردية، رغم النزعة الشيوعية في نظرته الى الملكية ، وتمسكه بالمساواة . وذهب برودون الى أن مستقبل الحضارة يعتمد على جهد الأفراد ، والحرية

---

(١) ص ٢٤٧ ــ ٢٤٨ من كتاب جورج سوريل : Les Illusions du progrès. (١٩٠٨) .

شرط ضروري لتقدمها . وينبغي ان تتركز الأبصار على غاية توطيد العدالة ، أو المساواة بعبارة أخرى . وادرك عسر التوفيق بين الحرية والمساواة الكاملة ، ولكنه كان يأمل أن تتمكن من التغلب على عدم التوافق بين قدرات البشر ، واعترف برودون «بفوضويته» ، وان كان لم يعن بالفوضوية أكثر من اقتراب الوقت الذي ستصبح فيه الحكومة زائدة عن الحاجة ؛ ويستطاع الاطمئنان الى قيام كل فرد بواجبه بحكمة وخلق دون خضوع لسلطان أو اية عقوبات خارجية .. كما انه لم يكن يوتوبيا . فلقد أدرك استغراق تحول المجتمع على هذا النحو أمداً طويلا . فهي عملية بطيئة . واستنكر ما جاء بمذهبي سان سيمون وفورييه لتخيلهما امكان تحقق « العصر الألفي للمسيح » على التو بمجرد احداث تغير في النظام .

وعرفنا بتغلغل فكرة التقدم في خواطره ومشاحناته ، وشبهها «بخط حديدي غايته الحرية(*)» . وتركزت انتقاداته المتطرفة للنظريات الاجتماعية السائدة ، من محافظة وديموقراطية حول ما فيها من افتقار الى جدية النظرة الى التقدم ، رغم تمسحها به .

« ان ما يسيطر على كل دراساتي ، وما يحدد بدايتها ونهايتها وذروتها وأساسها ومنطقها الذي تعتمد عليه ، وما اعتمدت اليه في اصالتي (ان كنت اتمتع باية أصالة) هو اصراري على توكيد التقدم بلا تردد ، وفي كل موضع ، مع انكاري للمطلق . ان كل ما كتبته وما انكرته او اكدته قد كتبته وأنكرته او اكدته باسم فكرة وحيدة هي التقدم . أما خصومي فكلهم من انصار المطلق من كل نوع ولكل حالة وبأي قدر ، على حد قول زجاناريللي » (*) .

(٥)

ثمة ايمان مبهم بالتقدم يكمن وراء ثورة سنة ١٧٨٩ فهو الذي حث عليها ، أما في ثورة سنة ١٨٤٨ فقد اعتلت الفكرة العرش بلا منازع كمبدأ سائد ، واتخذت الصدارة في اللجنة التي وضعت دستور الجمهورية الثانية . فلقد جعل ارمان ماراس أهم من صاغوا هذه الوثيقة «القانون الخفي الذي يحكم المجتمعات» أو قانون التقدم الذي

★ واضح ان السكك الحديدية كانت من طرائف تلك الأيام ، ولذا لجأ اليها الأدباء في تشبيهاتهم .

★ In omni cašue numero.

طالما تعرض للانكار، وان كانت جذوره ممتدة في طبيعة الانسان، اساسي حق التصويت عنـــد الجميع واستندت حجته على ما يأتي . ترجع الثورات الى قمع التقدم . فهي تعبير عمـا تحقق من تقـدم ودليـل انتصاره . ولكن مثل هذه الانتفاضات ليست السـبل المرغوب فيها لتحقيق التقدم . فكيف يستطاع تجنبها ؟ لن يتحقق هـذا الا بانشاء انظمة مرنة قادرة على استيعاب الأفكار القادرة على التغيير والتبديل، وتشريع قوانين تساعد على تقبل المعتقدات الصاعدة الجديدة بلا صراع أو احتكاك . فالمطلوب اذن هي حكومة مرنة متفتحة ، لاستيعاب الآراء، ويحتاج تحقيق مثل هذه الحكومات الى اباحة حق التصويت للجميع .

كان الحق العام للتصويت اجراء سياسيا عمليا ، اما نجاح الثورة فقد طربت له كل صروح «اليوتوبيا» ، وسعى المصلحون الاجتماعيون من كل نوع لاغتنام هذه الفرصـــة . وفي تاريخ الصراعات السياسية ١٨٤٥ ، خلدت أسماء برودون وفيكتور كونسيدران نصير فورييه) وبير ليرو . الشيوعي المؤمن بالانسان ، وتلميذته الوفية جورج صاند. واهم ماقام به ليرو واستحق الذكر لاجله ، تأثيره على روح الكاتبـة العظيمة . فرومانساتها الأخيرة حافلة بالأفكار المستمدة من تعاليمه ، وشيوعيته غامضة وعديمة التأثير . وكان من أقل من اثروا في فكر العصر ، وان كانت بعض ملامح من نظريته تستحق الاشارة اليها .

بدأ ليرو كواحد من أبناء مدرسة سان سيمون ، ثم اتبع طريقا خاصا به ، فقام برد اعتبـار المثـل الأعلى للمســاواة الذي رفضـه سان سيمون ، وجعل الاقتراب من هذا المثل مقياسا للتقدم . واعتقد ان أهم ما جرى في التاريخ هو التحطيم التـدريجي لفـكرة الطبقية والطائفية . واقترب الاتجاه الآن من اكتماله بعد أن غدت هذه الايام « كلمتا انسان ومساواة كلمة واحدة » .

ولكي نصل الى مدينة المستقبل ينبغي أن يتوافر لنا ثقل ورافعة. الانسـان هو الثقل ، والرافعة هي فكرة التقدم التي تستلزم دراسـة التاريخ ، الذي يكشف ماصادفته قدراتنا من ارتقاء وازدياد في سيطرتنا على الطبيعة وامكان زيادة الفـاعلية في تنظيم المجتمع . ولكن الثقـل والرافعة لا يكفيان وحدهما . فالحاجة ماسة الى نقطة ارتكاز أيضـا ، ويستطاع العثور عليها في «اتحاد» الجنس البشري . ولكن هذه الفكرة قد كانت تعني عند ليرو معنى مختلفا عما تعنيه عادة . فلقد كانت تعني رابطة أعمق ربما اتصلت بناحية روحية خفية . فبعد أن كان الاتحاد

الانسانى عند السانسيمونيين نابعا من الاعتقاد فى وحدة الوجود ، غدا عند ليرو ــ كما كان عند فورييه ــ مشتقا من مذهب أعوص هو تناسخ الأرواح . فلقد اعتقد ليرو أننا أبناء هذا الجيل لسنا مجرد أبناء منحدرين من أجيال ماضية . فنحن هذه الأجيال الماضية ذاتها التى ولدت ثانية من خلالنا .

بدد ليرو الكثير من صفحات المجلدين التى عرض فيها فكرته فى ذكر الكثير من المعارف الفارغة سعيا وراء اثبات هذا المذهب ، الذى لو صح لكان محورا أساسيا لدين جديد للبشرية ، من الفيثاغورية المنقحة. ولن يتعذر علينا أن ندرك سر جاذبية تناسخ الارواح عند أحد المؤمنين بالتقدم . فهى قادرة على التزويد بحل للخلل المترتب على تضحية الجيل بعد الآخر من أجل الأخلاف ، مما جعل هذه الأجيال تبدو بلا قيمة فى ذاتها .. ويحتاج المؤمنون فى التقدم ممن يحسون بما عانته البشرية فى الماضى والحاضر الى حل رواقى لمجابهة هذه الحقيقة . ولقد رأينا كيف رفض هردر قبولها . وربما بدت أية عقيدة من عقائد وحدة الوجود كتلك التى تؤمن بها طائفة السانسيمونيين كافية عند البعض لحل المشكلة ، وان كان دورها لايفى بغاية الرواقية وسعيها لتهدئة النفس . وحاول تناسخ الأرواح عند ليرو أو فورييه رفع الظلم الممتد الجذور ، فحقا يضحى بأبناء أى جيل من أجل ذريته كما أنهم يعانون من أجله ، ولكنهم هم أنفسهم الذين يعودون للحياة فى صورة هذه الذرية ، وعلى ذلك تعد هذه التضحية فى الواقع لصالحهم . فهم سيصلون الى الحالة المرغوبة التى يسعى لبلوغها التاريخ فى تؤدة وبعد مشقة وعناء .

ولكن فكرة تناسخ الأرواح رغم كل الأسانيد التى جمعها ليرو من أبحاثه للمعتقدات والتقاليد القديمة لتدعيمها لن تنجح فى تحقيق الا قدر ضئيل من الاقناع لأولئك الذين كفوا عن الاعتقاد فى الفكرة المألوفة عن وجود حياة مستقبلة مستقلة عن الأرض . وكانت مدام ديديفان الوحيدة من الصفوة التى انضمت الى عقيدته .

(٥)

يصور الكتاب الذى ألفه ارنست رينان تحت وطأة التأثير المباشر لأحداث سنة ١٨٤٨ ، علو مكانة فكرة التقدم عند أهل الفكر فى فرنسا فى منتصف القرن الغابر . فلقد أراد أن يفهم أهمية المذاهب

الشـورية الشاملة ، وانتهى بعد ذلك على التو الى الاستغراق في تأمل مستقبل البشرية . هذا هو مضمون كتاب « مستقبل العلم » (١) .

اقتنع الكاتب حينئذ بان للتاريخ هدفا ، ويتطلع البشرية على الدوام الى ماهو أفضل ــ رغم تذبذب هذا الاتجاه ــ اعتمادا على ازدياد سيطرة العقل على الغريزة والهوى .. وبدت له الثورة الفرنسية لحظة حاسمة عرفت فيها البشرية لأول مرة ذاتها ، فهذه الثورة هي المحاولة الاولى للانسان للامساك بالزمام فى يديه ، ونستطيع اتباع «أوين» فى تسميته كل ماسبق ذلك بالعصر اللاعقلاني للوجود الانساني .

وصلنا الآن الى نقطة علينا أن نختار عندها بين الايمان باحد الجانبين . فلو يأسنا من العقل ، فاننا سنستطيع احتماء من الشك اللجوء الى الايمان بالسلطان الخارجي للكنيسة الرومانية . ولو آمنا بالعقل ، فاننا مضطرون بالضرورة عن طريقة سير العقل الانساني ، ونبرىء الروح الحديثة . ولن يستطاع تبرير أحوالها الا باثبات انها خطوة ضرورية نحو الكمال ، واكد رينان ايمانه بالحل الثانى ، وشعر بالثقة فى امكان قيام العلم ــ متضمنا الفيلولوجيا القائمة على أسس انسانية ، والتى قام بالتوسع فيهـا ــ والفلسفة والفن ، بتيسير ادراك البشرية لحضارة مثالية يتمتع فيها الجميع بالمساواة . وقال ان الدولة اداة التقدم ، والاشتراكيين محقون فى طريقة طرحهم للمشكلة التى يتحتم على الانسان حلها ، وان كان حلهم لم يكن موفقا، لأن الحرية الفردية ــ التى تعمل الاشتراكية على تقييدها بصورة خطيرة ــ لها دور غالب بصفة قاطعة . وينبغى المحافظة عليها ضد كل اعتداء .

الف رينان هذا الكتاب سنة ١٨٤٨ و ١٨٤٩ ، ولكنه لم ينشره فى ذلك الحين ، وقدمه الى العالم بعد ذلك باربعين سنة . وسلبته هذه السنوات الاربعون تفاؤله القديم ، وواصل الاعتقاد فى امكان الاعتماد على العلم فى اصلاح تعاسة أحوالنا ، ولكنه نبذ الاعتقاد فى امكان تحقيق مساواة بين البشر . فالتفاوت مكتوب فى الطبيعة . وليس نتيجة ضرورية للحرية فحسب ، ولكنه ايضا مسلمة ضرورية للتقدم . وسوف تكون هناك دائما اقلية متفوقة . وانتقد نفسه ايضا لانه وقع فى نفس

---

(١) l'Avenir de la science pensée, (١٨٤٨) ــ نشر ١٨٩٠ .

حدث هيجل ، وخصص للانسان مكانة ذات قدر غير مناسب من الأهمية في العالم .

في سنة ١٨٩٠ ، لم يتبق لرينان اى شيء من الاشتراكية العاطفية التي درسها سنة ١٨٤٨ ، فلعبت في ادراج رياح الاشتراكية العلمية التي ابتدعها ماركس وانجلز . واتجه رينان الى الاعتقاد بانتصار الاشتراكية في هذه الصورة الجديدة (١) ، وانتقد كونت لاعتقاده بان الانسان يحيا على العلم وحده ، أو بالاحرى على حواشي لفظية كالنظريات الهندسية والصيغ الجافة .. فهل يعني هذا انه كان راضيا عن المذهب المشخص لماركس والقائل بان كل ظواهر الحضارة في أى عهد معلوم تخضع للطرائق المتبعة في الانتاج والتوزيع ؟ ولكن مستقبل الاشتراكية قد بدا له مشكلة هينة ، والمصير النهائي للبشرية أمر غير مؤكد ، وان كان ما يبعث السلوى اننا على يقين من اننا سائرون حتما الى مكان ما (*) .

(٦)

وصف برودون فكرة التقدم بانها الخط الحديدى المؤدى الى الحرية .. وليس من شك في انها قد دعمت بقوة دافعة المثل الاجتماعية التي بدت منفرة ومخيفة لسلطات الكنيسة الكاثوليكية . فلقد لاحت الفكرة للفاتيكان كأداة قوية في يد العدو . وفي «خلاصة الاخطاء» الشهيرة التي ألقى بها البابا بيوس التاسع في وجه العالم الحديث في نهاية سنة ١٨٦٤ ، حظى التقدم بشرف التعرض للذم ، لان الخطأ الثمانين الذى اختتم به قائمة الاخطاء قد نص على :

يستطيع الحبر الأعظم — بل ويتحتم عليه — أن يسعى للتوافق والالتقاء مع معانى التقدم والحرية والحضارة الحديثة .

ولا عجب في ذلك بعد أن رأى ما حدث من تمسح في التقدم لتبرير كل حركة تزكم انف الفاتيكان كالليبرالية والتسامح والديموقراطية والاشتراكية . وكانت كنيسة روما على علم بالصلة الوثيقة بين الفكرة وبين تقدم العقلانية .

---

(١) لم يعمل رينان حسبانا للقوى الحديثة المعارضة للاشتراكية ، ولا حسابا للديموقراطية البرلمانية المتمثلة في ياكوبين ولا لرجال من امثال جورج سوريل .

(*) Ce qu'il y a de consolant, c'est qu'on arrive nécessairement quelque part.

الفصل الثامن عشر

التقــدم المــادى

معــرض ســنة ١٨٥١

(١)

لن يسهل قيام اية فكرة جديدة من نوع النظريات بالنفاذ فى الوعى العام واحداث تأثير فيه ، ما لم تتخذ ملامح وسمات معينة ، وما لم يقم بتوطيد معناها دليل مادى عظيم التأثير . وبالنسبة لمعنى التقدم ، تحقق هذان الشرطان فى الفترة مابين ١٨٢٠ ، وسنة ١٨٥٠ . ورأى النـاس فى الكنيسة السانسيمونية ومحاولات أوين وكابيه لانشـاء مجتمعات مثالية دلائل عملية مستلهمة من الفكرة . ولعلهم لم يشعروا بأى تعاطف على هذه المشروعات ، ولكنها اجتذبت انتباههم . وفى الوقت نفسه ، فانهم شاهدوا تحولا سريعا فى أحوال الحياة الخارجية ، فى حركة لم يبد هناك مايدعو الى تصور توقفها فى المسـتقبل . ونجحت النتـائج الباهرة لتقدم العلم ، والتقنية الميكانيكية فى تعريف عقـول أوسـاط الناس بفكرة حدوث ازدياد بلا حد فى سيطرة الانسان على الطبيعة : بعد أن استطاع عقله النفاذ الى اسرارها . وكان هذا التقدم المـادى الواضح الذى استمر بلا انقطاع منذ ذلك الحين ركن الزاوية للايمان العام بالتقدم السـائد فى تلك الأيام .

تزعمت انجلترا هذا التقدم المادى ، وتفاصيله معروفة ليست بحاجة الى بيان . واحداث اكتشاف قوة البخار الدافعة ، والامكانات الكامنة فى الفحم ثورة فى أحوال الحيـاة ، وشاهد من ولدوا فى مطلع القرن قبل بلوغهم الثلاثين التقدم السريع للمـلاحة البخارية ، وانارة المدن والمنازل بالغاز ، وافتتاح اول خطوط حديدية .

ونشر سوذى كتابه عن سير توماس مور او احـاديث عن تقدم

المجتمع ★ سنة ١٨٢٩ ، قبل الحادث الشهير لافتتاح الخط الحديدى بين ليفربول ومانشستر الذى بين كيف استطاعت الآلات اختصار المسافات واحداث ثورة في الصناعة . هنا نلاحظ أثر « الطاقة » الجديدة على خيال سوذى . فلقد قال : « سيتحكم البخار فى العالم القادم ، وسيحدث هزة فيه قبل أن تتوطد أركان امبراطوريته» وخصص كاتب سيرة نيلسون (سوذى) فصلا كاملا ناقش فيه موضوع « البخار والحرب » : وان كانت الفكرة الاساسية للكتاب قد دارت حول مسألة التقدم الأخلاقى والاجتماعى ، واظهر الكاتب ميله الى الاعتقاد « بأن العالم سيواصل رقيه بلا توقف على نفس النحو الذى اتبعه حتى الآن . وفى نهاية المطاف ، سيتحقق تقدم المعرفة وانتشار المسيحية . وسيتحقق شيء اشبه بالدولة الفاضلة التى يعشق الفلاسفة الحلم بها ، عندما يصبح الناس مسيحيين بمعنى الكلمة الى جانب مسيحيتهم بالاسم » . ان هذا الاعتراف بالتقدم رغم حذره واحاطته بالتحفظات والتردد ، وقد صدر عن سوذى أحد أساطين المحافظين فى نظرتهم للكنيسة والدولة ، لدليل ساطع من حال العصر ، وبخاصة اذا تذاكرنا أن الفكرة كانت مازالت مقرونة فى اذهان الناس بالعصيان والمروق .

ومن الدلائل الهامة أيضا أن يقوم أحد علماء الرياضة فى ابردين ممن بلغوا الثمانين من عمرهم بتأليف كتاب فى نفس الموضوع . وكتاب « تقدم المجتمع » لهاملتون قد نسى نهائيا هذه الأيام ، ولكنه شارك فى أيامه بالتأكيد فى نشر نفس النظرة المعتدلة الى التقدم المتوافقة مع تقاليد الدين التى اعتنقها سوذى : « لن يؤمن غير أصحاب الحماس الملتهب بامكان بلوغ الطبيعة البشرية الكمال ، وبلوغ عصر ذهبى لامكان فيه للرذيلة والشقاء ، وان كان لا وجود لأى تعارض بين استقصاء سبل الارتقاء بطبيعتنا وزيادة سعادتنا ، وبين أى منطق رصين . فهو أهم موضوع انسانى صرف يمكن أن يشغل عقل الانسان » (١) ..

★ Sir Thomas More or Colloquies on the progress of Society, ١٨٢٩

(١) فى سنة ١٨٣٠ نشر موراى الكتاب بعد وفاة المؤلف ، أى بعد وفاة صاحبه بسنة واحدة .

(٢)

حدثنا تنيسون انه عندما سافر في أول قطار من ليفربول الى مانشستر (١٨٣٠) ظن ان العجلات تجرى فى أخاديد ، « فنظمت هذا البيت الشعرى » :

دعوا العالم العظيم يدور مسرعا بلا توقف فى أخاديد التغير (١)

وتصور قصيدة « لوكسلى هول » التى نشرت سنة ١٨٤٢ ، كيف بدأت فكرة التقدم تزحف على مخيلة الانجليز . فلقد بدت بحق الفكرة الأساسية فى القصيدة رغم قيامها بدور ثانوى فى مثل هذه القصة الغرامية ، عندما ألهبت مشاعر البطل فى شبابه بنبضات الاهتمام الحار بالمصير الدنيوى للبشرية والاضطراب الكبير للعيش فى عجائب أحضان عصره ، وأحلام المستقبل . وتحرر من الوهم بعد أن خاب أمله فى الحب، ورأى الجانب الآخر من الحضارة ، ولكنه اهتدى فى النهاية الى ما يخفف من خلجات قلبه النابض ، بعد عودة ايمانه الباكر ، وانما فى صورة أكثر رصانة ، عندما شعر بايمان متعقل فى العصر الذى يحيا فى أحضانه . وأصبح قادرا على لمح اتساع آفاق التاريخ ، كما أصبح قادرا على التيقن « من اتساع أفكار الناس بحيث تتوائم مع حركات الشموس » . وترجع طرافة القصيدة الى ما فيها من اهتداء الى علاج تطهيرى للأحزان الشخصية فى الايمان بفكرة التقدم بغير رجوع الى الدين أو الطبيعة . وربما أمكن القول بأن هذه القصيدة قد مثلت مرحلة فى تاريخ الفكرة .

لم تتضمن النظرة الى الحضارة التى اتبعها تنيسون كشاعر له أية دعوة للثورة . فهى لا توحى بأى تبرم بالماضى أو غضب منه ، لأن المستقبل المذهل الذى ينتظر أوربا سيجىء كثمرة لعهد طويل من الزمان. وما يثبت قيمة التاريخ هو البشائر المتوقعة اليوم :

القرون التى انطوت أشبه بروضة خصيبة مستلقاة للراحة .

وكم بدت مختلفة الروح التى صاحبت شاعرا كبيرا آخر ، عند نظمه لقصيدته الرائعة عن التقدم بعد ذلك بنحو عشرين سنة . فلقد بشرت قصيدة السماء الصافية (*) ببدء عهد جديد للعالم سينطلق فيه

(١) انظر ص ١٩٥ Tennyson-Memoirs by his Son الجزء الأول .

★ The centuries behind me like a fruitful land reposed.

الانسان المتمرد الظافر حرا الى الامام على طريق مجيد بعد تحرره من الماضى . وكان ما ألهم الشاعر هو الروح القديمة للثورة ، لا الايمان بالتقدم المتواصل خلال العصور ، ولم ير هوجو الماضى أكثر من أصفاد ثقيلة نجح الجنس البشرى أخيرا فى التحرر منها . فلقد ولى عهد الماضى المفزع بلا رجعة ، « ومات ذلك العالم » . وتتغنى القصيدة بتمرد الانسان ، وانتصاره على هذا العالم ، كما تعبر عن الشعور بالانتشاء لما يتوقع له مستقبلا .

ففيها تخيل الانسان وهو يقود عربة أثيرية وسط السماء ، خيولها الرياح الأربعة ، وترتفع العربة فوق السحب ، وتعبر الأثير وهى تزمجر :

كم بدت شامخة ، وهى تنساب بتراتيلها
وأصبح بميسور المرء أن يرى أهازيج التقدم
فهى سفينة ومنار !
أخيرا اهتدى الانسان الى صولجانه وعرشه
وأصبحنا قادرين على رؤية رياضة نيوتن
محلقة فوق قصائد بيندار (*)

ولكن اذا كانت هذه الرؤية قد بشرت بغزو الفضاء ، فان معناها رمزى أكثر منه حرفى . فلقد عاد هوجو الى الأرض فكان أشبه بالشاعر اليونانى بيندار وهو يكبح جماح شاعريته :

ليس بهذا البعد ! ليس بهذا العلو ! فلنعاود الهبوط !
استقر أيها الانسان ، استقر يا آدم ، وابعد عن الحيرة
وعن آدم الذى هوى . فلا ينبغى أن يطفىء أى حلم
بريق المثال الذى يناسب الأرض .

★ Superbe, il plane, avec un hymne en se agrès
l'onvo tet passèr 'a strophe du progrès.
Il est la Nef, il est phare.
d'Homme enfin prend son scepter et jette son boton
Et l'on voit s'envoler le calcul de Newton
Monté sur l'ode de pindare.

فلنقنع اذن بهذه الكلمه (الارض) ، فهذا أفضل ! انها مكتوبه في كل مكان (*)

واشرق الصبح بعد ستة الاف سنة في الطريق الموعود ، ورسب الانسان على شط جديد ، بعد أن حررته « يد خفية » من أثقال قيوده .

الى أين تتجه هذه السفينة الربانية ؟ انها ذاهبة في وضح النهار نحو المستقبل ونقائه ، نحو الفضيلة ،

والعالم الذى نرى بريقه

والكوارث المميتة ، والنسيان الكريم

والرخاء والهدوء ، والضحك والانسان السعيد

الى هناك ستبحر هذه السفينة .

يالله ! ان هذه السفينة تؤدى رحلة مقدسة

فهى صاعدة الى أسمى الأثير

خارج أطلال القدم ورثاثتها

خارج الجاذبية سيعتر على المستعبل . فاخيرا هرب الانسان من مصير الفناء والضياع في الظلمات .

وفى مخيلة هوجو ، تحولت الى شىء أعظم جلالا وحدة البشرية ونظامها الشامل تحت لواء « برلمان الانسان واتحاد العالم » على حد تعبير تنيسون ، والهدف الذى سعى اليه الكثيرون من أصحاب نظريات التقدم ، فلقد بجعل السفينة السحرية لمصير الانسان ندور فى فلك عالمية الرواقيين وتتبع نظاما دنيويا يتوافق مع العالم بأسره .

مركب ذات سحر وسمو ! حولت خطاها

صراخ الأرض الى نشيد عذب بشوش

وجددت شباب الأجناس الذابلة

وأنشأت نظاما حقا وأرسدت الى الطريق المأمون

أيها الرب ادخل زرقة السماء الى قلوب البشر

حتى تمحى الأوطان

★ Pas si loin ! pas si haut ! redescendons. Restons
L'homme. reston Adam; mais non L'homme à tâtons
Mai snon L'Adam tombé ! Tout autre rêve altère
L'espèce d'ideal qui convient à la terre,
Contentons-nous du mot : meilleur ' écrit partout

فيتألف من السماء بعد التفافها بالانسان وطن واحد
وفكرة عامرة بالكون كله ، بكل أعماقه
تمحي منها القواعد العتيقه
تضمحل فيها الجبال وتختفي دورات الأفلاك
وتتحول بتأثير روعتها الخطى الثقيلة للشعوب
الى انطلاق مع النسور (*)

(٣)

بين سنة ١٨٣٠ ، وسنة ١٨٣٥ ، انتشر النقل بالسكك الحديديه في سائر أنحاء بريطانيا ، وعرف في القارة الأوربية · وسخرت الكهرباء لخدمة الانسان ، واخترع التلغراف · ويعد المعرض الكبير في لندن سنه ١٨٥١ في مظهر من مظاهره اعترافا عاما بما حدث من تقدم مادى فى العصر، وازدياد سيطرة الانسان على العالم المادى . وقال أحد المعاصرين ان هدفه « عرض ملامح حية للتقدم الانساني الذى حققته الغزوات المتعاقبة للذهن الانساني » (١) · وتحدث الوصى على العرش بعد افتتاح المعرض عن أهميته فقال في حديث عام :

« لن يخامر الشك من وجهوا أى انتباه الى الملامح المميزة لعصرنا الحالي في اننا نعيش في عصر نقلة مذهلة تنزع الى الاسراع الى بلوغ تلك الغاية العظيمة التى سعى اليها كل التاريخ بلا جدال: تحقيق وحدة البشرية .... فالمسافات التى فصلت أمم العالم وأجزاءه متجهة الى الاختفاء السريع بفضل المخترعات المستحدثة · وأصبحنا قادرين على نقلها ونشرها بسهولة لا تكاد تصدق · فلقد عرفت كل لغات الشعوب وأصبحت معارفها فى متناول كل انسان ، وينتقل الفكر بسرعة ، بل

---

(١) مارتين · « حياة الأمير ولى العهد — الطبعة الثالثة — ص ٤٧ التى الحديث فى حفل أقيم بـ Mansion House في ٢١ مارس ١٨٥٠ ·

Nef magique et supreme ! elle a rien qu'en marchant,
Changé cri terrestre en pur et joueux chant,
Rajeuni les races fletries,
Etabli l'ordre vrai, montré le chemin sûr,
Dieu juste ! et fait entrer dans l'homme tant d'azur
Qu'elle a supprimé les patries !
Faisant à 'homme avec le ciel une cité,
Une pensée avec toute l'immensité,
Elle abolit les vieilles règles;
Elle abaisse les monts, elle annule les tours;
Splendide, elle introduit les peuples, marcheurs lourds,
Dans la communion des aigles.

واعتمادا على البرق · من جهة الى أخرى ، فلقد امتد المبدأ الكبير لتقسيم العمل الذي يصبح اعتباره القوة المحركة للحضارة، وغمر كل فروع العلم والصناعة والفن ... أيها السادة ! ان معرض ١٨٥١ يقدم لنا اختبارا صحيحا ، وصورة حية لنقطة التقدم التي وصلتها البشرية جمعاء في هذا المضمار ، ويعرفنا بنقطة بدء جديدة تستطيع كل الشعوب أن تنطلق منها بكل جهودها » (١) ·

كانت النقطة التي تركز الكلام عليها هي « اتحاد » العالم · فلقد حرص المعرض على تنبيه دعي الناس الى وجود رابطة تربط بين كل أهل الأرض · وكتب تاكري في قصيدة « يوم من أيام مايو » يقول :

انظر الى الحفل الفاخر الذي أعد
لالتقاء الشعوب في اخاء
حول مائدة واحـــدة

وردد نفس النغمـــة المقـــال الافتتاحي للتايمز في يوم افتتـــاح المعرض : « هذا أول يوم منذ الخليقة تلتقي فيه كل الشعوب من سائر ربوع الأرض للاشتراك في عمل واحد » · وقيل أن المعرض من بشائر حركة فكرية وأخلاقية « تعد نقطة تحول كبرى في تاريخ العالم » ، وبشر بتحقق السلام العالمي ·

وكتب كاتب آخر أن انجلترا قد أنجبت الفيلسوفين بيكون ونيوتن « اللذين كانا أول من حدد لتيار العلم الصناعي اتجاهه ، ومنحه القوة · ونحن أيضا أول من قدم أوسع قاعدة مستطاعة لرعاية التقـدم الدولي الذي يسعى لتحقيق الرفاهية المادية للانسان والقضاء على صـغائر المنافسة في التجارة » (٢) ·

تبين هذه المقتطفات كيف نظر حينئذ الى هذا المعرض العظيم نظرة تفاؤل ، لا باعتباره سجلا للمنجزات المادية فحسب ، وانما كدليل لاثبات ان البشرية في طريقها الى حالة أفضل وأسعد بعد تحطيم الحواجز ، وما تمخض عن ذلك من ادراك لمدى وثوق الارتباط بين مصالح الجميع · هنا ايحاء بصورة يستطيع أرباب النظرة البعيدة أن يلمحوا في ثناياها « اتحاد العالم » الذي تحدث عنه تنيسون ·

---

(١) نشرت في جريدة التايمز في عدد ٣٠ ابريل سنة ١٨٥١ افتتح المعرض في أول مايو
(٢) مجلة Edinburgh Review

(٤)

وبعد هذا المرض، تقدمت الحضارة الغربية باطراد وبسرعة فاقت من بعض الجوانب كل ما استطاع أي عقل راجح التنبؤ به • تقدمت في اقل تقدير بمعناها التقليدي وفقا لتعريف لابس به «بانها تمثل تقدم الرفاهيـــة المادية والتعليم والمساواة والتطلع للنهوض والنجـاح في الحياة» (١) • وتحقق اعظم تقدم بعيد الأثر في تقنيات لوازم الحياة • وفي سبيل التحكم في قوى الطبيعة • ومن نافلة القول تعداد الكشوف والمخترعات منذ سنة ١٨٥٠ ، التي اختصرت المسافات ، واقتصـدت الوقت ، وأراحت الانسان من العناء ، وخفضت من صدمات الحياة ، في بعض النواحي ، وان كانت قد زادتها في نواحي أخرى • واعتاد أرباب الفكر الضئيل من التأمل ـ بتأثير هذا السيل من المخترعات التقنية التي تلاحقت مصحوبة بتوسع هائل في شتى فروع المعـرفة ـ على الاعتقاد شيئا فشيئا بان الحضاره تقدمية بطبعها • وان التحسن المتواصل جانب مكمل لطبيعة الأشياء •

الى هذا الحد تحققت الآمال سنة ١٨٥١ • ولكن في مقابل كل هذا التقدم التقني وما صاحبه من توسع هائل في الصناعة والتجارة ، بهر الناس في الأسواق عندما توقفوا للتـأمل ، ينبغي ألا نتناسى استغلال الصناع ، وما يعانون ، ومحنة التنافس الاقتصادي الشديد ، والأعبـاء الثقيلة للاستعداد للحرب الحديثة • فالظاهر أن زيادة الرفاهية قد حملت في طياتها بالضرورة جـوانب تتعارض وسعادة البشرية • كمـــا أن المواصلات التي ربطت شعوب الأرض سويا قد أحدثت تغييرا في أساليب الحرب بدلا من أن تحقق السلام • ولقد فاقت الآثار السيئة لكل مخترعاتنا المدهشة أثرها الخير (٢) • وليس من شك في وجود حقيقة واحدة لا يمكن انكارها ويستطاع احتسابها كعلامة للتقدم الأخلاقي للبشرية : الغـاء الرق في أمريكا ، الذي جاء ثمنا لحرب دموية طويلة • على أنه يتعـذر الاعتماد على بعض انتصارات الخير لزعزعة النتيجة القائلة بانه مع التسليم بأن المعرفة قد تقدمت بغير حد الا انه لاوجود لدعائم تبرر الآمال الداعية للاعتقاد بأن الانسان قادر على بلوغ الكمال أو امكان بلوغ السعادة • ولاحظ أحد الكتاب النابهين في معرض حديثه عن التقدم (١٨٦٤) بأن الخطوات الفردية العديدة في نمو المعرفة وتنظيم العمل لم تكن مصحوبة

(١) ص ٢٦٨ من كتاب كيد Social Evolution

(٢) فيرون ص ٢٤٣ Theorie du progrès (١٨٦٧) •

حتى ذلك العهد بأى اتجاه لاحداث تقدم عام فى السعادة ، لأن كل خطوة قد أدت الى زيادة مصاعب الحياة .

ولكن على الرغم من كل الحقائق المخالفة ، وما قاله الكثيرون من المعارضين النابهين ، فان الايمان بالتقدم الاجتماعى قد ساد على الجملة ، وازداد انتصار التفاؤل بفضل انتصار أحد الفروض النورية فى ميدان آخر للبحث ، وشابه أثره المبالغ الكهرباء .

---

(١) لوتسه : ص ٣٩٦ Microcosmus (الترجمة الانجليزية ، المجلد الثانى

الفصل التاسع عشر

التقــدم على ضـوء التطــور

(١)

في ستينات القرن التاسع عشر ، دخلت فكرة التقدم المرحلة الثالثة من تاريخها . ففي خلال المرحلة الأولى، وحتى الثورة الفرنسية، نظر اليها نظرة تكاد تكون عابرة ، فقبلت كأمر مسلم به ، ولم يسع لاستقصائها لا الفلاسفة ولا المؤرخون على السواء، وفي المرحلة الثانية، أدركت أهميتها الساحقة ، وبدأ البحث عن قانون عام قادر على تعريفها ، وتوطيد أقدامها . ونشأت دراسة علم الاجتماع . وفي الوقت نفسه ، ساعدت النتائج المبدة للعلم بعد تطبيقها على الجوانب النافعة في الحياة على الدعوى للفكرة . فلقد توافقت مع فكرة الارتقـاء التي شاعت في كل العـلم الطبيعي والميتافزيقا ، وتهافت عليهـا علمـاء الاجتماع وغيرهم من المصلحين السياسيين ، وكأنها جزء من الانجيل .

وما حلت سنة ١٨٥٠ حتى كانت فكرة مألوفة في أوربا ، ولكنها لم تلق ترحيبا جماعيا كحقيقة صحيحة واضحة ، ونمت فكرة التقدم الاجتماعي في جو فكرة النمو البيولوجي، وان كانت فكرة هذا النمو قد ظلت تبدو نظرية عشوائية الى حد كبير . وهوجم القول بثبـات الأنواع ، وبخلق الانسان ، الذي دافعت عنه بعض المصالح الخاصة والأهواء الشديدة ، ولكنه استطاع الصمود . وتشابهت في الكثير فكرة التطور العضوي مع فرض كوبرنيك في القرن السادس عشر ، ثم تدخل داروين سنة ١٨٥٩ على نحو ما فعل جاليليو فيما مضى . وغير ظهور كتاب «أصل الأنواع» الموقف عندما استنكر استنكارا قاطعـا الاعتقـاد في ثبـات الأنواع ، وارجع العلل الحقيقية الى فكرة « التحول » فما كان يطرح جانبا فيما مضى ويوصـف بأنه تخمين ذكي ، رفع الى مرتبـة الفرض العلمي .

وذبت الحياة فى العصرين السنة التالية بفضل الصراع الذى دار حول فكرة تطور الحياة ضد الأفكار المتزمتة التى هبت من أوساط الكنيسة خاصة ، وأسفرت عن انتصار النظرية .

وبظهور كتاب أصل الأنواع ، بدأت المرحلة الثالثه من تاريخ فكرة التقدم . ولقد سبق أن رأينا كيف ساعد القول بمركزية الشمس فى الفلك — والذى تسبب فى تخلي الانسان عن مكانته المميزة فى عالم الفضاء وجعل قيمته قاصرة على جهوده — على تدعيم فكرة التقدم ، وجعلها منافسه لفكرة العناية الالهية • وأصبح الانسان يعانى الان من نقص جديد من مكانته فى دائرة كوكبه الذى يحيا فيه ، بعد أن جردته نظرية التطور من أمجاده ككائن عقلانى خلق خصيصا لسيادة الأرض . وقامت بتعريفه انحداره من اصل وضيع . وكان هذا « التجريد » الثانى الحادث الحاسم الذى وطد اقدام فكرة التقدم .

(٢)

ينبغى ان نتذكر أن التطور ذاته لا يعنى بالضرورة عند تطبيقه على المجتمع اتجاه الانسان الى غاية مرغوبة • فهى فكرة علمية محايدة تقبل التفاؤل والتشاؤم على السواء • وتتكيف تبعا لاختلاف التقدير فتبدو اما حكما قاسيا ، واما تعزيزا لحدوث تحسن مطرد . ولقد فسرت بالفعل على النحوين •

ويلزم لاثبات اعتماد فكرة التقدم على فكرة التطور الرجوع الى برهانين متمايزين • ولن تثبت صحة التقدم كفرض نفس صحة فكرة تطور الكائنات الحية . الا اذا أمكن بيان تشابه الحياة الاجتماعية مع الطبيعة فى اتباع نفس القوانين العامة للتطور ،. وكذلك دلالة هذه العملية على ازدياد السعادة ، ولقد اختتم داروين بحثه بالكلمات الآتية :

« لما كانت كل الاشكال الحية للحياة ذرية منحدرة من تلك التى سبق لها العيش قبل العهد « السلورى » (نسبة الى عصر بريطانى قديم) ، فان علينا أن نكون على يقين من انه لن ينقطع التعاقب العادى المعتمد على التوالد . على الاطلاق . وبعدم حدوث أى طوفان دمر العالم بأسره . ومن ثم فان علينا الوثوق والاطمئنان الى المستقبل وامتداده بالمثل امتدادا لا يستطاع تقديره . ولما كان الانتقاء الطبيعى لا يعتمد فى عمله — ولا يسعى — لغير صالح كل كائن فان كل بيئة مادية وذهنية ستسعى للتقدم تجاه الكمال » .

هنا ردد صاحب مذهب التطور نغمة متفائلة ، وأوحى بإمكان الاهتداء الى قوانين التقدم في ميادين أخرى خلاف تلك التي اتجه البحث فيها حتى ذلك الحين » .

ولسبنسر الفضل في أن قام بأقدر المحاولات وأعظمها تأثيرا لتسخير براهين التطور لخدمة فكرة التقدم. فلقد جعل مبدأ التطور يمتد بحيث يشمل علم الاجتماع والأخلاق . وكان ألمع المفسرين له في صورته المتفائلة . ولقد نادى بالتطور قبل تدخل داروين الحاسم بأمد طويل . وفي سنة ١٨٥١ ، نشر كتاب « الاستاتيكا الاجتماعية » ، الذي كشف عن الاتجاه العام لفلسفته المتفائلة رغم عدم تضمنه لقوانين التطور التي بدأ يضعها بعد ذلك في التو ، لأنه كان مازال حينئذ من أتباع المذهب التأليهي ، وظهر التقدم في هذا الكتاب كأساس لنظرية الأخلاق ، ويكشف العنوان عن تأثير كونت ، وإن تعارضت براهينه أشد التعارض مع روح تعاليم كونت ، كما حدث تناول لعلم الاجتماع على نحو جديد(١) .

وبدأ سبنسر نقاشه بالكلام عن زيف الاعتقاد بثبات الطبيعة البشرية الذي طالما تردد زعمه ، لأن التغير طبيعة كل الأشياء ، في كل شيء على حدة ، وكذلك في الكون جملة : « فالطبيعة في ابتعادها اللانهائي عن البساطة دائمة الاتجاه الى تقدم جديد » .. وربما بدأ من الغريب أن يبقى الانسان وحده بلا تغير وسط ما يجري في سائر الأنحاء من طفرات . فمثل هذا القول غير صحيح « لأنه يخضع أيضا لقانون التنوع غير المحدود » . قارن بين الهمج الذين يعيشون في العراء بأمثال نيوتن وشكسبير . وتقع بين هذين الحدين من حدود المقارنة درجات لا تعد ولا تحصى من الاختلاف . فاذا صح القول اذن بوجود تنوع لا حد له في البشرية ، فسيصبح بلوغ الكمال أمرا ممكنا .

ثانيا ــ ليس الشر ضرورة دائمة ، لأن جميع أنواع الشر تنجم عن تعذر تكييف الكائن مع أحواله . ويصح هذا القول عن كل ماهو حي . ويصح القول أيضا بأن الشر في طريقه الى الاختفاء نهائيا . وبتأثير قانون أساسي للحياة ، يطرأ تحسن على لا تكيف الكائنات هذا مع أحوالها .

---

(١) عنوان الكتاب الكامل هو : Social Statics or the Conditions essential to Human Happiness

(الاستاتيكا الاجتماعية أو الشروط الضرورية لسعادة البشر ، مجملة ، مع التوسع في الكلام عن أولها) .

وعلى هذا سيواصل احـد الطرفين او كلاهما التحول الى أن يكتمل التكيف . ويصدق هذا عن المجال العقلي والمادي على السواء .

في الأوضاع الحاضرة للعالم ، يعاني ابناء البشر من الكثير من الشرور . وهذا يدل على أن التوافق بين سلوكهم واحوال المجتمع لم يتحقق بعـد . والشرط الأساسي لقيام المجتمع هو ألا يتمتع الفرد بغير الرغبات التي يستطيع اشباعها بغير تطاول على حق الآخرين في الحصول على اشباع مماثل، ولم يتحقق هذا الشرط لأن الانسان المتحضر قد احتفظ ببعض الخصال التي ناسبت ظروف حياته الأولى المعتمدة على السلب والنهب . لقد احتاج الانسان فيما مضى الى نظام يتوافق مع حالتـه البدائية ، وهو يحتاج الآن في حالته الحاضرة الى نظام بعيد الاختلاف . والنتيجة هي عملية تكييف استمرت منذ أمد بعيد وسوف تستمر أمدا طويلا آخر .

تمثل الحضـارة التكييفات التي تحققت بالفعل ، ويعـني التقـدم الخطوات المتعاقبة التي حدثت في هذا الاتجاه . ولم يخامر سبنسر أي شك في أن الانسان اذا اتبع هذه الخطوات سيصبح لائقا لطريقه في الحياة . فينبغي اختفـاء كل افراط أو نقص في الملكات المناسـبة ، أو كل أوجه النقص في عبارة أخرى . « ويبدو بلوغ الانسان الكمال في نهاية المطاف أمرا منطقيا أكيدا ، كأي نتيجة نؤمن بها ايمانا عميقا ، كايماننا بان جميع الناس مآلهم الموت على سبيل المثال » . هنا افصاح عن نظرية امكان بلوغ الكمـال معتمدة على أسس جـديدة وبوثوق لا يقـل رسـوخا عن ثقـة كوندورسيه أو جودوين .

ليس التقدم اذن أمرا عرضيا ، ولكنه ضرورة . فالحضارة جزء من الطبيعة باعتبارها ممثلة لارتقاء قدرات الانسان الكامنة بتأثير الظروف المناسبة التي كان من المؤكد حدوثها في وقت من الأوقات . هنا اتبعت براهين سبنسر طريقة العلل الغائية . فلقد ذكر ان الغاية القصوى للخلق هي أحداث أعظم قدر من السعادة. ويلزم لتحقيق هذه الغاية أن يتوافر لكل فرد من الجنس البشري ملكات تمكنه من الحصول على أعظم قدر من منح الحياة ، على شريطة ألا يؤدي هذا الى الاقلال من قدرة الآخرين على الحصول على اشباع مماثل .. ولما كان تكون الكائنات على هذا الحال ، فانهـا لا تسـتطيع التكاثر في عالم مسـكون بكائنـات أحط ، ومن لم يتحتم اقصاء هذه الكائنات حتى يتم افساح المجال ، ولكي يتحقق

هذا الاقصاء كان من الضروري انصاف بنية الانسان البدائي في ابتداء حياته بضعفها ، وان يكون السلب والنهب في طبعه ، ولديه ميل الى القتل . وبوجه عام ، يمكن القول بأنه ما كان مستطاعا حدوث شيء آخر خلاف ما حدث في مثل هذه الأرض البكر التي اعطيت للانسان البدائي ، وفي ظل مثل هذه القوانين للحياة .

وربما أمكن طرح البرهان في صورة أكثر تحررا من الإفتراض القائم على العلة الغائية ، وبغير اقحام لفكرة العناية الالهية ، التي اتبعها سبنسر في هذه الكتاب ، وان كان قد استعيض عنها في فلسفته المتأخرة بفكرة « اللامعروف » الكامن وراء كل الظواهر . ولكن دور الحاكم الالهي هو بكل بساطة تحريك القوى الثابتة لتحقيق مخططه : « تولد أكداس أدلة العالم الأخلاقي والمادي بالتدريج الاعتقاد بأن الأحداث في صميمها ليست عشوائية ، ولكنها ، مصممة بطريقة محتومة معينة خاضعة لقوى لا تتغير » .

ان يستطاع مضارعة سبنسر في تفاؤله . فلقد كتب يقول : « بعد دراسة ومثابرة ، بدأت هذه الفوضى من الظواهر التي ولد (الانسان) وسطها تبدو له في مظهر التعميمات » ، لبدأ يلمح فيها بدلا من الفوضى « خطوطا باهتة لمخطط هائل . فلا وجود لأي عوارض ، أو مصادفات ، وانما هنالك في كل موضع نظام واكتمال ، وسوف تختفي الاستثناءات الواحدة بعد الأخرى . وتترابط كل الأشياء برباط نسقي » .

« تتجه الحركة العارمة دائما نحو الكمال والارتقاء الكامل ونحو خير أكثر ابتعادا عن الاضطراب ، وكمال تنطوي تحت شموله كل الانحرافات الصغيرة على نحو شبيه بتقوس الأرض واحتضانه الجبال والوديان . سيتعلم الباحث ألا يرى حتى في الشرور غير الصراع الذي يسود بالخير . ولكن أهم من كل هذا فان ما سيدهشه هو الكفاية الكامنة في الأشياء » .

على ان الاتجاه نحو التوافق واستبعاد الشر لن يتحقق بفضل المثاليين، وما يفرضون من انساق فلسفية على العالم ، أو بوساطة الحكومات التسلطية . ان هذا الاتجاه يعتمد على التكييف التدريجي والتغير السيكلوجي التدريجي، ودعامته هي الحرية الفردية . والآراء المتعارضة القائمة على الاخذ والعطاء ، أو : « التقدم المصحوب بالمقاومة » ، على رأي جيزو . وأدرك سبنسر ما يعود من المقاومة من خير مادامت صادرة عن

اولئك الذين يعتقدون فى أمانة بان الأنظمة التى يدافعون عنها هى أحسن الأنظمة حقا ، وأن المستحدثات المقترحة خاطئة خطأ مطلقا ·

يلاحظ أن مذهب سبنسر فى امكان بلوغ الكمال قد استند على أساس بعيد الاختلاف عن مذهب القرن الثامن عشر · فهناك اختلاف بين استنباط هذا المذهب من سيكلوجيـة مجردة تعتقد فى طواعية الطبيعـة البشرية وعدم مقاومتهـا لأى مشرع أو معلم ، وبين القـول بان الطبيعـة البشرية خاضعة للقانون العام للتغير · وما فى الاتجاه الذى تميل الى اتباعه حثيثا ، وانما باستمرار . فى زيادة تكيفها مع الظروف الاجتماعية . والذى يتمثل فى وراثة الأبناء للاتجاهات المكتسبة عند الآباء ، من اشارة الى وجود توافق فى نهاية المطاف · هنا تبدو الوسائل النافعة من تشريعات وتربية مسائل ثانوية بالنسبة لعملية التكييف اللاوعية ، والتجاوب مع التغيرات السيكلوجية فى المجتمع ، تلك التغيرات التى تكشف عن نفسها فى الرأى العام ·

(٣)

خلال السنوات العشر التالية ، عكف سبنسر على بحث القوانين العامة للتطور ، ووضع مخطط فلسفته التركيبية التى سعت لتفسير تطور الكون · وقصد سبنسر أن يبين أنه يمكن اكتشاف قوانين التغير التى تسيطر على كل الظواهر على السواء : اللاعضوية والبيولوجية والنفسية والاجتماعية · وعلى ضـوء هذا الفرض ، يكون التقـدم الفعلى قد ثبت للبشرية كحقيقـة ضرورية ونتيجة مستخلصة من الحركة العامة للكون · فهو يخضع لنفس المبادىء · ولو أمكن بيان ما يترتب على هذا التقدم من ازدياد فى السعادة تكون نظرية التقدم قد توطدت . وفى سنة ١٨٦٢ ، ظهر القسم الأول من الكتاب عن المبـادىء الأولى · وخلال العشرين السـنة التاليـة ، ظهر على التعاقب : البيولوجى والسيكلوجى ، وأخيرا علم الاجتماع · ولعل الطريقة التركيبية التى اتبعتها هذه المجلدات عند عرضها الواضح المقنع لما يدور فى العالم قد ساعدت أكثر من أى انجاز آخر — فى انجلترا على أقل تقدير — على الاقتناع باهمية مذهب التطور ، ورفع مذهب التقدم فى نظر عامة الناس الى مرتبة الحقيقة المألوفة ، والى بديهية تستطيع السياسة ببلاغتها الرجوع اليها بطريقة فعالة ·

وتعذر على الكثيرين ممن بهرتهم نظرية سبنسر المهيبة أن يدركوا أن نظريته عن التطور الاجتماعي والارتقاء النفسي التدريجي للجنس البشرى تعتمد على صحة افتراض نقل الوالدين الملكات والاستعدادات ، التى اكتسبوها هم أنفسهم ، الى ذريتهم • واختلف الخبراء حول هذه المسألة اختلافا معروفا • ويحتمل أن يتم حسمها حسما قاطعا يوما ما ، وربما جاء ذلك لصالح نظرية سبنسر، أما نظرية حدوث ارتقاء متواصل للنفس على نحو ما يحدث فى الطبيعة ، فقد لاقت صعوبة واضحة لم تغب عن أذهان بعض نقاد سبنسر ، اعتمادا على احدى الحقائق البارزة في التاريخ التى يتبين منها تقدم كل حضارة عظمى فى الماضى الى نقطة ما ثم توقفها وتدهورها بحيث تصبح فريسة للمجتمعات الأكثر فتوة ، بدلا من أن تتقدم بعد هذه النقطة • أو اذا قدر لها البقاء فانها تصاب بالركود • أى أن القاعدة هى التوقف ثم التدهور ثم الركود • ولن يسهل التوفيق بين هذه الظاهرة وبين الارتقاء الذهنى •

ويسرت كشوف داروين للجماهير الترحيب بفلسفة سبنسر وأمثالها، وتعززت هذه الكشوف بفضل ازدهار علم البلتولوجيا (الأجيال القديمة) وأكداس البينات المادية عن الماضى العظيم الذى عاشه الانسان • وساعد التقدم المتناظر لكل من الجيولوجيا والبيولوجى على احداث ثورة فى نظرة الانسان الى الزمان ، شابهت الثورة التى سبق ان احدثها علم الفلك الكوبرنيكى فى النظرة الى المكان • فلقد اظهر الكثيرون من أهل الفكر وغيرهم استعدادا للمح « أساس معقول للايمان بامكان اهتداء البشرية الى مستقبل أشرف ، استنادا الى التقدم الطويل فى الماضى » ، كما أشار هكسلى •

لا جدال أن الجزء التاريخى المدون من تقدم الانسان الطويل خلال الماضى لن يبدو لأرباب الخيال سارا كله • ولقد عرضه « وينوود ريد » الرحالة الافريقى الشاب فى كتاب نابض بالحياة وصوره كقصة استشهاد، ولكنه كان من أتباع تاريخ سبنسر ، ومن ثم بعث آماله فى المستقبل مشرقة ، فى حين تصور الماضى فى صورة قاتمة • وقرىء كتاب « استشهاد الانسان » الذى نشر سنة ١٨٧٢ على نطاق واسع ، الى حد انه طبع ثمان مرات خلال اثنى عشر عاما • وربما احسب من بين العوامل التى روجت نظرية سبنسر المتفائلة •

لم يؤيد كل الزعماء المعاصرين للفكرة هذا التفاؤل ، فأصر لوتسه على القول (١٨٦٤) « بعدم تغير الطبيعة البشرية » • وفيما بعد ، لم ير مبررا لتغيير اعتقاده :

« لن تصبح البشرية اطلاقا قطيعا واحدا لها راع واحد • ولن تتخذ الحضارة شكلا واحدا مطردا لكل البشرية .. ولن يسود النبل ويشمل الجميع • فلن تستطيع فضائلنا وسعادتنا الازدهار الا وسط الصراع الفعال مع الخطأ • ولو أمكن ازالة كل حجر عثرة سيفقد أبناء البشر بشريتهم ، ويصبحون مثل قطيع من الدواب التي تقتات على الخيرات التي تجود بها الطبيعة ، كما كان الحال في بداية طريقهم » (١) •

على اننا اذا سايرنا سبنسر في رفضه العبارة الخالدة التي أيدها لوتسه مثلما سبق أن أيدها فونتنيل عن عدم تغير الطبيعة البشرية ، فان القول بحدوث توافق في نهاية الأمر سيلقى الاعتراض الآتي : لو صح القول بثبات البيئة الاجتماعية فان معنى هذا تمشيا مع الفرض هو الاعتراف بأن طبيعة الانسان تتغير ، وبأنها تستطيع تكييف ذاتها تدريجيا بالنسبة لها • وبذلك يحدث توازن محدد في نهاية الأمر • ولكن البيئة في تغير مستمر نتيجة لهذه المحاولات بالذات التي يقوم بها الانسان لتكييف نفسه • وكل خطوة يخطوها للتوفيق بين حاجاته وظروفه تحدث تنافرا جديدا ، وتدفعه الى مواجهة مشكلة جديدة • وبعبارة أخرى ، ليس هناك ما يدعو الى الاعتقاد في أنه قد يتحقق توازن في العلاقة المتبادلة المترتبة على نمو المجتمع ، بين طبائع البشر ، وبين البيئة التي يعملون بلا انقطاع على تحويرها • أو حتى للاعتقاد بأنه تتناقص المعاناة الناجمة عن التنافرات بتغير طابعها •

وفي الواقع أنه من المستطاع بالاعتماد على الحقيقة المحايدة للتطور بناء نظرية للتشاؤم مثل امكان بناء نظرية للتفاؤل • وكشف الفيلسوف الألماني ادوارد فون هارتمان اقتدارا وبراعة عند انشائه لمثل هذه النظرية

---

(١) ميكروكوزموس ــ الترجمة الانجليزية ص ٣٠٠ • ظهرت الطبعة الألمانية الأولى (٣ مجلدات) ١٨٥٦ ــ ١٨٦٩ • وظهرت الطبعة الثالثة التي ترجمت الى الانجليزية سنة ١٨٧٦ • كان لوتسه متفائلا من ناحية استمرار الحضارة الحديثة : لن يستطيع أحد ادعاء معرفة المستقبل ، ولكن بقدر ما يستطيع الناس الحكم يبدو أن ضمانات الأمان ضد المبالغات التي لا تستند الى مبرر ، وضد القوى الخارجية التي قد تهدد استمرار وجود الحضارة قد أصبحت أكثر مما كانت في الماضي •

فى كتابه « فلسفة اللاشعور » الذى ظهر سنة ١٨٦٩ • واذا تجاوزنا عن ميتافيزيقيته ونظريته الغريبة عن مصير العالم ، فاننا سنلمح هنا وفى مؤلفاته التالية ، كيف استطاع أحد المؤمنين المقتنعين بالتطور احياء رأى روسو عن وجود تعارض متبادل بين الحضارة والسعادة ، وكيف يعنى التقدم ازديادا فى الشقاء •

ولم تتوافر لتوماس هكسلى نفسه ــ وهو من أبرز شارحى مذهب التطور ــ فى سنواته الأخيرة على أقل تقدير أية نظرة بعيدة التحمس للبشرية : «لا أعرف دراسة تثير الأسى مثل دراسة تطور البشرية، كما هى مبينة فى حوليات التاريخ • فالانسان متوحش • وكل ما هناك هو انه أذكى من سائر الوحوش • وتكشفت حتى أفضل حضاراتنا الحديثة ــ كما اعتقد ــ عن أحوال انسانية لا تحتوى فى طياتها على أى مثل أعلى جدير بالتقدير ، أو حتى عن الثبات ومزاياه » • وربما كان هناك بعض الأمل فى حدوث نهوض كبير،والا «فسيرحب العالم بشهاب رقيق يكتسحه ويقضى على الدنيا وما فيها قضاء مبرما » • وانتهى أخيرا الى الاعتقاد بان مثل هذا التحسن لن يتحقق الا بالمقاومة المقصودة للمؤثرات الطبيعية بدلا من التجاوب معها : « يعنى التقدم الاجتماعى التصدى لنظام الكون فى كل خطوة ، والاستعاضة عنه بنظام آخر يصح تسميته بالنظام الاخلاقى » (١) كيف يستطيع الانسان ان يأمل فى غضون قرون قليلة تحقيق السيطرة على نظام الكون الذى استمرت فاعليته لملايين السنين؟ « ان نظرية التطور لا تتوقع أن يجىء الخير عن طريق المعجزات » •

استشهدت بهذه المقتطفات لكى أبين أن التطور قد يحتمل التفسير المتشائم كما يحتمل تجاوبه مع التفسير المتفائل • وتعتمد على مزاج الباحث الاجابة عن مسالة هل تؤدى الى اتجاه مرغوب فيه أم لا • ففى عصور الرخاء والرضا عن الذات صادف الجواب بالايجاب ترحيبا قويا ، واجتذب مصطلح التطور فى الحديث العام متضمنات القيم التى تنتمى الى التقـدم •

ربما أمكن ملاحظة كيف زاد الرضا بالذات فى هذا العصر نتيجة لشيوع المعرفة العلمية • فمن الملامح الملحوظة للنصف الثانى من القرن التاسع عشر ، التزايد السريع ــ وبخاصة فى انجلترا ــ فى طلب الكتب

---

(١) اكتفى هكسلى بالنظر الى التقدم من ناحية اخلاقية ، فحسب • ولم ينظر اليه من وجهة نظر ايدونية (من ناحية ما يحقق من سعادة) •

والمحاضرات التى جعلت نتائج العلم طريفة، وفى متناول رجل الشارع . واجابة هذا المطلب تجارة رابحة . وفى نفس الوقت ، أثارت هذه المؤلفات الشعبية التى قامت بشرح عجائب العالم الفيزيائى مخيلات أولئك الذين شعروا بأنهم يعيشون فى عصر يعد فى ذاته أعلى مكانة بكثير من أى عصر فى الماضى ، ومن ثم فهو ليس بحاجة للشعور بوطأة أى مخاوف من من التدهور أو التعرض للمصائب ، بل عليه أن يثق فى الموارد التى لا حد لها للعلم ، التى تستطيع تحدى القدر بكل اطمئنان .

(٤)

وهكذا أصبحت فكره التقدم موضع ايمان فى سبعينات وثمانينات القرن السالف ، وربما آمن البعض بها فى صورتها القدرية التى تصور البشرية سائرة فى اتجاه مرغوب فيه مهما فعل الناس ، أو أغفلوا القيام به . وربما آمن آخرون باعتماد المستقبل بقدر كبير على محاولاتنا الواعية . ولكن لا وجود لشىء فى طبيعة الأشياء يحبط الاتجاه التقدمى المطرد غير المحدود ، ولم تسع الأغلبية لاستقصاء مثل هذه النقاط من المذاهب ، ولكنها قبلته فى صورة غامضة ، واضافته الى معتقداتها بكل ارتياح ، فأصبح من مكونات النظرة الفكرية العامة للمثقفين .

عندما ألقى المستر فردريك هاريسون محاضرته البليغة عن « العصر الجديد » فى مانشستر سنة ١٨٨٩ ، وركز فيها الكلام على الايمان بالتقدم الانسانى بدلا من الثواب الالهى للنفس المنعزلة ، استطاعت براهينه التفوق على براهين الوضعيين — الذين خصهم بحديثه — فى الدوائر الأوسع التى اجتذبها .

وأنتجت العقيدة — لأنها ظلت عقيدة رغم ايمان كونت وسبنسر بأنه قد جعل منها فرضا علميا — مبدأ أخلاقيا هاما . ولقد اضطلع الاهتمام بالأخلاف طوال التاريخ بدور الحافز للسلوك، غيرأنه لم يعلن عن وجوده من حين لآخر الا فى صورة واهنة ، وكان له أثر محدود . وبعد ظهور مذهب التقدم ، كان من المنطقى أن يكتسب أهمية أعظم ، بعد أن ازداد الاهتمام بحياة الأجيال القادمة والحرص على تمتعهم بما حرمنا منه من سعادة ، وان كانت جهودنا ومعاناتنا هى التى ستساعد على تحقق مثل هذه السعادة . ولو أومن بالمذهب فى صورته القدرية المتطرفة سيكون من واجبنا حينئذ الاستسلام عن طيب خاطر للتضحيات — من أجل

هؤلاء الأخلاف غير المعروفين ، مثلما يقبل أى مؤمن بالغيرية عن طيب خاطر بالتضحية من أجل أقرانه الأحياء • ولقد بين « وينوود ريد » هذا عندما كتب : « يرتكن رخاؤنا على آلام الماضى • فهل من الظلم اذن أن نعانى نحن أيضا من أجل من سيأتون بعدنا ؟ » • أما اذا اعتقد بأن فى مقدور كل جيل تقرير مصير الجنس البشرى ، اعتمادا على أفعاله البصيرة ، بخيرها وشرها ، حينئذ سنكون مسئولين عن آخرين منفصلين منا فى الزمان وكذلك فى المكان ، ولن يزيد معاصرونا عن نزر يسير من جيراننا الذين ندين لهم بالالتزامات • وربما أمكن استمرار اتباع الغـــاية الأخلاقية التى آمن بها « النفعيون » : تحقيق أعظم قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس • وكل ما هناك هو ان هذا العدد الأكبر سيتضمن ـ كما لاحظ كيد : « أعدادا من الأجيال التى لم تولد بعد أو التى لم تخطر على بال». لم تظهر آثار هذا الامتداد فى القانون الأخلاقى واضحة فى أبحـــاث الأخـــلاق ، بيـــد ان آثاره العمليـــة قد بدأت فى السنوات الأخيرة تعلن عن نفسها •

(٥)

خلال الأربعين سنة الأخيرة ، اخرجت كل دولة متحضرة على وجه التقريب عددا كبيرا من المؤلفات فى علم الاجتماع فيها افترض بوجه عام التقدم بلا حد كمسألة بديهية • وان كان القانون الذى عهد كانط بمهمة البحث عنه الى مفكر من طراز نيوتن ، والذى لم يهتد اليه سان سيمون وكونت ، والذى يقال ان قاعدة سبنسر فى التطور ترتبط به نفس ارتباط قانون الجاذبية بعلم الطبيعة ـ لما يكشف بعد • أما مهمة فحص هذه المؤلفات ، أو حتى القاء نظرة خاطفة عليها ، أو تأمل مدى تأثرها بالنظريات الفلسفية ، فيقع خارج نطاق هذا الكتاب ، الذى يقتصر على الاهتمام بتتبع أصل الفكرة ، وازدهارها حتى أصبحت عقيدة سائدة •

ولو راجعنا ما دار فى بحثنا ، فاننا سنلحظ كيف ارتبط تاريخ الفكرة بازدهار العلم الحديث وبزوغ العقلانية والكفاح من أجل الحرية السياسية والدينية • فلقد عاش الرائدان (بودان وبيكون) فى وقت كان العالم يسعى فيه تحرره من نير التقاليد ، واكتشفا أن الحرية مشكلة نظرية عويصة • وتحددت ملامح الفكرة فى فرنسا ، عنـــدما تشتت التصور القديم للكونيات بفضل انتصار علم الفلك الجديد ، وعندما

تراجعت فكرة العناية الالهية امام جلال فكرة القوانين الثابتة للطبيعة. وبدأ اتجاه يجمع بين التريث والثبات لرد اعتبار مملكة الأرض . وفقدت سيطرتها الأحلام التقليدية لرجال الدين ، وتسلل التعلق بالدنيا مرة اخرى الى أفئدة بني البشر ، ولكن بعد أن صحبه أمل جديد في أن تصبح هذه الدنيا المكان المناسب لحياة الكائنات العاقلة . رأينا كيف نشر بعض المفكرين النابهين الاعتقاد باتجاه جنسنا البشرى نحو السعادة على الأرض (*) ، وكذلك بعض من « لم يحالفهم التوفيق كثيرا وان كان قد توافر لهم قدر لا بأس به من الوقت (**) » . وكان كل هؤلاء الكرادلة العظام ، وحاملو المباخر ممن تدين لهم الفكرة بنجاحها من العقلانيين ابتداء من مؤلف كتاب تاريخ الخرافات « فونتنيل » حتى فيلسوف اللامعروف « سبندر » .

---

* Cunta supercilio mouentis

** Ceux qui veniaient la verre pour pattrie.

خاتمة

تحتم تغلب فكرة التقدم ، فى طريقها الى النهوض والكشف عن معناها ، على عقبة سيكلوجية يصح وصفها بانها «الوهم بوجود نهاية» •

ولن يتعذر تخيل صورة مجتمع بعيدة الاختلاف عن صورة مجتمعنا فى أى مكان غير معروف كالسماء مثلا • أما الأصعب من ذلك فهو ادراك حقيقة ضآلة ثبات النظام الذى نحيا فيه ، وان ذريتنا قد تولد فى عالم بعيد الاختلاف عن عالمنا مثلما يختلف عالمنا عن عالم جدودنا فى العصر البلايستوسينى عند علماء الجيولوجيا ..

وقد كان من المريح ان يتوهم الناس ان هناك نهاية حتمية لهذا العالم.. وربما تعذر على أبناء العصور الوسطى تخيل عدم ابتعاد العهد الذى ستتوقف فيه فكرة يوم الحساب عن اثارة أى اهتمام عاطفى • وفى ميدان النظريات ، يصور هيجل — بل وربما كونت — هذا التصور السيكلوجى، فهما لم يدركا أن مذهبيهما ليسا أفضل حالا من مذهبى أرسطو وديكارت فى عدم امكان نسبة النهائية اليهما • ولعل العلم أكثر من أى شئ آخر ، أو بمعنى أصح التاريخ المذهل للعلم فى المائة السنة الأخيرة ، هو الذى ساعدنا على التغلب على هذا الوهم •

ولكننا اذا قبلنا البراهين التى استندت اليها عقيدة التقدم ، الا يتحتم علينا متابعة لنتائجها متابعة كاملة ؟ • فلو أمكننا الافلات من وهم الاعتقاد فى وجود نهاية ، هل يصح استبعاد الاعتقاد ذاته ؟ • الا ينتظر أن يرغم تيار التغير — الذى يعد التقدم المرادف المتفائل له — فكرة التقدم أيضا على التنحى عن مكانتها المسيطرة التى تتمتع بها الآن مطمئنة بكل جلاء ؟ • نعم سيجىء يوم ، بعد أن تدور القرون ، تغتصب فيه فكرة جديدة مكانة فكرة التقدم كفكرة موجهة للبشرية ، وسيرتفع نجم آخر غير ملحوظ مختف الآن — الى سماء الفكر .

وستخضع المشاعر الانسانية لتأثيره وتستجيب المخططات الانسانية لهدايته ، وستصبح هذه الفكرة المقياس الذى سيعتمد عليه فى الحكم على فكرة التقدم وكل الافكار الاخرى ، وسيجيء فى اعقابهما أيضا اخلاف آخرون .

وبعبارة أخرى ، ألا توحى فكرة التقدم ذاتها بان قيمتها كمذهب، نسبية فحسب ، أى أنها تتوافق مع مرحلة معينة ، وان لم تكن بعيدة التقدم من الحضارة ، مثلما كانت فكرة العناية الالهية فى عصرها فكرة ذات قيمة نسبية توافقت مع مرحلة اقل تقدما نوعا ؟ . أم سيقال ان هذه الحجة مجرد حيلة مشوشة للجدل يقارع بها وسط الظلمات التى اخفى فيها اله هوراس الحصيف احداث المستقبل .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
تمهيد لتشارلز بيرد	٥
مقدمة	٢٩
الفصل الأول – بعض تفسيرات للتاريخ العالمي : بودان وليروا	٥٥
الفصل الثاني – المنفعة كغاية للمعرفة : بيكون	٦٥
الفصل الثالث – الديكارتية	٧٥
الفصل الرابع – مذهب التدهور – القدامى والمحدثون	٨٥
الفصل الخامس – تقدم المعرفة – فونتنيل	٩٩
الفصل السادس – التقدم العام للانسان – الأب سان بيير	١١٩
الفصل السابع – تصورات جديدة للتاريخ – مونتسكيو – فولتير وتيرجو	١٣١
الفصل الثامن – الموسوعيون والاقتصاديون	١٤٣
الفصل التاسع – الحضارة ، وهل كانت خطأ ؟ روسو وشاستيلو	١٥٧
الفصل العاشر – ٢٤٤٠	١٦٩
الفصل الحادى عشر – الثورة الفرنسية : كوندورسيه	١٧٧
الفصل الثاني عشر – نظرية التقدم فى انجلترا	١٨٩
الفصل الثالث عشر – نظرة الألمان الى التقدم	٢٠٥
الفصل الرابع عشر – تيارات الفكر فى فرنسا بعد الثورة	٢٢٣
الفصل الخامس عشر – البحث عن قانون للتقدم – سان سيمون	٢٣٧
الفصل السادس عشر – البحث عن قانون للتقدم – كونت	٢٤٧

الموضـــــوع	الصفحة

الفصل السابع عشر ـ التقدم فى الحركة الثـورية الفرنســـية (١٨٣٠ ـ ١٨٥١) ٢٦٥

الفصل الثامن عشر ـ التقدم المادى ـ معرض ١٨٥١ . . . . ٢٧٣

الفصل التاسع عشر ـ التقدم على ضوء التطور ٢٨٣

خاتمـــة ٢٩٥

تصـــويب

الصواب	السطر	الصــــفحة
بعيد الاحتمال	٢٤	٩٦
التي تعزى	٢	١٠٦
يسبق السطر ١٦	١٧	١٢٢
حدوث ثلاثة مسوقات	١٤	١٢٦
وبذلك يتمتع	٢	١٣٩
التي تثار	٣٠	٢٥٤
فينبغي اختفاء	١٥	٢٨٦

جمهورية مصر العربية

مطبـــوعات
المجلس الأعلى للثقافة
رقـــم
٢٤٩

القـــاهرة
١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٣٨٠٤/ ١٩٨٢

ISBN ٩٧٧ — ١٠ — ٠٠٤٨ — ×

To: www.al-mostafa.com